السنة التاسعة

الجديد

فـكر حـر وإبداع جـديد

aljadeedmagazine.com

ثقافية عربية جامعة تصدر من لندن

شتاء 2024 العدد 101/100

عام جديد
وعدد مزدوج

تحرير التاريخ من الشّر

يوميات وقصائد ودراسات وملف روائي وآخر في أدب الرحلة

ISSN 2057-6005

FUAD HAMDI 2023

هذا العدد

الجديد
aljadeedmagazine.com

مؤسسها وناشرها
هيثم الزبيدي

رئيس التحرير
نوري الجراح

مستشارو التحرير
أحمد برقاوي، أبو بكر العيادي
عبد الرحمن بسيسو، خلدون الشمعة
بيرسا كوموتسي، ابراهيم الجبين
رشيد الخيون، هيثم حسين، مخلص الصغير
فرانشيسكا ماريا كوراو، مفيد نجم
محمد حقي صوتشين، وائل فاروق
عواد علي، شرف الدين ماجدولين
خوسيه ميغيل دي بويرتا

التصميم والإخراج والتنفيذ
ناصر بخيت

رسامو العدد:
أحمد يازجي، ريم يسوف، أحمد قدور
فؤاد حمدي، علا الأيوبي، حسين جمعان
زينة سليم مصطفى، باية محي الدين
محمد إيسياخم، محمد خدة، ياسر حمود
محمد الأمين عثمان، ساشا أبو خليل، آلاء حمدي
عبدالله مراد

التدقيق اللغوي:
عمارة محمد الرحيلي

الموقع على الإنترنت:
www.aljadeedmagazine.com

الكتابات التي ترسل إلى «الجديد» تكتب خصيصاً لها
لا تدخل المجلة في مراسلات حول ما تعتذر عن نشره.

تصدر عن
Al Arab Publishing Centre
المكتب الرئيسي (لندن) UK
1st Floor
The Quadrant
177 - 179 Hammersmith Road
London
W6 8BS
Dalia Dergham
Al-Arab Media Group

للاعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي
للافراد: 60 دولارا. للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.

ISSN 2057- 6005

تفتتح "الجديد" في عددها المزدوج سنة جديدة، واعدة قراءها بالاستمرار بالطاقة نفسها والعزم نفسه لمواصلة انتماء مشروعها للكتابة الجديدة وحرية التعبير من منظور نقدي لا يتوقف عن الكشف عمّا هو مسكوت عنه في الثقافة والاجتماع العربيين، رغم الصعوبات الجمة التي تواجهها في زمن عربي لا تني الحرائق تشتعل في جسده المثخن وتتنقل في جغرافياته وقد طالتها نصال الغريم أكان قد وصل على عربة غازية أو خرج من كهوف الظلام والاستبداد.

"طروادة بألف حصان" عنوان افتتاحية الجديد بقلم رئيس تحريرها. أما مقالات العدد ودراساته فجاءت من أحمد برقاوي "تحرير التاريخ من الشر"، نجيب جورج عوض "حين يغرق السوريون في محاولة تشكيل المعرفة"، فاضل السلطاني "لي هاروود.. العلاقة الديالكتيكية بين المكان والفضاء"، نادية هناوي "خيالية اللامحاكاة"، محمود خضر "المستعاد من سقوط طليطلة"، أبوبكر العيادي "ما وراء انتفاضة شباب الضّواحي في باريس"، عبدالرحمن بسيسو "دفتر يوميات"، ياسمين كنعان "أسلاك كهرباء مكشوفة للريح والمطر".

ضم العدد ثلاثة ملفات، في الأول نشرت "الجديد" تحت عنوان "أهل البحر وأهل اليابسة" فصولاً روائية لكتاب من مصر وسوريا والعراق وتونس هي: تيسير خلف "المسيح الأندلسي"، مفيد نجم "لعبة الأسماء"، فتحية دبش "أرصفة الرّغبات"، وارد بدر السالم "الرجل المئوي"، عواد علي "الفتى الفلّوجي"، عبدالسلام إبراهيم "بوابة الشميسي". وجاء الملف في 30 صفحة.

الملف الثاني وعنوانه "الفيلم القصيدة" ضم حواراً أجرته "الجديد" مع المخرج السينمائي السوري ثائر موسى ومقالة نقدية تحت عنوان "أنشودة سينمائية بصرية" بقلم الناقد محمد جمال الروح عن فيلمه الجديد "مزار الصمت". ويقع الملف في 16 صفحة.

الملف الثالث ويقع في 38 صفحة تحت عنوان "مغامرة رأس البقرة وإستيبانيكو الأزموري: رحلة استكشاف فلوريدا" نص رحلي رائد عني بترجمته وتقديمه في ملف مزود بالرسوم والهوامش الشاعر والناقد عبدالقادر الجموسي.

في الشعر: نوري الجراح "التّفّاحَةُ المَعْطوبَةُ: بيانٌ شخصيٌّ ضدّ الـ24 ساعةً الأخيرة" ، فاروق يوسف "شبح صيفي مناسب للحديقة"، ديزيريه دي ماركو "زهرة الكآبة" يوسف وقاص "الزنزانة الزرقاء"

في المسرح احتفت "الجديد" تحت عنوان "مسرحيون عراقيون في المهجر" بالتجربة المسرحية للكاتب العراقي حازم كمال الدين.

وفي باب نقد ومراجعة الكتب الجديدة: ناهد راحيل "السخرية والمواجهة الرمزية للسلطة" عن رواية منير عتبية في "24 ساعة مسخرة"، ناصر السيد النور "وجوه العنصرية المختبئة" عن كتاب "العنصري في غربته" لهيثم حسين، شادية أتاسي "السخرية السوداء في عوالم رواية "جمهورية الظلام" لفواز حداد، خالد عبدالعزيز "مارتن سكورسيزي وسينما البطل المأزوم"، نهلة راحيل "المتخيل السردي رواية إسماعيل فهد إسماعيل "على عهدة حنظلة".

رسالة إسطنبول: عن المعرض التشكيلي "حروف غامضة - لوحات عربية في إسبارطة التركية" احتفاء بأعمال الفنان خالد الساعي.

تحت عنوان "المعلم الجديد كتابة اصطناعية توليدية" كتب هيثم الزبيدي الصفحة الأخيرة في "الجديد" ■

المحرر

فؤاد حمدي

المحتويات

العدد 94 - أكتوبر/ تشرين الأول 2022

كلمة

النص المستعاد 6
طروادة بألف حصان
نوري الجراح

مقالات

تحرير التاريخ من الشر 14
أحمد برقاوي

حين يغرق السوريون في محاولة_تشكيل المعرفة 22
نجيب جورج عوض

لي هارووود.. العالقة الديالكتيكية بين المكان والفضاء 32
فاضل السلطاني

خيالية اللامحاكاة 110
نادية هناوي

تأريخ

المستعاد من سقوط طليطلة 168
محمود خضر

شعر

التّفّاحَةُ المَغْطوبَةُ 40
بيانٌ شخصيٌّ ضدّ الـ 24ساعةً الأخيرة
نوري الجراح

شبح صيفي مناسب للحديقة 64
فاروق يوسف

زهرة الكآبة 108
ديزيريه دي ماركو

الزنزانة الزرقاء 162
يوسف وقاص

ثلاث قصائد 182
محمد ناصر المولهي

حوار

ثائر موسى 44
الفيلم القصيدة

أنشودة سينمائية بصرية 56
محمد جمال الروح

يوميات

دفتر يوميات 60
عبدالرحمن بسيسو

أسلاك كهرباء مكشوفة للريح والمطر 154
ياسمين كنعان

ملف/ أهل البحر وأهل اليابسة

فصول روائية

المسيح الأندلسي 72
تيسير خلف

لعبة الأسماء 82
مفيد نجم

أرصفة الرّغبات 84
فتحية دبش

الرجل المئوي 86
وارد بدر السالم

الفتى الفلّوجي 92
عواد علي

بوابة الشميسي 96
عبدالسلام إبراهيم

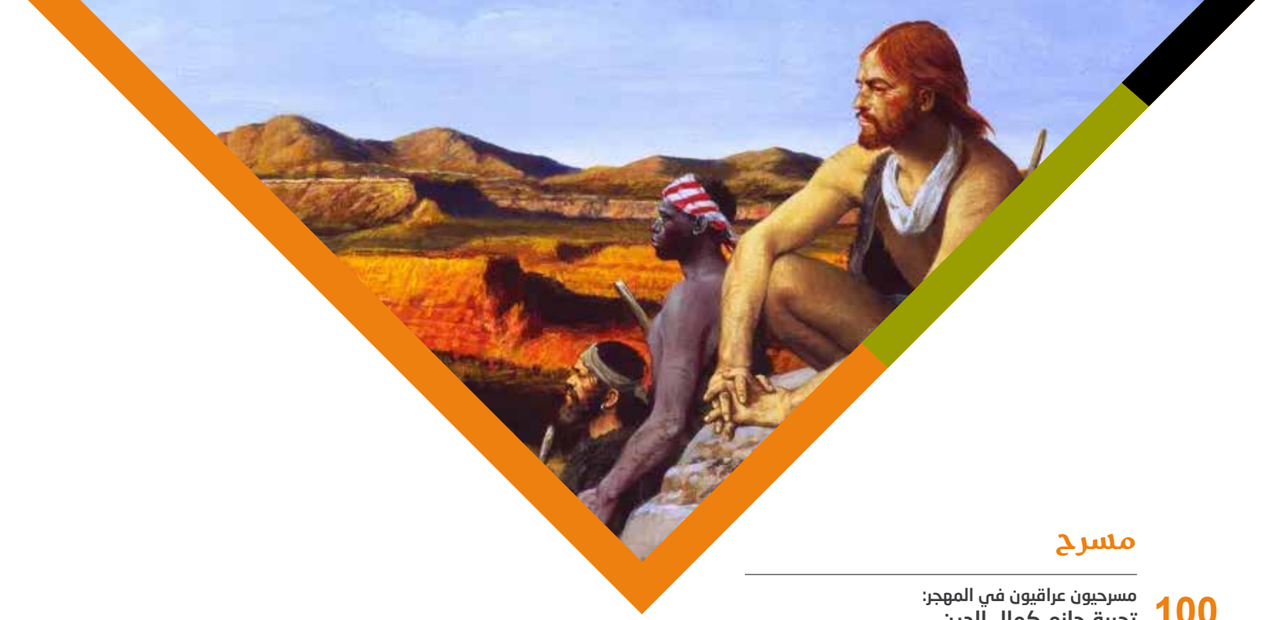

مسرح

مسرحيون عراقيون في المهجر: 100
تجربة حازم كمال الدين
عواد علي

ملف/ مغامرة رأس البقرة

واستيبانيكو الأزموري 116
رحلة استكشاف فلوريدا
الترجمة والتقديم: عبد القادر الجموسي

كتب

السخرية والمواجهة الرمزية للسلطة 186
منير عتيبة في " 24 ساعة مسخرة"
ناهد راحيل

وجوه العنصرية المختبئة 190
العنصري في غربته" لهيثم حسين"
ناصر السيد النور

السخرية السوداء في عوالم "جمهورية الظلام" 196
"في التلقي الجمالي" لمحمد الشيكر
شادية أتاسي

مارتن سكورسيزي 200
سينما البطل المأزوم
خالد عبدالعزيز

المتخيل السردي 204
رواية إسماعيل فهد إسماعيل "على عهدة حنظلة"
نهلة راحيل

رسالة اسطنبول

حروف غامضة 208
لوحات عربية في اسبارطة التركية
احتفاء بأعمال الفنان خالد الساعي
أحمد القرة

رسالة باريس

ما وراء انتفاضة شباب الضّواحي 214
أبوبكر العيادي

الأخيرة

المعلم الجديد 218
كتابة اصطناعية توليدية
هيثم الزبيدي

غلاف العدد الماضي 99/98 -2023

عبد الكريم مجدل البيك

كلمة

النص المستعاد

طروادة بألف حصان

I

قبل الشعر وبعده/ قبل الفاجعة وبعدها

من أين يبدأ الحدث بالنسبة إلى الشعر والشاعر وكيف تكون استجابة الشاعر للحدث عندما يكون الحدثُ صارخاً في وضوحه، ثم ملتبساً وصاعقاً وأكثر إدهاشاً مما في وسع مخيلة صياغته من مغامرة في الحدس وأخرى في التوقع.

كيف يمكن للشاعر أن يكون صاحب قصيدة تنتمي إلى الحدث أو تستجيب إلى الحدث أو تعبّر عن الحدث أو تغامر فيه؟

***

ماذا تريد القصيدة أن تقول لصفوف من الأضاحي/ الشهداء في الأكفان، وصفوف من الأضاحي/ الشهداء وقوفاً في طوابير الحياة اليومية لعرب اللحظة الحاضرة؟

ماذا لدى القصيدة لتقول، ما لم يكن قد قيل، وقد انزاحت ستارة الخطاب ما بعد الاستعماري عن الاستعمار نفسه، وستارة الوطنية عن اللاوطني، والحداثي عن أنياب السفّاح، واستيقظ عرب الجهات كلها على حقيقة أن لورنس العرب مازال حياً، وأن أعمدة الحكمة الاستعمارية السبعة صارت 14. وأن الغزاة الذين كانوا يأتون من الخارج، باتوا يخرجون من تحت عباءة الحاكم، وأن حصان طروادة لم يجلب من الخارج وحسب، ولكنه كان هنا في الداخل أيضاً.

ماذا تقول القصيدة أكثر مما تقوله شاشة التلفزيون بينما هي تقطر دماً.. وما من دهشة أخرى غير دهشة الطفل الذي لم يتكلم بعد، الطفل المتروك لفيلم الكرتون. انتهى الفيلم وجاءت نشرة الأخبار، وظل مندهشاً.. لكن الشاعر، بعد الغداء، على الأريكة الأخرى يقرأ جحيم دانتي أو يتفحص بفضول عارفٍ تغطية مزورة لمهرجان ملوّن، أو خبراً في صحيفة عن أنطولوجيا شعرية بالفرنسية أو الألمانية لم يجد اسمه بين شعرائها. ها هو يغضب. الآن يمكن للشاعر أن يغضب، لأن انعدام النزاهة طاله هو أيضاً رغم مكانته القاطعة في المزرعة الثقافية العربية.

***

بأيّ غضب، إذن، سيذهب الشاعر العربي إلى أرض الحدث التلفزيوني العربي. وفي أيّ فضاء ستخفق أجنحة الشعر وقد احتلت فضائيات الوجوه والأقنعة، ثم الأقنعة والوجوه، ثم الوجوه التي هي أقنعة، الفضاء ومداراته.

***

ماذا ينتظر من الشاعر أن يقول في مشهد الأهوال وقد بات مشهدا عربيا يوميا، ماذا في وسع الشاعر أن يقول في وصف صورته الجديدة..؟

***

ثم ما الحدث بالنسبة إلى الشاعر عربياً كان أم باكستانياً؟ أهو حدث المواطن في أرض إلهية جمعت ثقافة الثقافات وأمة الأمم، أم حدث الإنسان في أرض الإنسان؟

ينزل الفتية في الأكفان وتنزلق الأكفان في الحفر، وبأجسادهم المبلولة بالأمل يوسع الفتية أعماق الأرض. وبعد الدفن تذهب الأم إلى وحشة أيامها المقبلة ويذهب الشاعر إلى قصيدته الطفيفة.

هو ذا حدث في المسافة القاتلة بين القصيدة والمصير.

كذب الصديق لا صديق لميت لو كان يصدق مات حين يموت.

حدث 1

للشهيد وجهان: صورة على حائط في منزل إخوته. ووجه غريب في القصيدة.

حدث 2

يموت الفلسطيني في فلسطين ويموت الفلسطيني في سوريا حيث يموت السوري في سوريا، وبين موت وموت يُصطاد الأطفال المشردون في العالم بواسطة الشباك، ويقتلون ويرمون في القمامة، ويقيدون في دفتر العالم بصفتهم هالكين لا وجوه لهم. هؤلاء الأطفال هم شهداء القصيدة اللاجئة.

***

ليس في الحدث هنا ولا في الحدث هناك على أرض الإنسان. رثائية أخرى يضيفها الشاعر على مراثي العصر، ولا نفخة صدر في القصيدة يودعها عند مصور ويدّخرها لمنبر، ومن ثم هناك على الطرف الآخر من صور الشاعر، ليس يصلح تشوّفٌ جنسيٌّ تكون القصيدة الوسيط الشعري والرسالة المبلّغ، ولا عجمة المفجوع بأمّته وفي قصيدته شكل الاغتراب في أمّة أخرى قرّ فيها التحضّر، وتدبَّرته الأشكال الحديثة، وفي وهم شاعر حَدَثٍ أو حداثيّ أن الخفّة هي كل ما تبقى للكائن. ولكنها أيضاً خفّةٌ مترجمةٌ.

وفي مواجهة كل هؤلاء تلوح لنا عصمة المعتصم براسخٍ، ولا عاصم، فالمخلخَل مما رأى الشاعر في وهمه وظنه بعض الرواسي شعراؤه الأولُ أولى بهذا الشعر.. وهم أهل العمود.

عندما تسود الضعة في الأحداث عار على الشاعر أن يتواضع. على الشاعر أن يجأر بأرواح البشر كلها، وليس بروح مفردة، بروح الإنسان، الشاعر مؤتمن على تلك الروح الكليّة التي تحمي روحه المفردة.

***

بشراسة غير مسبوقة سيكتب الشاعر قصيدته، في الأزمنة السوداء، بفأس، أو بلطة مفجوعة يكتب الشاعر قصيدته، أو يسكت .

***

وإذ يستبد الحدث المروّع بالكائنات أليس مما يسرُّ الإنسان أن يتلفت فيجد خلاصاً ما روحياً وله سحره في الناس، وله ناره الكاوية، ونوره المشع في ظلام ما يحدث.

ليس ضرباً من البلاغة، ولا هو ضرب من اكتشاف البلوغ.. ما أقصد، بل إشارة تعوزني إلى بأس الروح إذ يشتعل في ما لا يوصف من صنيع الشاعر وعمل الكلام، شعر لا يفسِّر حدثاً ليصير تاريخاً ولا يصفه حدثٌ فيبطل فيه اللغز، لغز الوجود الحي، ونار الأمل في الإنسان.

***

في الخمسينات غاص التموزيون في الرموز، وفي الستينات أورق أمل طفيف، وفي السبعينات هاج الشعراءَ تفجّعٌ، وفي الثمانينات والتسعينات انقلبوا على أنفسهم، وتفجّروا كالشظايا، في الجغرافيا وفي النص، وتوزعوا السنةَ قصائد يوم ويوميات وأيام. وها هم بعد وقت لم يطل، ما أخاله طال، يقفون في القرن الجديد على أرض الشك في كل شيء، أرض الحيرة من كل شيء: من القديم ومن الحديث، من الغالب المتزن، ومن الخفيف المرح المشاكس، من المتشظي عن بنيته ومعه جمالياته (المشكوك بها)، ومن المتماسك في بنية (مشكوكاً به)... وقائمة أطول من الأفعال والصفات طال اقتتالها، عن وهم، وهي في العصب من حاجة الشعر إلى التناقض، فهو سداته ولحمته، شعر، وفي وهم الشعراء أنه خارج القراءة، وفي بصائر النقاد مساحات أدركتها القراءة وحارت هي الأخرى بها!

وما أظن هذا إلا حدثاً رائعاً فهو حدث في برزخ بين عوالم، دراما واعدة، ومنقلب يحمل المفاجآت.

***

وبعد تظهير الصورة كم سيبقى منا نحن الشعراء الذين ملأنا صحف الأحداث الجسام بصورنا وقصائدنا وكلماتنا في الشعر، ولم يأخذ كتاب لنا طريقه إلى مكتبة البيت العربي الكبير. كم سيبقى وكم سيختفي من كل هذا الضجيج؟ سؤال في فراغ ما قبل رؤية الصورة: هل نحن أبناء المغامرة، أم نحن انقلابيون، هل نحن جزء من انقلاب فاشل في تاريخ الشعر، أم جزء من سلطة المعرفة بطبائع الأشياء؟

سنّة الأشياء، عمل الطبيعة بنسلها والروح بآفاقها المجهولة، فهل كنا مغامرين أبرياء، أم مقامرين طارئين يلهون بالمعلوم.

***

صور كثيرة جرحت عيني هذا الأسبوع، صور لوقائع دامية نشرت الموت والخراب في بلاد الشام، من حلب إلى غزة، ومن دمشق إلى الموصل، ومن ثم من بغداد إلى طرابلس الغرب. صور طيّرتها وكالات الأنباء، وعبرت التلفزة والفضاء الإلكتروني، وتصدرت الصفحات الأولى من صحف العالم خلال العيد.

أولاً، صورة الجنين وقد طالته شظايا البراميل المتفجرة وهو في رحم أمه، فماتت الأم، وخرج الجنين إلى النور ممزقاً، فولدً نسياً منسياً، حتى من قبل أن يفتح عينه ويبصر النور. من العتمة إلى العتمة. لكأن نور الحياة ونور الحرّية، قدر يقرره الطغاة لا منحة من الخالق.

عبد الكريم مجدل البيك

بعين مفتوحة وأخرى راحت تغمض رغماً عنها، تابعت مقطع الفيديو الذي حمل لي صورة الرضيع الممزق وقد بات دمه خليط دم أمه. ومزق جسده بعضاً من مزق جسدها.

تنفيذ الوصية

" اذهب واضرب العماليق (الفلسطينيين) ولا تقف عنهم بل اقتل نساءهم ورجالهم وأطفالهم ورضيعهم والأبقار والغنم والجمال والحمير ، ولا تبقِ شيئاً حياً".

(من نص وصية الرب لشاؤول-العهد القديم).

توقفت طويلاً عند هذه الوصية الدموية، بينما عيناي تتابعان صورة حفنة من الدواب التي طحنتها قنابل الإسرائيليين المقذوفة على مربع غزة، الأشبه بمعتقل جماعي، لا فرار فيه لهارب من الموت المسلط عليه من فوهة تلك الصفحة في العهد القديم، وقد باتت محرقة العصر الحديث.

وبين هاتين الصورتين، صور شتى من مَقاتلَ ومذابح تمتد من بساتين الشام إلى دجلة والفرات في أرض السواد، وقد باتت الأرض كلها أرضاً محروقة، لا نجاة فيها لطالب نجاة، ولا خلاص لباحث عن خلاص. فالزمر الحاكمة نكرات تقود عصابات تأتمر بأمر

كلمة

الجوار الإيراني، وقد سنحت له الفرصة لضرب حسابات التاريخ في حسابات الحاضر، وخلط زمنها بالزمن الإسرائيلي، واقتطاع حصتها الممكنة من جسد الرجل المريض وقد بات هذه المرة العرب المزقين.

***

دعونا، لا نتحدث في الأخلاق، فهذه باتت أسيرة بيد اللاعبين بأقدار البشر، كباراً وصغاراً عملة باطلة. لنتكلم بالعقل وحده. حالما ينجلي غبار المعركة الأجد، في غزة المغدورة، ستتكشف، لمن لم تكن له عينان ليرى الخيوط التي نسجت فخ المذبحة. سيكتشف العرب أيّ مصالح إسرائيلية وإيرانية تلاقت على دم الفلسطينيين، وكيف حصل أن تفجّر الوضع فجأة في القطاع السجين، بحيث يعاد خلط الأوراق على الرقعة التي تجري عليها المذبحة الإيرانية الكبرى في شعبي العراق وسوريا. على العينين أن تكونا مفتوحتين على أوسعهما، حتى لا تنطلي لا على الفلسطينيين ولا على العرب لعبة اللاعبين بدم أهل الشام والعراق.

لا مناص، من أن نربط ، أقلّه، بين ما يجرى، في كل من فلسطين وسوريا والعراق ولبنان، وحتى اليمن. على السوريين والفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين وحتى أهل اليمن أن يبدوا حصافة كبيرة في فهم آليات الترابط بين ما يجري في الجغرافيات الأربع، وفي مقدم ذلك دور إيران كقوة احتلال مزقت الجغرافيتين السورية والعراقية، وتسببت عن طريق مباشر، وكذا بواسطة عصاباتها المبرمجة طائفيا ومذهبيا، في ما آل إليه حال البلدين الكبيرين اللذين انطلقت من عاصمتيهما دولتان عربيتان إسلاميتان شكلتا الجناح الأقوى للإمبراطورية التي خلفت الفرس والروم.

حسابات الحاضر، غير منفصلة عن تراكمات الماضي، وهو ما يملي على إيران دورها في لعبة خلط الأوراق لتحقيق ما تصبو إليه إقليمياً ودولياً عن طريق تحطيم الانتفاضة الأكثر جذرية في بلاد العرب، وإبقاء سوريا المتوسطية رهينة في يدها وورقة مساومة مع القوى الكبرى، وفي هذا السياق يمكن قراءة دور النظام الثيوقراطي الإيراني ومعه نظام الأسد في اجتراح معجزة توليد خليفة للمسلمين على هيئة مسخ دموي، يستنفر في كل من يراه رغبة خفية في وأد الانتفاضة السورية ومعها المظلومية الشعبية المستجدة في العراق. من جهة أخرى إيران منتفعة تماماً مما يجري في غزة، وهذا مفصل يطول الحديث فيه.

إن أي عزل لما يجري في سوريا عمّا يجري في فلسطين وما يجري في العراق هو ضرب من القصور الفكري إن لم يكن ضرباً من الهرطقة.

***

ولو عبرنا شطر مذبحة غزة، فلا مناص أيضاً، من القول إن تاريخ ثورات الحرية كتب بالدم والدموع والآلام، ولم يكتب بالحبر. أقدار الشعوب استحقاقات لا دافع لها، شعوبنا استسلمت طويلاً لجلاديها، تركت نفسها بكل ما تزخر به من طاقات وإمكانات بشرية ومادية نهبا للصوص أنذال ومجرمين عتاة.

تحكم المستبدون بمصائرها حتى قادوها إلى التهلكة. وكان حريا بهذه الشعوب أن تنتفض وتصنع أقدارها، قبل أن تستفحل بها استنامتها إلى العبودية، واسترخاؤها في الذل والفساد، وتنكرها للشرفاء، الذين واجهوا المستبدين مفردين، على مدار نصف قرن من الصراع الاجتماعي/ السياسي، فاستفرد بهم وطحن أعمارهم تحت أبصار كسلى، لم تدرك في حينه أن المصائر المأساوية لهؤلاء الشجعان سوف تدفع أثمانها باهظةً مروعةً شعوب بأكملها.

***

وعلى هذا المنقلب، فإننا في غزة الشام كما في دمشق وحمص وحلب وغيرها من مدن الشام الغارقة في دمها، عشنا ونعيش الخذلان والتخلي من قبل القريب قبل البعيد. فباتت فاتورة الدم من أعمار فتيتنا باهظة حد التراجيديا التاريخية. تركنا الشقيق لقدره الشخصي، ولم ننتبه أن الدم دمنا. معركة المجتمعات العربية لأجل حريتها للتو بدأت، هل نذكر مرة أخرى بالسنوات العشر التي عاشتها الثورة الفرنسية، حتى أمكنها أن تثبت مبادئها، وتجعلها دستوراً اجتماعياً سياسياً وهادياً لدولة المستقبل؟ هل نذكّر بالسنوات المئة من الحروب الأوروبية لفصل الدين عن الدولة؟ على الأرجح أننا نحن ذاهبون إلى معركة مع الاستبداد والاحتلال وجهي عملة الجريمة ضد الإنسانية، أطول وأشد إيلاماً. ولا خيار أمامنا من خوض المعركة المتأخرة لأجل الحرية، بتحرير الإنسان والأرض معا، بل الإنسان قبل الأرض. حتى يمكننا، مستقبلا، أن نتحدث عن شيء اسمه الكرامة.

إنها عاصفة دموية تشمل الإقليم كله، وفلسطين في قلب العاصفة. أما الحديث عن مصائر العرب جميعا في مجتمعاتهم ودولهم، فله مقام آخر.

إنه لضرب من الجنون أن نستغفل أنفسنا إذ نحاول أن نتفادى فكرة أننا نواجه اليوم، في إقليم الشام والعراق، الحصاد المر لغيبوبتنا الجماعية بعيداً عن الحقيقة، ولتخلّينا الجماعي عن حق الفرد باختيار مصيره، وعن واجبات الفرد بإزاء الجماعة الإنسانية. تركنا بعضنا يواجه قدره مفرداً أمام آلة الطغيان، فإذا بقدره المأساوي يصبح قدرنا الشخصي. وإذا بدمه المراق يصبح دمنا المراق.

***

ولنعد إلى جرح غزة المفتوح، مهما بدت الموازين مطففة لصالح الإسرائيليين نازيي العصر، سرّاق الأرض، ستنكسر هذه الحملة الدموية على شعبنا الفلسطيني، كما ستنكسر حملة إيران وعصاباتها على الشعب السوري، علينا أن نؤمن بإمكان تحقيق هذا الهدف، وأن نعمل لأجله، كل بطريقته. لا أبرّئ معبد الجريمة في قم، وقد ساعدت إيران إسرائيل على إقامة هذه المقتلة، ولسوف تتكشف ولو بعد حين للغافلين منا، أبعاد دور إيران وعمق مصالحها المشتركة مع الإسرائيليين. لم نؤمن بالانتفاضة السورية إلا لأنها حق جماعي للسوريين، ولأننا آمنا، من قبل، بالثورة الفلسطينية وبالحرية والحق والكرامة مطالب مشروعة لبني البشر. ولمن يطالب الفلسطينيين بإلقاء سلاحهم عليه أن يعرفوا أن بندقية الضحية المكافحة لأجل حقها لا يمكن أن تنتزع من يدها إلا إذا همدت تلك اليد، كل ما يملكه الثائر اليتيم لأجل حقه وحريته، هو ثورته ومعها رصيده الأخلاقي.

المعركة ما تزال طويلة، وستبقى البندقية الفلسطينية في يد الفلسطيني حتى استعادة الأرض والحرية والكرامة الإنسانية. هذا منطق التاريخ. البندقية الفلسطينية ليست ترفا، لكن وحدة الصف والموقف الوطني الفلسطيني ضرورة ملازمة، وعلى جميع الفلسطينيين أن يعملوا لأجلها، بعيداً عن منطق الأحزاب والفصائل والجماعات المتناحرة، وإلا فإن العواقب ستكون أكثر من وخيمة.

كأشخاص يمكننا أن نيأس وهذا من حقنا، لكن الشعوب عندما تخوض معارك كبرى لا تعود تعرف شيئا اسمه اليأس. شخصيا بتّ أشعر أن يأس الفرد ضرب من الترف النفسي الذي يستبطن أنانية شخصية لا تكترث بآلام الآخرين.

II

سؤال في الحقيقة الأخلاقية

لم يعد قتلاً منسوباً إلى الفظاعات التي أنزلتها الأقدار في بشر، ولا ثأر التاريخ من أمّة، ولا هزء الزمن من قوم. لم يعد قتلاً، لم يعد

عبد الكريم معجل البيك

مجرد قتل أعمى يرتكبه بشرٌ ظلمةٌ نحو بشرٍ مظلومين، أو كثرةٌ متفاخرةٌ نحو قلة مهيضة الجناح، أو قلّةٌ مأفونةٌ نحو كثرة أسيرة؛ هذا الذي يحدث في أرض العرب.

هذا الذي حلّ في أرض الرافدين وزحف على الشام، فأتى على الطفل قبل أن يكون له ذنب، وعلى المرأة وهي تصنع الحياة، وعلى الشابة والشاب وهما يرسمان بالألوان، وعلى الرجل والشيخ والعجوز التي في سرير أيامها الأخيرة، وأخذ في طريقه الحيوان والحجر، وحتى الهواء، هذا الذي خيّم على العراق والشام، وألغى الحدود بين العقل والجنون، مختطفاً إلى جحيمه المهول جغرافيتين هما مهد في الحضارة وهما في أزمنتنا الحديثة أرض الفكرة العربية.

هذا الذي يحدث في المشرق العربي جعل العرب كلهم في مصيدة الأمم. إنه لأمر دُبِّر بليل.

***

بيد المستبد الصغير المأجور عند أمم أخرى اختطف الاستبدادُ، الفكرة العربية وأفسدها. أما وقد تصدعت دولة الطغيان، وتشقق كرسي الطاغية وتهدّمت جدران قلعته عن حريق ودمار يحيطان بها كسوار، فهل نترك الفكرة التي طالما كانت عروتنا الوثقى، وحلماً وهّج خيال الأجيال المتطلعة إلى مكان تحت الشمس لأمّة لم تكن مهملة، ولكنها كانت صانعة حضارة. هل نستعيد الفكرة العربية ولا نتركها مخطوفة، أم نتنكر لها نحن أيضا، ونعمل فيها تحطيماً، ونكون شركاء لمن طالما كان ديدنهم تحطيمها وتفكيك عرى الثقافة العربية والاجتماع العربي، إما لثأر قومي قديم، لبس اليوم لبوس العمامة السوداء، ونادى أشباح التاريخ لتكون صاحبة الثأر من نسلنا الحاضر، أو تحصينا لمشروع لصوصي أقام هيكلا أسطورياً على أنقاض حياة واقعية، ثم رفع بينه وبين العالم جدارا يحميه من قوة الحقيقة.

ها نحن، إذن، شعوب يفترسها غزاةٌ وطغاة وأمّة تنهبها أمم. ولا خلاص من دون اعتراف نسلنا بقوة الحقيقة.

***

وما كان للغزاة أن يبلغوا عتبة البيت ويطأوا بساط الأهل، ويُعملوا السكاكين والبلطات في أعناق الفتية والأطفال، لولا أن الاستبداد أدخل حصانه الخشبي إلى ساحة المدينة وصرنا نتلهى على كراسي المقاهي في حلّ أحجية الحصان وأحجية الاستبداد، فمنّا من سمّاه المستبد العادل، ومنّا من امتدح بدعته الغريبة، ومنّا من نافق وهو عليم، ومنّا من حملته صرخته العزلاء إلى أقبية العذاب والموت.

***

أما وبات الأعداء بين ظهرانينا، وصاروا الحكام الآمرين، يديرون الحرب ضد الناس، ويُنْطِقون الدمية التي أدخلت الحصان إلى البيت، بوصفها صاحبة الأمر، إن في دمشق أو في صنعاء أو بيروت أو العراق، فإنّ زمنا "عربياً" مزيفاً يقدّم لنا نفسه، الآن، ويطالبنا بأن نحني رؤوسنا للغزاة ونرضخ لما حدث، أو فالمصير المشؤوم.

الاثنين 7 سبتمبر 2015

III
طروادة بألف حصان

هل بقيت هناك فرصة لكتابة مقال جديد في التراجيديا الإنسانية؟ مقال يقول جديداً؟ هل بقيت في القاموس كلمات لم يبللها الدم؟ كلمات العقل وكلمات الوجدان، كلمات البيت، وكلمات الطريق، كلمات القاتل والمقتول والمتفرج، ومعها دموع القاموس، كلها غسلت، مراراً، بالدم، ولم تتوقف المذبحة، لتعيدنا كلماتنا وأوهامنا وحقائقنا إلى هاوية التاريخ، وأساطير الغروب. مصعوقين بفكرة الزمن الذي لا يتحرك، الزمن الذي، إن تحرك، فإنما هو يتقهقر بنا إلى الوراء، حيث يربض حجر الإثم الذي كسر به الإنسان رأس الإنسان ليكتب أمثولة الدم.

كأننا في قدر أعمى!

ولا خلاص من هذا الشرك الدموي.

هل بقيت هناك فرصة لإنقاذ ما تبقى؟ هل بقي ما يمكن إنقاذه من روح الفكرة وجسد الإنسان، وقد أطبقت السماء على الأرض، وأظلم الوجود؟ فلا فكر يضيء، ولا أمل يلوح.

ها هي الخارطة، من طرفها في الشرق إلى طرفها في الشرق، تحترق، والبشر، مرة أخرى، يلوذون بالجبال، ومن ورائهم الطوفان. لا ينفلق الصخر ليفتح طريق النجاة لهارب، ولا ترحب الأسطورة بالأقدام المرتجفة فتؤويها إلى كهف، لا كهف يعصم هاربا من الطوفان، في هذا المضارع الدموي، وما من مصير آخر أدنى من الهلاك.

من حلب إلى غزة ومن بغداد إلى دمشق، الزلزالُ يشقِّق الجسد، فيخرج العدوّ من جسد العدوّ، ويخرج العدوّ من جسد الشقيق، فلا تبقى في كتاب الشرق صفحة إلا ومزّقتها أختها، ولا يبقى في أديم الأرض ملمح إلا وفيه قبر لجماعةٍ دفنتها جماعةٌ، وأثر صار أثراً بعد عين.

ينشق الجسد عن نفسه وينهال على نفسه ببلطة الوجود. طوفان من الدم يحمل المقتولين والقتلة إلى هاوية واحدة. دم الإثم يخالط دمَ الحرية، ودمُ البراءة دمَ الجريمة. ومن وراء أقنعة الزمن المضارع، ها هي الكاليغولات والنيرونات تتطاول بأشباحها ومناجلها، كلاب جهنم وأبالسة الجحيم تملأ هذا الشرق، وهولاكو الذي نام في كتاب البيت يرسل أنياب التاريخ في بدن الحاضر.

ماذا يكتب الكاتب، وقد صارت كل كتابة محواً؟

كيف يكتب الزمن الجديد نفسه، وقد بات شرق الأرض بمدنه التي عمّرت التاريخ وأورثت البشر اللغة والمعبد وحبوب القمح حطاما يكتب حطاماً؟

أهي ظلمة العقل أم لعنة الجغرافيا؟

من فلسطين المتروكة في الحطام إلى سوريا المتروكة في الحطام، لا تسمع الأرض سوى أنين الأشلاء، ونحيب الشآميات. أهي لمعة سيف العدو ووجه الغريم بلا شبهة، أم هي طروادة بألف حصان؟

لا تشاؤم العقل ينفع، ولا تفاؤل الإرادة، لا جفاف النظرية ولا اخضرار الشجرة. ها قد استهلك القتلة والمقتولون الأمثولات كلها، وأفلسوا بمصارعهم نظريات العالم.

قاتل يقتل ليفوز بالغنيمة، وقاتل يقتل ليفوز بالعدم. أهكذا يكتب الشرق نفسه، ولا يملّ من التكرار؟

عصبيات وشيع وجماعات، نحلل وملل، وأقوام تتزيّى كلها بأزياء الشرق، وتقرأ كتابه، ولا تشتمّ في قصصه وحكمه وأمثولاته سوى رائحة الدم.

وعلى شاشة عملاقة لمستشرق عبقري: عرب وفرس وكرد وحطام يهود، آل بيت وساكنو خيام، آشوريون وإيزيديون. شرق تهبّ عليه رياح السموم، وسفينة تطفو على سطح دمها.

وبين حجري الرحى: خطبة الرب لشاؤول قاتل العماليق، ووصية الخميني لنسله الفارسي، تطحن المقتلة أعداءها، الأغيار، هادمي هيكل سليمان وإيوان كسرى. هو، إذن، ثأر الماضي من الحاضر، وانتقام الاشباح من الأحياء. هكذا تبدو الحكاية مرة، ومرات براميل من الدم لقاء براميل من النفط، وقطعة من كتف المدين ثمنا لدين الدائن. والخلاصة: شرق تغرب الشمس في خاصرته الرخوة، لتشرق، أبدا، من وراء البحر على غرب يحصي خسائره وأرباحه بالبراميل. صفِّ الكراسي وجلس يتفرج على حريق اسمه الشرق.

ماذا يكتب الكاتب بعد هذا عن الأمل الذي لا بد منه؟

9 آب 2014

ما سلف هو ما نشر قبل عقد من الزمن، والسؤال الآن: أهو جموح الوعي، أم جمود الزمن ما يجعل اللغة تسبق التاريخ وتنطق بما سيحدث؟

عبد الكريم معجل البيك

فؤاد حمدي

مقال

تحرير التاريخ من الشر

النزعة الذئبية والغباء العاطفي في غياب الأنا واستبداد النحن

أحمد برقاوي

ما زال السؤال مطروحاً على البشرية: هل الإنسان خيّر أم شرير؟ هناك من يعتقد بأن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان. إذا كان الإنسان يستأنس بعواء الذئب في البرية ويرتعب من صوت إنسان، على قول الشاعر العربي الأحيمر السعدي: "عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى، وصوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ"، وإذا كان الإنسان في حقيقته ذئباً لأخيه الإنسان فإن العيش بين البشر أمر مستحيل دون لجم الذئبية فيهم والتي ترتدي أشكالاً متعددة من العنف. لهذا، ولكي يكون التعايش ممكناً بين الناس، فقد صاغ البشر جملة من القيم المشتركة، وصارت مع الأيام جملة من المعايير يتوجب الالتزام بها. فقيم المحبة والإيثار والتعاطف والسلم والأمان والتعاون والصدق والوفاء وما شابه ذلك من قيم، فضلاً عن ذمّ الكذب والخداع والقتل وكل أنواع الإيذاء، كل هذا من أجل الحدّ من الذئبية.

والحق أن الاستسلام لاستمرار الشر الواقعي بكل صوره الواقعية والممكنة، أمر يمنح الشر القدرة على إفساد الحياة المجتمعية والبشرية. ولسنا في حاجة إلى أن نضرب الأمثال عن حضور الشر في عالمنا قديمه وحاضره. بل إن التأمل في حال عالمنا المعاصر شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، يخلق من الدهشة ما لم يخطر على بال، فشرقنا العربي غارق في محنة الاقتتال الذي يرتدي ثوب الاقتتال المذهبي، ومن النادر أن تجد مكاناً في العالم لم يشهد حالات عنف أيديولوجي أو قومي أو ديني. والاستسلام لهذا الشر، كما قلنا، لا يليق بالعقل الإنساني، ولهذا فإن العقل لا يني يخوض معركة البحث عن المشترك الإنساني، عن القيم المشتركة، و الدفاع عنها، والسعي لأن تتحول إلى نمط حياة للبشرية.

وإذا كانت الأهداف الكبرى ذات الطابع الإنسانوي بطيئة التحقق، وصعبة، فإن هذا يجب ألاّ ينتج تشاؤماً لدى النخبة والفاعلين الاجتماعيين، بل على العكس، يجب أن نوطّن الإرادة الخيّرة على عدم اليأس و القنوط. والسؤال الحقيقي الذي ما زال سؤالاً ممضّاً: كيف تأتّى أن تصبح الأيديولوجيات، بما هي نتاج العقل، أساساً لتحطيم القيم المشتركة بين الناس؟ وقس على ذلك، كيف صار الدين الممتلئ بالقيم الخيرة أساساً للصراعات بين المختلفين؟ لا شك أن الجواب عن هذا السؤال سهل جداً عند أهل العقل: الصراع على الثروة والرغبة في الهيمنة واحتكار السلطة والعصبيات على أنواعها كل ذلك يقف وراء ما نراه من شر. غير أن هذا الجواب لا يقول لنا شيئاً عن الخطاب الذي يقف وراء هذا الشر. فخطاب القتل أخطر من القتل نفسه. من هنا تبرز أهمية تأسيس خطاب متجاوز للخطابات المؤسسة للوعي الزائف بالحياة. خطاب يصوغ المشترك الإنساني على نحو يكون فيه قادراً على خلق نزوع إنسانوي نحو التعايش بلا خطاب يبرر العنف والقتل والهيمنة والحروب.

النزعة الذئبية والشر الواقعي

أُعرّف الشر: بأنه كل سلوك بشري يقصد إلى إيذاء الآخر وإفساد الحياة وإشاعة السوء في المجتمع، ولهذا فالقهر والإذلال والسرقة والقتل وكل اعتداء على الإنسان مهما كان شكله ومضمونه هو شر. وأخف أنواع الشر هو الشر الفردي، كالسرقة والاعتداء على الملكية وإهانة الفرد والقتل، لأنه من قبيل الشر الذي تضع القوانين حداً له عبر العقوبات الرادعة، بل إن هناك من يعتقد أن أصل الدولة قائم في حاجة البشر إلى سلطة تمنع الأفراد من ارتكاب الشر. والحق لا معنى للدولة أصلاً دون

فؤاد حمدي

وظيفة مواجهة الشر دون الحفاظ على الحق، وليس باستطاعة أيّ دولة أن تلغي سلوك الشرير إلغاء مطلقاً. أما أسوأ أنواع الشر فهو ذاك الشر الصادر عن مؤسسة منظمة لإنتاجه وممارسته. وأسوأ أنماط مواجهة شر كهذا هو التكيف مع وجوده. لا أتحدث هنا عن الشر الصادر عن عصابات منظمة داخلية أو عابرة للحدود، بل عن ذلك الشر الذي يتخفى وراء أيديولوجيات ظاهرها خير نسبي.

فباسم الموت لأميركا والموت لإسرائيل والموت لليهود تجري عملية استباحة وطن وقتل المئات من أهل اليمن، إن كل الشرور تختبئ وراء شعارات رنانة وباسمها تُرتكب أسوأ أنواع الشر ألا وهو القتل. ولكن التكيف مع الشر شر هو الآخر، وذلك اعتقاداً من المتكيفين مع الشر أنهم يقللون من جرائمه وأخطاره. ولعمري أن أمراً كهذا لا يزيد الشر إلا شراً، ذلك أن أصحاب الشر كلما وجدوا أنفسهم بمأمن من مقاومة شرهم ازدادوا شراً. بل المجتمع نفسه الذي يسكت عن الشر الذي يمارس عليه تكيفاً سيجد نفسه في لحظة لا يستطيع معها تحمل حجم الشر الذي يرزح تحته، ولكن بعد أن يكون الشر قد أنشب أظافره في جسد المجتمع وصار اقتلاعه يتطلب ثمناً باهظاً.

وبالنتيجة نقول إن مقاومة الشر أقل تكلفة بشرية ومادية بكثير من التكيف معه، وما التكيف مع الشر إلا توفير لأسباب جعله حالة مقبولة فيحطم انتشار الشر إذ ذاك عالم القيم الإنسانية، ويصبح كالكلب المسعور والمتروك لنشر سعاره بين الناس. وهناك نوع آخر من الشر المدمر للمعايير والذي بدوره يدمر مؤسسات المجتمع والدولة.

فمن المعروف أن الجامعة والقضاء مؤسستان فاعلتان في إنتاج النخب المحافظة على سيرورة العلم وعلى سيرورة الحق، وليس هناك الآن دولة بالمعنى الدقيق دون وجود هاتين المؤسستين وفق المعايير الأرقى لهما. فحشو الجامعة بكادر لا علاقة له بالعلم والمعرفة والأخلاق الأكاديمية وشيوع ظاهرة الفساد فيها نوع من الشر الذي سيلقي بظله خلال أجيال على مجمل الحياة التعليمية والعلمية والمهنية، لأن الجامعة هي مصنع لإنتاج النخب، والتلاؤم مع شر كهذا يزيد من شر تدمير الصعد التي أشرنا إليها، فالطبيب والمهندس والمدرس و... و... الذين يتخرجون في جامعة جرى فيها تدمير المعايير الجامعية إنما يعودون هم ليمارسوا التدمير مرة أخرى، فالشر لا ينتج إلا الشر. وقس على ذلك القضاء المرتبط أصلاً بالحق والحفاظ عليه وفق القانون، فمن أسوأ الشرور التي يتعرض لها الحق هو فساد أداة تحقيق الحق وتحولها إلى وسيلة لسلب الحق، والحياة مستحيلة من دون أن تكون هناك مؤسسة تحافظ على الحق بكل أشكاله.

والمتأمل بجميع الدول التي شهدت وتشهد الانتفاضات سيجد نفسه أمام دول دمرت فيها السلطات الحاكمة الجامعة والقضاء. وأخيراً لا بد من القول إن قوة المجتمعات وتماسكها وازدهارها رهن بمنع الشر من أن يكون حالاً طبيعية، وأن تقاومه إن هو ظهر بأيّ صورة من الصور، لأن التكيف مع الشر يؤدي إلى الهلاك.

المقدس وحروب الذئاب

حين يتأمل البشر ماضيهم البعيد أو ماضيهم القريب، أو واقعهم المعيش، فإنهم يقيمون مع هذا كله علاقة ما، علاقة ذم أو مدح، علاقة تبنٍّ أو إنكار، علاقة حبّ أو كره، غير أنّ كل هذه العلاقات لا تفضي إلا إلى مواقف، وليس إلى فهم وتفسير وتجاوز. والنقد في حقيقته عملية فهم وتفسير وتجاوز، وهذه مهمة من أعقد المهام وأصعبها من جهة، وهي مهمة تقوم بها نخبة توافرت لديها العدة المعرفية المنهجية من جهة ثانية. كما يتطلب هذا تجاوز القيل النقدي اليومي القائم على المناكفة والذم والذي يحلو لبعض الأقلام أن تمارسه، ويبدو أن ليس باستطاعتها ممارسة سواه.

ففي قراءتنا للخطابات الأيديولوجية العربية التي لم ينج منها مثقف عربي في مرحلة من مراحل حياته، والتي مازال هناك نمط من المثقفين العرب غارقاً فيها، سنجد بأنّ الأيديولوجيات العربية الكبرى، مع كل ما فيها من اختلاف، هي ذات روح دينية واحدة. فعفلق وبكداش وقطب وسعادة الرموز الأربعة الدالة على الأيديولوجيات التي وجدت طريقها إلى الناس وإلى عالم المثقفين بخاصة، ما زالت حاضرة على نحو ما.

من أين تأتّت هذه الروح الدينية التي وسمت هذه الأيديولوجيات آنفة الذكر؟ الجواب هو أن جميع هذه الأيديولوجيات تنطوي على الحقيقي المطلق الكامن فيها والذي أخذ شكل المقدس. فالمقدس في الأيديولوجيا يمنح الأيديولوجيا روحاً دينياً. الأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة بالنسبة إلى المؤسس وأتباعة فكرة مقدسة، ونافية لأيّ فكرة ما عداها، وبعث الأمة حقيقة لا شك فيها من وجهة نظر أصحابها، في ما فكرة سوريا للسوريين والسوريون أمة تامة هي الفكرة المقدسة لأنها الحقيقة المطلقة عند سعادة. وقس على ذلك فكرة حتمية الانتقال إلى الشيوعية التي ورثها بكداش عن لينين وستالين، ولم تختلف الفكرة الإسلامية

- السياسية التي طورها سيد قطب وطبع حركته بها، حيث نعيش عصر الجاهلية الذي يجب تجاوزه بفكرة الحاكمية لله بوصفها فكرة مقدسة مطلقة .

الأيديولوجيات العربية الكبرى، رغم ما فيها من اختلاف، ذات روح دينية واحدة، من عفلق إلى بكداش وقطب وسعادة، وكل هذه الأفكار تعينت بأحزاب أيديولوجية متقاتلة وهي: البعث، والصورة المصرية له في الناصرية، السوري القومي - الاجتماعي، الشيوعي، الإخوان المسلمون.

كان الصراع بين هذه الأحزاب دموياً. لم يكن صراعاً على السلطة فقط، وإنما صراع أفكار مقدسة متناقضة. حسبنا أن نذكر الصراع الدموي بين الشيوعي والبعث في العراق، والصراع بين السوري - القومي والبعث، بين البعث والإخوان المسلمين، وبين الإخوان المسلمين والناصرية.. وهكذا. لقد حول أصحاب الحقيقة المطلقة أحزابهم إلى ديانات، والأهداف إلى مقدسات، والمقدسات إلى أداة نفي الآخر، بهذا الوعي الديني بالحياة والسياسية يموت الحوار، لأن المقدسات لا تتحاور .

القضية الأخطر تكمن في أنّ جميع هذه الأيديولوجيات ذات وعي - فاشي دكتاتوري بالسلطة كما دللت التجربة التاريخية. لقد حكم البعث بلدين من أهم بلدان العرب، سوريا والعراق، وأقام نظامين دكتاتوريين أمنيين عسكريين مغلفين بمبدأ الحزب الواحد. بل وظهر الصراع على السلطة داخلهما بأبشع صوره. صراع وصل حد إعدام الرفاق للرفاق. لم يتوانَ حكم الأسد من زج الرفاق في السجون لمدة ربع قرن، ليموت بعضهم داخل السجن. ويقال بأن صدام أعدم بيده رفاقه الذين اختلفوا معه عبر الكلام.

ولقد شهد اليمن الجنوبي حرباً بين القبائل الماركسية التي اصطف بعضها مع علي ناصر، وبعضها الآخر مع سالم البيض. وكان أن أعدم الرفاق قبلها سالم ربيع علي.

ففكرة الحاكمية لله التي طرحها سيد قطب، وأصبحت حاضرة في جميع أشكال الأيديولوجيات الدينية من الإخوان إلى داعش، وهي غير قابلة للإصلاح، بل قابلة للتجاوز وإقامة القطيعة معها، إذ لا يمكن أن تقوم دولة على أساس ديني ولا على أساس فكرة الحاكمية لله. ولا يمكن أن تقوم دولة بناء على حكم الحزب الواحد مهما كانت أيديولوجيته.

قس على ذلك موت الفكرة الشيوعية التي لن تعود إلى الحياة مرة أخرى، فالعدالة والإنصاف ما عادا مرتبطين بالدعوة إلى الفكرة الشيوعية. والأمر ينطبق على الرسالة الخالدة والسوريين أمة تامة .

لا يمكن أبداً تجاهل أخطر أنواع المقدسات الأيديولوجية ألا وهي الصهيونية، هذه التي نشأت في أوربا وتتأسس على خطاب ديني عنصري يعود إلى ثلاثة آلاف عام مضت. إذا لا يمكن تفسير العنف المطلق لهذه الأيديولوجيا ألا بوصفها حالة تعود إلى عصر الهمجية.

إنّ استعادة أهداف العرب الدنيوية عبر السياسية المعبرة عن مصالح العرب، مصالح الإنسان العربي في خطاب خالٍ من الأوهام الأيديولوجية ذات الإهاب الديني هي مهمة المفكر المهجوس بحياة العرب ومستقبلهم الآن. أي إن نقد الأيديولوجيات لا يعني الإطاحة بتناول مشكلات الواقع العربي، بل في إعادتها إلى جدل الإمكانية والواقع والاختلاف والحوار والتفكير العقلي.

المشكلة التي نواجه هي أنّ بعض الناس يقاتلون ويُقتلون ويَقتلون ويموتون من أجل أوهامهم، بل ويخربون الحياة.

على العقل أن يعتلي منصة الحياة، واضعاً نصب عينيه الكفاح من أجل الحياة. الحياة فقط، وليس جعل الحياة في خدمة الأوهام.

الغباء العاطفي

يشير مفهوم الذكاء إلى أشكال متعددة من القدرات عند الإنسان، كالقدرة على المحاكمة العقلية، والقدرة على الاكتشاف، والقدرة على التلاؤم، وقد اغتنى هذا المفهوم أكثر بإضافة الذكاء العاطفي.

ويشير الذكاء العاطفي إلى تلك القدرة على التعاطف مع الآخرين، والعلاقات المهذبة والنبيلة تجاههم، والإيثار والاحترام والصداقة والتعاون والنجدة وهي صفات يكتسبها الفرد عبر الثقافة والتعلم.

ولا شك أن استعدادات البشر لامتلاك الذكاء العاطفي متفاوت كما هو الذكاء الاجتماعي والذكاء المعرفي والإبداعي.

وعكس هذا كله الغباء العاطفي؛ فالحقد والكره وقتل الآخر والتشفي بعذاباته والفرح بآلامه هو الغباء العاطفي. والغباء العاطفي من أخطر الظواهر على وحدة المجتمع وصحته النفسية والأخلاقية.

ويكون هذا الخطر محدوداً إذا ظل في حدود قلة من الأفراد، ولكنه يصبح خطيرا إذا اتسع وانتشر بين الجماعات. لأن الغباء العاطفي يعني موْت الآخر.

النزعة الذئبية والغباء العاطفي

إن السلطة المستبدة هي المدرسة الأهم لتخريج الأغبياء العاطفيين؛ فالعاملون بأجهزتها متخصصون مهرة في الغباء العاطفي ومدرّسون أكفاء في تعليمه. ومنتسبو هذه المدرسة وخريجوها لديهم استعداد فطري لاستيعاب دروس أساتذتهم وقدرة عجيبة على ممارسة مهنتهم، فالعنف الذي يمارسونه على الآخر إذا ما طال به الزمن، وإذا ما طال العدد الأكبر من السكان، فإنه يولد مع الأيام كائنات مشوهة عاطفياً، وعاجزة عن أن تشعر بآلام الآخرين.

وإذا ما ترافق عنف المستبد مع انتشار حال الفقر بين السكان توافر الشرط الأخطر لتلبد العواطف تجاه الآخر. فتظهر عندها عصابات السلب والنهب بل والقتل المعبرة عن الغباء العاطفي.

وتواجه شعوبنا العربية خطر نمط من الغباء العاطفي قلما شهدته من قبل، ألا وهو الغباء العاطفي للجماعات الطائفية المتعصبة والعنفية التي تتكئ على خطاب ديني مشوه، وتخرج كل ما في غبائها العاطفي من حقد على الآخر.

فمشاهد العنف الراهنة من عنف الصهيوني إلى عنف الأصولي إلى عنف الدكتاتور العسكري الريفي يدرك ماذا يعني موْت الآخر وماذا يعني خطر الغباء العاطفي.

ولعمري إن تحصين المجتمع ببث ثقافة التسامح والتعاطف والانتماء والتعاون المعشري بوصفها ثقافة الدولة نفسها أمر في غاية الأهمية، بل إن الذكاء العاطفي ليس معلماً من معالم رقي الفرد فقط، وإنما مظهر من مظاهر الرقي والتقدم الإنساني أيضاً، فانتصار النزعة الإنسانية بكل ما تنطوي عليه من قيم مطابقة هو في نهاية الأمر انتصار الآخر وانتصار الآخر يعني بأنه أصبح قيمة عليا. ولما كان كل إنسان هو أنا وآخر في الوقت نفسه فإنه لا يمكن العيش إلا في عالم تسوده قيم الذكاء العاطفي.

هنا بالذات تبرز أهمية الدولة بوصفها عقداً اجتماعيا، وهي التي تعزز دور الأسرة والمدرسة والإعلام بكل أشكاله والأدب والفن والموسيقى في تعميم قيم الذكاء العاطفي لخلق جيل سويّ لا يكون عرضة في المستقبل لتشويه أصحاب الغباء العاطفي.

النزعة الذئبية والكره

يُعرف الكره بمقت الآخر، فالعداوة والبغضاء متعددة الأسباب ومختلفة في التعبير. إنه نقيض الحب. لا شك بأن الكره، بوصفه نقيض الحب، ليس سوى ثمرة الحب نفسه. فحين أعلن بأني أكره فإني أعلن في الوقت نفسه بأني أحب نقيض ما أكره. فالذي يكره ماهية الدكتاتورية والدكتاتور وطغام الدكتاتور فإنه يحب الحرية واحترام الإنسان، إذاً: للحب أولوية على الكره. والطغام الذين يكرهون المتمرد الحر فهم ينطلقون من حبهم لذواتهم التي لا معنى لها بدون الدكتاتورية. فالإنسان لا يكره إلا ما لا يحب، فكرهه صادر عن حب نقيض ما يكره. وهذا يعني ليس كل حب أمراً محموداً، فالتمييز بين حب وحب تمييز قيمي وأخلاقي، فارتباط الحب بمفهوم الفضيلة يحدد ماهية الحب. وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فإن الحب كينونة عاطفية وعقلية وجمالية وأخلاقية. لكن الثقافة العربية تنطوي على مثلب خطير جدا ألا وهو العداء للأنا وكرهها، ولهذا يعوذ العرب من الضمير المنفصل أنا وتقول العامة "أعوذ بالله من كلمة أنا" ويتعوذون من الأنا كما يتعوذون من الشيطان.

ودعوني أقول لمن يرى الأنا شرا مستطيرا إن الشر في بلادنا كامن في غياب الانا واستبداد النحن والهُم. في غياب الأنا التي تفكر والتي تختار والتي تتحرر والتي تحلم والتي تتمرد. بل إن ألد أعداء الأنا هو الطاغية المستبد الذي يسعى دائما لجعل الناس قطيعا خوفا من الأنا الحر. والقطيعية هي صورة موت الأنا. ولولا هذه القطيعية لما كان هناك حركات أصولية إرهابية، ولما كان هناك عي طائفي متعصب. لولا الأنا لما احتفل الوجود بالثائر الذي أعلن أنه يريد. لو كان هناك انتصار للأنا لكان هناك انتصار للحرية والأحرار. لو كان هناك انتصار للأنا لما كان هناك قطيع يمشي وراء المستبد. لما كان هناك تحطيم لقيمة الإنسان .

وإذا كان بعض الناس يكرهون الأنا لاعتقادهم أنها والأنانية شيء واحد فهم مخطئون. لأن حضور الأنا هو بالضرورة حضور الآخر بوصفه أنا. واعلموا أن انتصار الحرية مستحيل دون انتصار الأنا. لأنك حين تعلن "أنا" تعلن في الوقت نفسه حضور الذات المتلئة بالوجود. لكن كره الآخر هو عدوان، كره الآخر والتعبير عن هذا الكره بوصفه وعياً زائفاً بالذات وبالانتماء، صار وسيلة وضيعة لتحقيق شهوة الحضور الزائف هو الآخر. وهو تعبير عن القصور العقلي من جهة، وعن الغباء العاطفي من جهة ثانية، وعن الجهل المعرفي من جهة ثالثة. حب انتمائك القومي لا يتأسس على كرهك لقومية أخرى، واعتدادك الطائفي لا معنى له بكرهك لطائفة أخرى، وسعادتك بدينك لا تعني النيل من أديان الآخرين وكرهها. وبحثك عن الحضور لا يمر بكره من يمتلك الحضور والنيل منه. حين أبدع اليوناني فن المسرح، رأى بأن الحياة ليست سوى تراجيديا وكوميديا، وفي ضوء هذه الرؤية

قسموا المسرح المعبر عن الحياة إلى مسرح كوميدي هدفه الإضحاك، وبعث السرور في النفس، ومسرح تراجيدي حيث تنتهي المأساة بموت البطل. لكنهم لم يلتفتوا إلى مسرح الوقاحة في الواقع، حيث لا يقوم بطل بمهمة الإضحاك، ولا آخر بمهمة الإبكاء، بل ينتج القرف والتقزز من وجود أبطال الوقاحة الذين يكرهون الفضيلة والإنسان. والحق إن اتحاد الكره بالوقاحة ينجب خطاب العداوة بكل أشكالها، وبخاصة العداوة العنصرية التي هي ذروة الكره الإنساني. ليس هناك سبب وجيه للكره إلا ذاك المتعلق بالشر، والشر هو كل سلوك مقصوده أذية الآخر وسلبه حقه في الحب والحرية والحياة. ولهذا الدكتاتورية شر، والاحتلال شر، والطائفية شر، والاعتداء على الآخر شر، والحسد شر. والأشرار كل من ينتمون إلى هذه الشرور ويمارسونها.

هل تحرير التاريخ من الشر ممكن؟

إذا كان الإنسان في حقيقته ذا طبيعة ذئبة فإنّ العيش بين البشر أمر مستحيل دون لجم الذئبية فيهم، والتي ترتدي أشكالاً متعددة من العنف. وحتى يكون السلْم والصلح بين الناس ممكنين، فقد صاغ البشر جملة من القيم المشتركة، صارت مع الأيام جملة من المعايير يتوجب الالتزام بها .

الاستسلام لاستمرار الشرّ الواقعي أمر يمنح الشرّ القدرة على إفساد الحياة المجتمعية والبشرية فقيم المحبة والإيثار والتعاطف والسلم والأمان والتعاون والصدق والوفاء وما شابهها، فضلاً عن ذم الكذب والخداع والقتل وكل أنواع الإيذاء، كل هذا من أجل الحد من الذئبية.

ولقد اشترك في صياغة هذه القيم بأحكام واضحة حكماء ما قبل الميلاد والفلاسفة والأنبياء، وصيغ بعضها في جملة قوانين ملزمة للسلوك.

لكنّ البشرية لم تبرأ من الذئبية ومظاهرها، فما تزال الحروب منذ نشأة المجتمعات حتى الآن مستمرة، سواء أكانت حروباً أهلية أو حروباً بين الدول، وأيضاً الصراعات على الثروة لم تنته؛ بل أُضيفت إليها الصراعات الناتجة عن المعتقدات والأيديولوجيات النافية لبعضها، وفي الحقيقة؛ إنّ القوة والمصلحة ونزعة الهيمنة والتسلط ما تزال أكثر التعبيرات عن الذئبية البشرية، سواء تعينت هذه الذئبية في سياسات الدول أو في جماعات عنفية، أو في أنظمة مستبدة حاكمة.

والسؤال الحقيقي الذي ما يزال حاضراً: كيف تأتى أن تصبح الأيديولوجيات، بما هي نتاج العقل، أساساً لتحطيم القيم المشتركة بين الناس؟ وقس على ذلك، كيف صار الدين المتلئ بالقيم الخيرة أساساً للصراعات بين المختلفين؟

لا شكّ في أنّ الجواب عن هذا السؤال سهل جداً عند أهل العقل؛ الصراع على الثروة والرغبة في الهيمنة يقفان وراء ما نراه من شرّ، غير أنّ هذا الجواب لا يقول لنا شيئاً عن الخطاب الذي يقف وراء هذا الشرّ؛ فخطاب القتل أخطر من القتل نفسه.

من هنا تبرز أهمية تأسيس خطاب تاريخي متجاوز للخطابات المؤسسة للوعي الزائف بالحياة، خطاب يصوغ المشترك الإنساني على نحو يكون فيه قادراً على خلق نزوع إنسانوي نحو التعايش، بلا خطاب يبرر العنف والقتل والهيمنة والحروب .

ينطوي الخطاب المؤجج للحروب على سرديات تاريخية تجعل منها ومن نتائجها مصدر عزة قومية، وكتب التاريخ المدرسية مليئة بهذه السرديات.

في المقابل؛ ينطوي التاريخ على وقائع كثيرة تدل على جهود البشر في الوصول إلى التعايش السلمي؛ فالبشرية لا تستطيع العيش انطلاقاً من انفجار الذئبية؛ بل إنّ الحروب، سواء كانت حروباً أهلية أم حروباً بين دول، غالباً ما انتهت بأشكال من الموافقات التي اصطلح على تسميتها "الدساتير" و"المعاهدات".

وبالتأكيد، إنّ هناك أمثلة لا تحصى في التاريخ عن استعادة السلم بعد الحرب، وتضرب العلاقة الفيتنامية - الأميركية أكبر مثال على ذلك، ولسنا في وارد العودة إلى أسباب هذه الحرب ومساراتها؛ بل يكفي القول إنّها استمرت لفترة من الزمن، وخلّفت من القتل و الدمار في فيتنام ما لم تخلفه أيّ حرب في تاريخ الفيتناميين؛ حيث فقد الفيتناميون بين ثلاثة إلى أربعة ملايين قتيل، وأحرقت مساحات شاسعة من الغابات باستخدام الأسلحة الكيمياوية، فضلاً عن الدمار الذي لحق بالبنية التحتية، والمآسي التي نتجت بعد الحرب عن الفقر والفقد، وأيضاً مقتل ما يقرب من ستين ألف جندي أميركي.

واليوم؛ نشهد علاقة تحالف أميركي - فيتنامي، ورفع الحظر عن تصدير الأسلحة الفتاكة عن فيتنام، وعلاقات اقتصادية ذات منفعة متبادلة؛ فقد زار أوباما فيتنام لوضع اللمسات الأخيرة على المصالحة التاريخية، وفي العام الماضي؛ رست أكبر حاملة طائرات أميركية على السواحل الفيتنامية، وقيل إنّ ذلك كله يأتي من مصلحة مشتركة تجاه الصين، وبمعزل عن الأسباب التي دعت إلى المصالحة الفيتنامية - الأميركية، فإنها مصالحة جاءت بعد سيول من الدماء وركام من الدمار. وقد أثبتت بين أميركا وفيتنام؛ أنّ التحرر من الماضي الذي يبعث على التعصب شرط لتحرير التاريخ من الشرّ.

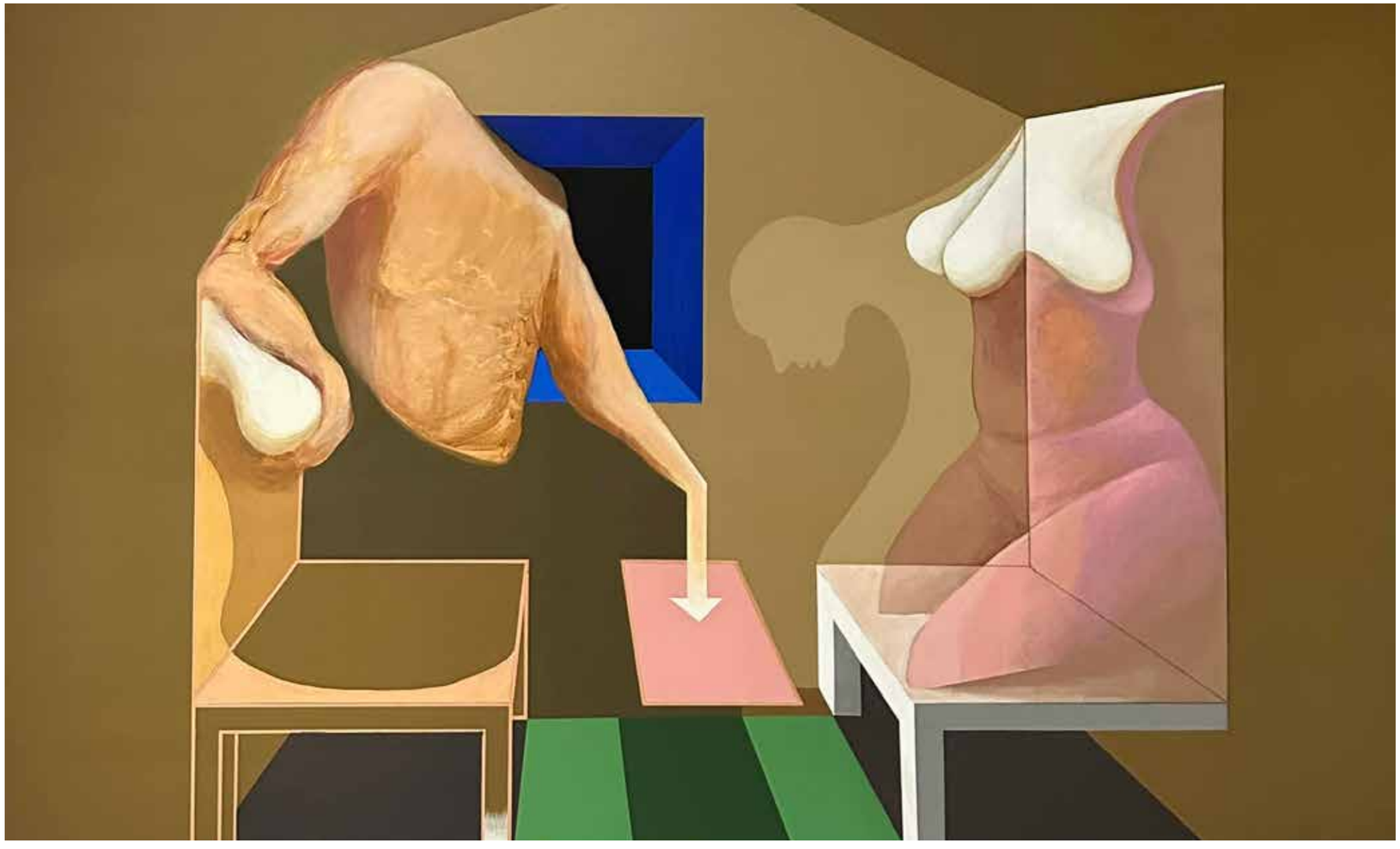

فؤاد حمدي

مفكر فلسطيني من سوريا مقيم في الإمارات

صفوان أحلان

مقال

عن الطوائِف والطائفية في سوريا:

حين يغرق السوريون في محاولةِ تشكيل المعرفة

نجيب جورج عوض

دُعيتُ مؤخَّرا لأشاركَ في ندوة عن موضوع الطائفيّةِ في سوريا من قِبلِ فريق من السوريين الذين شكلوا مركزا للدراساتِ في إحدى بلدانِ اللجوء، بعد أن هربوا من المذبحَة التي ارتكبها نظام الأسد في سوريا خلال العقد الماضي. وقد جاءَت دعوتي من ضمن دعوات وجِّهَت للعديد من السوريين ومن كافَةِ الخلفياتِ والتوجهاتِ والاختصاصات (أو عدمها) كيما يتداعوا للحوار حول الطائفية وخطرها في المشهد السوري. إنَّ تجربة المشاركة في المنتدى المذكور ومراقبتي لمقاربات وأداء مُنظمي الندوة والمشاركين بها، وتفاعلي مع المقاربات والأفكار والمُقتَرحات والتَوصيات التي خَرجوا بِها هي ما يَدفَعُني لكتابة هذه الورقة اليوم.

هذه الورقة هي أطروحَة مُختصرَة ومُبسَّطَة حول موضوع الطائفية ومقاربته معرفيًا في سياقِ المشهدِ السوري. سيبدأ طرحُها أولا بعرضِ لِفكرَةِ "الطائفية" في ضوءِ مقاربتها من قبلِ الفريقِ المنظم للمنتدى المذكور في الأعلى. من ثم ستصل إلى النظَرِ في ما فات فريق المنتدى المذكور أن يبحث فيهِ، بل إنَّه تعاملَ معه كتحصيلُ حاصل بديهي لا يحتاج إلى الدراسة. وستنتهي الورقة بملاحظات ومقاربات ختامية عن علاقةِ السوريين بمسألة تشكيل المعرفة ومنهجياتِها.

عن الطوائِف والطائفيّة

انطلقَ مُنظِّمو الندوة عن الطائفيّة المذكورة من فرضيَّة قوامُها تسليم ناجِز لا جِدالَ فيهِ، ولا حتى تمحيص، بأنَّ هناكَ مشكلة طائفيّة في سوريا وأنَّ علينا مواجهة خطر هذه المشكلة ومحاربته بكافة الوسائل المتُاحَة العلمية والثقافية والفنية والإعلامية والسياسية والقانونية والمجتمعية. ما فاتَ المنُظِّمينَ هو أنَّ العَقلَ العِلميَّ الأكاديمي يُفرِّقُ ما بين "وجودِ طوائِف"، من جِهة، و"وجودِ الطائفيةِ"، من جهة أخرى.

في أدبياتِ ودراساتِ حقولِ العلومِ الاجتماعيَّةِ، وخاصَّة السوسيولوجيا وسوسيولوجيا الأديان، هناك تَفريق مفاهيمي بُنيوي ما بين "الطوائف" الإنجليزية (confessions) و"الطَوائفية" بالإنجليزية (confessionality)، من جهة، و"الطائفية" بالإنجليزية (sectarianism)، من جهة أخرى. ينطلقُ علماء الاجتماعِ من إدراك قواعديّ بأنَّ وجودَ طوائف في مجتمَع ما لا يعني بالضرورةِ والبداهَةِ وجودَ مُشكلة "طائفيّة"، وإن كانَ نشوءُ الطائفيةَ يتطلَّبُ تواجَد حالة من التَعدُديَّة الطوائفيَّة. يَدلُّ مصطلَح "طوائفية" على وجودِ عِدَّةِ طوائف، دينيَّة أو عقائديّة أو إيمانيَّة، تتعايَشُ معا في سياق بشريٍّ سوسيولوجيٍّ وسياسي وتثاقُفي وأنثربولوجي واحِد وجامِع، وتتشارَكُ مع بعضها البعضِ في الوجودِ على نفسِ الجغرافيا، وفي الانضواءِ تحتَ نفسِ المِظلّةِ الدولتيَّةِ والتعاقدات المدنيّةِ والدستوريَّةِ الناظِمَةِ لوجود الدولة والمُحدِّدَة لقواعِد ومكوِّناتِ ماهيتِها. تألُّف مجتَمع ما من عِدَّةِ طوائف أمر صحيٌّ وبَنَّاءُ في أي وجود جماعي بشري، فهو دليلُ على التنوع والتَعدُّدِ واتساع آفاقِ المجتمعِ المذكور. الطوائفيَّة، إذا، حالَةُ وجوديّة سوسيولوجية وأنثربولوجية، قبل أن تكون دلالة دينيّة أو عقائدية أو إيمانية، وهي لا تُمثِّل مشكلة أو معضلة ينبغي التغلب عليها أو خطرا يجب مواجهته. من جهة ثانية "الطائفية" مُصطَلَحٌ لا يُرادُ بِهِ الحديثُ عن حالة وجود سوسيولوجيَّة أو بشرية جمعيّة، وإنما تَسميَةُ "منطِق

أيديولوجي". الطائفيَّةُ هي ذاك الفِكر الأيديولوجي القائِم على مفهومِ المغايرَةِ والتضادِ والثُنائيَّةِ التَعاكسيّةِ (binarism) مع الآخر والتَشديدُ على التَغايُرِ عنهُ من خِلالِ التَمَسُّكِ بهويَّة عقائديَّة أو أيديولوجيَّة ذاتُ جذور دينيَّة أو إيمانيّة أو دوغمائيَّة تَضع الذات في مُفارقَة ديالَكتيكّة مع الآخر وتُشدِّدُ على ذات المرء من خِلال فرضِ تضادّ صدامي وتنافُري، بل ونِزاعي، مع ذاتِ الآخر. الطائفيَّة، من هنا، مَصدَرُ شِقاق ونِزاع وعداوة وحالةُ "وجود يكمن في فناءِ الآخَر"، بِحُجَّةِ التَنوُّع والاختلافِ والتَعدُّد. تصبحُ تِلكَ الأخيرة مَصدرَ خَطَر وأذيَّة وتَهديد في حَالةِ انتشارِ حالَة "الطائفيّة"، بعد أن كانَت مَصدرَ وأساسَ وقاعِدة الغِنى والوحدَةَ والتَعايُشَ التَعاضُديَّ والثَراءَ المُجتَمعيَّ في حالةِ "الطَوائفيّة".

انطلاقا من هذا التفريق المفاهيمي الإبستمولوجي القاعدي، يُفرِّق الباحثون في حقول العلوم الاجتماعيةِ ما بين المُجتمعاتِ التعدَّديَّةِ والمُجتمعاتِ التأحيديَّة (monistic)، وما بين الحِراكِ الوجودي (الطوائفية) والأيديولوجيا (الطائفية)، ويُدركونَ أنَّ لِكل ظاهرَة إرهاصات وإسقاطات هرمنيوتيقيّة وتَحليليّة ومَعرفية مُتباينَة لا ينبغي الخلط بينها ولا اختزالها ببعضِها البعض ولا مُعاملتها وكأنها مُعطيات وحيثيّات واحِدَة وَحيدَة.

لا يبدو أن الفريق السوري المُهتم بمَسألة الطائفية ينطلق من هذا التَفريق الإبستمولوجي والمفاهيمي المذكور، إذ أنّه يَفتَرِضُ، بشيء من الإصرارِ يخلو من التساؤل (لا يسأل الفريق، "هل في سوريا طائفيّة؟" بل ينطلق من التسليم بوجودها)، بأنَّ سوريا تُمثِّلُ حَتما نموذجَ مُشكلة طائفية، فَقَط لأنَّ أفرادَ الجَماعاتِ الطَوائفيّةِ المُختَلفَة في سوريا باتت تَنتَبهُ لِهَوياتِها الطوائفيّة وقد نكصَت نحو انتماءاتِها الضيقَّة، ما تحت السورية بشدَّة مؤخرا ولأسباب عديدة شديدةِ التعقيد، لا علاقةَ لها بالضرورةِ بمشكلةِ "الطائفية". ليس لدينا على أرض الواقِع السوري التاريخي أو المعاصِر أي دليل علمي (علمي بمعنى أنه مُستقى من عملية بحث ميداني يقوم على جمع نوعي للمعكيات (qualitative data collection) يُمكن أن نستدلَّ عَليهِ ميدانيا أو تجريبيا في الوقت الحالي يقول لنا بأنَّ المشهَد السوري فيهِ حالَة "طائفية" موَصوفَة ومُثبتَة مَعرفيًا، ولا يكفي تَصاعُدُ حَديث السوريين عن هوياتِهم الطوائفية بحّدِّ ذاتِهِ ليقودنا إلى مثل هذا الاستنتاج علميا.

لقد سبقَ لي في دراسات نشرتها باللغتين العربية والإنجليزية وأن شرحتُ بأنَّ المشكلة التي عانَت منها سوريا في الخمسين سنة الماضية هي مشكلة أخرى أكثر خطورة وتدميرا من "الطائفية". لقد لَعِبَ النظام الأسدي البعثي في سوريا على وتَرِ الطوائِف ومارسَ توظيفا لِهويّةِ قياداتهِ السياسيةِ والعسكريةِ والأمنية العلويَّة طوائفيا في خلقِ مِخيال طوائفي تمييزي أدى إلى شرخ البنية المجتمعية داخل البلد وأجبرَ الجمهور السوري على الاحتماءِ واللجوءِ إلى حلقاتِ انتمائهِ الدينيّةِ أو العِرقيَةِ أو الإثنيَّةِ أو الدوغمائيَّةِ الضيقَّة. كل هذا صحيح جدا. إلا أنَّ النظام الاستبدادي المذكور لم يُحَقِّق هذا من خلال تطبيقهِ لأيديولوجيا "الطائفية"، بل من خِلالِ فرضهِ لما أسميته أنا في أطروحتي "سياسة الأقللة" (minoritization policy)، والتي قامَت على عزلِ وتهميشِ ومن ثمَّ مراقبَةِ وترهيبِ وقَمعِ وتهجيرِ، بل وتصفيَة، كُل مواطِن أو مواطِنة سوريّة لم يَنصاعوا لمَشروطاتِ النظام ولم يُوالوه في أجِنداتِه ومَشاريعهِ ورؤاه ورَفَضوا أن يُصبِحوا جُزءا من نظامِ الفسادِ والإفسادِ والاستبدادِ والقمعِ والتفرقةِ والدوغمائياتِ الذي شكَّله هذا النظام. عِملَت سياسة الأقللَة تِلك (نظِّرَ لفكرة "سياسة أقلَلَة الذات" في الفكر الأوروبي الفلسفي المعاصر كل من جايل جولوز وفيلكس غوتاري) على مُعامَلَة أولئكَ غير المُنصاعين (والذين شكَّلوا الأكثرية الساحِقَة من المواطنين السوريين) كأنهم أقليَّة (أي أقلَلَهُم) مَحرومَة من حقوق الإنسان الطبيعية ومَمنوعُ عليها العيشَ كما يعيش البشَر الأسوياء. إلا أنَّ النظام لم يُمارِس تلك السياسَة على طائفَة بعينها ولمصلحَة طائفَة أخرى بعينها، بل طبَّق سياسة الأقلَلَة المذكورة على كل من خَالَفهُ ورفضَ

صفوان أصلان

الولاءَ لهُ من كافَّةِ الطوائفِ والمَذاهِبِ والأديانِ والثقافاتِ والعِرقيّاتِ/الإثنيّاتِ والقوميّاتِ التي يَذخَرُ بِها المَشهَد السوري. ولهذا امتلأت سُجون النِظام بمعتقلينَ من السنَّةِ والعَلويين والمَسيحيين والدُروز والأكراد والأرمن وعَرب العَشائرِ، ومن تيارات اليسار واليمين والوسط والاعتدال والتطرف السياسية والحِزبية كذلك. هذه ليست حالة "طائفية"، بل حَالةُ "سياسَة أقلّلَة" تعرضَت لها وعانَت مِنها كافَّة الطوائفِ معيارها "من مع النظام الحاكم ومن ضده" وليس "منْ من تلك الطائفة ومن ليس منها".

من هِنا، فإنَّه من غير الدقيق علميا أو مَعرفيًا أن نفترضَ أنَّ ديناميكيّاتِ التفاعُلِ بين الطوائِف، مهما بلغَت من التعقيدِ ومهما اعتوَرها من تَحديّات ومَعوقات وهَفَوات عبرَ الزمن، أو أنَّ ديناميكيّاتِ تَوظيفِ التَعدّد الطوائفي في خِدمَةِ أغراض سُلطويَّة (كما فعلَ النِظام) أو تَعبويَّة وثَوريَّة (كما فَعلَت أطيافُ المعارضَة الإسلاميَّة في المَشهد السوري الثوري المُعارِض خلال الثورة والمأساة في البلد في العقد الأخير) أو هويَّة براغماتيّة (كما تفعل أفواج كثيرة من السوريين اللاجئين حول العالم اليوم)، تكفي كلها كَدلائلَ على وجود مُشكلَةِ "طائفية" في قَلبِ المَشهَدِ السُوري المأساوي الحالي. على الأقل، لا تَكفي تلك الحالات لتَدُلَّ على أنَّ هذا هو المَرَض الذي يأكل الجَسدَ السوري المَريض. سوريا لا تُعاني بَعد من مُشكلَة "الطائفية"، والثورَةُ والنِزاعُ فيها لم يَقوما على قاعِدَةِ عَداء واقتتال وحِراب بين طوائفَ بقَضِّها وقَضيضِها وبكُلّانيّتها ضد بعضها البَعض. هذه قراءة تنطلقُ من افتراضِ أنَّ المشهد السوري هو نَموذجُ "حَرب أهليّة"، كما تُصِرُّ دوائرُ البَحثِ والإعلامِ والسياسَةِ الغربيّة وبَعضِ العربيّة على القولِ بجهل وتَشويه غير علميّ إطلاقا للوقائِع. المشهد السوري لم يكن حَربا بين طائفَة حاكِمَة (العلويون) ضِد طائفَة مَحكومَةَ (السُنَّة)، معَ وقوع باقي الطوائِف في أتون النارِ المشتعلَة بين الطرفين (الطوائف المسيحيّة). العَلَويّينَ لم يكونوا حُكَّام سوريا "كطائفَة"، بل هناكَ أطراف وشَرائح من الطائفَة العلويّةِ حَكمتَ البلد واستبدَت بالعبادِ "باسم" الطائفة العلوية وقد استَخدَمَت تلك الطائفةَ كدَريئَة وكأداة أمنيّة وعَسكريّة لِحماية نفسها، معاقِبَة ومؤقلِلَة كل من رفضَ هذا الدور من أبناءِ تلكِ الطائِفة. المسيحيون لم يكونوا تحت حمايَةِ النظام ورعايته كطائِفَة، بل استخدم النظام المؤسَّسَة المسيحية الدينيّة في تلميعِ صورتِه وبناءِ سمعة وهميَّة له في الخارج. السُنَّة السوريون لم يَكونوا ضحايا النظام المُستَبد "كطائفَة" بِعينها، بل كانت هناك شرائح فاعِلَة ومُتنَفِّذه تتمتَّعُ بالثَراءِ والسَطوةِ والنُفوذِ في المشهد السوري من الطائِفَةِ السنيّة تحالفت مع النظام المذكور ودعمته وموَّلتهُ وأمَّنَت لهُ المشروعيَّة المطلوبة بل والمِظلَّة الإقليميّة، وهي لم تكن تَنطِق باسم طائفَة برَمَّتِها. الثورة والنِزاع في سوريا قامَت ما بين شَعب مُؤقلَل برُمَّتهِ ضِد طُغاتِهِ والمُستبدينَ بهِ؛ شَعب قامَ بكافَّةِ أطيافِهِ وطَوائِفِه (كل حسبَ وجودِه وإمكاناتهِ العدديَّة) ضِد من احتمى بِواقِعِ التَعدُّدِ الطوائفي في سوريا. ولكن، لم يَكُن هُناكَ حَرب طائفيَّة في سوريا (أو حربُ بين الطوائف، ولا حتى بين السوريين: كان هناكَ حرب على السوريين وضِدَّهُم)، ولهذا سوريا لا تُعاني من الطائفيّة، وإن كانَت تُعاني من أمراض وكوارث أفظعَ وأشنَع وأكثرَ تَدميرا وسَوداويّة.

عن أي سوريا نتحدَّث في ما يتعلَّق بالطائفيَّة؟

سأكتفي بما سُقتُ إليهِ عن "الطائفيَّة" و"الطوائفية" في سوريا في القسم الآنِف وأمضي إلى مسألة أخرى كنت قد أشرت إليها أثناء مشاركتي في الندوة المذكورة دون أن تَلقى مُداخلتي أي آذان صاغيَة من الفريقِ المُنظِّم. في مُداخَلَتي تِلك، شَبَّهتُ ما نَعملهُ في النَدوةِ، كَمُنظِّمينَ وكَمُشاركين، بفَريق من الأطبّاء الجرّاحين تبادلوا الآراء بإسهاب حولَ المَرَضِ (المُفتَرَض) الذي يَتعاملونَ معه ويَعملون على معالجتِه في جسدِ مريض يَستلقي أمامهَم في المستشفى. إلا أنَّ فريق الأطباء هذا انهمكَ كُليًا في دراسةِ وتوصيفِ المَرَضِ المَزعومِ وسُبُل مُعالجَتهِ دون أن يَصرِفَ وَقتا في التَفكيرِ بدراسَةِ "المَريض" في حَدِّ ذاتهِ وفي تَوصيفِ حالتهِ. ما أردتُ قولَه من خلال التَشبيه الوصفي الذي استعرته هو أن علينا كَدَارسين لِمُشكِلَةِ الطائفيّةِ واحتمال وجودِها في سوريا ولِكَيفيّةِ مُعالجَتِها أن نتأكدَ ما إذا كانَت "السوريا" التي نَتحدث عنها هي "السوريا" الواقعيَة المَوجودَة على الأرض، أم "سوريا" أُخرى مُتخيَّلَة ومُفترَضَة، قُمنا بافتراضِها قَبليًا (apriori)، بالمَعنى الكانطي (من عمانوئيل كانط) للكَلِمَة، كيما تَخدُمَ الموقِفَ مُسبَق الصُنع الذي افترضناه استقرائيًا قبل أن نَبدأ بعَمليّةِ الدِراسَةِ والفَحص. إن كُنَّا ننطلق من "سوريا" مُفترَضَة وليس من سوريا الواقِع، فإنَّ أي تَشخيص وأيِّ عِلاجٍ وحَلٍّ نَقترحهُ سيَكونانِ عن سوريا المُتخيَّلَة ولن يَخدُما، أو يَشفيا، سُوريا الواقِع. من هنا، فإنَّ سؤال "ما هي سوريا اليوم وأي سُوريا يَبدو أننا سَنشهَد في المُستَقبَل؟" لا يَقلُ أهميَّة، بل هو أكثر قاعديَة، عن سُؤال "كيف نُعالِج مُشكِلَة اما في سُوريا؟". يَدعو فريقُ البحثِ في الطائفيّة المذَكور في مُقترحاتِهِ العَملانيّة وتَوصياتِهِ إلى تَطويرِ خِطابٍ وطنيّ جامِع وهُويّة وطنيّة سوريّة. مثل هذه الدعوة توحي بأنَّ "السوريا" التي يَتخيّلها الفريق المذكور وينطلق من افتراضِها هي سوريا من الماضي، وليس الحاضِر. إن كافَة المعطياتِ والدلائل العلميَّة والبحثيّة المتوفِّرَة بين أيدينا عن المشهد السوري من عام 2011 وحتى اليوم تقول لنا كباحثينَ وكمراقبينَ بأن سوريا الواقعيَة لم تَعُد "وطنا" ولا "دولة" (هي ليست "دولة فاشلة"، مثل العراق ولبنان مثلا، ولكنها "لا-دولة") منذ عام 2015، وأنها لن تصير كذلك في المُستقبل الآتي. هناك قرارُ حَلّ سياسيّ لسوريا، ابتكرتهُ منذ ذاك العام مطابِخ صناعَة الأفكار الغربيّة (الأميركيّة على وجهِ الخُصوص) وتَبنَّتهُ وقررَت تَطبيقَهُ دوائر صُنعِ القَرارِ الدوليَّة (مُلاَّك أسهُم الشرق الأوسط)،

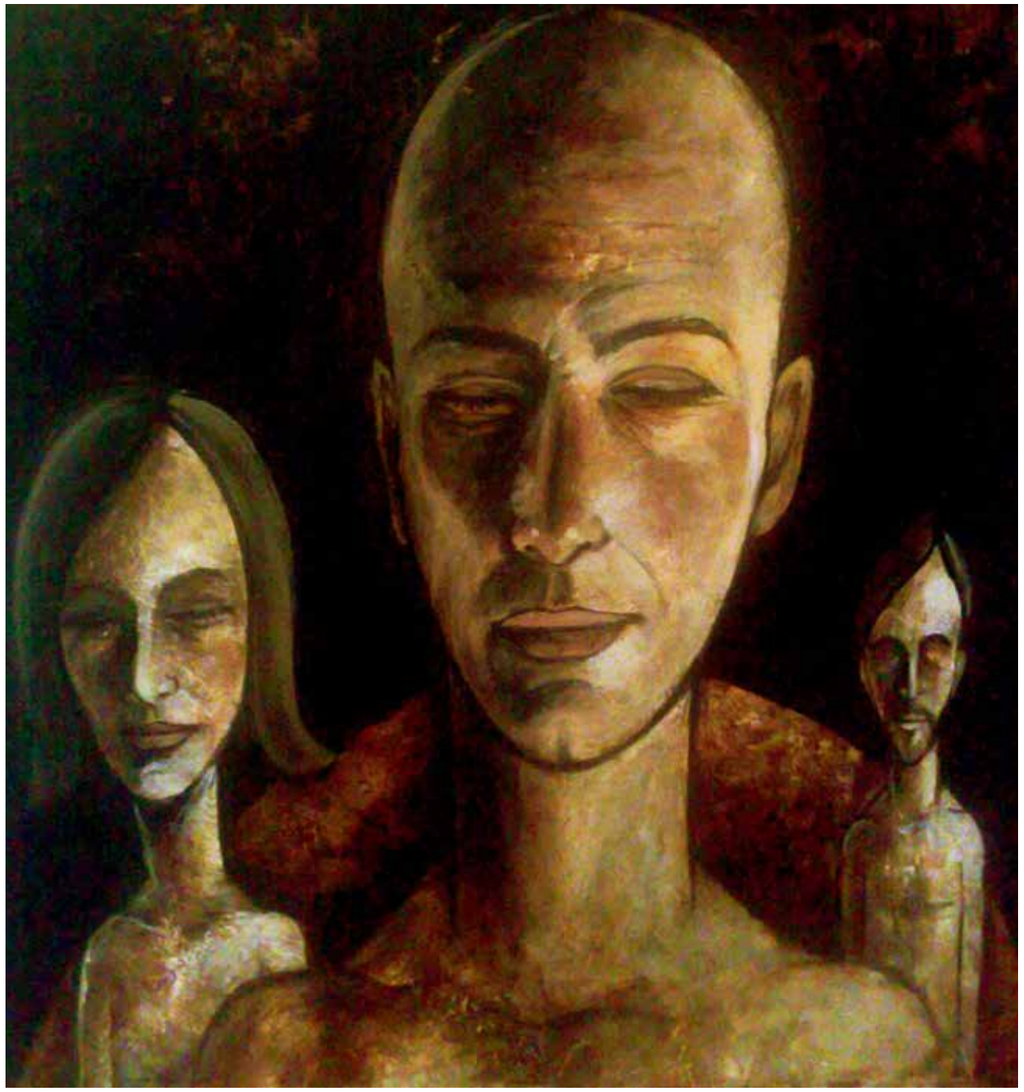

صفوان أصلان

قد قرَّر أن على سوريا أن تتقسَّمَ وتتشطَّرَ وِفقَ تركيبةَ شبه - فيدرالية ضِمنيَّةً رَسميا وأمر واقِع في الممارسَة. هذا يَعني، أن هناكَ إعادة رسم لِخارِطَةِ الانتشارِ والتَوزُّعِ الديمُغرافيِّ البشري في السياقِ السوري بدأت منذ عام 2015، تُكوِّنُ الأرضيَّةَ الوجوديَّةَ والسوسيولوجيَّةَ للحَلِّ السياسي القائِم على تشطيرِ الجغرافيا السورية إلى أقاليمَ ذات حَكم شبه - ذاتي محَلّي يتشكَّل على قاعِدَةِ الغالبيَّةِ الطوائفيّةِ المُهيمِنَة ديمُغرافيا على أراضي ذاك الإقليم. وما تأخير تَطبيقِ هذا الحلِّ السياسي (الذي باتَ قرارا مُتَّفقا عليه) وتأجيلِ تَفعيلِهِ حتى هذه الساعةِ إلا بسببِ انتظار الانتهاءِ من مَرحَلَةِ التَشطير وإعادَة التوزيعِ الديمغرافي أولا تمهيدا للأرض لإعادة رَسمِ الخَارِطَةِ السياسي.

لو نَظرنا إلى الخارطَة السورية الديمغرافية الحاليَّة، سنَجِد أن سياسة التَشطير الديمغرافي على الجغرافيا السورية تَنحو نحوَ الانتهاءِ بتَقسيمِ سوريا شبه - المُدرَلَة إلى ثمانيَة أقاليم محليَّة. في شمال شرق سوريا، سيكون هناك إقليم يشكل السوريون السُنَّة فيهِ 100 في المئة من الوجود المجتمعي، ولهذا سيكون تحت إدارة سُنيَّة بمراقبَة من تركيا. في شمال الوسط، سيكون هناك إقليم يشكل السوريون السُنَّة فيه 95 في المئة من الوجود المجتمعي على الأقل، ولهذا سيَديرُهُ محليًا السُنَّة بمراقبَة من تركيا. في شمال شرق سوريا، سيكون هناك إقليم يشكل فيه السُنَّة 97 في المئة من السكان، مع هيمَنةَ كرديَّة واضِحَة ستجعل من الطائفَة الأخيرة هي المدير المُهيمِن مَحليًا وبمراقبَة أميركية - روسية.

في شرق سوريا، سيكون هناكَ أيضا إقليم يشكل فيه السُنَّة 99 في المئة من السكان، مع بدء ظهور ملحوظ لشرائِح سوريةَ شيعيَّة (بسبب حملات التشيُّعِ التي تديرها إيران في تلك المنطقة)، ولهذا سيُدارُ هذا الإقليمُ من قِبَلِ عَشائرِ العرَب السُنّة في المنطقة وبمراقبَة إيرانية. أما في وسط سوريا، فسينشَأ إقليم يحتوي على خليط ديمغرافي من السوريين ذوي الانتماءاتِ الطائفيةِ المختلفة، وهو إقليم يشهدُ أيضا حملةَ تَشييع حثيثَة تقول أنه سيشهَد حضورا لجمهورِ شيعي في المستقبل. إلا أنَّ الإدارةَ سَتُوَزَّعُ ما بين سِني وعلوي بمراقبَة إيرانية - روسية. أما في الغرب، فسيقوم إقليم ساحلي 90 في المئة من سكانهِ من العلويين (وفيه غالبية من بقي من مسيحيين في سوريا عموما)، ولهذا فستؤول إدارته المحلية لهم بمراقبَة روسية.

أما في الجنوب الغربي حيث العاصمَة، فهناك حضور متنوع فيه اليوم ديمغرافيَة سنيّة علوية مُتقارِبَة تقريبا ستكون فيه السلطة شبه - المركزية للدولة المُتخيَّلَة وستكون بمراقبَة روسية - إسرائيلية - إيرانية. أما الإقليم الجنوبي، فَفيهِ أغلبية درزيّة وعربية عشائرية فسيتقاسم الطرفين الإدارة المحلية بمراقبَة روسية-إسرائيلية.

السؤال المحوري في ضوء هذا المشروع المُتخيَل (غير الوهمي أبدا) لسوريا هو كيف نُقارب مَعرفيًا مَسألَة الطَوائِف، وهل سَيكونُ هناكَ مَشكلَة "طائفية" في المَشهَد المذكور؟ هذا هو السؤال الأكثر واقعيَّة وفِعليَّة مَعرفيًا، لأنَّه لا يَنطلِق من سوريا مُتخيَّلَة، بل من المَشروع الذي يُعمَل على تَطبيقِهِ (شئنا أم أبينا) في سوريا على الأرض منذ عام 2015، والذي لم نتوقَف عن مشاهَدَةِ إرهاصات تطبيقهِ وسيرورتها خلال السنوات الثماني المُنصرِمَة، رغما عن أنف السوريين أنفسهم وبِمَعزل عن آرائهِم ومواقِفِهم وتطلُّعاتِهم حولَ سوريا التي يريدونها (لا أحدَ بين صُناعِ القرارِ ومُلاَّكِ الأسهمِ المشرقية يكترث بهذا أصلا). هذا هو السؤال الذي ينبغي الانطلاق منه في تَحديدِ ما إذا كانت سوريا سَتُصبِحُ عُرضَة لِخَطرِ الطائفيَّةِ أم لا. المُعطيات التي بين يدي والحيثيّات البحثيَّة المتوفِّرة تقول لي أنَّ الطائفيَّة لن تكونَ المُشكلَة التي سَتُعاني منها سوريا المُستَقبليّة المُتَقَسِّمَة وشِبه - الفيدرالية. إنَّ الذِهنيَّة والأيديولوجيا الطائفية قد تَنشأ، إن نَشأت، نَتيجَة تَواجُد الطوائفِ مع بعضها البَعض وعيشها جنبا إلى جنب في فضاءِ جغرافي زمكاني واحِد، تشترك فيه بالوجود والحياة والمصير والظروف. هذا يعني أن وجود الطوائفِ معا في سياقِ مجتمعيّ مُشترَك هو أحد شروط نشوء "الطائفية".

إذا ما قرأنا المنطق القاعدي خَلفَ مَشروع تَقسيمِ سوريا شِبه - الفيدرالي المذكور في الأعلى، سنجد أنَّه مَنطِق يَفتَرِضُ، بل ويَنطلِقُ من، مبدأ " الفصل" ما بين الطوائفِ وعدَم السماح لها بالتشارُك والتعايش جغرافيا ضمنَ سياق زمكاني واحِد، حتى وإن شاءَت الظروف الموضوعيَة الواقعية أن تتواجَد بَعض الطوائفِ بأقليَّة عَددية لا تُذكَر في نفس البُقعَة الجغرافية مع طائفَة أخرى مُهيمِنَة ديمغرافيا. منطِقُ الفصل يعني أن الهدف هو مَنعُ إمكانية "التعايُش" ووضعُ حَدّ لفكرة "التشارُك" انطلاقا من رغبة استباقيَة بدرءِ ومَنع نُشوءِ المَخاطِرِ التي يُمكِنُ أن تَنتُجَ عن التَعايُشِ والتَواجُدِ مَعا والتَشارُك، والتي تُعتَبَر "الطائفيّة" أحدها. من هُنا، فإنَّ العُقولَ الواقِفَةَ خَلفَ مَشروعِ التَقسيمِ الإقليمي شِبه - الفيدرالي المذكور تعمَّدَت، كما يبدو للمُحلّل، أن تَدفعَ نَحو إعادَة تَرسيمِ الخَارِطَةِ الديمُغرافيَّةِ في سوريا على قاعِدَة طوائفيَّة وعِرقيَّة، وليس دينيَّة بالضرورة. هُم لم يَبنوا على قاعِدَة الدين لأنهم يَعرفون، كما نِعرفُ نَحنُ أيضا، أن المسيحيَّة قد تَستَمرُ بالوجود الرمزي في سوريا المُستَقبَل، ولكن المسيحيين سينقرضون من المشهد السوري وسيَضمَحِلّون لدرجة تُقارِبُ الاختِفاء.

قبلَ الثورة والمأساةِ الأخيرة، كان المسيحيين يُشكِّلونَ 10 في المئة من مَجموعِ السُكان. أما حاليا، فنِسبَتُهُم لا تَتجاوز 3 في المئة في أفضل الأحوال، ومُعطياتنا تُفيد بأنَ تلك النِسبةَ ستَنخَفِضُ في العَشرِ سنوات القَادِمَة إلى 1 في المئة، إن لم يكن 0.5 في المئة. من هنا، لم يَعُد التوزَّع الديمُغرافي الديني بهاجِس عِندَ مُعِدّي مشروع سوريا شبه - الفيدرالية القَادِمَة.

المُهِم هنا أن نقولَ بأنَّ احتمال نشوءِ مُشكِلَة "طائفيّة" في سُوريا الحاضِر والمُستَقبَل ضَعيف برأيي، فالطائفيّةَ تَشترطُ التَشارُكَ والتعايُش والتواجَد الزمكاني والجغرافي الواحِد. ولكن، حين تَشطُر الجُغرافيا إلى أقاليم ديمُغرافيَّتها تَقومُ على لَون طائفيّ (وإن لَم يَكُن عِرقي) واحِد وَحيد، فإنَّ هذا قد يكونُ كَفيلا بِمَنعِ ظُهورِ مَرضِ الطائفيّة. هذا لا يَعني أبدا أن المُجتَمعاتِ التي ستَنتُج في تِلكَ الأقاليمَ ذاتُ اللون الطوائفي الواحِد سَتكونُ مُجتمعات صِحيَّة وصَحيحَة وسَليمَة. ليس بالضرورة إطلاقا. سوريا القادمَة بأقاليمها شبه - المُدرَلَة سَتُعاني من مَشاكِلَ وأزمات أكثرُ دَمَوية وتَدميرا وسَوداويَة ممّا يمكن أن تُسبِّبهُ الطائفية. المَشروع المُقرَّر لِسوريا يَعني أنّها سَتَكون، ولِعقودٍ قادمَة، أرضَ نِزاعات وصِراعات دائِمَة ومُستَدامَة، ولكن لَيسَ بين الطوائف، بل بينَ دَوائرِ السُلطة والنُفوذِ والمَصالِح، المَحليَّة والإقليميّة؛ تَماما كما نَشهَدُ في العِراق شِبه - الفيدرالي، المُقسَّم أيضا طَوائفيا وعِرقيا. في ضوءِ هذا الحال، يبدو أن عَلينا أن لا نَتَلهّى كثيرا بالعَمَلِ على دَرءِ الطائفيَةِ لأنها ليسَت المُشكِلَة الأساس في سوريا الحَاضِرَة ولن تَكونَ مُشكِلَة سوريا القادمة. لرُبّما واحدة من أخطر المُشكلات القادمةِ في سوريا هي دَفعُ الطوائفِ في سوريا للانعزالِ عن بَعضِها البَعض وللعَيشِ في كانتونات نَمَطيَّة أُحاديَةِ اللون والهُويَّة مُنغَلِقَة على نَفسِها. لرُبّما أخطرُ المَشاريعِ هي تَحويلُ المُجتَمعِ السوري إلى مجموعَة من الجُزرِ غير المُتَّصِلَةِ بِبَعضِها البَعض. هذا قد يُساعِد على مَنع نشوءِ خَطرِ الطائفية بين الطوائِف لأنه يَدفَعها للاستِغناء عن ضَرورةِ، أو حاجَةِ، التَعايُشِ والتَواجُد، ناهيكَ عن التواصلِ والتَفاعُل، مع الآخر المُختلف. إلا أنَّ لهذا التَقسيمِ والكَنتَنَة (من كانتون) نتائِج عَكسيَّة مُدمِّرَة على المدى البَعيد، لأنَّه تَقسيم يُناهِض التَنوُّعَ والتعدُّدَ في قلبِ سياقِ عيشِ كل من الأقاليم المَشطورَة ديمُغرافيا، وكل ما يمنَع التَعدُّد والتَنوُّع والتَفاعُل مع الآخر يُودي في النهاية إلى إفناءِ الذات وتَجفيفها وحَيونَتِها وحِرمانُها من مَنابعِ التجدُّدِ والتطوُّرِ والدَيمومَة. الحياة دون الآخر قد تَقينا من الصِراعِ والنِزاع، ولكنها تَحرِمنا من الكَينونَةِ والوجودِ والإنسانية (لنتذكَّر أن روبنسون كروزو وحيِّ بن يقظان شخصيات خياليَّة غير واقعيَّة). في ضوء هذا، ما يَنتَظِرُ سوريا ليسَ خَطرُ الطائفيةَ، بل خَطرُ البربريَّة والتوحُّش.

خلاصات: حين يخوضُ السوريون غمارَ المعرفَة

كُل من نشأ وعاشَ في سوريا نظام الأسَد والبعث خلال العقود الخمسة الأخيرةَ يعرفُ تماما أنَّ الشعب السوري حُرِمَ من ممارسَة كُلِ شيء بما فيها، بل و أولها، ممارسَة العِلم وتشكيل المعرفَة. فالسوريون لم يتمكَّنوا من التمتُّعِ بفرصَة تلقّي تعليم وتمرين أكاديمي وعلمي حقيقي على ممارسَة البَحثِ المعرفي كما هو مُتعارَف عليهِ في كافةِ المؤسَّساتِ العلميَّة والبحثيَةِ الأكاديميّة حول العالم (هذا بصرف النظر عن كفاءَة ومؤهِلات السوريين والسوريات الأفراد العقليَة والفكريَّة الشخصيّة). من يَعرِفُ هذه الخلفيَة عن سوريا، يستطيعَ أن يتفهَّمَ بوضوح وسهولَة الهَنَّات المعرفيّة والبحثيّة التي يمكن أن يَقَع فيها أي فريق سوري من الباحثين في مسألة الطائفية أو سواها من المسائِل. إنني لا أنهي ورقتي بالحديثِ عن هذ الناحية من بابِ انتقادِ الباحثين السوريين ولا التبخيسِ من قيمةِ اجتهادِهِم ورغبتِهِم الصادقَة والمُخلِصَة بخدمَة سوريا ومحاولَة المساهمَة الجادَّةِ قي بناءِ سوريا المُستَقبَل. إنني فقط أذكر مسألة الهنات المَعرفيَّة كي أشيرَ إلى ظاهِرَة مُتفشيَّة في المشهَدِ السوري، الثوري والمُعارِض اللاجئ في الخارج بشكل خاص، تَتعلَّق بمسألة المَعرفَة وتشكيل خطاب تفسيريٍّ عن سوريا عموما.

لقد شهدَ العَقد الأخير إنشاءَ العديدِ جدا من مراكزِ الأبحاثِ ومنتديات التفكيرِ والدراسةِ من قِبَلِ السوريين الذين هربوا من سوريا ولجؤوا إلى دول العالم المختلفة. تقوم تلك الكيانات الدراسيّة بمحاولات دائمة لتطوير خطاب معرفيّ عن سوريا الماضي والحاضر والمستقبل، وهي تُقدِّم نفسها للعالم على أنّها أصوات مرجعيَّة عن هذا البلد المشرقي المُدَمَّر اليوم، والغامِض والمسجون خلف جِدار حديدي

في الماضي. وقد حُرِمَ السوريون من حُريّة المَعرفَةِ وإمكانيَّة خلقِها وتشكيلها بشكل علميّ حُرّ حين كانوا داخلَ سوريا. ولهذا، ومع نُزوحٍ وهروب أكثر من 9 مليون سوري خارِج البلَد، بدأ السوريون يختبرون للمرة الأولى (خاصةً الأجيال الجديدة) فرصةَ تلقي العِلم والمعرفَة وممارسةَ تشكيل المعرفَة في سياقاتِ البحث الغربيّة والعالمية بشكل مُباشر ودون وسائِط، مما قادهَم اليوم إلى تشكيلِ منابرهم الدراسية والمعرفية الخاصّة في تلك الدول. ولكن، مازال السوريون في حاجة إلى شحذِ مهاراتهِم البحثية المكتسبَة وإنضاجِها بشكل صارم ورصين كيما يمكن التعويل على ما تنتجه. فواجِدة من هناتِ ومسالبِ الخطاباتِ المعرفيَّةِ التي يطورِها السوريون في الخارجِ عن سوريا هو أنها تكون أحيانا خطاباتُ تقرأ سوريا بدلالَة الخارج، ومن نقطة مرجعيَّة مسبَقَة الصُنع من خارج سياق سوريا، وليس بدلالة معطيات الداخل وخصوصيات السياق السوري الأصغريّة.

أعتقد أن المقاربات التي تنطلق من افتراض (وليس تساؤل عن) وجود لمُشكِلَة طائفيّة في سوريا هي مِثال على النقطة التي أحاول تقديمها هنا. من تابَعَ وراقبَ سيرورةَ الثورة السورية والمعارضاتِ السوريةِ في الخارجِ خلال السنوات العَشر الماضية (وأنا مُطَّلِع على تلك السيرورةِ عن قُرب ومن الداخِل)، سيُلاحِظ أن الحَديثَ عن "الطوائف" و"الطَوائفيّة" في سوريا كان جزءا لا يتجزأ من آلياتِ تفكيرِ ومقارباتِ وخطاباتِ الكثيرينَ من الأفراد والشخصيَّاتِ الذين انتموا لأطياف مختلفَة من المُعارضَاتِ السوريَة (وخاصَّة التيارات المعارضَة الإسلاميَّة). فتلك الأصوات هي التي عِمِلَت على قِراءَةِ الشَعبِ السوري وعلى تَقسيمِهِ طوائفيًا وأصرَّت على تتبّعِ الهويَة والخلفيَّة الطوائفيّة والدينيّة والعِرقيَّة لكُل من وَقفَ مع الثورَة أو وقفَ مع النِظام (لطالما سألني الكثير من أولئك الأشخاص في القاءات التي عقدتها المعارضات السورية في الخارج عن هويتي الطوائفيّة ولطالما أبدوا أعجابهم بأنني مسيحي مع الثورة، مع أنَّ لا علاقة لطائفتي المسيحيّة بموقفي الإنساني والأخلاقي. على العكس، لم يكترث كثير جدا من سوريي الداخل الثوار الذين قابلتهم في مؤتمرات في الغرب بسؤالي عن خلفيتي الطوائفيّة). باتَت الهِرمنيوتيقا الطَوائفيّة لِسان حالِ الكثير من شرائحِ المُعارضاتِ السُوريّةِ وشَرائح السُوريّين اللاجئين في الخارِج (وهو أمر ينبغي دراسته من زاوية مسألتي الهوية ومغايرة الذات في عالم اللجوء، وليس الطوائفية، كما فعلت أنا في دراسة نشرت بالعربية والإنجليزية). وباتَ المُشارِكُ في أيّ نَشاط أو حَدَث يَتعَلّق بسُوريا في المحافِل الغربيَّة والعربيَّة السياسيَّة والأكاديميّة والثقافيَّة العامَّة والإعلاميَّة وحتى الاجتماعية يسمَعُ دوما أصواتا سورية مُعارِضَة تتحدَّث بمنطق طوائفيّ صريح عن المشهد السوري. فلا غَرابَةَ بأن يتلقَّف الغَرب السياسي والإعلامي هذا الخِطاب الطوائفي بلهفَة لأنَّه خِطاب خدَم إصرار الغَربِ الاستشراقي والسياسي الكلاسيكي على قراءَة الشرق الأوسط برمَّتهِ كساحة صِراعِ طوائف أبديَّة وبؤرَة انتشار الطائفيَّة بشكل بديهي غير قابل، ولا يحتاج برأيهم، لا للتَساؤل ولا للنِقاش ولا حتى للدِراسَة. عزَّزت تلك الأصوات السورية اللاجئَة خارج سوريا من فَرضيَّة أن سوريا ما هي إلا نَموذَج آخر من نَماذجِ تَفَشيِّ الطائفيّةَ. وبَدلَ أن ينتَبِه السوريون إلى الفَخ الكامِن في هذا الخطاب الغربي، قاموا بتَلقّفِهِ (مُتجاهلين، أو ربما غير مُدركين، أنهم يتَلقَّفون بضاعة هم أَحدُ مُنتِجيها الجَدُد في الدَرجَة الأولى) وتَبنيّه واعتِبارهِ حَقيقَة ناجِزَة وعِلميَّة عن سوريا في حَقيقَتِها وواقِعِها.

إن أول الخطابات التي نَظّرت لوجود الطائفية في سوريا منشأها سُوريو الخارِج وقِراءاتُهُم مُسبَقَة الصُنع للمَشهَد السوري، وليس سُوريو الداخِل (والسبب ليس لأنَّ موضوع الطائفية "تابو") الذين كانوا ومازالوا غَارقينَ ومُعانينَ حتى المَوت من أزمات ومشاكل أكثرَ كارثيَّة وضَررا وواقعيَّة من مُشكلَةِ "الطائفيّة" المُفتَرَضَة. إنني أعتقد أنَّ افتراضَ مُشكِلة الطائفية في سوريا هو قراءَة مُسبَقة الصُنع واستقرائية (غير استدلاليّة) خارجيَّة تَقرأ افتراضيا في سوريا ، ولا تقرأ سوريا بحدِّ ذاتِها: إنها تقرأ مِخيالات ورؤى السوريين خارج سوريا في سوريا، ولا تَقرَأ سُوريّا بِحَدِّ ذاتِها. هذا مِعيار مَعرِفيّ يَستَحِقُّ أن نَدرُسَهُ نَقديًا وأن نُمَحِّصَ فيهِ بتأن، لأنَّ إصرارَ السوريين في الخارج على قِراءَةِ أنفُسِهم في سوريا، بَدلَ قِراءَةِ سوريا، هو بِحَدِّ ذاتهِ مُشكِلَة تَحتاجُ إلى تَعَاط تَحليليّ ونَقديّ مَعها. وهذه لَيست أبدا مُشكلَة فريق واحد من الباحثين السوريين العاملين اليوم في الغَرب. إنها مشكلة بدأت تُصبِحُ عَامَّة برأيي الخاص في أوساطِ السوريين اللاجئين والعاملين لِخِدمَةِ سُوريا مِن الخَارِج.

صفوان أصلان

كاتب من سوريا وباحث في جامعة بون-ألمانيا

مقال

لي هاروود...العلاقة الديالكتيكية بين المكان والفضاء

فاضل السلطاني

منذ بدايته، امتاز شعر الشاعر البريطاني لي هاروود بالعلاقة الجدلية بين الانفتاح والانغلاق، والحاضر والماضي، والحركة والسكون، والداخل والخارج، وبين المكان والفضاء. لكن علاقته مع المكان والفضاء، متحركة دائماً، ويمكن تقسيمها غلى مرحلتين: جغرافية وذهنية. خلال المرحلة الأولى، الممتدة من الستينات حتى منتصف السبعينات، التي يمكن أن نطلق عليها» فترة الانسلاخ عن المكان»، « أو « الفترة الأطلسية»، كما أطلق عليها، 1 غلب على الشاعر الاهتمام إلى درجة كبيرة بالأمكنة كجغرافيا، أكثر مما كونها أمكنة تخلية أم مجردة، على الرغم من أن هناك قصائد في هذه المرحلة كانت منفتحة على المجرد والمنظور التخيلي أو التصوري. والمقارنة بين قصائد الشاعر الاولى والمتأخرة، تتيح لنا تفحص التطور الذي حصل في علاقته بالمكان والفضاء، ارتباطاً مع تطور لغته الشعرية، خاصة في الثمانينيات فصاعداً، حين أصبحت قصائده منشغلة ذهنيا أكثر بالمكان والفضاء، وباتت لغته أكثر صقلاً، كما أصبحت، مساحة تحركه شعريا أكثر تنوعاً، وتعدداً، وعفوية أيضاً، متأثرا بما سمي ب» المجال المفتوح»، كما عند شعراء مدرسة نيويورك، ومستفيداً تكنيكياً من الدادائية والسوريالية.

ولكن علينا، قبل كل شيء، أن نحدد ما نعنيه بالمكان والفضاء» ما دامت العلاقة بين المكان والفضاء تملك تاريخاً معقداً، وأحياناً متناقضاً، في النظرية الثقافية والاجتماعية أواخر القرن العشرين.»2

بالنسبة للمفكر الفرنسي غاستن باشلار، المكان هو البيت « ركننا في هذا العالم... كوننا الأول... كون حقيقي بكل معنى الكلمة».3 فنحن نسكن حيزنا الحيوي، الذي هو البيت، بالتوافق مع كل ديالكتيكيات الحياة، وتصبح لنا جذور، يوماً بعد آخر، في ذلك» الركن من العالم». البيت ليس مجرد عليّات أو غرف تحمينا من الخارج، بل مكان للخيال والذاكرة، بالإضافة إلى كونه مكاناً واقعياً. نحن نعايش البيت واقعاً فعليا وافتراضيا، من خلال الأفكار والأحلام. ومن هنا، هو يرتبط بالذاكرة والوعي، والوجود المتخيل والحقيقي. يقول باشلار:

«البيت هو واحد من القوى الكبرى لتساوق أفكار ووذكريات وأحلام الجنس البشري. والعنصر الرابط في هذه العملية هو أحلام اليقظة. إن الماضين والحاضر، والمستقبل تمنح البيت ديناميات مختلفة، وهي غالباً ما ما تتداخل، وأحياناً تتعارض، مع الآخرين، محفزة الواحد بعد الآخر».4

ويرينا باشلار كيف أن الفضاء يشكل طريقة عيشنا، وفهمنا لأنفسنا والآخرين، لأن البيت هو ملجأ لنا من القوى الخارجية، بالإضافة إلى كونه فضاء للعقل. وأن نصف مكانا ك» بيت»، هو اعتراف بعلاقته مع ذواتنا، ولكي نحقق شعورا متبادلا بالانتماء. ولكن في الوقت نفسه، فأن عيش الفضاء جسدياً يمكن أن يجعلنا نشعر بالجور. وهكذا، فإننا نتأثر إيجاباً وسلباً بمحيطنا، ونكتسب خصائص المكان (البيت).5

أما بالنسبة للمفكر الماركسي الفرنسي هنري لوفيفر، فأن الفضاء هو نتاج اجتماعي، أو بناء اجتماعي معثد، وأن كل مجتمع بنتج فضاءه الخاص. وهو يقول في كتابه» إنتاج الفضاء»، بإن الفضاء الاجتماعي يُنتج ويعاد إنتاجه بالارتباط مع قوى الانتاج، ولكنه ليس شيئاً ضمن أشياء أخرى، وليس نتاجاً ضمن نتاجات أخرى، ولكنه يصنف الأشياء ويستوعب علاقاتها الداخلية وتزامنها، غير أن تمثلات الفضاء هذه مقيدة بعلاقات الانتاج، وبالنظام الذي تفرضه هذه العلاقات:

«الفضاء هو نتاج اجتماعي تهدده القوى

الاجتماعية والسياسية(الدولة) التي تشكل خطرا على هذا الفضاء، وتسعى، ولكنها تفشل، في السيطرة عليه كلياً. إن الفضاء الاجتماعي يتكشف بخصوصياته إلى الدرجة التي لا يمكنها معها تمييزه عن الفضاء الذهني. والعامل ذاته الذي يُخضع الواقع المكاني باتجاه نوع من الاستقلالية غير المسيطر عليها، يسعى إلى الدفع بالفضاء الذهني إلى الارض، ثم يقيده ويستعبده». 6

وبالنسبة إلى لوفيفر، هناك تطور متواز بين هيمنة الرأسمالية في الغرب الحديث وإنتاج الفضاء المجرد. فالرأسمالية، مثل الفضاء المجرد، قد خلقت التجانس، والهرمية، والتشظي الاجتماعي.7

تحدد دورين ميسي في كتابها» من أجل الفضاء»، ثلاث خصائص للفضاء: أولا، إنه نتاج علاقة متبادلة، تتشكل خلال التفاعل، من اتساع الكرة الأرضية إلى صغرها.وثانياً، إنه «ميدان لإمكانية وجود تعددية متزامنة معها». وهذا يعني، بالنسبة لها، عدم وجود فضاء من دون تعددية، ولا وجود لتعددية من دون فضاء. وثالثا، إن الفضاء هو دائماً في حالة تشكّل،» إنه لا ينتهي أبداً، لا يغلق أبداً، وإننا، ربما، نستطيع أن نتخيل الفضاء، كتزامن قصص ما... لحد الان».8

وهي تجادل أيضاً بأن هناك ارتباط بين المكاني(الفضائي) وتكوين المعنى، فاللغة» تترجم دائماً الحركة وأمدها بلغة الفضاء»، وكلما تمت «عقلنة الوعي أكثر، كلما تجسدت المادة فضائياً أكثر». 9

تسعى ميسي، على أية حال، أن تطرح أفكاراً حول المحلي والعالمي، والمكان والفضاء، والملموس والمجرد. والفضائي (المكاني) بالنسبة لها يمكن أن يكون ،

مجرداً وملموساً في الآن نفسه، كما أن المكان يمكن أن يضم المادي والمفاهيمي(النظري). 10

الأفكار التي تتناول المكان والفضاء، تناولها نقديا أيضاً أيان دافيدسون في كتابه» أفكار الفضاء في الشعر المعاصر»، ويشير فيه إلى أن الفضاء يعاش ويحوّل إلى مفاهيم معاً، أي أننا « نملك وجوداً مجسداً للفضاء، بالإضافة إلى المفهوم الذهني للفضاء». 11

وهو يجادل بأن» شعورنا أين نكون هو مزيج من تلك التجربة الفورية المتجسدة وفكرتنا عن موقعنا ضمن صورة أكبر، يحول إدراكنا من التجربة التي نواجهها ظاهراتياً ، إلى بنية اجتماعية وجغرافية أكبر، نحن جزء منها. 12

وعلى أية حال، هو يتفق مع ميسي بأن المكان والفضاء متداخلان، قائلاً ، بشكل مقنع، إنه لا يكفي أن نصف» الفضاء» بأنه «مفتوح»و « مجرد»، وأن نصف « المكان» بأنه» مغلق»، لأننا بذلك نقر بوجود تعارض بين الاثنين، وهو تعارض غير موجود.

ويعتقد دافيدسون بان كثيرا من الشعر المعاصر يركز على الحالات النفسية، والشعور، والمفاهيم الفكرية، ، وأن المعنى الكامل لعبارة» المكان» في الشعر تتضمن ليس فقط المكان الجغرافي، والمحيط الطبيعي، ولكن أيضاً تاريخ الحاضر الإنساني، وما قبله، وناسه، وأيضاً، كما في كل شعر، صوت مؤلف القصيدة.

قد توفر هذه الملاحظة الأخيرة مدخلا صحيحاً لفهم شعر لي هاروود في مرحلتيه الاساسيتين.

في قصيدته الشهيرة المبكرة» ما دامت عيناك زروقاوين»، التي نشرت عام 1965»، واعتبرت « علامة متميزة على كتابته الجديدة»13، تبدو تجربة الشاعر في تناوله للمكان تجربة حسية جداً.إنه يراكم أشياء صغيرة ليخلق مشاهد مرئية، ويبدو حساساً بوجوده في المكان، لكنه ليس بعد « جزء» من المكان،14

في المقطع الثاني من هذه القصيدة، بشكل خاص، يصف الشاعر أشياء حقيقية في مكان محدد(نهر تحت النافذة، قميص في أعلى الخزانة، مرآة...). وعلى الرغم من أن الشاعر يستخدم الاستعارة في السطرين الأخيرين، ويترك فراغين للتأمل، تخفق القصيدة في توسيع مداها خارج ذلك المكان المحدد، ما عدا السطر الأخير المفتوح على الفضائي، من خلال علامة الاستفهام:

عندما يكون النهر تحت نافذتك
بقدر ما حلمت به
تغيير قلق
وقميصك في أعلى الخزانة،
مرآة تواجه السقف والضوء في الخزانة
تُرك ليحترق طوال اليوم
أصفر باهت
يسبر الغرفة المظللة
ماذا كان؟

اللغة هنا بسيطة، وهي تستخدم لتشير لشيء في الخارج، كما لا نلحظ فيها تعبيراً وعراً، أو «انفجارا تعبيرياً»، أو خروجا عن الموضوع. ولكن الشاعر يستخدم فيها إسلوباً سيميز قصائده اللاحقة، فهو يضع الأشياء في مشاهد سينمائية تقريباً، ويصف أشياء حقيقية في أماكن محددة، غير أنه يخفق في تجاوز ما هو مادي إلى خارج حدود المكان، ورفعه إلى مستوى العام. وربما يعود السبب جزئياً إلى عدم استقراره جغرافياً(كان في هذه الفترة يتنقل بين أمريكا واليونان وفرنسا). وهذا الانتقال» سبب له شعوراً شديداً بالضياع، وكذلك الرغبة في الاستقرار في بيت والإقامة بشكل لائق»، 16 وربما، ثانياً، بسبب تجربته الشعرية المحدودة أنذاك(كان في الثلاثين من عمره).

في المقاطع التالية من القصيدة، تنتقل الحركة من المكان المغلق(الغرفة) إلى مكان مفتوح حيث يتمشى وحيداً في غرف القصر، و» حيث الثريات تهتز بينما تعصف الرياح بالحدائق/ في الخارج/ والبحيرات ترتجف من مشهد متنزهين وحيدين(المجموعة الكاملة، ص 28). لكن القصر تقتحمه مجموعة من السائحين الذي يظهرون فجأة، ويختفون. وللهروب، ذهنيا وجسديا، من هذه الأماكن الحقيقية، تقودنا حركة القصيدة لندخل خيالياً أماكن أخرى:

أنت تعرف حتى في سكون قبلتي
أن تلك الأبواب تفتح في شقق أخرى
على الجانب الآخر من المدينة
راع يرعى
شياهه في قرية نعرفها
عاليا في الجبال الزلاقة تنحدر مثقلة
بأزهار الصيف

ولكن عملية الانتقال من المكان ، لا تقود إلى تعميق دواخل الشاعر، ولا إلى رفع القصيدة إلى المستوى الذهني.. هناك إحساس ضعيف بالمكان، أضعف من أن يخلق استجابة قوية في عقولنا وأجسادنا، والمشاهد الموصوفة، المكتوبة بلغة بسيطة ومباشرة، لم تنجح في أن تفتح أمامنا بدائل واحتمالات لا متناهية. لم تخرج القصيدة من رأس الشاعر « المتأمل» في تلك التجربة «المرئية»، لتصبح عملية تخيل تجعل من سطح القصيدة» انعكاساً يرسل لنا صورة من بنيتها الخاصة. 17

ومع ذلك، فأن قصيدة» ما دامت عيناك زرقاوين»، بجملها المبثوثة في عدة قطع(كولاج)، وفراغات وجمل غير منتهية توحي بالوقتي غير المنجز بعد، تظل واحدة من أهم قصائد لي هاروود في هذه المرحلة، ومؤشرا على ما سينجزه في مرحلة لاحقة من تطوره الشعري.

في قصيدة» إلى جون في الجبال»، المنشورة في مجموعته» ما دامت عيناك زرقاوين»(1965-1966)، هناك أشياء محددة في مكان محدد: شمس، زهور ومروج، لكن ، في الوقت نفسه، وحوش تجول في الغابة، وهسيس أشجار صنوبر، ومن خلف كل شجيرة يطل رعب، ويهبط ثلج أسود. وهي تعكس الحالة النفسية والانفعالية للشاعر في مكان وزمن محددين:

تحت شمس جبلية
تتبعها أشباحي
الوحوش تنسلّ في الغابة
في رأسي
غابة بريئة هناك
زهزر جبلية ومروج
دوامة العشب وهسيس أشجار الصنوبر
عند كل شجيرة رعب
خلفي
ثلج أسود
أكثر سواداً من عينيك (المجموعة الكاملة، ص32)

يظهر الجبل(الذي سيصبح ثيمة رئيسية في شعر هاروود المتأخر بعدما استقر في بريطانيا)، عنصرا خارجيا في هذه القصيدة، مجرد مكان جغرافي. وبالرغم من حسية هذا القصيدة، وصورها المعبرة، إلا أنها تخفق أيضاً أن تجسد لنا حالة يتمازج فيها العقل والشعور، مما قد يساعد على رفع القصيدة من المستوى الخاص إلى المستوى العام، وتحفيزالقارىء للدخول إلى عالمها. وربما سبب هذا الإخفاق متعلق برؤية الشاعر ولغته معا.فالمشاهد تبدو وقد تمركزت على ذاته، وتجربته المعاشة، كما أن التناقضات بين عناصر المكان(شمس جبلية وثلج أسود، وغابة وصحراء، وأزهار وصنوبر ذو هسيس)، بقيت منفصلة عن بعضها البعض داخل القصيدة. لم تكن هناك عملية ديالكتيكية ممكن أن توحد عناصر القصيدة، وبالتالي تمكّن القارئ أن» يتبين موضوعاً متماسكا منطقياً وراء الخطابات المتباينة».18

ثلج أسود
فيه بعض أزهار
يمكن أن تنمو داخلي
ليل يمكن لنهرك
أن يترك فيه قاعه
استيقاظ صحراء
هرم ممسوس
بشكل جديد
قبلتك تحمل مدناً هائلة (المجموعة الكاملة، ص28)

إنها قصيدة مبنية من مواد غير مرتبطة ببعضها تحت تأثير شعراء مدرسة نيويورك، وخاصة جون آشبري، المهداة له القصيدة(ارتبط هاروود بعلاقة مثلية معه حين عاش في أميركا)، وأيضاً تحث تأثير تزارا دادا وبرخيس ، من دون أن يتكمن الشاعر من استخدام تكنيكهما بشكل فعال.

يقول هاروود عن هذا التأثير:

كان هناك تزارا دادا، بطريقته في «خض» اللغة، ومراكمة الأشياء، وهو أمر جديد علي. وكذلك، هناك بورخيس، الذي يكتب قصصاً تجرك جرا لعالمها، وتسحب البساط من تحت قدميك... ومن هنا، فأنك تظل تفكر فيها... ثم تنخرط دائماً في عملية كتابتها».19

لكن هاروود يعترف بأنه لم يستطع أن يستخدم هذه العملية في الكتابة بشكل مؤثر إلى أن قرأ آشبري في منتصف الستينات، 20 كما أن هناك الكثير من الكليشيات في القصيدة: ثلج أسود، صحراء، هرم، و» غابة في رأسي»(المجموعة الكاملة،ص32). ولا نتفق هنا مع الناقدة ميري هيوز -إدواردز، التي ترى أن استخدام هاروود للكليشة هو استخدام مقصود، مستشهدة بقول آشبري الذي يذكر فيه بأن» الكليشية قد تكرست بطريقة ما نتيجة كثرة الاستعمال، ومن هنا ينبغي احترام استخدامها».21

إن استخدام الكليشيه هو بالطبع شيء مألوف في الشعر المعاصر، بدرجات مختلفة، وتستخدم لكسر الخطاب البلاغي في الشعر السائد، وقد تستخدم بشكل مقصود كما تقول ميري هيوز -إدواردز، ولكن ليست هذه القضية في رأينا. المهم كيف يستخدم الشاعر هذه الكليشيه في موقف معين، في علاقتها مع الكلمات الأخرى في السياق ذاته، كي تصبح جزءا من تركيب القصيدة، وبذلك تساعد القارىء على التخيل، وتجعله يصبح جزءاً من القصيدة. وبهذه الطريقة يمكن تحرير الكليشيه من معانيها المتداولة نتيجة كثرة استخدامها إلى درجة الابتذال، ومنحها بعداً، او معنى مختلفاً.

نحن لا نرى أن هاروود يستخدم الكليشيه بهذه الطريقة في القصيدة التي استشهدنا بها كمثال على قصائده في المرحلة الأولى، بالاضافة إلى أن هناك فرقا كبيرا بين آشبري وهاروود فيما يتعلق برؤيتهما الشعرية، وطريقة كتابتهما. وهنا نتفق مع الناقد

توني لوبز الذي يرى أن» آشبري هو أقل انخراطا شخصياً في قصائده، التي يبدو الكثير منها أنه لا ينقل أي نوع من تجارب شخصية(على عكس هاروود)، بل ينحو نحو التجريد». 22

وعلى أية حال، بدأ هاروود ، ابتداء من أواخر الستينات، يحاول أن» ينحو نحو التجريد»، في كثير من قصائده، التي كانت تتحرك بين الواقع والتأمل، والمحسوس والمجرد، والحاضر والماضي. وهذا واضح في قصيدته « النضوج»، المكتوبة عام 1968. مكان هذه القصيدة الريف، حيث» البساتين قديمة ومريضة، والجرارة بدأت عملها فوق التل». والزمن حُدّد أيضاً، « عندما جعل المطر المائل من المستحيل رؤية السياج الطويل المحيط بالمرج».

وتكشف القصيدة سريعا أنها ليست فقط حول المكان ووقائعه القاسية، ولكن أيضاً حول الوضع الإنساني، وتناقضات الحياة والطبيعة. عمّم الشاعر أفكاره منذ البداية، وبدا أنه مشغول أكثر بالعام:

حقاً، فشل العاشق الميت
والمطر المائل الآن يجعل من المستحيل
رؤية السياج الطويل الذي يحوّط المروج
لكن هذا يقودنا إلى لا مكان
خلال المشهد العرضي لمدن بعيدة
تولّد فكرة» الأمل»، وعشاءات حميمة
في المطعم الأفضل الذي كان مليئا فقط
بأبناء تلك المدينة، بلا أجانب
سواي وصديقي- حقيقة
غريبة ومع ذلك يمكن فهمها

يشعر القارىء أنه منخرط في هذه القصيدة، وجزءاً من حركتها الديالكتيكية بين مكانين: الريف بظروفه القاسية، والمدن المتخيلة، التي تستدعي فكرة الأمل، وحالة الوحدة في الوقت نفسه. لا يوجد في القصيدة بناء سائب، أو فراغات في جمل غير مكتملة، كما أن اللغة بسيطة وموحية، وتعمل للوصول أو استدعاء حالة ذهنية خاصة، عاكسة أو مسجلة أحداثاً ومواقف، ومثيرة نوعاً من الخيال أو التأمل. 23 وتنبع أهمية هذه القصيدة من عملية تحويل المكان الحسي من خلال صور بصرية تحيل إلى منظور ذهني:

عدة أشياء من» المعرفة االشائعة»
احتفظنا بها بعناية «للقلة»،
الذين كانوا يسعون لأكثر من الإثارة
لكن هؤلاء المتنفجين كانوا بطريقتهم
الخاصة مرضاً
يتغذى على ذكريات مواسم الصيف
الماضية
أكثر من حقائق الحاضر
لكن حتى تلك المواسم مشكوك فيها-
صور العشاق تم تكبيرها
فلم يعد بالإمكان
التعرف عليها
حتى المدينة نفسها كانت صورة وفكرة.

(المجموعة الكاملة، ص 55)

لقد قدم هاروود هذه القصيدة باقتباس من ستيفي وينوود يقول فيه: « عندما اعود إلى البيت/ أخبرني كل شيء عنه»، التي يمكن أن تلخص يأس هاروود في هذه المرحلة، ابتداء من بداية الستينات حتى أواخرها، عندما كان يتنقل بين بريطانيا وأمريكا وفرنسا، من أجل أن يجد» مكاناً مناسبا». إنها رحلة طويلة تميزت ليس فقط بعدم الاستقرار والتنوع، ولكن أيضاً بتكرار ما يدعوه هاروود ب» بالإصرار» 24. الشعور بالضياع، وعدم تجذره في مكان، كانا ثيمتين أساسيتين في مجموعاته الشعرية الصادرة في تلك الفترة: «أتش. أم. أس. الثعلب الصغير»، و» الحجاب الأسوط الطويل»، و» بوستن، برايتون». ويسود في هذه المجموعات الشعور بالغربة، والحاجة للاستقرار.

ويرى الناقد نيك سيلبي، عن حق، أن شعرية هاروود في مجموعتيه «أتش. أم. أس. الثعلب الصغير» و» بوستن-برايتون»، في سبرها الديناميات الشعرية للغربة، هي ذات حدين: إنها في آن واحد سياسية وشخصية، إذ أن هاروود كان يحاول كشاعر، في قصائده خارج بريطانيا، أن يجد مكاناً لعاطفته وشعوره ضمن البنى السياسية التي كان يسعى إلى زعزعتها. 25 ويبدو أن كل الأمكنة بالنسبة لهاروود بقيت مجرد صور أو أفكار في رحلته الطويلة. الشعور بالغربة، وعدم الانتماء، في الوطن أو خارجه، يبرزان خاصة في قصيدته» « دمار المحطة الجنوبية، بوستن» ضمن مجموعته» بوستن -برايتون»:

غرفة صغيرة
تطل على فناء ضيق
الموسيقى في الراديو
محارة تبقيك بعيدا
عن عراء المدينة، أي مدينة
« في الوطن أو بعيدا»
أنت أجنبي دائما
متحركا بينهما

هذه القصيدة ليست فقط عن غربة الشاعر في أرض أجنبية، كما يقول نيك سيلبي. فهو يعتقد بأن هذه القصيدة جاء نتيجة لابتعاد الشاعر « الثقافي» عن أميركا، مما سبب له شعورا معقداً بالخسارة، غلّفه بحادثة تدمير محطة بوستن الجنوبية، التي هي موضوع القصيدة. وهذه المحاججة تقود إلى استنتاج الناقد خطأ بأن» هاروود يوازن بين تحطم معلم بوستن(المحطة الجنوبية) وبين علاقته الشخصية. 25

ويضيف سيلبي:» هنا شعرية تبتهج ظاهرة ماكدونالد)، ووسائل الاتصال، وأنظمة المراقبة، وحركة السكان، والحاجة إلى الاعتمادعلى» الغرباء البعيدين»، جعلت سكان الكرة الارضية ينقطعون عن تقاليدهم، وتاريخهم الأثني والمناطقي، وعن فهمهم للقاعدة المادية والتاريخية لحياتهم». 28

في مقطع آخر من القصيدة، نرى فيه أن المحطة وقد تهدم نصفها، يشير الشاعر بشكل واضح إلى أولئك» الآخرين البعيدين»، الذي يؤدون أعمالهم من ميناء دولي:

نصف محطة الجنوب سوّي بالأرض،
وتهاوت الأرصفة خلف المسارات
البواخر الأجنبية تشكو
نقص التسهيلات والظروف الخطرة-
ماكينات ديزل وعامل تحويل واقف
الماكينات تدور
عند نهاية الرصيف .(المجموعة الكاملة، ص217)

بشعورها بالغربة. وهي لا تصدر من شعور بالكشف الذاتي و الفحص الذاتي(العراء)، النابعين من امرئ يجد نفسه في» مدينة غريبة»، بل أن هذه الغربة تصبح لحظة عاطفية مفروضة في االقصيدة». 27

لكن «لحظة الغربة» هذه هي لحظة واحدة في القصيدة، وهي ليست مفروضة، كما يعتقد سيلبي. الثيمة الأساسية في القصيدة هي دمار مكان، كان يشكل معلماً من معالم بوستن، وهي ظاهرة متزايدة في المدن الحديثة، لا تنتج سوى إحساس حتمي بالغربة والاغتراب والعراء، والانقطاع عن التاريخ والتراث. ويبدو أن هاروود في قصيدته هذا يعكس، وإن بشكل لاواع، أفكار الفيلسوف الفرنسي لوفيفر حول العلاقة بين هيمنة الرأسمالية في الغرب الحديث وإنتاج» الفضاء المجرد»: « إن المكانية المتزايدة للحياة الحديثة المتمثلة بزيادة التجانس الكوني الثقافي(تنقل القصيدة بنجاح مواد المكان إلى مستوى أعلى ، وهي تتحرك بين الفضاء والتجريد، بين المحسوس، وبين العام والخاص، من خلال ثلاث حركات: الحركة الأولى فيزيائية. مكان القصيدة هو محطة- محطة الجنوب ، برايتن- وهناك مستودع وباصات، ورافعة، وجرافة. ونحن نراقب مع الشاعر المكان الذي ستجري فيه عملية الهدم. وهناك وسيلتا الهدم : رافعة وجرافتان جاهزتان في المكان، وفي الوقت نفسه شاحنة وسيارات نقل تمر بلا اهتمام. وهنا، يعكس الشاعر التناقض الصارخ بين فعل التدمير ولا مبالاة الناس تجاه فقدان معلم من معالم مدينتهم. ولم يكن فعل التدمير هذا سوى جزء من عمل» الجبابرة، الاقوياء»، كما أن الفضاء المفتوح الذي تركته عملية الهدم يعكس الطريقة التي يعمل بها الرأسمال العالمي: أمام المستودع، شاحنات وسيارات تمضي ورافعة حمراء للهدم وجرافتان صفراوان

كل القوى الجبارة، الهائلة .(المجموعة الكاملة، ص217)

تنفتح القصيدة فجأة في المقطع الثاني على مشهد آخر يبدو، بشكل خادع، وكأنه منقطع عن المشهد السابق.وتتضمن الحركة في المشهد الجديد علاقات متغيرة، إذا لم تكن ديالكتيكية، بين الخارج والداخل، والخاص والعام، والمحلي والعالمي. نرى هناك شاحنات وسيارت نقل تمضي بلامبالاة، بينما نرى المتكلم في القصيدة على الرصيف، وهو ياكل وجبة هامبرغر في مطعم» بلو دنر». لكنه كان يراقب عملية تدمير المحطة من قبل» كل القوى الجبارة». كان يشعر بالضياع والعجز، وهو يتساءل:» **هل يدير المدينة الجبارون حصراً، أم أنا حصراً أدور في المدينة؟»** (المجموعة الكاملة، 217)

على الرصيف ضائعا وسط كل هذا،
غير قادرعلى فهم ماذا أفعل هنا
وانا آكل الهامبرغر
الصقيع الثقيل
كسا الارض بياضا
عشب جليدي قشري
في» بلو دنر» عبر الشارع
انتهى الأمر كما يبدو-ا
هل يدير الجبارون المدينة» حصراً»، أم
أنا «حصراً» أدور في المدينة؟

شكلت قصائد هارووד ابتداء من عام 1973 فصاعداً، حين حقق رغبته بايجاد مكان دائم، وحين « احب الريف»، نقطة فاصلة في تطوره الشعري، وفيها يخص علاقته بالمكان كجغرافيا، والفضاء كتجريد. لقد بدأ التفاعل مع المحيط، والعلاقة بين المكان والفضاء يتم في هذه المرحلة على مستوى من التصعيد يصهر فيه، عبر الصور البصرية القوية التأثير، ليس فقط المكان والفضاء، بل أيضاً الناس والحيوانات، والجحيم والفردوس، والجبال والتلال، كما نرى في قصيدته» كنيسة يريكون»:

مبكراً، في صباح أحد
سماء زرقاء مبكرة بخطوط قرنفلية
تنحدر للأسفل
وفي الأعلى خط من غيوم وردية قليلة
معلقة فوق المدينة

***

التلال والجبال جليّان
لكل هذه الأشياء (ربما)
السماء والجحيم والآلهة
في كل منا
الشمس تذيب الصقيع منتصف الصباح
لكن في التلال والبرك صقيع سميك
ثلج كثير على الجدران الشمالية
لمدرّج الجبال العاري. (المجموعة الكاملة، 394)

من البداية تحدد هذه القصيدة مكانها (كاتدرائية)، وتبدأ أيضاً بزمان محدد (صباح أحد). ومن السطر الثاني، تتطور فجأة عبر استعارات مادية، تمزج المكان والزمان في عملية التصعيد، كما تبدو اللغة « متجسدة في لحظة عملية إنتاجها، وهي تتحرك من «الرأس» المتأمل عبر التجربة البصرية للعين (...) ويصبح الشكل الشعري واللغة وسليتين للخيال الذي يجعل سطح القصيدة «انعكاسا»، يبعث بصورة عملية البناء ذاتها». 29 هذا التناغم بين الشاعر والمكان أصبح عنصرا واضحاً في قصائد هارووד المتأخرة. هل وجد «مكانه اللائق» أو «مكانه الشعري» أحيراً؟ يبدو أن الأمر كذلك:

لا أريد مكاناً آخر
بل أن أكون هنا
سواء أكنت جاثماً على صخرة تقيني من الرياح
أو على غيمة ...
أو هابطاً من منحدر مهشماً...يتشربني نفق الغابة المظلم
(ربما تقول أي شكل غريب من المتعة هذا)
لكن فقط أن أكون هنا
وليس في مكان آخر
الأمر بهذه البساطة، تقريباً. (المجموعة الكاملة، 348)

ينتظم كثيرا من قصائد هذه المرحلة، كما في» سسكس داونز»(المجموعة الكاملة، 314) و» أماكن سابقة، وأنت» «(المجموعة الكاملة، 325)، و «رحلة شتائية»(المحموعة الكاملة، 365)، توازن دقيق بين المكان، كغرافيا ومفهوم، وبين الماضي والحاضر، كما أن الشعور بالغربة، الذي انعكس في قصائده الأولى، قد حل محله شعور قوي بالانتماء، والحب، والسلام. تحقق الانسجام بين الشاعر وذاته والمكان، واختفت الأشباح:

أن تقع في حب الريف
ويستديم ذلك الحب،
وتكتب قصائد حب
برأس واحد، وعيون واحدة، وأصابع
واحدة،
وجسد واحد
متنزها
بين حقول الحنطة في شهر تموز اللاهب
سكران برائحة البابونج
قصائد لا يمكن أن تفسرها أية كلمات

***

كما لو أني طوال حياتي
كنت أسعى للوصول لهذا،
طيشي المبكر صار خلفي الآن،
الاستقرار أخيرا
في هذا العمر.

***

لا أشباح هنا
كما لو أننا سنعيش للأبد
كل التاريخ وكل ذواتنا
تعيش معا في هذه اللحظة
في مكان واحد بلا رغبة أن تعيش في مكان آخر. (المجموعة الكاملة،314).

شاعر ومترجم من العراق مقيم في لندن

الهوامش

الهوامش

Nick Selby, ‘Transatlantic Poetics in H.M.S. Little Fox and Boston-Brighton’, in The Salt Companion to Lee 1
.(p. 85) 103-Harwood, ed.by Robert Sheppard(Cambridge: Salt Publishing, 2007), pp.85
.(p.195)206-Ian Davidson, ‘Nowhere Else-The Later Poems’ in The Salt Companion To Lee HarWood’, pp.195 2
Gaston Bachlard,The Poetics Of Space aesthetics, trans.by Maria Jolas,3rd edn (Boston: Beacon Press, 3
.1994), p. 4
.Bachelard, P. 5 4
.Bachelard, P.6 5
Henri Lefebvre, The production of space, trans.by Donald Nicholson-Smith, 3rd(Oxford & Cambridge .....) 6
7-pp.26
.Lefebvre , p.77 7
.Doreen Massey, For Sapce(London: Sage Publication. 2005), P. 9 8
Massey, p. 24 9
.(p.195) 206-Davidson, in The Salt Companion To Lee Harwood, pp.195 10
Ian Davidson, Ideas of Space In Contemporary Poetry(London: Palgrave Macmillan 11
.p.33 ,(2007)
.Davidson, Ideas of Space In Contemporary Poetry, p.33 12
Geoff Ward, ‘Lee Harwood’s Guaranteed Fine Weather Suitcase’ in The Salt Companion To Lee HarWood, 13
.(p. 36)53-pp 35
.Davidson, The Salt Companion To Lee HarWood, P: 199 14
.Lee Harwood: Collected poems (Exeter: Shearsman Books, 2004), p: 28 15
Nick Selby, The Salt Companion To Lee HarWood, p. 85 16
.The Salt Companion To Lee HarWood, p.200 17
.Robert Sheppard ,T he Salt Companion To Lee HarWood, p.10 18
Robert Sheppard, ‘So It Shifts: An Interview with Lee Harwood’, in The Salt Companion To Lee HarWood, 19
.(p. 10)17-pp.8
.10-Sheppers, pp. 9 20
Mari Hughes -Edwards, ‘...love and other obsessions’: the Poetry of Desire’, in The Salt Companion To Lee 21
.(HarWood, pp. 127- 151(p. 128
Tony Lopez, The White Room in the New York Schoolhouse, in The Salt Companion To Lee HarWood , 22
.(p. 79)84-pp.69
.R.A. York,The Poem As Utterance (New York: Methuen, 1986), p. 1 23
.Selby, p.85 24
.Selpy, p. 86 25
.Selby, p. 87 26
.Selpy, p. 88 27
.Davidson, in The Salt Companion To Lee HarWood, p. 196 28
.29Davidson, P.200
.Davidson, P.200 30

شعر

التّفّاحَةُ المَعْطوبَةُ

بيانٌ شخصيٌّ ضدّ الـ24 ساعةً الأخيرة

نوري الجراح

ضدَّ الجَرَسِ وَالمَقَاعِدِ الخَالِيَّةِ فِي المَطَرِ
ضدَّ السَّلَالِمِ صَعُودًا وَهَبُوطًا،
ضدَّ اللُّغَةِ،
ضدَّ الغُرْفَةِ،
ضدَّ الشَّاعِرِ وَقَصِيدَتِهِ الطَّوِيلَةِ كَنَهَارٍ أَعْمَى.

ضدَّ الحُبِّ لِأَنَّهُ سَرِيرٌ، ضدَّ الشَّجَرَةِ
ضدَّ القَدَرِ، بِالمُقَلَّوبِ
ضدَّ الخُبْزِ
ضدَّ الأَبْطَالِ،
ضدَّ المِفْرَمَةِ
ضدَّ الفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ النَّحِيلَةِ العَاشِقَةِ، لِأَنَّهَا سَتَعْقِلُ.

ضدَّ الحِكْمَةِ، ضدَّ الشَّبَقِ والدّيكتاتوريّة.
ضدَّ المُنَشَّقِينَ، سيَنْشَقّونَ ثَانيةً
ضدّهم..
ضدَّ المُحَلِّلِ السّيَاسِيِّ ومِظَلَّتِه التيْ أَخْفَى بَيْنَ الأَشْجَار.

ضدَّ السّيَّاحِ، ضدّ المُقِيمِينَ، ضدَّ المُنْفيّينَ بِرِعَايَةِ مَارْلْبُوْرو
ضدَّ الطّفْلِ المَائِعِ وأَبيْهِ المُعَارِضِ وقِناعِه الشّكسْبِيْرِيّ
ضدَّ المُخَيّلَةِ ومَأْتِمِها الآسِن.

ضدَّ الكُوْمسْمُولِ الأَمِيرِكِيّ.

ضدَّ هَذَا الشِّتَاْءِ الطّوِيْلِ بِلَا سَبَب.

ضدَّ إِجْتِيَازِ الشَّارِعِ مِنَ اليَسَارِ إِلى اليَمِيْنِ خَمْسَ مَرَّاتٍ
في اليَوْم
ضدَّ الأَفْكَارِ السَّالِبَةِ والأَفْكَارِ المُوْجِبَةِ
ضدَّ الطَّبِيْعَةِ النَّائِمَةِ في دَعَةٍ
ضدَّ المَشَى
ضدَّ العَتَبَة
ضدَّ المَنْزِل
ضدَّ النُّزْهَةِ المُنْتَظَرةِ، ضدَّ السَّلَامِ العَائِلِيِّ والسّوْبِرْمَارْكِت.

ضدَّ نَشْرَةِ الطَّقْسِ، ضدَّ القَيْلُوْلَة، ضدَّ الحُدُوْدِ المَرْسُوْمَة
ضدَّ الصِّدْقِ، ضدَّ الصُّورةِ الشِّعْرِيَّةِ، ضدَّ اِبْنِ مَالِك
ضدَّ الرَّسَائِلِ العَاطِفِيّة المُعَطَّرةِ، ضدَّ شَهْرٍ واحدٍ.

ضدَّ المَعْرَكَةِ، ضدَّ المُهَرّجِ، ضدَّ السَّرِيْر
ضدَّ البَارَانُوْيا، ضدَّ الإِضَاءَةِ الخَفِيْفَةِ، ضدَّ شُخُوْصِ
المَسْرَحِيَّة
ضدَّ الغُرُوبِ، ضدَّ المَغُولِ، ضدَّ الوَرْدَةِ البَيْضَاءِ، ضدَّ
الأَنْدَلُس.
ضدَّ أَيَّارٍ فَارِغٍ وحزَيْرانٍ أَكْثَرَ فَرَاغاً.

ضدَّ الزَّوْرَقِ والسّكرِتِيرَةِ النَّائِمَةِ في الزَّوْرَق

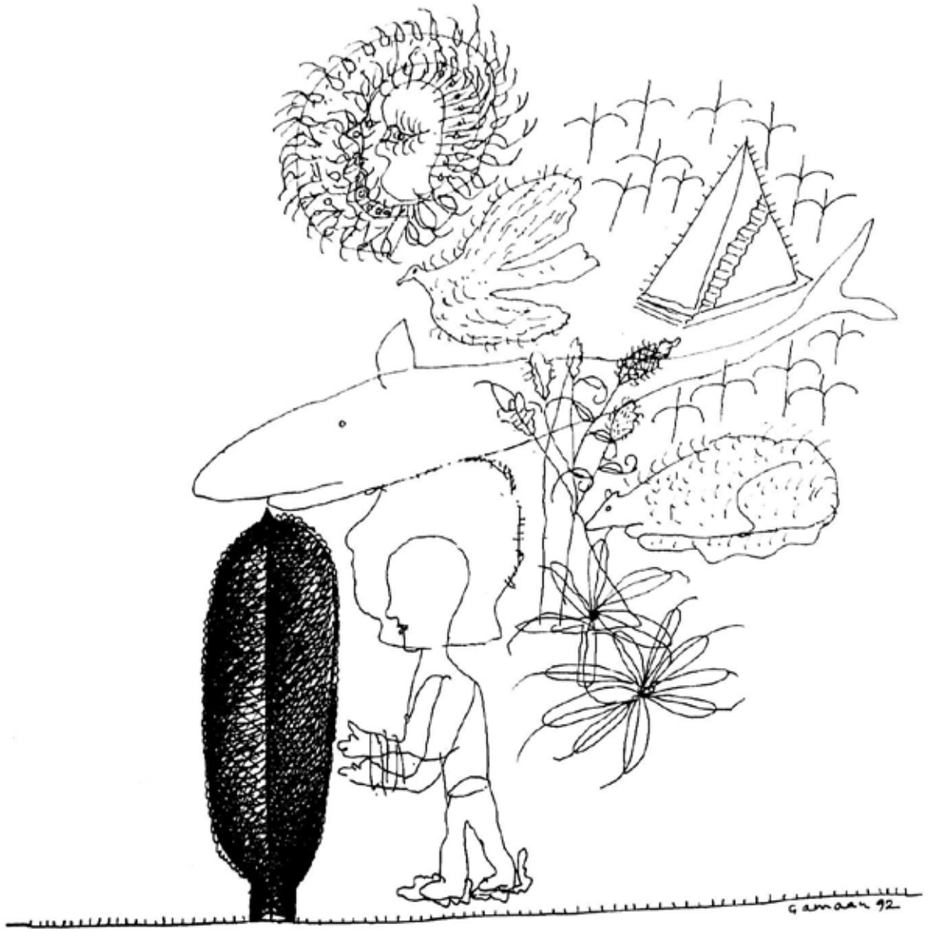

حسين جمعان

والظِّلَالِ على مَطْلَعِ المَاْءِ في المَرْسَى.

ضدَّ القِنَاعِ في اليَومِ الثَّالِثِ، ضدَّ المَرْأَى ومَا تَحَرَّكَ في
اللَّيْل
ضدَّ المَصْنُوْعَاتِ الوَطَنِيّةِ والهَجْرِ والوِصَاْل
ضدَّ العَقْلِ لأَنَّه أَبْيَضُ. ضدَّ القَلْبِ، لأَنَّهُ بِلا لَوْنٍ
ضدَّ المَوْعِد لأَنَّهُ زَاهٍ،
ولأَنَّهُ، بَعْدَ ذَلِك، نافذةٌ على أُرْجُوحَةِ البَلَاهَات.

والحَقِيْقَةُ أَنَّنِي ضدَّ هَذِهِ المُحَاوَلَةِ فهِيَ بِلَا طَائِلٍ.

ضدَّ البَقَاءِ في المَمَرِّ بِلا عَمَلٍ
ضدَّ السِّتَارَةِ الحَمْرَاْء.

ضدَّ دَائِرَةِ الطَّبَاشِيْرِ، ضدَّ الأُمَّهَاتِ، ضدَّ المُسْتَقْبَل
ضدَّ أَزْهَارِ المُتْعَةِ

ضدَّ الأَنْدَلُس مُجَدَّداً..
ضدَّ الخِيَانَةِ مِن طَرفٍ وَاحِدٍ.
ضدَّ العَدُوِّ والصَّدِيْقِ. ضدَّ حِبَالِ الأُرْجُوحَةِ.

ضدَّ الوَاعِظِ والخَرُوْفِ وبَابِ الجَنَّة.

ضدَّ تَحْرِيْرِ فِلَسْطِيْنَ عَن طَرِيقِ اِحْتِلالِ بَيْرُوْتَ ودِمَشْقَ
وبَغدادَ وصَنْعَاء والرّبْعِ الخَالِي
ضدَّ الشَّعْرِ
ضدَّ القَرْنِ المُقْبِل.

ضدَّ النّمرِ لأنَّه لمْ يَلْتَهِم لِحية الوليِّ الفَقِيه وإلْية أفيخاي
أِدْرَعي دامَ ظِلّه.

ضدَّ الأَقَلّيَّاتِ، مَرّةً أُخْرَى، لأنَّها مَأْفُوْنَة
والأَكْثَرِيّاتِ لأنَّهَا تَائِهَة.

ضدَّ ضَرَبَاتِ الجَزَاء.

ضدَّ الأَصْوَاتِ المُنْكَرةِ، ضدَّ الحُزْنِ في المأْتَم
ضدَّ الرَّغْبَةِ في العُبُورِ بِسَلامٍ
ضدَّ إِبْقَاءِ كُلِّ شَيْءٍ على حَالِه
ضدَّ التّوَابِيْتِ وقَوالِبِ الحَلْوَى والمُيُوْعَةِ العَاطِفِيّةِ في
الشِّعْر
ضدَّ الأَبْنَاءِ الشّعْرِيّيْنَ لِآبَاءٍ بِلَا عَقْل.

ضدَّ الكُرَةِ، واليَدِ التي تَرَكَتْهَا
ضدَّ اِسْتِمْرَارِ المَشْهَدِ بَيْنَمَا الشَّمْسُ تَذْبُلُ في النَّافِذَة
ضدَّ الغَسِيْلِ يَنْعَسُ وهُوَ يَقْطُرُ دَماً
والمَرَايَا تُطلُّ بِرَأْسِها خَطْفَاً
وتَرْجِعُ؛
ضدَّها، وضدَّ الاِسْمِ يُزَيّنُ بَابَ البَيْتِ بِلا سَبَب.

ضدَّ رَائِحَةِ المَقْبَرَةِ فَاْحَت في البَنَاءِ بِأَكْمَلِه.

ضدَّ المَوْتَى يَتَبَادَلُوْنَ بِطَرَبٍ تَحِيَّةَ الصَّبَاح..
ضدَّ الشّمْسِ والجُدْرَانِ والصَّرَخَاتِ وَمَن اِغْتُصَبَ وُجُودُهُ
في هَذِهِ الأَنْحَاءِ
ضدَّ دُمُوعِ المُتَفَرّجِينَ عَلَى المَسْلَخ. ضدَّ المُصَفِّقِينَ للخَطِيْبِ
المُنْتَصِرِ مِن وَرَاءِ الأَسْلَاكِ عَلى العَدُوِّ المُنْتَصِرِ عَلى الأَشْلَاءِ..
ضدَّ دَفْنِ الأَشْلَاء.

ضدَّ الكَيْنُوْنَةِ واللّسَانِ الذي عَقَل خِطَابَهَا
ضدَّ إِدْرَاجِ الكَلِمَةِ والاِطْمِئْنَانِ عَلى السِّيَاقِ
ضدَّ الأَسْرَى المُسَاقِيْنَ إلى الجَنَّةِ بالسَّكَاكِيْنِ
ضدَّ الاِغْتِسَالِ مِن آثَارِ الجَرِيْمَةِ
ضدَّ لَفْلَفَةِ المَوْقِفِ. ضدَّ فَبْرَكَةِ اللّحْظَةِ. ضدَّ سَتْرِ اللّحْمِ
العَارِي.

ضدَّ رَفْعِ الكِلْفَة.

ضدَّ تَأْخِيرِ المَوْعِد. ضدَّ المَوْعِد. ضدَّ تَزْوِيرِ الصَّرْخَةِ
ضدَّ سَوْقِ المُبَرّرَاتِ قَبْلَ إِقَامَةِ المَقْصَلَة
ضدَّ الاِنْتِظَارِ ثَلاثَةَ أَيّامٍ أُخْرَى إلى أنْ تَكْتَمِلَ المَذْبَحَة
ضدَّ تَرَقُّبِ الهَاتِف.

ضدَّ السّارِعِ لأنَّه بِلا مَارّةٍ يُشْبِهُونَ الأَطْفَالَ في مِشْيَتِهِم.

ضدَّ رَسَائِلِ الأَقْرِبَاءِ لأنَّها فَوَاتِيْرُ عَاطِفِيَّةٌ مُجْرِمةٌ
ضدَّ مُحَاوَلاتِ الطّبِيبِ وضدَّ مُجَالِسي لمْ يَكِفَّ عنِ
الشّكْوَى.

ضدَّ الخَوْفِ، ضدَّ الفَرَحِ، ضدَّ المُفَاجَأَةِ

حسين جمعان

ضدَّ الحَنَانِ لأنّه يَغمِرُ، ولأنه يودي، ولأنه ضدّ ما يعوزني
من لؤم
ضدَّ النوم.

ضدَّ إرادة الوقوف حتى الصباح.

ضدَّ السَّفَرِ والمَعرِفَةِ واختِلاَقِ الأَعذَارِ
ضدَّ الحُفْرَةِ وَزَلَّةِ القَدَمِ وَالمَجْهُولِ
ضدَّ الصُّوَرِ المُرَبِّيَةِ لِمَا يَدْبُرُهُ الأَصْدِقَاءُ نِيَابَةً عَنِ الأَعْدَاءِ.
ضدَّ الخِدَاعِ العَاطِفِيِّ
ضدَّ المَخْدِعِ.
ضدَّ أَطْلَسِ وَكَوْكَبِهِ الأَزْرَقِ المَحْمُولِ عَلَى صَلِيبٍ مِنَ
الْبِلاَسْتِيكِ.
ضدَّ الأَبْيَضِ وَالأَسْوَدِ بَعْدَمَا كَانَ الْوَاجِبُ يَقْتَضِي أَنْ
يَكُونَ كُلُّ شَيْءٍ بِلاَ لَوْنٍ.
ضدَّ الْحُرِّيَّةِ لِأَنَّهَا سُكَّرُ الْفَمِ اللاّعِبِ.

ضدَّ التَّرَاكُمِ الْكُمّيِّ الَّذِي يُؤَدّي إِلَى هَبَاءٍ مُلَوَّنٍ.

ضدَّ رَفَّةِ الرُّوحِ.
ضدَّ صَرْخَةِ الْوِلاَدَةِ
ضَدَّ النَّفْسِ الْمُرْتَجِّ مِنَ الانْفِعَالِ
ضدَّ الْجَسَدِ الْهَاذِي وَالرُّكْبَةِ الْخَائِرَةِ.
ضدَّ التَّقَاطُعِ النَّظَرَةِ سَاعَةَ تَنْكَسِرُ النَّظَرَةُ.

ضدَّ هَذَا النَّهَارِ، تَسَاقُطَ فِي رَاحَتَيْنِ وَكَانَ أُعْطِيَّةً.

ضدَّ الظِّلَالِ وَمَا تَوَارَى لِيَظْهَرَ بَعْدَ حِينٍ
ضدَّ الأَمْسِيَّةِ الْقَصِيرَةِ لِأَنَّهَا حَيَاةٌ كَامِلَةٌ
ضدَّ الانْخِطَافِ
ضدَّ الْمَطَرِ
ضدَّ الرَّعْشَةِ، وَاللَّذَّةِ مِنَ التَّفَاتَةِ،
ضدَّ اللُّعْبَةِ
ضدَّ الشُّهَدَاءِ وَدَمِهِمُ الْأَبْيَضِ..
وَضدَّكَ أَنْتَ، ضدَّكَ أَنْتَ أَيْضاً، أَيُّهَا الْقَارِئُ.

ثائر موسى
الفيلم القصيدة

سينمائي سوري درس الإخراج السينمائي في المدرسة العليا للسينما في وودج/ جمهورية بولونيا،من بواكير أعماله بعد عودته من بولونيا إلى سوريا فيلم وثائقي بعنوان «فواز الساجر، حياة رغم موت الآخرين»، لكن الرقابة في سوريا منعت عرض الفيلم، فقرر ترك سوريا والعودة إلى بولونيا. أخرج بالشراكة مع المخرج التونسي الراحل شوقي الماجري بعنوان «في الطريق إلى الجنة»، فيلم وثائقي عن المهاجرين العرب في بولونيا. عاد إلى سوريا بعد رحلة أوروبية مديدة اشتغل خلالها في الإخراج التلفزيوني، ليكتب ويخرج فيلما روائيا تلفزيونيا بعنوان «الغفران». أخرج سلسلة وثائقية مؤلفة من 5 أفلام، بعنوان «أعمدة النور» عن المعالم والكنائس المسيحية في سوريا، بثها التلفزيون السوري بمناسبة زيارة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني إلى سوريا عام 2001. كتب وأخرج فيلما سينمائيا قصيرا بعنوان «سفر الأجنحة»، والفيلم من إنتاج المؤسسة العامة للسينما في سوريا. أخرج فيلما وثائقيا عن الشاعر والكاتب المسرحي ممدوح عدوان بعنوان «ما زال بيننا». عمل في الدراما التلفزيونية السورية فأخرج ثلاثة مسلسلات هي (الموعودة، لورنس العرب، الهروب). أخرج مسلسلين عراقيين (البيت المنسي، ذاكرة وطن). كتب سيناريو وأخرج الفيلم الروائي «مزار الصمت» والذي تم تصويره مؤخراً في تونس.

«الجديد» التقته في لندن، مقر إقامته الحالي، صحبة رفيقة دربه الممثلة السورية عزة البحرة. ودار الحوار حول أفكاره وتطلعاته السينمائية، لاسيما من خلال آخر أعماله، «مزار الصمت» الفيلم الروائي الذي مثلته كوكبة من الممثلين العرب على رأسهم الممثل الفلسطيني محمد بكري، وجرى تصويره في تونس، ويتناول الفيلم تحولات حياة أنثى من الشرق-سورية غداة اندلاع الثورة السورية، وتحولها إلى تراجيديا دموية، ومأساة إنسانية كبرى.

الجديد: أول ما يمكن ملاحظته وتتبعه والعيش معه في فيلمك "مزار الصمت" هو البعد الشعري، فالمشاهد السينمائية وحركة الشخصيات في تلك المشاهد تنتج في حواس المشاهد حالة من الانطباع الشعري، حتى لكأننا في بعض الحالات أمام اجزاء من قصيدة بصرية؟ حدثني عن هذا التطلب الجمالي لديك؟

ثائر موسى: بيسعد قلبي جدا الانطباع الذي خرجت به من الفيلم، فأنا حقا هكذا أرى السينما؛ قصيدة مكتوبة بالصورة، ويمكن القول منحوتة بالصورة، وهذا ليس من باب التزيين اللغوي، بل هو درب لا أحيد عنه في كل فيلم يتيسر لي إنجازه، والواقع أن تعبير "لا أحيد عنه" قد لا يكون الأمثل في حالتي، إذ يعكس قرارا واعيا أسير على هدي منه، والحقيقة غير ذلك، فالسينما الشاعرية تتسرب من كياني دون وعي يراقبها أو يشذبها، هي حالة من اللاوعي يسبح فيها الفيلم كقارب سلم نفسه بسلاسة لأمواج تصعد به وتهبط ، لتصنع إيقاع هذا الفيلم، موسيقاه، صوره، ألوانه، ظله ونوره، وبكلمة مختصرة، قصيدته، تلك القصيدة التي يكوّنها فسيفساء متشابك من ذاكرة مبعثرة هنا وهناك، ومن أحلام لا تدري مصدرها؛ أهو الدماغ؟ أهو العقل الباطن، أم ذاكرة جمعية لأجيال؟ أهي أساطير الأسلاف، أم مخيلة الصغار؟ وفي كل هذا يأتي الصمت بمثابة خيوط الحرير التي تشبك كل تلك العناصر، فالقصيدة السينمائية لا تستوي بدون الصمت، الذي لا يعني فقط غياب الكلمات، بل أولا وقبل كل شيء يعني إعطاء فسحة للكينونة الكلية كي تتأمل، ولحظات للعين كي تتبصر، وفرصة للقلب كي يتناغم بنبضاته مع الإيقاع الداخلي سواء لمشهد بحد ذاته، أو مع عموم إيقاع الفيلم.. باختصار شديد، أرى السينما على أنها قصيدة شاعرية لأرواح تسمو بصمت.

هذا عن السينما عموما، ولكني بالحديث عن "مزار الصمت" تحديدا، فإني أود الإشارة أن الصمت في الفيلم، ليس عائدا أبدا إلى أن بطلة الفيلم "ليلى" تقرر الصمت، لا، أبدا، فالصمت ستراه في أي عمل آخر لي، مع العلم أن الجميع يتحدث، وليس

هناك ما يشبه صمت ليلى، فالمسألة إذن، تكمن في مفهومي عن الصمت في الفيلم السينمائي، وفي كون الصمت، كما أفهمه، جزء لا يتجزأ من الشريط الصوتي للفيلم، وجزء من بناء الرؤية الصوتية في الفيلم، من حوارات ومؤثرات سنكرونية وغير سينكرونية، ومن موسيقا، وبالتالي، وأيضا، من صمت..

الحب الخالص

الجديد: ما الدافع الفكري الذي حملك على أسطرة الأنثى في فيلمك وإحاطتها بشيء من القدسية في مناخ صوفي؟

ثائر موسى: في الواقع هو ليس دافعا فكريا، وهي ليست أسطرة، وإن سألتني عن التوصيف الأدق، لعجزت عن التحديد..هي المرأة جدتي الريفية، التي كانت تأتي لزيارتنا في المدينة وأنا صبي صغير، فتسحرني صبيا حين أراها أمام المرآة تلف حول رأسها منديل الريف الأبيض المطرز، وأحتار حين أرى أمي التي أعشق، تذهب إلى عملها دون منديل على رأسها، فأتساءل في نفسي من منهما الأصح، وأستعمل هنا كلمة الأصح لأنهما، في عيني، كانتا جميلتين على حد سواء.. وهي المرأة عمتي أرملة "القديس"، والتي حين أفكر بها يخطر ببالي غابرييل غارثيا ماركيز، فلو عرف قصتها لكانت إحدى بطلات رواياته.. وهي المرأة خالتي المقهورة على ابنها الذي استشهد في القصف الإسرائيلي لمقر منظمة التحرير في تونس، ولم يسمح لها حافظ الأسد بدفن ابنها في سوريا، فكانت تذهب سنويا لزيارة قبره في الأردن..

وهي مؤخرا المرأة السورية التي رأيت آلامها، وخلعت قلبي مآسيها بسبب الحرب القذرة التي شنت على أولاد المرأة السورية، على أبائها، وإخوانها، وأزواجها، وكل ذلك رأيته معاناة تبدأ من الألم اليومي، لتنتهي في مصاف طريق العذاب التي سلكها المسيح.. إنها درب الأشواك التي قطعتها المرأة السورية، لكنها لم تسمح أن تصلب، فمضت تضمد جروح الجسد، وقبلها جروح الروح، وما فيلمي "مزار الصمت" إلا انحناءة أمام تلك المعاناة، وقد يكون القول الأفضل بأنه ركوع في حضرة أوراح السوريات المعذبات، ومن هنا يبرز مفهوم القداسة الذي ظهر في الفيلم، فليلى افتداء لأخيها، وروح مباركة لابنة زوجها، وحياة لأرض عطشى، ومطر يقطر من تصوفها.. إنها الحب الخالص الصافي الذي غمر حتى قلب معذبها/ زوجها فغدت ذكراها ألمه وخلاصه، قلبه المخلوع لفقدانها، وروحه التي سمت بمرورها في حياته.

متعة حقيقية

الجديد: لفتتني شخصية محمد بكري في الفيلم، وطريقة أدائه لها... حدثني تجربتك معه... في "مزار الصمت"؟

ثائر موسى: بدأت الصلة مع الممثل القدير محمد بكري حين حصلت على إيميله من صديقي المخرج والمنتج التونسي فيصل الحصائري، والذي له فضل كبير في الدعم الإنتاجي لإنجاز "مزار الصمت"، وهكذا أرسلت لمحمد إيميل ومعه سيناريو الفيلم، فقرأه ليعود لي بدفق كبير من الانفعال للفيلم، ولشخصية ليلى، وأيضا برغبة عارمة في لعب دور زيدان..

بعدها كان لقائي الأول مع محمد بكري في اسطنبول، حيث أتانا إليها قادما من فلسطين، وكانت أحاديثنا الأولى حول السيناريو عموما، وحول دوره بالخصوص، وكان وقتا طيبا قضيناه هناك لنتعرف واحدنا على الآخر.

حين أتى وقت تصوير الفيلم، وكان ذلك في تونس، قدم محمد خلال فترة التحضيرات، وقمنا بالعديد من جلسات القراءة للسيناريو بمساهمته ومساهمة الممثلة التونسية نور حجري، التي قامت بدور ليلى، وقمنا بكل التعديلات أو التغييرات التي مهدت لنا الأرض لتعامل واضح مع الشخصية أثناء فترة التصوير، وهنا تجدر الإشارة أننا، ولأسباب إنتاجية ولوجستية، دخلنا التصوير ابتداء من أصعب "بلوك" في تصوير مشاهد شخصية زيدان، أي في الغرفة التي انتقل زيدان للعيش فيها، والتي هي الحامل الرئيس لكل ما سوف نشاهده لاحقا في الفيلم من تغيير سواء مكاني، أو فيزيولوجي، أو نفسي، طرأ على شخصية زيدان، وهذا ناهيك عن الفاصل الزمني الذي يربط الوقت الحالي للفيلم، بما مضى من أحداث..

"أحداث "مزار الصمت" تدور في أحد البلدان والتي تشتت فيها السوريون هربا من الطغيان"

كل ذلك جعل من المهمة أصعب، سواء على الممثل الذي يبدأ التصوير من أقصى درجات تصاعد حالته النفسية،

أو على المخرج الذي عليه أن يكون عينا صائبة لكل خلجة روح ترتسم على وجه الممثل، ولكل أداء يجب أن يكون موزونا بدقة في سياق الانتقال بين الماضي والحاضر، ولعل أهم ما يمكنني أن أصف به تعاوني مع الفنان محمد بكري، هو الثقة المتبادلة بيننا، فهو لجهة ثقته بي، كان آذانا صاغية لكل ملاحظة كنت فيها أطلب بعض التعديلات في أدائه، وأنا بالمقابل كنت أتيح له وبكل أريحية ما كان يطلبه أحيانا، إذ أنه وبعد رؤيته رضاي عن تصوير المشهد، كان يطلب مني "دوبل" إضافي يريد هو أن يؤديه بإحساس آخر في تلك اللحظة، وليترك لي لاحقا القرار بين ما قبلته، ما أدّاه من نفسه، وكان قراري النهائي يتخذ أثناء مونتاج

الفيلم.. ببساطة، كان العمل مع محمد بكري متعة حقيقية، وأجزم أنه كان واحدا من الأعمدة المهمة التي قام عليها الفيلم.

رحلة مأساوية

الجديد: أثارتني فكرة هوية المكان الذي تدور فيه الاحداث، إنها تكاد تكون مصرحا بها تصريحا غير ناجز ولا مكتمل ... ما السبب في ذلك؟

ثائر موسى: الأحداث تدور في واحد من بلدان اللجوء المجاورة لسوريا، والتي تشتت فيها السوريون هربا من الطغيان ، وبالتالي فإن بلد الأحداث يمكن أن يكون الأردن، أو لبنان، أو تركيا، والحقيقة أن ما رأيناه في الفيلم كان يمكن بالفعل أن يتم في أي بلد من تلك البلدان.

من جهتي، كمخرج للفيلم، وأيضا ككاتب للسيناريو، فقد قررت ألا أفصح صراحة عن بلد الأحداث، وذلك أولا كي تأخذ الأحداث طابعا عاما، والمأساة بعدا جغرافيا واسعا لا يرتبط بمكان، وثانيا لأن تحديد المكان بصراحة، سيدفع بعض المشاهدين لمحاولة المقارنة الواقعية إن كانت هكذا قرية يمكن أن تكون في هكذا بلد، أو إن كانت ظروف اللجوء التي شاهدناها في الفيلم، مطابقة للصورة في ذهن المشاهد عن ظروف اللجوء في هذا البلد أو ذاك.

خارج المكان

الفيلم هو رحلة مأساوية لكينونة أنثوية، تعاني منها فتاة سورية نكبتها الحياة بغربتين؛ الأولى كانت هربها، مع أمها، من المقتلة التي ارتكبها النظام بحق أبناء شعب سوريا، والثانية، الغربة الأصعب، في بعدها عن أمها، الوحيدة التي بقيت لها في هذه الحياة، وقذفها إلى قرية الزوج، حيث الوحدة المطلقة، والمعاناة التي انتهت بمصير ليلى الذي نراه في نهاية الفيلم..

لهذا أعتقد بأن خياري الواعي بألا نحدد هوية البلد التي جرت فيه الأحداث، كان صحيحا، وأن هكذا خيار سيساهم في جعل الفيلم مقبولا بغض النظر عن البلد الذي قد يخطر في بال المشاهد، وضمن هذا السياق، فإني أعتقد أن فيلم "مزار الصمت" سيكون متحررا ليس فقط من الجغرافيا، ولكن أيضا من مرور الزمن، فهو فيلم يمكن أن تشاهده الآن، وبعد سنة، وبعد عشرة، إذ لا يلتزم الفيلم بمكان، ولا زمان، ولن أستفيض هنا بشرح وجهة نظري هذه، بل سأترك للمشاهد أن يحكم بنفسه حين يشاهد الفيلم سواء الآن، أو في زمن قادم..

تاركوفسكي وبيرغمان

الجديد: انت ابن مدرسة وودج البولونية في السينما من حيث الدرس والتأسيس الأكاديمي، ولكن كيف تطور مفهومك الشخصي للسينما، ومن هم آباؤك السينمائيون الأكثر تأثيرا في انتاج ميولك الجمالية في السينما؟

ثائر موسى: لا بد لي في البداية من القول بأني أعتبر نفس محظوظا جدا إذ أتيحت لي الفرصة للدراسة في المدرسة العليا للسينما في مدينة وودج ببولونيا.. تلك كانت واحدة من أهم المدارس في أوربا بشرقها وغربها، بل ولا أبالغ أبدا إن قلت في العالم قاطبة، وأذكر أن المدرسة كانت قبلة لكل من رغب بتحصيل أكاديمي سينمائي عالي المستوى، من أوربا الشرقية والغربية، ومن أميركا الشمالية واللاتينية، من آسيا وأفريقيا..

وفي المدرسة العليا للسينما بوودج، قدمت لنا من الإمكانات أضعاف ما كان يحصل عليه الطالب في المدارس الغربية سواء في انكلترا أو فرنسا أو ألمانيا الغربية في ذلك الوقت، وهذه إحدى المحاسن الكبرى للنظام الاشتراكي الذي كان سيئا في كثير من الأمور، ولكن الإنصاف يقتضي القول بأن هذا النظام قدم الكثير لدعم الثقافة والفنون، ومن بينها للمدرسة العليا للسينما، وأصبح اسم "مدرسة وودج" ماركة مسجلة، وعلامة فارقة في مدارس السينما في العالم..

أما عن سؤالك حول تطور مفهومي الشخصي للسينما، فيمكن القول أني شفيت من لوثة السياسة في السينما، ولكي أوضح هذا "الشفاء"، دعني أقول أن علاقتي بدأت من رغبتي، كشاب يساري الفكر، بالوصول إلى طرح "القضايا الكبرى" من خلال منبر واسع الانتشار كالسينما، وهذا ما جعلني أفكر بدراسة الإخراج السينمائي..

هكذا كانت البداية، وإلى تحقيق هذا الهدف توجهت، وأذكر أن الدخول إلى "مدرسة وودج" كان كما يقال: "أصعب من دخول إبليس الجنة"، فقد كان امتحان الدخول يقترب من التعجيز، بشروطه القاسية جدا، ومتطلباته الأكبر والأوسع بكثير مما ظننت، وللعلم، فقد قضيت سنتين متواليتين في بولونيا، وأنا أتحضر لامتحان الدخول ذاك، حيث كانت المدرسة تقبل ثلاثة طلاب أجانب فقط في السنة، وكنت في ترتيب النجاح بالامتحان، الثالث، أي أن شعرة رقيقة كانت تفصلني عن ألا أنجح، وقد كنت دائما أمزح بالقول، أن بركات الرفيق الأعلى كارل ماركس هي التي ساهمت في دفعي نحو النجاح بالامتحان..

لكن الذي حدث لاحقا، أني خيبت أمل ماركس، ومعه الرفيق لينين، وبدأت شيئا فشيئا أشعر بضرورة فهم السينما كفن خاص

> **أطمح لإنجاز ثلاثية سينمائية Trilogy عن معاناة وتضحيات النساء السوريات**

بعيد عن الإيديولوجيا، ولا شك أن وجود أساتذة السينما البولون الرائعين، قد ساهم بشكل رئيس في أن أفتح الباب لسينما الروح، وأبتعد عن سينما الإيديولوجيا، وأعتقد أن تلك كانت نقطة الانعطاف الرئيسة في حياتي كسينمائي، سواء كطالب حينها، أو لاحقا كمخرج سينمائي محترف، وأود الإشارة هنا أن أساتذتي في المدرسة العليا للسينما، كانوا أيضا مخرجين عاملين في السينما البولونية، بل كانوا أبرز المخرجين في بولندا ذلك الوقت، سواء في السينما الروائية أو الوثائقية..

وأما عن "آبائي" السينمائيين، فإني أعتبر أن الروسي أندريه تاركوفسكي، والسويدي إنغمار برغمان، هما أعظم من أنجبتهما السينما على مر التاريخ، وهما، برغم الاختلاف بينهما في الأسلوب ، أقرب السينمائيين إلى قلبي، مع ضرورة التأكيد بأني أعشق أيضا أفلام الإيطالي فيدريكو فيلليني، والياباني أكيرا كوروساوا، وأنا أسميهم الآباء الأربعة للسينما في القرن العشرين، وطبعا هنا أتحدث عن السينما الناطقة، وإن كنت من باب الأمانة التاريخية، والإعجاب الشديد، أود أن أشيد بعملاقي السينما الصامتة: الروسي سيرغي ايزنشتين، والإنكليزي الأميركي شارلي شابلن.. طبعا هما اشتغلا لاحقا بالسينما الناطقة، ولكن السينما الصامتة هي التي ساهمت بولادة هذين السينمائيين الكبيرين.

ثلاثية سينمائية

الجديد: ما هو المشروع التالي بعد "مزار الصمت" وإلى اين يؤشر عمليا في موضوعه

ثائر موسى: الواقع أني أطمح لإنجاز ثلاثية سينمائية Trilogy عن معاناة وتضحيات النساء السوريات في سوريا وخارجها بسبب الحرب التي شنها النظام السوري على شعبه منذ 2011 وما زالت تبعاتها مستمرة حتى يومنا هذا.

لهذا فإن فيلم "مزار الصمت" يشكل الفيلم الأول من هذه الثلاثية، أما الفيلم الثاني فسيكون بعنوان مبدئي "وجها لوجه" وأتطلع إليه كخطوة أخرى في تسليط الضوء على درب الآلام للمرأة السورية، وانحناءة ثانية مني، احتراما وتضامنا مع النساء من بلدي، اللواتي أجبرتهن الحرب على الهرب بحثا عن أمان في بلاد اللجوء، هذا الأمان الذي لن يعرفنه، سواء في فيلمي الذي أنجزته "مزار الصمت" أو في مشروعي القادم "وجها لوجه".

وإن كانت أحداث الفيلم الأول تجري في بلد عربي، فإن المشروع التالي ستجري أحداثه في بلد أوربي؛ واحد من البلدان التي لجأ إليها السوريون في شتاتهم.

تجابهني بالطبع، كما جابهتني سابقا في "مزار الصمت"، مشكلة إيجاد التمويل للفيلم، خاصة وأني مضطر للقول، وبكل أسف، أن القضية السورية لم تعد تشكل ما يسمى "ترند"، وهي الكلمة التي أبغضها حين نتحدث عن معاناة الشعوب، وعن العذاب والقتل الذي يعاني منه البشر في أرجاء مختلفة من العالم.

اليوم، وببالغ الأسى، ألاحظ انصراف العالم عن الاهتمام بمعاناة السوريين ضمن البلاد وخارجها، تاركين بذلك هذا الشعب نهبا لنظام ديكتاتوري ، ولدول أخرى تساند هذا النظام تبعا لمصالحها، بينما يصم العالم روحه، ولا أقول أذنيه، عن واحدة من أكبر الجرائم التي ارتكبت بحق الشعوب، ومن يعرف أن ملايين السوريين قد أجبروا على ترك بلادهم، وأن قسما كبيرا من هؤلاء المهجرين ما زالوا وبعد 12 سنة من التشرد، يعيشون في خيام لا تقيهم بردا ولا حرا، سوف يستوعب مدى فداحة الجريمة التي اقترفها النظام السوري.

من هذا المنطلق، أجد لزاما علي كسينمائي أن أعبر عن مأساة شعبي السوري، ولكن طبعا ضمن فيلم سينمائي أحاول الوصول به إلى لغة فنية راقية، فالسينما بالنسبة لي كانت، وستبقى، هي السؤال ليس فقط ماذا تريد أن تقول؟ ولكن أيضا، وأساساً كيف تريد أن تقول ذلك؟ كيف تحول ما يعتمل في نفسك إلى عمل فني، يتجاوز الحدث الآني، ليدخله إلى آفاق سينمائية راقية بصيغتها ونسيجها الفني.

> مشاكلي مع الرقابة في سوريا بدأت مع فيلمي عن المخرج فواز الساجر

الجديد: منذ عودتك من بولونيا إلى سوريا عانيت كثيرا كسينمائي مستقل، وقد فرضت عليك ظروف قاسية أن تبتعد عن السينما وتعمل في المجال التلفزيوني، وأنا تقيم في بلدان عدة، بريطانيا، إيطاليا، الخليج العربي، وبولونيا نفسها...حدثنا عن أثر هذه السيرة المضطربة مع اختلاف المكان والرياح المعاكسة على سيرتك السينمائية؟

ثائر موسى: بدأت مشاكلي مع الرقابة في سوريا منذ العمل الأول في حياتي، وكان ذلك فيلما وثائقيا أنجزته عن المخرج المسرحي الراحل فواز الساجر، وكان ذلك في عام 1988 حيث كنت شابا صغيرا قد عاد للتو من بولونيا بعد تخرجي من المدرسة العليا للفيلم في وودج..

لقد منعت الرقابة المسعورة، والقائمين على إدارة التلفزيون السوري، عرض ذلك الفيلم حينها، فاتخذت قراري بعدها بضرورة الإسراع في ترك البلد، وعدم تضييع العمر مع نظام قمعي أفصح لي عن أنيابه مع أول فيلم أخرجته، ورغم أني عدت إلى سوريا بعد عشرة سنوات من خروجي، إذ كانت روحي تلح علي بضرورة إنجاز مشروعي السينمائي في سوريا، إلا أني قضيت خمس سنوات أحارب فيها لصنع فيلم روائي سينمائي، وكان جل ما استطعته في السينما، هو إنجاز فيلم سينمائي قصير بعنوان "سفر الأجنحة" وبقيت بعدها سنوات أحاول إنجاز فيلم روائي طويل ولكن دون نتيجة، مما اضطرني بعد خمس سنوات من شظف العيش إلى "الاستسلام" والقبول بدخول معترك الدراما التلفزيونية، وقد حاولت في المسلسلات التي أنجزتها أن أنقل بعضا من روح السينما إلى التلفزيون، وكل من يشاهد أعمالي التلفزيونية سيشعر بطيف السينما فيها..

مع ذلك، فقد تستغرب إن قلت لك أن ما سميته في سؤالك "السيرة المضطربة مع اختلاف المكان والرياح المعاكسة" لم تؤثر في الواقع على سيرتي السينمائية، ولعل الأصح أن أقول بأنها لم تؤثر على روحي السينمائية، ولم تغير من مفهومي للسينما، فالقصيدة السينمائية كانت دوما مرافقة لكل ما أنجزت على قلّته، والروح الشاعرية تراها في أي عمل أنجزته سواء في سوريا أو بولونيا أو تونس، أو ما أعمل عليه الآن من مشاريع سينمائية قادمة.. السينما كفن واضحة جدا في ذهني، وما اكتسبه مع الزمن وتغيير الأمكنة، هي الخبرة سواء الحياتية منها أو تحسين "أدوات العمل"، أما جوهر الفن السينمائي، فواضح في ذهني، وضوح الكريستال الصافي النقي من أي شوائب، ولهذا قلت لك أعلاه أني كنت محظوظا بالدراسة في "مدرسة وودج" العظيمة.. هناك نحت الأساتذة الكبار روحي السينمائية، وهناك فتحت أمامي الأبواب على فضاءات ستظل "مراكبي السينمائية" تتجول فيها حتى آخر فيلم لي، وآمل أن وقتا طويلا ما زال أمامي، وأعمالا سينمائية عديدة سأنجزها، وإن كانت المشاريع التي وضعتها أمامي على الورق، تحتاج لحيوات وحيوات حتى أحققها.

أجرى الحوار في لندن: قلم التحرير

مقال

أنشودة سينمائية بصرية

محمد جمال الروح

لأن الملائكة لا تعرف منطق البشر لم تنطق ليلى بكلمة، ظلت في صمتها تطعم عصافير الصباح من ضي أصابعها، وتحنو على حملان جاءت من البراري تتمسح في براءتها، كانت العيون الشاردة نحو المدى تروي ألف حكاية عن الفقد والغربة وعذابات الشتات.

عن ليلى الفتاة السورية التي رحلت في موكب الملائكة وبقيت ذكراها في قلوب الناس، يحدثنا فيلم "مزار الصمت" للمخرج السوري ثائر موسى، الذي قدم لنا عملاً لم تقف إشراقاته عند حد التشكيل البصري البديع، أو تناغم البناء الدرامي مع البناء البصري في خلق تلك التجليات الصوفية والطاقات النورانية التي أحاطت بالفيلم، بل امتدت هذه الإشراقات لوجدان المشاهد وأطلقت العنان لحواسه كي يتذوق الجمال ويثمل من عذوبة متعته البصرية. ويكون في الأخير ما يمكن أن نطلق عليه جماليات التأمل.

أسر الأرواح

في غياهب السجون يقع أحمد "عيسى العيسى" ضحية التعذيب والتنكيل، مثله مثل الآلاف من الشباب الذين أرادوا تذوق الحرية تهرب الأم وابنتها من ويلات الدمار إلى دولة مجاورة مع جموع اللاجئين، ومنذ غياب الأخ/السند تفقد ليلى النطق كمداً على شقيقها الحي الميت، تتحول لأيقونة حية من الجمال الصامت وكأنها ابتلعت وجع الكون.

وفي مخيمات اللجوء المحاطة بالأشواك والصبار تصبح الحرائر مطمعاً للجائعين ولصوص الأعراض وراغبي الزواج المجاني من الصغيرات التائهات في دروب المأساة. هنا يظهر زيدان "محمد بكري" يتزوج ليلى مقابل وعد كاذب بتحرير أحمد من سجنه. هكذا خدع زيدان الأم التي تعلقت بأيّ أمل ينجي وحيدها من عذابه. يتزوج زيدان من ليلى دون مهر وهي في عمر بناته أملاً في إنجاب وريث، ذلك الهاجس الأزلي للرجل الشرقي مهما طال به العمر. ليلى تساق إلى بلدة زيدان وقد جعلت منها الحرب سبية من سبايا الزمن الجديد، زمن الحديد.
تعيش ليلى في بيت زيدان مع زوجته الأولى وبناته، لكن زيدان لم يتمكن من ليلى التي كانت تهرب كل ليلة قاصدة مقام أحد الصالحين وتشعل من وجعها شموع الضريح، حتى مسّتها يد الملائكة، وبانت الكرامات التي وشحتها بقداسة نادرة.

جماليات الصمت

حقاً الصورة قصيدة بصرية مكتوبه بلغة الضوء. أبدع المخرج السوري ثائر موسى في صياغ قصيدته البصرية وفق لغة سينمائية بليغة استعارت مفرداتها من قاموس الجمال. نحن أمام لوحات بديعة التكوين محملة بدلالات ناجت الإدراك الحسي الجمالي للمشاهد حتى تظن أنها كانت هدفاً مستقلاً في ذاتها يتجاوز أحياناً خطوط الفعل الدرامي، لكن بنية تركيب العناصر التشكيلية كانت مرآة حقيقية للبعد الدرامي للفيلم وإيقاعه، جرى هذا بالتعاون مع مدير التصوير المجتهد حاتم ناشي الذى نجح بكل مهارة في استغلال كل خصيصة لعدساته متنوعة الأبعاد لخلق التأثير الدرامي المطلوب خاصة في لقطات البورتريه المتوسطة والقريبة التي خلق منها باستخدام الإضاءة والألوان لوحات تشكيلية سيحفل بها سجله المهني.

وحقيقة يحتاج جهد ثائر موسى ومدير تصويره في وصف شخصية ليلى بصريا إلى دراسة مستقلة، عن حركة الكاميرا وحركة العدسة قرباً وبعداً وتنوعها، وحركة ليلى وانعكاسات الضوء على ملامحها وإنارة

وجهها، وحتى رصد قطرات الماء على شعرها والوصول بها بصريا إلى مرحلة القداسة جهد كبير ومتعة بصرية لا محدودة.

فيلم ثائر موسى يثبت أن الفيلم الجيد لا يقترن بالضرورة بميزانية ضخمة، الأزمة الحقيقية هي أزمة إبداع وتحاور مع الجمال، ورؤية يجتمع حولها فريق عمل جاد.

"مزار الصمت" الذي تم تصويره في تونس وبممثلين أغلبهم من التونسيين، فيلم اجتمعت فيه عناصر الإجادة وخاصة على مستوى الأداء التمثيلي: سوسن معالج في دور "سعاد أم ليلى"، وشاكرة رماح في دور "زوجة زيدان الأولى"، طاقات أدائية معتبرة نجح ثائر موسى في إدارتها بذكاء واستخراج مخزون الموهبة داخلهن، وعيسى العيسى في دور "أحمد"، هو ممثل واعد يحمل ملامح قادرة على التشكل الدرامي. نورا حجري في دور ليلى وهي أكثر وجه تعاطت معه الكاميرا تستحق الاحتفاء على هذا الأداء الصامت الرصين والقدرة على تصدير الانفعالات الداخلية الحزينة لهذا الشخصية التي أخرستها الأوجاع وعصفت بها الحياة، ثم العبور بالشخصية إلى مرحلة أخرى من الشفافية والنورانية والقداسة.

أما في الكفة الأخرى فيجلس متربعاً الممثل الفلسطيني القدير محمد بكري بأداء متقدم المستوى، فاهم ومتقن موغل في ثنايا شخصية زيدان التي مرت هي الأخرى بمرحلتين مرحلة الشيخ الانتهازي الطامع في فتاة جميلة تنجب له صبياً، ثم مرحلة الاعتكاف والعزلة حزناً على رحيل ليلى التي يروي قصتها الغرائبية بنبراته التي تأتى من عمق الروح.

عودة الغائب

يعود أحمد بعد ثلاث سنوات باحثاً عن لحمه الضائع، يقرر الانتقام من زيدان الذي سرق أخته وخدع أمه، لكنه يجد بقايا رجل أنهكه الزمن، يبدأ زيدان في سرد قصة ليلى وتعود الأحداث (فلاش باك) منذ أن أتى بها إلى الدار حتى تحولت لتلك الأسطورة التي سكنت قلوب الناس.

لم يخرج سيناريو ثائر على الخطوط الدرامية التقليدية ولم يهتم بالتأصيل لشخصياته، وكان الرهان على تفاصيل الصورة وما ترويه رموزها الدالة، فجاءت الشخصيات مبتورة من جذورها بل نجده يزرع شخصيات هامشية لمد الخط الغرائبي للقصة وإضفاء النبرة الشاعرية كشخصية حسن عازف الربابة الشخص الغريب الذي خرج من عزلته ليلاً ليؤبن رحيل ليلى بعزف شجي أبكى الكون ثم اختفى للأبد.

موسيقى حمزة بوشناق الساحرة بكل تنويعاتها المتناغمة كانت جسراً عبر من خلاله الفيلم إلى وجدان المشاهد مع الشريط الصوتي المتقن، وديكور صوفي عبدالكافي البسيط بتفاصيله الفنية الدقيقة، أما النسخة النهائية للفيلم فكان الفضل فيها مع رؤية المخرج لمونتاج (أنس السعدي) الذي حافظ على تدفق الإيقاع الدرامي والانتقال المشهدي المتناغم مع الحس الصوفي والشاعري للفيلم.

"مزار الصمت" تحفة فنية تبقى في الذاكرة والوجدان ومرثية بصرية شديدة الشجن لشعب تجرّع مرارة الشتات والفقد. وتحيه صادقة لنساء سوريا الحرائر ولأطفال سوريا الذين ينامون على الثلج تاركين عرائسهم حزينة وسط ركام الدمار والحرب.

ناقد من مصر

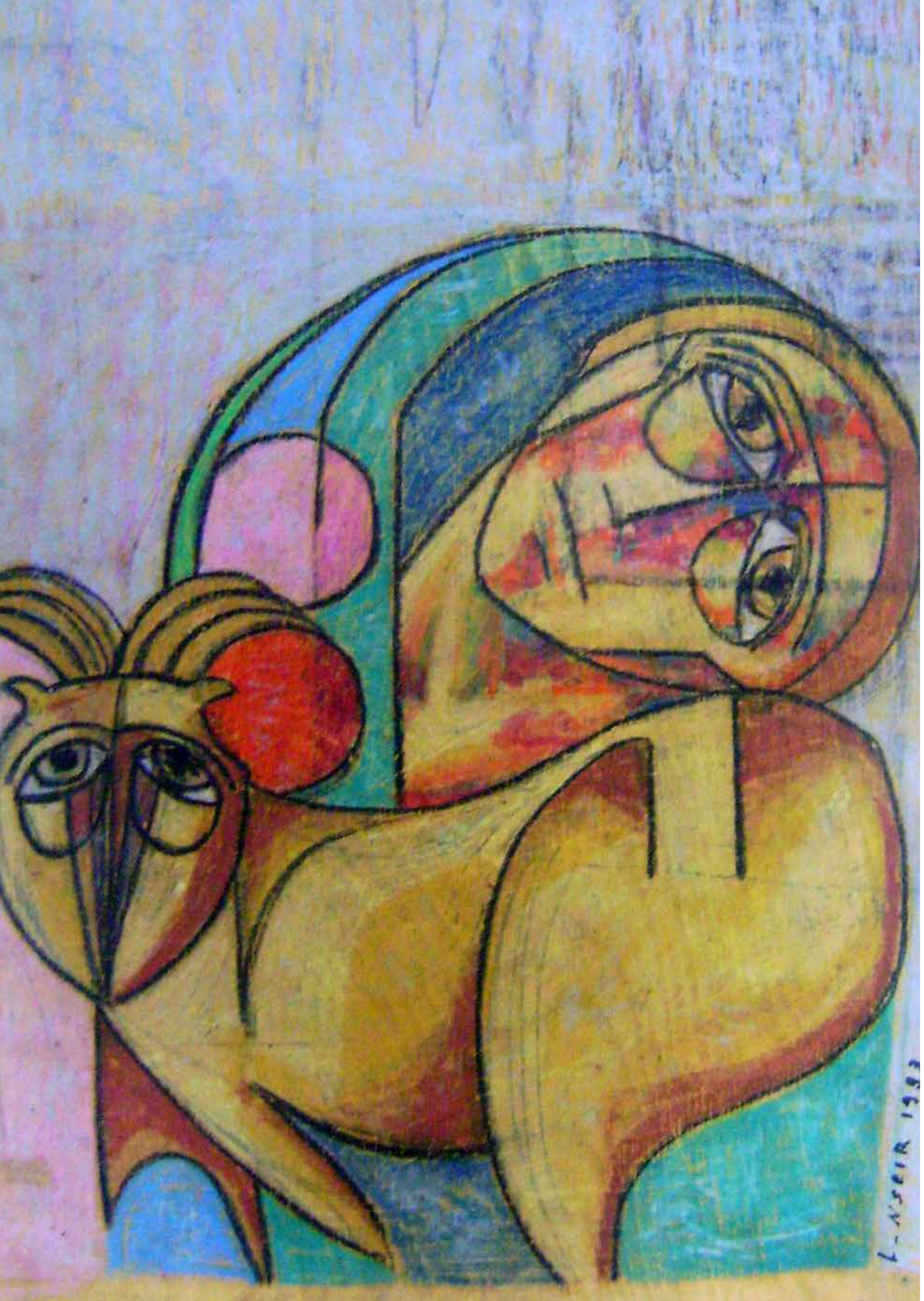

يوميات

دفتر يوميات

عبدالرحمن بسيسو

(1)

الأَرْضُ والإنْسَانُ الشَّجَرَةُ

هَلْ لِشَجَرَةٍ أنْ تَمْشِيَ بَعِيْدَاً عَنِ الأَرْضِ الَّتِي أنبتتها إذْ احْتَضَنَتْهَا وسَقَتْهَا مَاءَهَا، فَمَنَحَتْهَا نَسغ الحَيَاةِ، فنمّتْ جُذُوْرُهَا فِيْهَا، وَرَسُخَتْ امتداداتُ هَذِهِ الجُذُورِ فِي أَعْمَقِ أغوارها، وتشعّبَتْ، فأوجَدَتْهَا عَلَى سَطْحِهَا، وفِي شَتَّى أَحْيَازِهَا، ووجّهَتْهَا صَوبَ فَضَاءَاتِ سَمَاوَاتِهَا؟!

أَوَ لَيْسَ هَذَا هُوَ الجَوهرُ الواسِمُ، مُنْذُ بِدْءِ الْبِدْءِ وَإِلَى أَبْعَدِ أَبَدْ، عَلاقةَ الفِلَسْطينيّ، هَذَا العَاشِقُ المُتَوَلِّه بِمَحْبُوبَتِهِ الْخَالِدَةِ: "فِلَسْطين"؛ أَرْضَاً، وشَعْبَاً، وحَضَارةً، وَتَارِيْخَاً، ومَجَالاتِ حَيَاةٍ حَيَوِيَّةٍ، وآفَاقَ مُسْتَقْبَلٍ، وَمَدَاراتِ وُجُودٍ؟!

(2)

فِلَسْطينُ بَينَ سَرْدِيَّتَين

يَكْمُنُ صُلْبُ المَسْأَلَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ، ضِمْنَ ما يَكْمُنُ فيه من دوافعَ وأُسسٍ ومسبّباتٍ وغاياتٍ تَصُوغُ لُبَّ المُشْكِلَةِ، وتُجَلِّي جوهَرَ الصِّراع الدّامي المحتدم فوق أرض فِلَسْطينَ منذ ما يربو على قرنٍ من الزّمان وحتّى الآن، في تزوير روايتها الحضاريّة الإنسانيّةْ الحقيقيّة الرّاسخة في الْوُجُودِ، واصْطِناعِ سرديّةٍ عُنْصريّةٍ بديلةٍ تتأسّسُ على المُتَخَيَّل الأسطوريّ المُعِنِ في الخُلْكَةِ والسّواد، والتّوَهُّمِ، وغَيْبَةِ الْعَقْلِ.

بَيْدَ أنّ لِلّحْمَة الْوَثِيقَة، الأَزَليّة الأبديّة، بين فِلَسْطِينَ وَشَعْبِهَا: أرضاً، وحضارة، وتاريخاً، ومصيراً، ومُمْكِنَاتِ مُسْتَقْبَلٍ، وآفاقِ وُجُودٍ، روايةً وجوديةً حقيقيةً، وسرديةً حضاريةً تاريخيةً مؤصلةً من كل منظور وجانب، كما أنها تتجلّى في مُكَوِّنات رؤيةً مستقبليةً، وطنيةً وإنسانيّةً، مفتوحةً على ممكنات التحقق على مدى المستقبل الوجودي المفتوح.

وإلَى ذَلِكْ، ليسَ لقُوّةٍ غَاشِمَةٍ، مَهْمَا بَلَغَتْ، أنْ تتمكّن من شَطْبِ الرّواية التّاريخيّة الحقيقيّة، أو من اسْتِئْصَالِ أَيٍّ مِنْ مُكَوِّنَاتِ السّرديّة الحَضَارِيّة الفلسطينيّة، أو مِنَ احتجازِ إمْكَانِيّة تَحْقِيقِ الرُّؤيَةِ المُسْتَقْبَلِيّةِ الفِلَسْطِينِيّةِ، الوطَنِيّةِ الإنْسَانِيّةِ المُتَواشِجَةِ، إلى مَدَىً هُوَ الأَبد؛ فَثَمَةَ، في الأفقِ المنظور، نهايةٌ لهذا الكَابُوسِ الْعُنْصِرِيّ التّوحّشِيّ.

نَعَمْ، سَتَعُودُ فِلَسْطِينَ إلى نَفْسِهَا، وسَتُتَابِعُ تَجْلِيَةَ جَوْهَرَ هُوِيّتِهَا الحقيقيّة المُتَأَصِّلَة، والإفْصَاحِ عَنْ شَتَّى مُكَوِّنَاتِ هَذِهِ الهُوِيّةِ الْمُفْتُوحَةِ، أبداً، على الصّيرورة والتّحَوُّل الخَلّاقين، وذلكَ عَبْرَ نِضَالِ شَعْبِهَا الصّامد الصّابر المُثابر، الذي لم يَكُفّ، أبداً، عن إبْدَاعِ الحَضَارةِ والثّقَافَةِ وابْتِكَارِ الْحَيَاةِ، وَبِدَعمٍ حَثِيثٍ، وإسْهَامٍ خَلّاقٍ مؤثرٍ ومُتَواصِلٍ، من قِبَلِ أحْرارِ العَالَم المُنْتَمِين، وَحْدَهُمْ، إلى الإنسانيّة الحَقّة.

(3)

كائنات روبوتيّة مُخوْسلة

للسّلوك الإسرائيلي الفاشي الإجرامي التّوحّشي إزاء قطاع غزة

وأهله، وإزاء كل فلسطين وشعبها بأسره، أن يُجسِّد تجلياتِ حقيقةٍ سُلوكيةٍ مؤداها أنّ لاوعيها هو الذي يُمْلِي سلوكها، مطابقاً في ذلك وعيها المُفْتَرِض، الذي يُفْتَرَضُ، بمنطق العقل، أنْ يكون هو وحده الذي يُمْلِي السلوك الإنساني الذي يمكن افتراض نجومه عن الوعي الواعي والاختيار الحُرّ، وهاته، فيما أحسب، هي سمة الكائن اليهودي المُجَمَّد العقل، أو المُحال دونه وإعمال عقله والالتزام بمقتضياته، والمفرغ الوعي، أو المستبدل لاوعيه الأسطوري الخرافي العنصري بوعيه العقلي، والمجرد تجريداً تاماً من بذرة الإنسانية، والمُحَوَّل، بعزيمة الآيديولوجيا الصهيونية وإرادة صُنّاعها ومروّجيها، إلى كائنٍ إرهابيٍّ مُحَوسَل؛ أي إلى محضِ وسيلةٍ أو آلةٍ، او أداةٍ تسخرها، على نحو روبوتيٍّ آليٍّ، الحركةُ الصهيونيةُ ومنشؤُوها وداعموها ومُسَخِّروها الرأسماليون المتوحشون، لتحقيق غاياتهم الاستعمارية التوسعية وذلك بإقدام إسرائيل وكائناتها الألحوية المحوسلة (كائناتها البشرية الحيوانية الحية المُحَوَّلة إلى محض وسائل وآلات وأدوات)، على اقتراف كل ما يستوجبه تحقيق هذه الغايات من توحشٍ يتجلى في الارتكابِ المتواصل لمجازر الإبادة الجماعية، وجرائم الحرب، والجرائم ضدّ الإنسانية، وذلك بدم باردٍ؛ إذ لا وجود أصلاً للدم بمعناه المجازي الأخلاقي! وبلا أدنى شعور إنسانيّ؛ إذ ينعدم وجود هذا الشعور لدى إسرائيل، ولدى كائناتها الألحوية، لأنهما، أصلاً، لا يُبصرانِ للإنسانية وجوداً في الوجود، أو لعلهما يعتقدان أنّ الإنسانية الجوهرية هي التوحشُ العنصريّ الإرهابيّ الفاشيّ الذي يتوافران، بكثرةٍ وكثافةٍ، عليه!

ليس للسلوك الإسرائيلي الوحشي الذي يستهدف قطاع غزة وكل فلسطين، أنْ يُفَسِّرَ إلا في ضوء ما بينه، وبالاستناد إلى ما قد انطوى عليه، الاستخلاص العقلي المنطقي الذي أوصلنا تأملنا التَّبَصُّريّ الاستقصائي المتشعب إليه، والذى أحسبُ أنّ الفقرة الافتتاحية المثبتة أعلاه قد كثّفت صوغه، فأوجزته.

(4)

ذلكَ الوعْدُ؛ تلك الجريمةُ

ليس لبيان وزير الخارجية البريطاني "بلفور" أو وعده، أن يكون إلّا إعلاناً وغداً، وإلّا جريمةً قصوى بحق فلسطين: أرضاً، وشعباً، وتاريخاً، وحضارة، وآفاق مستقبل، وممكناتِ وجودٍ، وبحقِّ الحياة الحرّة، والإنسانية الحقّة بأسرها!

وهل يمكن لإنسان عاقل يطلع على هذا البيان ألا يواجه نفسه بالسؤال الملح التالي: هل ثمة من شعب من شعوب الأرض، على مدى التاريخ الحضاري البشري بأسره، قد احتاج إلى وعدٍ إلهيٍّ، زائف ومصطنع، أو وعد استعماريٍّ، عنصري مقيت، ليثبت لنفسه حقاً في أرض يَزْعُمُ، أو يُزْعَمُ له، أنها وطنه الأوّل، أو أنّ له في رحابها مزرعة وبيتاً، أو حتى ذرة رمل، ولو صغيرةً، في أي بقعه منها؟!

الحقُّ أنّهُ لا يصطنع مثل هذا الوعدِ الوغدِ، أو يطلبه، أو يمنحه، أو يستدرج القوى العالمية الاستعمارية المتنفذة كي تمنحه إياه، إلا رأسماليٌّ جشعٌ، مُسْتَعْمِرٌ، سارقٌ ونهّابٌ، وعُنْصريٌّ مُوغِلٌ في الجشع الغريزي، وفي التَّوحُّش البشريّ المُفارِقِ أدنى مراتب الإنسانية: مبادئ، وقيماً، ورؤىً، وتجلياتِ وجود، وأنماط سلوك؛ ذلك أنّ الكائن البشريّ، ولا نقول الإنسان، الموصوف بما قدمناه للتو من نعوت، لا يتبنى من التّوجهات والأفعال سوى تلك التي تسلب الإنسانيين الأحرار من الناس الحرية، والكرامة الإنسانية؛ فتسليهم الحياة ومعنى الحياة؛ إذ بهذه التوجهات والأفعال يسرق أرضهم، ويُزَوِّرُ تاريخها، ويسلب منجزاتهم الحضارية ويدعيها لنفسه، فيخنق حياتهم، فيما لا تَأْخُذَهُ هذه التوجهات والأفعال، بوصفه كائناً بشرياً مفرداً، أو مجموعة بشرية، أو كياناً مصطنعاً، إلا صوب التوحُّش البشري الأقصى الذي يُحيل الوجودَ الحيويَ، في كُلِّيته الممكنة، إلى عَدَمٍ مُراوِغٍ سَيُلقي بعاقبيله الفاتكة، في خاتمة المطافِ، على هذا الوحش البشري المفرد، أو الجماعة البشرية المتوحشة، أو الكيان الاستعماري الوظيفي، فَيُعْدِمُهُم الوجودَ!

ذاك هو منطق الحياة، ومغزى الصيرورة الدائمة، وهو منطق التاريخ الحَقّ، النّاهِضِ، بإرادة الإنسان الحُرّ المُناضِلِ من أجل الحرية والكرامة الإنسانية، وفي اللّحظة التاريخية المواتية، صوب تصويب أخطائه وخطاياه؛ وذلك بإعادة الحق إلى أصحاب الحق، وإقامة العدل الممكن على أساس من الحقّ الراسخ، والحقيقة الأصيلة، والعدالة الصافية المجردة من أدنى لبس أو شبهة ضلال

إنّه الْوَعْدُ الْوَغدُ، وهو صُنْدُوقُ كل الشُّرُور: إنهُ وعدُ وزير الخارجية البريطاني المأفون: آرثر جيمس بلفور المُضمن في رسالة موجهة منه إلى المصرفي الإنجليزي الصّهيوني اللورد ليونيل والتر دي روتشيلد، والقاضي بدعم الحكومة البريطانية لمشروع إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين!!!

(5)

وطن الفلسطينين

فلسطين وطنُ الفلسطينين؛ إنها وطنهم الخالدُ، إنها الوطن الفلسطينيُّ الهوية؛ والعصي على السرقة، والاستلاب، وتغيير الهوية، والإلغاء والمحو. إنها وطنٌ إنسانيٌّ تاريخي حضاريٌّ عميق الجذور، راسخُ الامتداد في جميع طبقات التاريخ والحضارة الإنسانيين، وفي شتى مدارات الوجود الإنساني المُنِيْر؛ إنها "وطنٌ الفلسطينيين الأزلي الأبدي الخالد"؛

إنها وطنٌ لنْ يُؤسرل، ولن يُهَوَّد، ولن يُصَهْيَنُ، ولن يفقد هويته الفلسطينية العميقة الراسخة أبداً. إنها هي الوطن الذي لا يُمْحَى، ولا يُلغى، ولا يموت، مهما بلغ عُتُوُّ قوى الاستعمار الاحتلالي الإحلالي الصهيوأمريكي، ومهما تعاظم ما تُوَظِّفه هذه القُوى من قدرات وإمكانيات وموارد بشرية ومالية وعسكرية هائلة، وما تُسَخِّرهُ من عصابات إرهابية وحشية مُسَلَّحةٍ جُعِلَت جُيُوشاً، وأطلق عليها، زوراً وبهتاناً، اسم "جيش الدفاع الإسرائيلي"، الذي هو، في حقيقة ماهيته، وطبيعة وظيفته، جيشُ عدوان إرهابي متوحشٍ، وعصابات غزو همجي واستعمار رأسمالي بربري، وهجوم توحشيٍّ وهتك وفتك، ولا وظيفة له، إلا سرقة فلسطين عبر القبض عليها، واحتلالها، وأسرها، ومن ثم أسرلنها، عبر تهويدها وصهينتها، بُغية محوها من الخارطة الحياتية الوجودية الكليّة: الجغرافية، والتاريخية، والحضارية، والسياسية، والوطنية، والإنسانية، وذلك عبر الفتك الفعلي والمعنوي بها، وإماتتها: صورةً، وهُويةً، واسماً، وعبر تأكيد استبدال اسمها المُتأصِّل الأصيل "فلسطين، بالاسم الخُرافي الوهمي الوحشي الوضيع: "إسرائيل"!

ولكن هيهات هيهات أن تقبل فلسطين هذا الاستبدال، أو أن تكفّ، هي في ذاتها، وبرفقة شعبها المكابد الصابر الوفيّ العنيد، عن مُقاومة كل تجليات هذا الاستبدال البغيض والعصيّ في آنٍ، مُقاومةً موسومةً بالإصرار العنيد والبسالة، حتى تحرير كل فلسطين من النهر إلى البحر، وتفكيك الكيان العنصري الاستعماري الوظيفي المُصْطَنَع المُسَمّى "دولة إسرائيل"، وإعدامه، وجيشه الإرهابي، الوجودَ، إعداماً نهائياً، حاسماً وقاطعاً، ولمرّةٍ واحدةٍ وإلى أبدٍ هو الأبد!

(6)

لمن حقُّ الدفاع عن النفس؟

هل لفلسطين حق مقاومة الغزو الصهيوني الامبريالي المتوحش، وصَدّ الاحتلال الإسرائيلي الاستعماري الاستيطاني، دفاعاً عن أرضها وشعبها ونفسها؟! هل لفلسطين هذا الحق؟ أم هو حقٌّ حصريٌّ لا يتمتع به إلا المُعتدون الغاصبون المتوحشون ممارسو جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية؟!

سؤال وجهته الإنسانية إلى لجميع قاطني العالم بأسره، فكان جوابه، على لسانِ خمسة وتسعين في المائة ٩٥% منهم، وفي تطابق مع ميثاق الأمم المتحدة ووثائق القانون الدولي ذات الصلة، هو: نعم، لفلسطين وحدها هذا الحق، وليس لإسرائيل أن تدعيه لنفسها، وليس للقوى والدول الرأسمالية الاستعمارية أن تدعيه لها.

وفي مقابل هذا الإجماع الإنساني القانوني والأخلاقي، تنفردُ أمريكا وبريطانيا، وأتباعهما من دول غرب أوروبا الإمبريالي، وما لا يتجاوز ما نسبته الخمسة في المائة المتبقيه من البشر، الذين هم بعض قاطني بلاد الغرب العنصري الرأسمالي الاستعماري المتوحش ومناطق هيمنته، بادّعاءِ هذا الحقِّ لإسرائيلَ وحدها، وعلى نحوٍ حصريٍّ يأخذهم لإنكار أن يكون حقّاً لفلسطين، مع أنّ إسرائيل هي القوّة القائمة باحتلال فلسطين، بحسب القانون الدولي، وكأني بالغرب الاستعماري إذ ينكرُ حقَّ فلسطين في الدفاع عن نفسها، إنما يُنكرُ، إبتداءً، حقّها في الحياة، أو لعله يُنكر، أو يتجاهل، وجودها: أرضاً، وشعباً، وحضارة، وتاريخاً، وممكنات مستقبل، وآفاق وجودا!

شاعر وناقد ودبلوماسي من فلسطين مقيم في براتسلافا

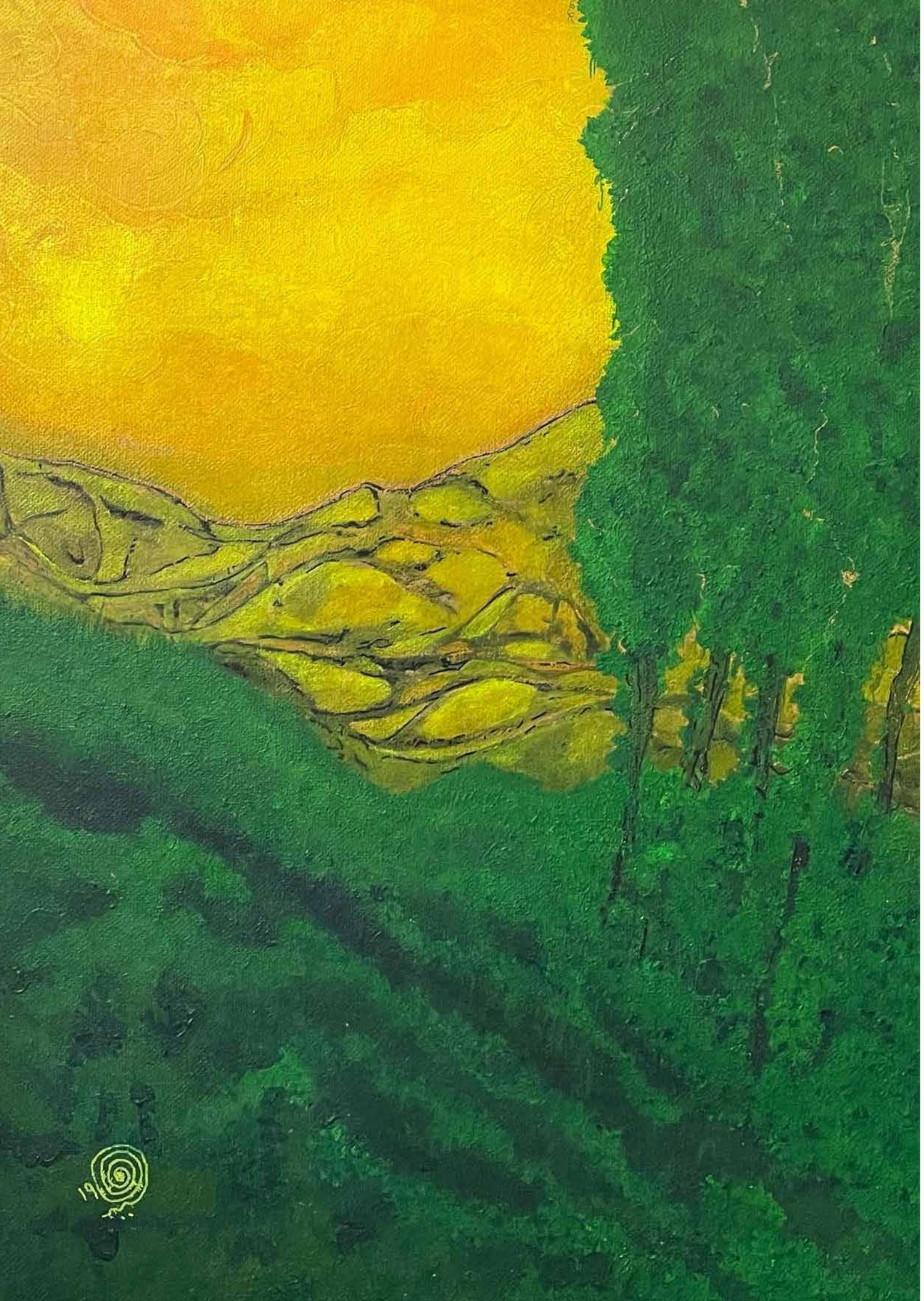

وليد علاء الدين

شعر

شبح صيفي مناسب للحديقة

فاروق يوسف

قصيدة اليد

اليوم حدقت إلى يدي
كانت أشبه بعش عصفور لم يكتمل بناؤه بعد
ثم صار الصمت يرهقني
سأعود إلى ما نسيته
ما نسته يداي يعود إليّ
ومن غير رغبة في المزاح نمضي ضاحكين.

قصيدة النجمة

تركت يدها في يدي واختفت
كنت قد تعبت من البحث عنها حين ظهرت ولم تقل كلمة
قلت لا يهم ما دام خاتمها لا يزال يلمع بدمعته الحجرية
ولا يزال هناك متسع لزهرة أن تنبت على شفتيها
وبين حاجبيها رأيت نجمة
نجمة صغيرة تبدو كما لو أنها حُفرت منذ الأزل.

قصيدة الصبية

في قطرة واحدة رأيت ما لا يراه النائم
تلك صبية تحتضن صليبا بحامله
فيما خبأت زهرة رأسها بين نهديها
يطلق الحصان ضحكته فيمتزج شعرها بالعشب
لن أقاوم الانزلاق وأنا أعبئ صرختي بالرماد
حين أكون قد استيقظت تكون القطرة قد اختفت.

قصيدة الظل

ربما مشيتُ مثل ملاك
لم تحدث خطواتي ضجيجا
تلكأ الماضي في مشيته حين رآني
أما المرآة فقد أشاحت بوجهها عني
بعد كأس واحدة من النبيذ
اخترعت شبحا صيفيا مناسبا للحديقة
وتركت ظلي على الشرفة.

قصيدة الأخطاء

خُيل إليّ أنني رأيت الأشجار تمس الغيوم بأغصانها
كان ذلك مشهدا تُستعاد من أجله طفولة حمامة بيضاء
لولا أن الطبيعة هي الأخرى ترتكب أخطاء
لقد سمعت شجرة تهمس لشجرة أخرى "متى تمطر؟".

قصيدة الأربعاء

من أربعاء إلى أربعاء
حملني الفجر بمنقار طائره
كان الموج تحتنا يوزع أسماكه بين الشباك
فيما القوارب تشهق برائحة الخريف
ذلك الطفل الذي يتبعني
لا يزال يضحك كما لو أنه لا يزال حيا.

قصيدة الأثر

لا أحد يعتاد على الموت
فهو يحدث مرة واحدة
وليس من عادة الموت أن يترك أثرا لنتبعه.

قصيدة الساعة

ربما أخرج حلزون رأسه في الساعة نفسها التي كنتُ أفكر فيك،
فيما كانت يدي تعبث بالرمل وأنا أنظر إلى الساعة.

قصيدة الغزال

ليس للأسرار لون لنعرفها
وستضطر الغزلان إلى الاختفاء حين يمر الأطفال
لقد سمعت ذات يوم أن عصفورا التهم فيلا
وصرت أبكي لأن الغيمة أكثر بياضاً من قميصي
أيها الماضي مَن يرمي مناديلك علينا؟

قصيدة الشجرة

إذا لم تنم تحت لحاء الشجرة
فلن تقوى على رسمها
ليست الشجرة جذعها ولا أغصانها ولا أوراقها
جرب أن تغمض عينيك حين تلمسها
وستسمع صفير أصوات الملائكة
فالشجرة والقيامة هما الشيء نفسه.

قصيدة الخروف

أقدام الملائكة تلعب بنهايات الأشجار
في العتمة يغفر المرء لعينيه أن لا تريا
غير أن النغم النازل من الأعالي
يجمع الحواس كلها بنزق خروف هارب.

قصيدة الغائبة

يعود خفية بظله
إلى حديقة نبتت أزهارها في غيابه
لا يسأل العشب عن خطوتها التي اختفت
لم يعد ليراها
فقط لأنه نسي شيئا ما
شيئا لو رآها لتذكره.

قصيدة الطعام

لو أنك عشته سترى
أن الموت لا يراك وحيدا
في صنعته يفقد الأحياء أصواتهم
ويفقد الطعام نكهته
وتسيل الحجارة كما لو أنها قُدت من ماء.

قصيدة الثمرة

ذلك الشق الليلي بين الغيوم
ذكّرني بالثمرة التي حُرمت منها
حمرته تلين وقنديله يتأرجح
كم كان عليّ أن أكدح لكي يكون الألم أقل
بعد أن مضت القوارب بأحلامي.

قصيدة الموت

وجه لن نراه
صوت لن نسمعه
رائحة لن نشمها

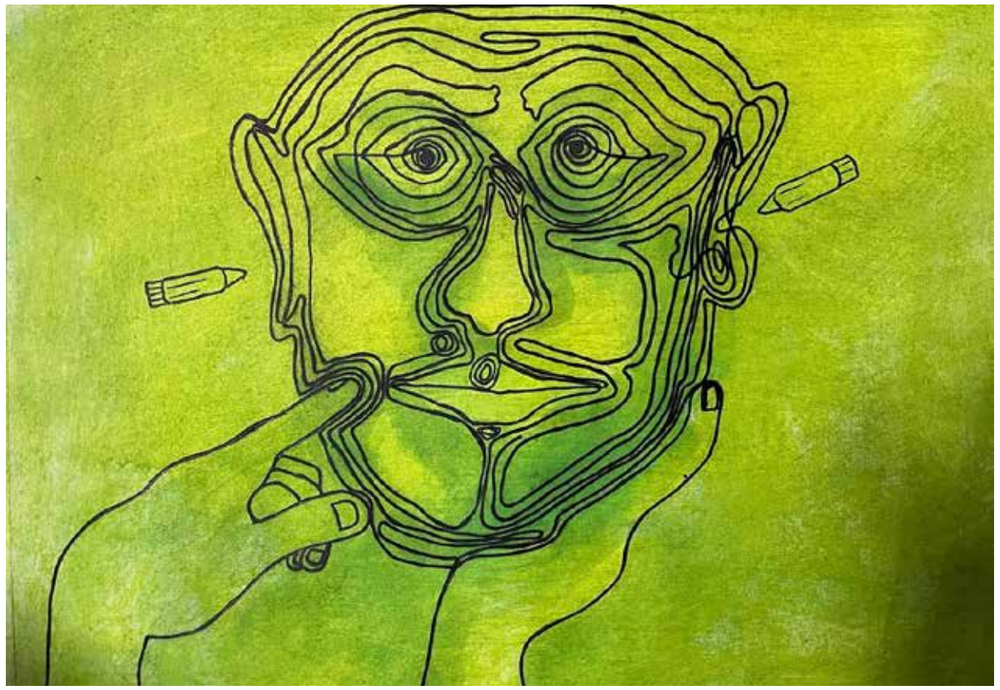

وليد علاء الدين

أهذا هو الموت؟
ولكننا نخطئ الطرق دائما
إلى حديقة أزهارها لا تذبل.

قصيدة اليد

يوما ما كنت صديقتي
أخذ ذلك اليوم معه يدي
فحين لوّحت لك وأنت تبتعدين
عرفت أن شيئا مني ذهب معك
يدي التي أحبتك أكثر مني.

قصيدة الغابة

المختفية، ظلها يسبقني إلى بيتي
ذلك نهار يفتح ذراعيه لغابة
تلك غابة تمطر أعشابها كلمات
شيء أشبه بالعاصفة
يرافقني إلى الموت.

قصيدة العائلة

هل كان يجب على عائلتي أن تموت لأشعر بالوحدة؟
جعلني آخر الموتى أستذكر أولهم لأبتكر عزاء مختلفا
ربما سيكون عليّ أن أشكرهم لأنهم تركوني بخفة
الأثر الوحيد الذي تركوه في حياتي لم يتعرفوا عليه،
كنت أحبهم.

قصيدة الحواس

تمل يدي من النظر
مثلما عيني تمل من اللمس
لقد تذوقت بأنفي أشهى الأطعمة
فيما كان لساني غارقا في قارورة عطرك.

قصيدة الكتابة

كتبت من أجل أن أنسى
ونسيت من أجل أن أكتب

ما لم أكتبه هو ما لم أنسه
تلك هي حياتي .

قصيدة الصحن

ممسكة بالملعقة بقيت يدي على المائدة
أما حين نظر الصحن إليها فإنها ارتجفت
كانت على المائدة أشجار زرقاء وغيم وردي
وكان المطر يسقط فيما كانت يدي ترتجف.

قصيدة المخدة

لم أرسم على مخدتي عصفورا
لكنني رأيته في حلمي وهو يضحك
حاولت أن أرسم ضحكته لكنه اختفى
فرسمت مخدة لكي أضع رأسي عليها.

قصيدة المطبخ

يا الله
هل سيعود الشعراء إلى المطبخ؟
كانت الكلمات تُطبخ على نار هادئة
وكانت الجمل تتقافز مثل فقاعات
ولكن الملائكة لم تعتّي على الإمساك بجملة واحدة.

قصيدة الدخان

في ليل الآخرين لن أرى وجهي في مرآتي
كنتُ دخانا وكانت يدي عصا
كان هناك بحر لم أشقه
فيما كنت أبكي لكي أكون مرئيا.

قصيدة البلاد

قبل أن أكتب سقط الحبر على الورقة
رأيت بلادا كنت قد غادرتها فبكيت.

قصيدة المساء

أشمك. ذلك عطر الحديقة في المساء
أذوقك. تلك غيمة تهبط من الشفتين
ألمسك. تمد الملائكة أصابعها وتنتشي
ما لم أره منك تراه الأسماك في أحواضها
ذلك هو مسائي الذي يرافق غيابك.

قصيدة الوصية

في ذلك المساء الذي غبت فيه
ترك ظلي أصابعه على المنضدة
حين اكتشفت أنها تكتب وصيتي
كنت أغط في نوم عميق.

قصيدة الحمامة

لم أتذكرك لكي أمحو عن ورق الصفاف خضرته
كانت هناك حمامة وقع على رأسي هديلها
فشعرت أن شيئا ما ينمو بين أهدابي
لقد اكتظت عيناي بالدمع .

قصيدة الريشة

لم أرسم يداً حين غابت أصابعي
وليس أمامي سوى الباب الذي لا يُفتح
سيكون عليّ أن أجمع النهار والليل في كأس واحدة
خفيفا مثل نعامة وناعما مثل ريشة.

وليد علاء الدين

قصيدة النشيد

أوزع أناشيدي على العابرين. هناك مَن يعزفها على الناي وهناك مَن يضربها على البيانو وهناك مَن يجرحها على الكمنجة. حين كنت أسمعها أصدق أن رجلا يشبهني كان قد رغب في أن تصدق امرأة كلماته.

قصيدة السؤال

لا يزال طعمه في فمي
الرغيف الذي تُخرجه أمي من التنور
كان في عينيها سؤال لم ترغب في سماع جوابه
حين ماتت أغلقت عينيها على ذلك السؤال بصمت.

قصيدة الباب

وراء الباب ضيف مرح
وراءه رائحة قادمة من بعيد
وراءه موسيقى وفتيات
وراءه لغات
القرى والحقول والخراف والسواقي وراءه
وراءه البلاد بزخرف ضحكتها
وراءه شعراء ماجنون وعشاق تائهون وأباطرة سابقون وحفاة
يضحكون وأنبياء مجانين وفقراء محاربون وصعاليك يغنون
وملائكة تصفر كما لو أنها في حقل جنائزي.
ولكن أحدا لم يفتح ذلك الباب.

قصيدة

في ذلك الصيف الذي لم أعد إليه
لم تتكلم الدمية إلا حين تركتها
حين عادت في خريف تلك السنة
صارت تضحك مني
قالت "لم تعرفني" فيما كنت أضحك ببلاهة
لأن دمية تكلمني.

شاعر من العراق مقيم في لندن

ملف

أهل البحر وأهل اليابسة

فصول روائية

المسيح الأندلسي
تيسير خلف

لعبة الأسماء
مفيد نجم

أرصفة الرّغبات
فتحية دبش

الرجل المئوي
وارد بدر السالم

الفتى الفلّوجي
عواد علي

بوابة الشميسي
عبدالسلام إبراهيم

هند عدنان

ملف/فصول روائية

المسيح الأندلسي

تيسير خلف

ليلة البرج

في طريقي نحو بيت الشريف الأندلسي، استولى على مخيّلتي وجه الغريب الذي قال إن اسمه الطبيب دون بيراث، محمّد ابن أبي العاص، وراح يشغل مساحة تفكيري، ليحلّ مرّة واحدة محلّ وجه فيروزة. وجدتُهُ وجهاً مألوفاً في كلّ مَلمَح من ملامحه. في العينَيْن الزيتونيَّتَيْن، والأنف الدقيق، والفم المكتنز، واللحية الشقراء المشوبة بشيب خفيف. كان وجهاً مألوفاً إلى درجة شكَّكتْني بنفسي. كيف يكون مألوف الوجه لي إلى هذا الحَدّ؛ وأنا واثق تمام الثقة بأنني لم أره من قبل؟

في لقائنا العابر عند البدر بن الحَكَم؛ لم أتبيّن ملامحه البتّة، بسبب العتمة التي دهمتْني حين ولجتُ إلى المخزن مسرعاً، هارباً من شمس رابعة النهار. ولكنني تذكّرتُهُ من نبرة صوته.. من نبرة صوته فقط.

فاجأتني بركة موحلة زلقة، كان لا بدّ من اجتيازها للوصول إلى بيت الشريف الأندلسي، وإلّا؛ كان عليّ أن أسلك طريقاً آخر، سوف يكلّفني وقتاً وجهداً كبيرَيْن، فحزمتُ أمري وجازفتُ بالسير على حوافّها، على أن ألجأ إلى الزقاق السهل الذي يسكنه الفرنجة المتربّصون بكلّ ذي عِمَامَة.

بعد جهد جهيد؛ تجاوزتُ تلك البركة، ونجحتُ في تجنّب طريق الفرنجة، وعندها لمعت في ذهني فكرة غريبة، ولكنها شديدة المعقولية: لمَ لا يكون هذا الطبيب ابن أبي العاص هو نفسه دُون خيرونيمو راميريز؟ الدلائل كلّها تشير إلى أنهما شخص واحد، حتّى الجملة الأخيرة التي قالها: لا أحد يعرفه مثلي هي حجّة عليه. كيف غَرُب عنّي ذلك الأمر؟

وصلتُ سريعاً إلى بيت الشيخ، ولكنني، ولسوء حظّي، لم أجده؛ كان قد خرج للتوّ ليقضي بعض الأمور مع شيخ الإسلام في إِسْطَنْبُل، كما أخبرني ابنه الصغير حين فتح لي الباب ودعاني لانتظاره.

- ألحّ والدي علينا بأن نُدخِلكَ لتنتظره، فهو على أُهْبَة الوصول.

- سأبقى هنا في الجوار، أنتظر عودته.

بيت الشيخ ليس ببعيد عن برج غَلَطَه الذي يروي الأندلسيون عنه برهبة؛ الكثير من القصص، وخصوصاً قصّة الأصوات المخيفة المنبعثة منه في ليالي الصيف المقمرة!

فكّرتُ في أن أستفيد من وقتي بالصعود إلى أعلى البرج ريثما يصل الشيخ. اقتربتُ من جداره، فصدمتْني خشونة البناء، وعشوائية كسر الحجارة الكلسية البيضاء؛ المخلوطة بكسر حجارة النار السوداء، والآجرّ الأحمر المشوي، والمربوطة جميعاً بمِلَاط غريب أراه للمرّة الأولى، لا يشبه المِلَاط الذي يربطون به حجارة الأبنية في بلادنا.

ثمّة حارس أندلسي سمين أبيض الوجه بخدَّيْن منتفخَيْن ولحية حمراء خفيفة، مسلّح بغَدَّارة وعددٍ من الخناجر، يجلس على كرسيّ متهالك، مشغولاً بشرب منقوع عشبي. عرفتُ أنه أندلسي من عِمَامَته الملوّنة. اقتربتُ منه وقلتُ بعربيّتي الأندلسية:

- السلام على ابن العمّ؟

ابتسم الحارس وهو يعبّ آخر جرعة من كأسه:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- هل تأذن لي بالصعود إلى أعلى البرج؟

- هذا خطر عليكَ؛ قد تسقط وتموت.

- أدعى عيسى بن محمّد التُّطَيْلِيّ، ولستُ عبّاس بن فرناس الرُّنْدِي .. انظرْ، أنا لا أحمل معي أجنحة للطيران.

نظر الحارس إليّ مليّاً وهو يبتسم، على الأرجح أنه رآني أنيقاً نظيفاً، يوحي مظهري بأنني من علية القوم، فقال وهو يضع كأسه على حافّة الدرج القصير المؤدّي إلى باب البرج:

- ليس من عادتي أن أسمح لأحد بالصعود إلى الأعلى، ولكنْ، بما أنكَ من أبناء أمّتنا التعسة، سأصحبكَ إلى الأعلى وأعود، وأحذّركَ منذ اللحظة، إن تأخّرتَ هناك، سأغلق الباب وأغادر في موعدي، وعليكَ أن تبقى سجيناً مع الأرواح المحبوسة في البرج حتّى صباح الغد.

عند كلمة الغد؛ انفجر الحارس الأندلسي ضاحكاً بطريقة ماجنة أثارت حفيظتي، ولكنني تبعتُهُ من دون أن أعلّق بكلمة واحدة على هذه المداعبات الغريبة.

أخرج الحارس من حزامه الكتّاني مفتاحاً بطول شبر، وفتح باباً صغيراً يتّسع لشخص واحد، يقع في أسفل الدَّرَفَة اليمنى للباب الكبير للبرج، ثمّ دعاني للدخول. أخذ قنديل زيت مشتعل كان على رفٍّ وراء الباب، ثمّ دلف إلى الدرج.

يرتفع القبو الحجري الضيّق المعتم، الذي يحيط بالدرج، مقدار قامة رجل متوسّط الطول، كأنه سرداب من سراديب تقسيم الماء في طُلَيْطِلَة، ويرتكز على الجدار الداخلي للبرج، ولذلك يأخذ شكلاً متحلزناً، تتخلّله طلّاقات أسهم دفاعية، وفتحات تهوية، تطلّ

وليد علاء الدين

كلّ واحدة منها على أحد الطوابق المتراكبة بعضها فوق البعض الآخر، وتأخذ شكل محابس، كان لها فيما مضى أبواب ضيّقة، بالكاد تسمح لرجل واحد بالخروج أو الدخول.

أخبرني الحارس، ونحن نواصل الصعود؛ أن هذه المحابس، كانت حتّى سنوات قليلة مختصّة بأسرى الفرنجة الذين سخّرهم أمراء البحر لبناء الأسطول. وفي أثناء توقّفنا للاستراحة في الطابق الخامس، لفت نظري أن فتحات التهوية لهذا المِحْبَس بالذات مغلقة بما يشبه الشبابيك، وله باب خشبي مغلق بإحكام. نظرتُ إلى الحارس متسائلاً، فقال حين فهم قصدي:

- لا شأن لكَ بهذا الطابق؛ هل فهمتَ؟ لا شأن لكَ!

امتثلتُ لأمر الحارس، ومضيتُ خلفه إلى السطح المنفتح على فناء رأس البرج شاهق الارتفاع. كان ثمّة عدد من النوافذ الواسعة المقبوّة، المطلّة على الجهات الأربع، وفي أحد الجوانب سُلّم حديدي يفضي إلى الشرفة المستديرة الضيّقة في أقصى علوّ البرج.

قال الحارس وهو يهبط الدرج عائداً إلى محرسه عاجزاً عن مداراة ضحكاته:

- إيّاكَ ثمّ إيّاكَ أن تتأخّر، عليكَ أن تنزل بعد قليل، فلن أصعد ثانية لكي أطلب منكَ النزول، وعندها تعرف ما سيحصل!

قرأتُ على الجدار أسماء وذكريات محفورة بحروف لاطينية، لم أتبيّنها جيّداً بسبب تقادُمها، أو جهل كاتبيها، وتهيّأ لي أن أصداء الصرخات التي تخيف الأطفال في بيوت غَلَطَه، ما تزال تتردّد في زوايا المكان ودهاليزه، لأتنبّه فجأة إلى أنها صرخات حقيقية أطلقها الحارس على سبيل الدعابة من أسفل الدرج، قبل أن يعاود الضحك الماجن.

بدت لي غَلَطَه أصغر بكثير ممّا كنتُ أظنّ، رأيتُها محاطة بسور مثلّث الأضلاع، مسحتُهُ بنظرة واحدة، قاعدته عريضة قليلاً، لكنها مقوّسة مع تقوُّس الساحل، تبدأ من نهاية ساحل خليج القرن الذهبي قبل أن يستدير باتّجاه البُوغَاز، وتنتهي بالبرج الدفاعي المحاذي للإِسْكِلَة الجديدة المسمّاة ميّت إِسْكِلَة سي، أمّا رأس المثلّث، فهو النقطة التي كنتُ أطلّ منها على هذا المنظر المهيب.

داخل المثلّث ثمّة مثلّث آخر من الأسوار والأبراج التي بُنيت حديثاً، لتفصل أحياء الجِنْوِيِّيْن الفرنجة، والروم الإغريقو، واليهود القدماء ومعهم الحلبيون، عن حيّ الأندلسيِّيْن بعد أن زادت التعدّيات بين الجانبَيْن. كنتُ أعرف شوارع الحيّ الجِنْوِيِّ وأزقّته زقاقاً زقاقاً، فقد أمضيتُ الشهور الخمسة الماضية وأنا أبحث فيه عن أيِّ شيء يمكن أن يهديَني إلى طرف خيط يُوصِلني إلى دون خيرونمو.

تلك كنيسة القدّيس بندكت في الجهة الشرقية، وتلك أزقّة الجِنْوِيِّيْن وحاناتهم. حين كنتُ أقصدها مدّعياً أنني تاجر حرير قَشْتَالِيّ؛ كنتُ أرتدي بزّتي الإشبانية، بسروالها المنتفخ المحبوس بالأزار أسفل الركبة، وقبّعتها الرمادية الكبيرة باستدارتها، والمزيّنة بريشة حمراء.

تلك أحياء الإغريقو ببيوتها الفقيرة المتهالكة، وأزقّتها الضيّقة، التي تلاصق بيوت اليهود، وإلى الشمال منها بيوت الحلبيِّيْن، وهي أقرب النواحي لحيِّ الأندلسيِّيْن وجامع العرب، وذاك مَرسَى ميّت إِسْكِلَة سي. هذا المَرسَى هو السبب في سكنى الأندلسيِّيْن هنا في غَلَطَه، فبعد أن اتّخذ الرايس خضر من ناحية قاسم باشا مستقرّاً له، بدأ ينتخب من الأندلسيِّيْن الذين نقلهم في وقت سابق من مُرْسِيَة وغَرْنَاطَة إلى الجزائر، علماء، وتجّار، وأصحاب حِرَف، ليزرعهم هنا في غَلَطَه، وسط طوائف الفرنجة المتغلّبين على المكان. جُلُّ الفرنجة من بقايا الجِنْوِيِّيْن المتوطّنين، وكثير من سفراء اختاروا أن يبنوا مساكنهم وبعثاتهم بعيداً عن "عاصمة بني عثمان" التي كانت مآذنها وقبابها تستفزّهم من الفجر وحتّى مغيب الشمس. ثمّة أعداد متفاوتة من رهبان فرنسيسكان، ودومينيكان، وجِزْوِيت، وكبوشيين، يسعون جهدهم لهداية الهراطقة الأرثوذوكس إلى الكاثوليكية الصحيحة، قبل أن يبتلعهم تيّار الإسلام التركي الجارف!

أذكر أن الشريف الأندلسي قال لي ذات مرّة إن خطّة الرايس خضر هذه لقيت هوى لدى المغفور له السلطان سليمان، بعد أن كان اليأس قد بلغ منه مبلغاً وهو يحاول إقناع الترك بأن يسكنوا هذه المدينة الملعونة.

يومها سألتُ الشريف الأندلسي باستغراب شديد:

- ملعونة، يا شيخ! كيف ذلك؟

- كانت غَلَطَه في نظر أحفاد الألبلار، وهم المتصوّفون الأبطال أسلاف تُرْك هذه البلاد، مكاناً آثماً يَعِجُّ بالحانات، ودُور البغاء، ولا يليق بأرواحهم النقية، ونفوسهم الأبية أن تسكن فيها، ولذلك شملت مِنَح السلطان وعطاياه الجزيلة الأندلسيِّيْن الذين اعتادوا على العيش بين النصارى من دون أدنى حَرَج.

لقد عرف أبناء أمّتنا كيف يستفيدون من قانون السلطان سليمان المختصّ بمِنَح مزايا وعطايا وهبات لمعتنقي الإسلام من نصارى الروم الإغريقو والبلقان، فحصلوا على المِنَح والعقارات، على قَدَم المساواة مع معتنقي الإسلام الجدد، كونهم أُكرهوا على اعتناق النصرانية والعماد في الكنائس، ولذلك كانوا يبالغون في طقوس استبدال الأزياء الفرنجية بالعباءات والعِمَامات الزاهية الملوّنة على رؤوس الأشهاد، وإقامة حفلات الختان الجماعية الضخمة، وهي احتفالات كانت تستفزّ جمهور الجِنْوِيِّيْن، والبنادقة، ومعتنقي الكاثوليكية من روم إِسْطَنْبُل!

انتشلني من تداعيات فكري التي لا أعرف كم استغرقت من الوقت صوت صياح خارج البرج. صعدتُ سريعاً إلى الشرفة الدائرية ونظرت إلى الأسفل، فرأيتُ مجموعة من الشباب الأندلسيِّيْن، على رأسهم "الحارس الضاحك" يقاتلون بالعصي مجموعة من الفرنجة المسلّحين هم الآخرون بالعصي. وليس ثمّة داع لمعرفة سبب هذا الشجار، فهو قد ينشأ لأتفه الأسباب، ومنها لمجرّد تبادل النظرات.

كان الأندلسيون هم المتفوقون في الشجار، ولكن قائدهم، حارس البرج، تلقّى ضربة قوية على رأسه أوقعته أرضاً، وأسالت دمه. راح الشبّان منهم يلاحقون شبّان الفرنجة في الأزقّة، بينما حمل شابّان الحارس الجريح، ومضيا به إلى أحد البيوت مَغْشِيّاً عليه.

أسرعتُ بالنزول رغم صعوبة الدرج المحلزن وعتمته، ولكنني فوجئتُ بأن الباب مغلَق بالمفتاح. حاولتُ أن أجذبه فلربّما كان مفتوحاً، غير أنني أدركتُ، بعد محاولات فاشلة، حقيقة أن الباب مغلَق، ولن يستطيع أحد فتحه سوى الحارس. أُسْقِطَ في يدي، وجلستُ في العتمة أنتظر قدوم أحد ما يمكن أن يخلّصني من هذا المأزق.

بعد انتظار طويل صعدتُ إلى سطح الطابق الخامس، ورحتُ أبحث عن النافذة التي تطلّ على جهة بَلَاطُيَة. كان المطر قد عاود الهطول، وأصبحت الرؤية ضبابية. لاحظتُ أن الغيوم غدت على مستوى نظري، بل لامست النافذة التي أطلّ منها. مطر إِسْطَنْبُل ثقيل غزير، على العكس من مطر الأندلس العالي الخفيف، ومع ذلك سرعان ما كانت غيوم إِسْطَنْبُل تنقشع، وكأن شيئاً لم يكن، لتعود السماء زرقاء، والشمس مشرقة.

ارتوت المآذن والقباب، والأسقف الحمراء بماء المطر، فبدت صارخة الألوان نظيفة. رحتُ أبحث عن بيت حاجي رمضان، فعجزتُ للوهلة الأولى عن تحديد مكانه وسط الأسقف المتشابهة، ولكنني، وبعد أن اهتديتُ إلى موقع بَوَّابة بَلَاطُيَة، وتتبّعتُ بنظري الزقاق الذي سلكتُهُ صباحاً، اهتديتُ إلى مكان البيت تماماً. لقد تميَّزتُهُ الآن جيّداً بين البيوت المتراصّة، بعلامة كنيسة خورا، وسقفه القِرْمِيْدِيّ الكبير الذي يأخذ شكل مربّع مفتوح إلى السماء.

فجأة عادت إلى مساحة مخيّلتي فيروزة ابنة حاجي رمضان، ووجدتُ نفسي أستعيد ابتسامتها المحيِّرة وعينَيْها المبطّنتَيْن الناعستَيْن، بلذّة محبّبة تشبه طعم الحلوى في فم طفل رضيع. لا أدري كم مضى علي غافياً في مكاني، متلفِّعاً بردائي الثقيل، وحين استيقظتُ وجدتُ الشمس قد فارقت سماء إِسْطَنْبُل، وحلّ الظلام، وانتشر البرد في زوايا المكان. كان الجوع قد بدا يقرقر في بطني، فقاومتُهُ بحبّات من السُّكَّر المعقود بعصير الرمّان، احتفظتُ بها مصرورة بورق ملوّن، كان حاجي رمضان دسّها في جيبي وهو يودّعني.

أخيراً أدركتُ بأنني سأمضي ليلتي في هذا المكان، فسلَّمتُ أمري لله ورحتُ أفكّر بالزاوية المثلى لقضاء ليلة غير مقرورة بالبرد، وفيما كنتُ سابحاً بأفكاري، أبدّل بوجه فيروزة وجه الأندلسي الغريب، سمعتُ صوت مفتاح يدور دورات عدّة، ومع كلّ دورة صوت تَكَّة ذات صدى عميق. شعرتُ برعب شديد، فمَنْ ذا الذي يفتح باباً في هذا الليل البهيم؟!

بالكاد نجحتُ في النهوض من مكاني، وتوجّهتُ إلى سرداب الدرج، لأسترق نظرة نحو مبعث الصوت.

يا للهول؛ ثمّة رجل يحمل سراج الطريق ولج لتوّه باب المِحْبَس الخامس، وأغلقه من الداخل. وبعد هُنَيْهَة انبعث ضوء خافت من فرجة أسفل الباب، ومن حوافّ نوافذ فتحات التهوية الداخلية المغلقة بدَرَفَات خشبية.

جلستُ على إحدى الدرجات التي تسمح لي برؤية الباب، إن مددتُ رأسي قليلاً. فكّرتُ في أن أطرق الباب على الرجل، ولكني تراجعتُ في اللحظة الأخيرة، فأنا لا أعرف مَنْ هو؟ ولماذا أتى في الليل؟ وماذا يفعل في الداخل؟ ولم أشأ أن أقف في موقف لا أعرف عواقبه.

بعد مضي مدّة طويلة من الوقت، لم يحدث شيء. أُطفئت الأضواء في الداخل، ولم أعد أسمع أيّ حركة. يبدو أن الرجل غطّ في نوم عميق، آيته شخير متقطّع.

عدتُ إلى موضعي الأوّل في الأعلى، فوجدتُ البرد شديداً غير محتمَل، ولذلك قرّ رأيي على أن أمضي بقية الليلة في سرداب الدرج، فهو أدفأ، ويمكن أن يسمح لي برؤية الرجل حال خروجه من القاعة.

استيقظتُ على صوت حركة الرجل الآتية من داخل المِحْبَس، وما هي إلّا لحظات حتّى عاد الضوء لينبعث من جديد من حافّة الباب السفلى، وحوافّ نوافذ التهوية. ثمّة أمر يحدث في الداخل. وبعد

وليد علاء الدين

قليل وصلني صوت المؤذّن الأندلسي عميقاً يعلن موعد صلاة الفجر. صعدتُ على رؤوس أصابعي إلى الأعلى، ورحتُ أبحث عن جامع العرب في هذا الظلام الدامس، كان هناك ضوء حفيف منبعث من نوافذ عديدة، أدركتُ أنها نوافذ الجامع، وبعد قليل بدأ بعض الأندلسيِّين بالتقاطر إليه هابطين المنحدرات الزلقة. عندها قرّرتُ أن أصلّي الفجر في مكاني سرّاً، رغم أن الجهر سُنَّة واجبة في مذهب الإمام مالك، ولكنه، عزّ وجلّ، لا يكلِّف نفساً إلّا وسعها.

مع بزوغ شمس الصباح ؛ سمعتُ مفتاح باب المِحْبَس يدور دورات عدّة ثمّ ينفتح، ليخرج الرجل حاملاً بيده اليسرى سراج الطريق، وقد سمح لي وقت إغلاق الباب من الخارج أن أتأكّد من ملامحه.

يا للهول ؛ إنه الأندلسي الغريب الذي صادفتُهُ صبيحة اليوم الماضي وقال إن اسمه الطبيب محمّد بن أبي العاص! هبط الرجل الدرج مسرعاً، وتبعتُهُ بحذر شديد، بعد أن غاب عن ناظرَيّ تماماً. كان ضوء السراج دليلي الوحيد إلى مكان الرجل، لم أشأ أن يراني أو يشعر بوجودي، فقد أيقنتُ أن وراءه سرّاً، ولربّما يقودني هذا السرُّ إلى دون خيرنيمو راميريز، هذا إذا لم يكن هو الدون نفسه.

******

سرُّ المفتاح

استيقظتُ على ضحكات الحارس الماجنة. في البداية ظننتُها مناماً، ولكنني، حين فتحتُ عينَيَّ، رأيتُ وجه الحارس مغموراً بالظلال المتحرّكة خلف لهب السراج المتراقص في ظلام سرداب الدرج. تعمّد الحارس أن يظهر على هذه الصورة الطريفة إمعاناً في المداعبة. وما إن تأكّد من أنني أسمعه حتّى قال:

- لا تقلْ إنني لم أحذّرك!

اعتذر منّي بشدّة وهو يغلق باب البرج وينظر إلى السماء التي بدأت تمطر رذاذاً حفيفاً، وقال:

- في الحقيقة تأخّرتُ عليكَ بسبب فقدي للمفتاح في أثناء الشجار، وكان عليّ أن أنتظر حتّى الصباح كي أحضر نسخة من ديوان القاضي.

قلتُ باسماً كي أبدّد عنه الشعور بالذنب:

- لا عليكَ، مرّت الليلة بسلام، ولم تظهر لي الأرواح في البرج.

قهقه عالياً، وزال الحرج عن وجهه، وهو يكشف عن رأسه المعصوب بعصابة قطنية يظهر فيها أثر الدم.

- أراذل الجِنْوِيِّين فاجؤونا بالضرب.

قلتُ بشيء من المداعبة:

- حمداً لله على سلامتكَ، رأيتُ الشجار كاملاً من فوق، ورأيتُكَ وأنتَ تكرُّ عليهم كأسد هصور، وهم يتراكضون أمامكَ كالقطط المذعورة.

احمرّت وجنتا الحارس غبطة، وقال:

- بحمد الله تمكّنّا من ردّهم على أعقابهم خاسئين. كلّ يوم يفتعلون مشكلة.

سألتُهُ:

- ما هو هدفهم؟

- منذ مدّة قبضنا على فرنجي متنكّر يحوم حول البرج، وحين قبضنا عليه وسقناه إلى قاضي غَلَطَه، اعترف بأن هدفه كان الصعود إلى البرج.

- لماذا يريد أن يصعد إلى البرج؟

ابتسم الحارس الأندلسي ابتسامة العارف ببواطن الأمور وقال بثقة:

- يريدون أخذ البرج، وتحويله إلى دَيْر للرهبان، فهم يعتقدون بأن السيّد المسيح عيسى بن مريم، عليه السلام، سيهبط منه عند الملحمة الكبرى!

أضحكني موضوع الملحمة الكبرى، فقلت:

- هل تعرف عدد الأبراج التي سيهبط منها المسيح يوم الملحمة؟

فغر الحارس فمه مستغرباً، فقلتُ وأنا أغادر:

- أحصيتُ أكثر من عشرين برجاً.

تركتُ الحارس في ذهوله، وأخذتُ الطريق الهابط إلى بيتي، وحين عبرتُ من أمام بيت الشريف الأندلسي ازداد المطر قوّة، فرأيتُها إشارة لزيارة الشيخ.

فور دخولي بادرني الشيخ مشيراً إلى سماط عليه أصناف من الطعام:

- أهلاً بعيسى بن محمّد، حضرتَ في الوقت المناسب، فقد كنتُ أتهيّأ لتناول الفطور. ما وراءكَ؟

قلتُ وأنا أتهيّأ لتناول قطعة خبز غمستُها بطبق العسل:

- في الحقيقة جئتُ البارحة لكي أستشيركَ بأمر سفري إلى الجزائر، كي أبحث عن القرصان البوني، فعنده الخبر اليقين عن خيرونيمو.

قال الشيخ:

- الخيرة في ما اختاره الله.

- أودّ أن أسألكَ عن رجل أندلسي أخبرني أنه طبيب واسمه محمّد بن ابن أبي العاص، هل تعرفه؟

اعتدل الشيخ في جلسته، ونظر إلى عينَيّ، وقال:

- نعم، جاءني قبل وصولكَ بأيّام، وسهّلتُ له أمر الحصول على بيت من بيوت الحيّ المتروكة، إنه يسكن قريباً منكَ، في البيت الذي بابه عند شجرة الكستناء الضخمة على منعطف الزقاق الذي يأخذ إلى بيتكَ، من جهة الطريق الهابط باتّجاه الجامع.

فاجأني حديث الشيخ، فأنا لم أره سوى البارحة، ووجدتُني أسأله:

- هل كنتَ تعرفه في غَرْنَاطَة؟

هزّ الشيخ رأسه نافياً، قبل أن يقول:

- هذا الرجل حيّرني حقيقة، لا يكاد يختلط بأحد، ويمضي وقته في البحث عن خزائن المخطوطات العربية. تخيّل أنني لم أره ولو مرّة واحدة في صلاة الفجر! قبل أيّام سألتُهُ عن سبب ذلك، فقال إنه حضر صلاة الفجر مرّة واحدة ووجدها تُصلّى على مذهب أبي حنيفة النعمان، وتختلف كثيراً عن صلاة المالكية، فقرّر أن يقضيها في بيته.

- هل هذا كلّ شيء؟

نظر الشيخ مليّاً ثمّ قال:

- سمعتُ أن شيخ الإسلام أعطاه أحد طوابق البرج، لكي يجمع فيه مخطوطات الأندلسيّين المنهوبة.. هذا ما سمعتُهُ.

لم أشأ أن أُخبر الشيخ عن ليلتي في البرج، ورؤيتي له، إذ كنتُ أظنّ في تلك اللحظات أن ثمّة سرّاً خطيراً وراء الرجل، عليّ أن أكشفه، ولذلك قرّرتُ تغيير الموضوع:

- هل تعرف سليم أفندي الأندلسي؟

بدا الاستغراب على وجه الشيخ:

- لم أسمع بمثل هذا الاسم من قبل؟ سليم وأندلسي؟

- ما الغريب في ذلك؟

- لا يسمّي الأندلسيون سليماً، ولكنْ، ما شأنه؟

- لا شيء، ذُكر البارحة اسمه أمامي، وقيل لي إنه ترجمان عند الصدر الأعظم!

لم يعلّق الشريف الأندلسي بشيء، ولكنْ، بدا الاهتمام على وجهه، فكيف لا يعلم شيئاً عن سليم أفندي هذا، وهو شيخ طائفة الأندلسيّين في إسْطَنْبُل؟! عند هذا الحدّ انتهى الكلام عن الرجلَيْن الغريبَيْن، ابن أبي العاص وسليم أفندي، وفي تلك اللحظات، ولمّا فرغت الأطباق من الطعام، اعتدل الشيخ في جلسته، وقال لي:

- سأخبركَ بأمر مستجدّ.

- كلّي آذان صاغية.

تحامل على نفسه، ونهض بقامته الضئيلة، ليخرج من الباب ويغيب حصّة، جال نظري خلالها في تلك الخطوط الزرقاء على مفارش الجلسة، لكم تشبه تلك التي مازالت صورها في ذاكرة طفولتي.. يا للأندلسيّين كم يتشابهون في ما يُؤثِرون! وبينما هو يدلف الحجرة؛ ناولني صفحة من ورق الكَاغِد، وقال هو يعاود الجلوس على ركبتَيْه:

- هذا الكتاب وصلني قبل أيّام من صديقنا أحمد بن البَرْطَال الغَرْنَاطِيّ، أريدكَ أن تترجمه لي كونكَ أكثر معرفة منّي بالقَشْتَالِيَّة، وأرجو أن تُحضِر الترجمة صباح الغد، لكي نرى ما سنفعل.

حملتُ الكتاب، وغادرتُ بيت الشيخ وقد أكّدتُ له أنني سأبذل قصارى جهدي لأن أعود به مترجماً صباح الغد.

ما إن جزتُ بضع خطوات بعيداً عن البيت؛ حتّى عاد المطر ليهطل، وبغزارة أكبر. فكّرتُ في العودة، لأنني كنتُ أرتدي نعالاً يكشف كعابي، ولكن الباب كان قد أُغلق سريعاً، فاستأنفتُ سيري أسرع على الطريق المنحدرة نحو بيتي.

كنتُ حذراً قدر ما أستطيع، من أن تنزلق قدمي إلى إحدى بِرَك الماء المخادعة التي تخفي تحت سطحها العَكِر حفراً عميقة، أو حجارة ملساء يمكن أن تطوّح بي على منزلق قاس، فيبتلّ الكتاب الذي دسستُ في جبتي ويحول حبره. حذري وهواجسي يتناوبان طريقي. ازداد هطول المطر، وبدأ يتجمّع في سيل كبير، ترفده سيول أصغر من مختلف الأزقّة، ليمضي متدحرجاً إلى بَوّابة حيّ الأندلسي الكبيرة المفتوحة على مياه الخليج العكرة.

نجحتُ في تلافي دفقة ماء كبيرة اندفعتْ نحوي فجأة. المطر نعمة في كلّ مكان، إلّا في إسْطَنْبُل فهو نقمة. انتبهتُ لهذه السخرية الشيطانية، فاستغفرتُ ربّي؛ وسارعتُ إلى ارتقاء حجر مكعّب صادفني تحت شرفة بيت، هرباً من سيل وصل ارتفاع مياهه إلى ركبتَيّ.

بدا المطر المتساقط من حوافّ تلك الشرفة أشبه بستارة من سلاسل فضّة، تداعبها نسمات لطيفة. تذكّرتُ أنني قرأتُ في سِفرٍ باللاطينية عن ملك فارسي كان يزيّن قصره بستائر حيكت بخيوط الفضّة. هل رأى ذلك الملك منظراً كهذا حتّى خطرت له فكرة الستائر الفضّية أم أنه مجرّد ترف جامح؟

يسخر الفرنجة عادة من ترف الفُرْس والعرب، ولكنهم حين يتحدّثون عن التُّرك لا يذكرون هذا الأمر مطلقاً.. يسخرون من أشياء كثيرة، ولكنْ، ليس من بينها موضوع التَّرَف. خلال الشهور الخمسة الماضية عرفتُ السبب الكامن وراء ذلك، فالتُّرك بعيدون كلّ البعد عن التَّرف والكُفر بالنعمة، ولذلك أنا واثق تمام الثقة من أن دولتهم ستعيش طويلاً.

أشدّ ما كان يغيظني في دولة بني الأحمر، حكّام غَرْنَاطَة، حياة التَّرف الباذخة التي عاشوها، على الرغم من العدوّ المتربّص، المحدِق بهم من الجهات كلّها.

ملتُ ببصري نحو الباب، ففاجأتْني عبارة لا غالبَ إلّا الله؛ مكتوبة على الأُسْكُفَّة بخطٍّ غَرْنَاطِيّ مُتقَن داخل زخرفة تشبه زخارف مشيّدات بني الأحمر. تبسّمتُ من هذه المصادفة الغريبة، وعادت إلى رأسي تساؤلات قديمة عن سبب اختيار بني الأحمر لهذه العبارة شعاراً لهم؟ هل كانوا يهجسون بمصيرهم الغامض، بينما هم يشيّدون قصورهم وقلاعهم محمولين على وَهْم القوّة والسيطرة والرفاه؟

ها قد توقّف المطر، وطُويت ستائر الفضّة كأنها لم تكن، وانقشع المدى أمامي، فظهرت بكلّ وضوح مئذنة جامع العرب المربّعة، القريبة من طُرُز المآذن الأندلسية، ولكنْ، مضافاً إليها قَلَنْسُوَة مخروطية تميّز مآذن بني عثمان. أخبرني الشريف الأندلسي الذي كان شاهداً على الحَدَث، أن معماراً أتى من طوبقابي سراي، بعد انتهاء تجديد المسجد، وجَّه عمّاله بوضع هذا المخروط الرصاصي فوق المئذنة المربّعة، من دون أن يستأذن الأندلسيّين القائمين على أمر البناء. لكنه قال للشيخ الشريف الأندلسي:

- لا أحد يستطيع أن يقول إنها إضافة جميلة، ولكنها ضرورية.

المآذن المخروطية؛ عنوان من عناوين غلبة العثمانيّين على الأراضي التي أخضعوها، تماماً كما هو حال المذهب الحنفي في الفقه، والمذهب الماتريدي في العقيدة. التُّرك لا يساومون على رموز غلبتهم، وعين هذا هو سبب الرهبة التي زرعوها في قلوب ملوك فَرَانْصَة وإشبانية، ونبلاء شبه جزيرة إيطالية جميعاً، حتّى أطلقوا على سلطان إسْطَنْبُل لقب السيّد الكبير. السيّد الكبير، باللاطينية والإيطاليانية، يعني الشخص المرهوب الجانب، المرهوب من دون أن يضطرّ لقول أو فعل شيء، رهبتُهُ تأتي من ذاته، من نظراته، من صمته!

مع انحسار موجات السيل، بدت حجارة الطريق نظيفة لمّاعة، فنزلتُ عن الحجر المكعّب، وتابعتُ سيري، عائداً إلى لعبة التداعي التي هيمنت على تفكيري في الآونة الأخيرة، ولم تبارحه منذ مغادرتي بيت الشيخ.

في بدايات وصولي إلى إسْطَنْبُل لم أكن أفهم الأتراك جيّداً، كنتُ أستغرب إصرارهم على منح قبور المسلمين القديمة أسماء صحابة ثبتت وفاتهم في الشام أو الحجاز. لن يغرب عن بالي كيف امتقع وجه الشريف الأندلسي حين سألتُهُ مشكّكاً بصحّة تلك القبور، وكيف منعني من الحديث بالأمر أمام أحد سواه! يومها روى لي قصّته مع الضريح المزعوم لمَسْلَمَة بن عبد الملك في جامع العرب، فقد كانت لدى الشيخ قناعة تقول: إن ضريح الرجل المسلم القابع في الجهة الجنوبية الغربية من "جامع العرب"، يعود، في حقيقة الأمر، لأبي أيّوب الأنصاري ذاته، وليس لمَسْلَمَة بن عبد الملك كما يتوهّمون هنا. وقد أخبرني الشريف الأندلسي أنه حاول أن يُوصِل رأيه لصديقه شيخ الإسلام خوجة سعد الدِّيْن محمّد جلبي أفندي، إلّا أن الأخير زجره بشدّة، وقال له غاضباً:

- كيف تجرؤ على التشكيك برؤيا مولانا العارف أق شمس الدِّيْن، التي رأى فيها موضع النور قرب ناحية القسمديون؟

كان شيخ الإسلام يشير إلى حادثة "لقاء الأرواح" التي لم يكن الشريف الأندلسي سمع بها قبلاً، وهي قصّة متداوَلة بين التُّرك تقول؛ إن معلّم السلطان محمّد الفاتح، الشيخ أق شمس الدِّيْن الدمشقي البكري، رأى، في ما يرى النائم، نوراً في المكان، فقال لعلّ قبر أبي أيّوب هنا، وتوجّه لذلك الموضع، فالتقت روحاهما، وهنّأه بالفتح، وقال له: شكر الله سعيكم؛ لقد خلّصتُمُوني من ظلمة الكَفَرَة. عندها أخبر الشيخ أق شمس الدِّيْن مريده السلطان محمّد الفاتح بالرؤيا، فأمر السلطان ببناء قبّة في ذلك المكان، ولذلك؛ لزم الشريف الأندلسي الصمت بعد ذلك اللقاء العاصف، ولم يعد يذكر الأمر إلّا أمام الأندلسيّين المقرّبين، وباللغة القَشْتَالِيَّة، خشية من إغضاب شيخ الإسلام الذي حذّره بشدّة من إعادة التجديف

وليد علاء الدين

بمثل هذا الكفر!

بتُّ أفهم الآن ما يبدو للآخرين تصلُّباً عند التُّرك في قضايا ليست من أصل الدِّيْن. إنكارها، أو إقرارها لا يمسّ جوهر العقيدة، ولا يُخرج من الملّة، فهذا التصلّب هو سبب دوام ملكهم. وقد لخّصه القطب الصوفي أق شمس الدِّيْن بمقولة عرفانية قرأتُها كثيراً في زوايا إسْطَنْبُل ورُبَطها: مفتاحُ الجنَّةِ معلَّق بلا.

وصلتُ أخيراً إلى الزقاق المؤدّي إلى بيتي، وكنتُ قد تفقّدتُ الكتاب مراراً خلال سيري، حامداً الله أن المطر لم يتسلّل إليه. وبينما كنتُ أنعطف يميناً، لفت نظري جُرَذ كبير يسحب شيئاً لمّاعاً من بركة الماء العكرة، يريد أن يدخل به جُحْره. قرفصتُ لأتحقّق من هذا الشيء الذي أثار شهية الجُرَذ. فإذا به مفتاح مصبوب من النحاس، نجح الجُرَذ بإدخال سنّه وساقه، وبقي قوسه الكبير عَصِيًّاً على فتحة الجُحْر. ثمّة كلمة محفورة لم أتبيّنها جيّداً. أمسكتُ قوس المفتاح بسبّابتي وإبهامي وجذبتُهُ. فاجأتني قوّة السحب من داخل الجُحْر! جذبتُ بقوّة أكبر، ونجحتُ بإخراج المفتاح، ولكنْ، مع الجُرَذ الضاغط بأسنانه على سنّ المفتاح.

نفضتُ المفتاح بقوّة مرّات عدّة، والجُرَذ متشبّث فيه. ضربتُهُ بحائط البيت ضربات متوالية أنهكت الجُرَذ، وأجبرته على التخلّي عن المفتاح، ولكنْ، وبعد سقوطه من الضربة الأخيرة على الحائط، انقضّ على قدمي اليمنى، وخدش كعبي بأسنانه الحادّة، فصرختُ متألّماً.

مضى الجُرَذ لائذاً بجُحْره، ورحتُ أتفقّد جرحي النازف.. ثمّة في الجوار مَنْ سمع صرختي، وإذ بصوت أعرفه جيّداً يقول لي من نافذة الطابق الأوّل:

- سأفتح لكَ الباب، اصعدْ إليّ بسرعة.

نظرتُ إلى الأعلى، وإذ به الطبيب ابن أبي العاص مكشوف الرأس، يشير لي بإصرار أن أصعد إليه.

انتبهتُ إلى أن المفتاح ما زال في يدي. دسستُهُ في حزامي، وتوجّهتُ نحو باب البيت الذي انفتح عن الطبيب وهو يدعوني للدخول.

في حجرة كبيرة غير مرتّبة، تعجّ بزجاجات الأشربة والأعشاب الطبّية، والمخطوطات المكدّسة في مكتبة مهملة، جلستُ على كرسيٍّ خشبيٍّ قرب موقد النار الذي أسرع الطبيب بوضع حديد الكَيّ عليه.

قال، وهو منهمك بخلط أشربة داكنة اللون في كوب نحاسيٍّ صغير:

- من حسن حظّكَ أنكَ قرب بيتي. سأكوي جرحكَ الآن، وأعطيكَ هذا الدواء، ولن ترى المرض، بإذن الله.

شربتُ الشراب المُرَّ، ووضعتُ يدي على الطاولة، بعد أن حشا الطبيب فمي بقطعة قماش، طلب منّي أن أعض عليها بقوّة.

مضى الأمر بيُسر.. لم أصرخ كما توقّع الطبيب، فتنفّس براحة وهو يمضي إلى منضدة أدواته ليجلب مرهماً وضِمَاداً من القطن المقصور. وضع المرهم على موضع الكَيّ، ولفّه بالضِّمَاد، وهو يقول:

- الطاعون تبدّى من الشمال، وسيصل إلى إسْطَنْبُل هذا الصيف.

قلتُ باستخفاف:

- أنا في غاية الامتنان لكَ، أيّها الطبيب، ولكنه مجرّد خدش!

تبسّم الطبيب ونهض نحو منضدة عليها شمعدان وسِفر مخطوط ودواة وحبر. أمسك السفر بيده وقال:

- هذه رسالة في تحقيق الوباء، ما زلتُ أكتبها بناء على طلب القاضي إسعاد أفندي. الجُرْذان هي الناقل الأسرع لوباء الطاعون. لا تَستهِنِ بالأمر.

قلتُ بثقة:

- الأعمار بيد الله، يا سيّدي.

هزّ رأسه هزّات خفيفة وقال وهو ينظر إلى عينَيّ:

- ما الذي كنتَ تحمله بيدكَ حين خدشكَ الجُرَذ؟ أَهو مفتاح؟

- نعم؛ مفتاح بيتي سقط منّي، وحين انحنيتُ لأنتشله عضّني الجُرَذ.

لم يزح نظره عنّي قيد أنملة، بل صار يتفرّس في وجهي بتصميم أَدْخَلَ الرعب إلى قلبي.

بعد فاصل صمت قال:

- لم تُخبرني باسمكَ؟

قلتُ وأنا أحاول أن أبدو متماسكاً:

- عيسى بن محمّد؟

- واسمكَ القَشْتَالِيّ؟

- خيسوس ..

شهق شهقة جعلتْني أنهض عازماً على الفِرَار إن بدر منه شيء، وحين رأيتُ أنه لم يأت بحركة قلتُ:

- خيسوس غونثالث.

فجأة استبدل بنظراته المخيفة ابتسامة عريضة وهو يقول:

- خيسوس غونثالث؟

نظر إليّ مليّاً، ثمّ قال:

- مِن طُلَيْطِلَة؟

- نعم، من طُلَيْطِلَة.. هل تأذن لي بالانصراف؟

لم يتحرّك من مكانه، واكتفى بإشارة من يده إلى الباب، وهو يشدّد عليّ الطلب بأن أُراجعه يوم غد، لكي يكشف على موضع الكَيّ.

كاتب من سوريا مقيم في تركيا

ملف/فصول روائية

لعبة الأسماء

مفيد نجم

حاولت إقناع حبيب أن الأسماء التي نحملها ليست سوى لعبة يلعبها الأهل مع اللغة دون أن يكون لنا أي علاقة بها، وأننا نرثها عنهم كما نرث ملامحنا وأشياء كثيرة منهم في الحياة. بقي صامتا وهو يتمشى كأن ما قلته لا يعنيه أبدا. توقف فجأة وأخذ ينظر إليّ بحدة ثم قال: نحن لا نختلف على الأسماء، نحن نختلف على أدوارنا في الحكاية. أنت تعرف أننا شركاء فيها لكنك تحاول استبعادي لأنك تريد وحدك أن تكون البطل وصاحب الرواية.

قلت باستغراب: ما تقوله غير صحيح ولو كان ذلك صحيحا لما كنت تقف أمامي وتطالبني بحقك في الكلام.

اقترب مني أكثر وقال: أعرف أن سؤالي سيكون غريبا، لكن سأسأله.

قلت: ما هو.

قال: هل تخيلت يوما كيف يمكن للحياة أن تكون لو لم يقوم الأهل بتغيير الأسماء، فأصبح أنا اسما مجهولا من الماضي وأنت من يكون أن تواصل الحياة نيابة عني.

نظرت نحوه بدهشة وأخذت أسأل نفسي كيف لم يخطر ببالي مثل هذا السؤال يوما. هذه الفكرة تصلح لكتابة يمكن لشخصين فيها أن يرويا الحكاية من وجهة نظر كل شخص منهما.

عندما شاهدني واجما، قال: لماذا لا نحوّل الرواية إلى لعبة مع الزمن، كأن نجعل الماضي حاضرا أو الحاضر ماضيا.

سألته باستهجان: وما الغاية من هذا العبث؟

قال: لكي نتحرر من سلطة الزمن. نحن دائما أسرى عنده.

ضحكت من سذاجة طرحه، وقلت: نحن أكثر الشعوب التي تلعب هذه اللعبة معه.

سألنا باستغراب: كيف.

قالت: نحن أكثر المجتمعات التي تسير نحو الأمام وعيونها إلى الخلف. الماضي هو فردوسنا المفقود الذي ما زلنا نتقاتل على ملكيته. الحاضر أصبح مخيفا لنا لذلك نهرب منه إلى الماضي.

صمت قليلا قبل أن يسأل: هل تريد أن تقول لي إن ما أريد فعله لا يختلف عما يفعله الناس في الحياة.

أجبته بحزن: نعم. أنا وأنت شخصيتان دراميتان في حكاية عجيبة.

لكن قل لي كيف استطعت بعد خمسين عاما أن تستدل إليّ.

لم يجب. ظل مطرقا طويلا دون أن يقول شيئا، كأن سؤالي كان عن شخص آخر لا يعرفه.

فجأة عاد يسأل من جديد: هل تظن أنني لو كتبت لي الحياة سأكون شخصا آخر لا يشبهك. أرجوك قل لي كيف ستكون الحياة لو تبادلنا الأدوار فيها.

صحت محتجا: ما حدث لن يغير شيئا في الواقع ما دامت الأسماء هي التي تغيرت. عشت لأدافع عن اسمي الذي هو أنا أو كلانا كما تقول. إذن ما الذي سيتغير من أقدارنا في لعبة الأسماء كما تحاول. كان قدرنا أن نولد في أزمنة سوداء. أعرف أنك لا تحسدني على سنوات عمري التي عشتها. أنا وأنت ضحايا وإن اختلفت الأسباب فلا تلمني على ما حدث. أنت أعفاك قدرك من التشرد والقهر والألم وضياع البلاد وأنا ما زلت أبحث عن أيّ أرض تحت أيّ سماء لأحتمي بها من قدري. فلماذا تأتي وتطلبني لكي نتبادل الأدوار والأسماء. هل تعرف ما هي الأسماء. هي مجرد كلمات تولد معنا دون أن يكون لنا حق في اختيارها. لكنها تصبح ما يدل علينا، نخاف عليها من العار لأننا نخاف على أنفسنا. لقد تحولت بعض الأسماء إلى أيقونات لا تسقط بالتقادم، لأنها تعني شيئا مهما في دراما الوجود الإنساني. قابيل وهابيل ونوح ويهوذا والأنبياء وغيفارا ونيرون، كلها.. كلها أسماء، هم لم يختاروها لكن القدر هو من اختار لهم الأدوار التي ارتبطت بهم. هي كانت حاجة لكي تكتمل تلك الدراما التي نعيش فصولها كل يوم.

تكلم. قل أي شيء. حتى الحياة هي اسم مؤنث هل تعرف لماذا. لأنها لا تتوقف عن الولادة. أنت كان عليك أن تموت وأنا كان عليّ أن أكبر وأواصل الحياة. هي هكذا لا تتوقف.

تقدم أرجوك وانظر من هذه النافذة: سترى حياة أخرى وبشرا آخرين. الجميع في سباق لكنها لا تلتفت إلينا ونحن نسقط دون

إيمان عزت

أن ندركها.

بقي صامتا يتأملني، فكان عليّ أن أفاجئه بالسؤال: هل تعرف لقبي الذي حملته مذ كنت طفلا؟

نظر باتجاهي بدهشة وقال: كيف لي أن أعرف ولم أكن موجودا.

ضحكت وقلت له: كان لقبي هو المجنون. فهل ستكون شقيا مثلي وتحمل لقبي دون أن تغضب.

بدل أن يجيب سألني باستغراب ومن أعطاك هذا اللقب.

قلت: والدتي منذ كنت طفلا. هي من سمتني به لأنها كانت تعرف أن أقدارنا تولد معنا.

أنا يا صاحبي ما زلت ذلك المجنون الذي لم يعقل بعد. حاولت أكثر من مرة حين يدركني التعب أن أشفى. لكنني فشلت في كل مرة. شخص ما في داخلي كان يتمرد عليّ دائما. هل أدركت الآن ما الذي تعنيه أقدارنا. أنا وأنت نحن ضحايا أقدارنا. هل تخيلت يوما أن يكون قدرنا واحدا وأن نبقى ضحايا له. الطاغية الذي باع أرضنا وكان سبب تشردنا وقهرنا هو من زال يشردنا ويقهرنا ويغتصب وطننا، والعالم ما زال يكافئه على ما يفعله بنا. منذ عشر سنوات وأنا أركض تحت كل سماء وفي كل أرض ومعي الآلاف المؤلفة هل تستوعب ذلك. أنت ما زلت هناك الطفل الذي ضاع مني. وأنا هنا كل هذا الوجع والخيبات والألم. أنت طويت حكايتك معك واسترحت، وأنا ما أزال أتعثر بحكايتي وأنا ما زلت أطوف بها مثل طائر بجناحين متعبين في كل أرض.

ظل مطرقا يتأمل ما قلته له. انتظرت أن يقول شيئا أيّ شيء لكنه واصل الصمت. سار مطرقا نحو الباب، أغلقه خلفه واختفى. أحسست بالوحشة فكان عليّ أن أبدأ في كتابة الحكاية لعلني أستعيده.

كان المساء قد بدأ يطوف في الأرجاء، والمدينة تستريح من عناء يومها. ركضت وفتحت الباب لعله يعود ولا يجدني لكي أروي له حكاية ما عشت.

ناقد وروائي من سوريا

ملف/فصول روائية

أرصفة الرّغبات

فتحية دبش

الشّاطئ مهجور. انسحب المصطافون بهدوء بعد أسابيع من الشّموس الحارقة والرّمال المتوهّجة. لممت الأجساد غاياتها وسمرتها وتراجعت بكل هدوء نحو الحياة الأخرى حيث المشاغل والاستعدادات للموسم الدّراسي المقبل. الرّياح الخفيفة تكفّلت بمحو الخطوات فغاب بعضها وبقي بعض أثر لبعضها الآخر. ذلك لم يكن هاجس الرّجل الذي يراه العابرون يمشّط الشّاطئ طولًا وعرضًا ولا حتّى هاجسه هو نفسه، فهو ابن المدينة الصّغيرة. ابن هذا الشّاطئ شبه المهجور الآن بعد انقضاء موسم السّباحة وفي انتظار صيد المحّار.

لا أحد يتعلّم المهن البحريّة فهي تولد وتتربّى وتكبر معهم. غير أنّ البحر بقي في ذاكرة الجميع أشبه بالغول أو بالآلهة. غول لا يرحم، يفترس الجميع ويستفرد بالجميع حين يقرّر على حين غفلة أن يتحوّل الصّخب في جوفه إلى رقصة للدّراويش، فتدور الأجساد تدور وهي في طريقها إلى التخلّص من أرواحها، وإلى إخماد دقّات القلب وامتلاء الرّئتين بالماء الذي منه جعل كلّ شيء حيّا إلى أن يغرق فيه الشّيء فيصبح آلهةً، ويصبح كل شيء مينًا. هو نفسه لم يتعلّم مهنة البحّار، ولكنّه ركب البحر مرّات قليلةً جدًّا، صاحبه فيها قيء شديد وألم في المعدة ودوار في الرّأس، مما جعله غير قادر على مواجهة الفراغ الذي يحيط بمركب الصّيد الصّغير، الذي كان يقلّه صحبة الرّيّس الكبير، الذي تولّى تدريب كلّ بحّارة المنطقة. تلك المرّات القليلة كانت كافيةً ليتخلّى عن حلم المركب والشّبكة العامرة والصّيد الوفير. وقاده الأمر على مرارته إلى الاكتفاء بالمشي على رمال الشّاطئ.

في خلال جولاته الصّباحيّة الباكرة أو المسائيّة المتأخّرة أو حتّى تلك التي يقوم بها وقت القيلولة حين يتحوّل الشّاطئ إلى جنّة العشّاق، حتّى وإن كانوا قلّة قليلة جدا، تبتعد به الذّاكرة إلى ذلك الحدث، حين ضبط حبيبين متلبّسين بالحديث الذي يحوّل البريق في العيون إلى دموع، كما حدث أن اكتشف أجساد النّساء وهي تغطس في الماء، وتظهر متخفّفةً على غير العادة من بعض الثّوب، كما حدث أيضًا أن اكتشف مخبأ قوارير البيرة غير بعيد من مركز حماية المصطافين. لكنّه أبدًا وإطلاقًا لم يتمعّن في جسد إحداهن، ولا كشف سرّ اثنين كانا قد هربا من موانع المجتمع إلى تسامح البحر.

البحر نفسه غول وآلهة، فهو عندما يبتلع الصّغار والكبار يكون غولًا، وحين لا يأكل ضحاياه يتحوّل إلى آلهة تحرس الحياة، وتؤمّن لها استمرارها، ولا تسأل عن حلال ولا عن حرام. لم يتساءل يومًا إن كان لهذا البحر أُذن تسمع بكاء الآباء والأمّهات، أو همسات المحبّين والمحبّات وهم وهنّ على فراق. كان هو أيضًا يشبه هذا البحر، منبسط صامت قادر على طيّ حكايات الذين وثقوا به، وهرعوا إليه ممتلئين بالرّجاءات والرّغبات.

في جولاته تلك كان يجمع المحار، فالصّيد، وإن لم يتمكّن من ممارسته عرض البحر وفي أعماقه البعيدة عرضًا وعمقًا، فقد ظلّت مهنة البحّار تناديه، وتستحوذ عليه فكرة الشّعور بالحريّة وفتنة المشي على بساط خفيف من الماء في أوّل البحر، أو على رماله المنبسطة الرّطبة.

المحار، يأخذ في تأمّله حين ينتهي من ملء السّطل الكبير، يأخذه واحدةً واحدةً بين أصابعه ويقلّبها يمنةً ويسرةً ثم يعيد رميها في مستقرّها. يعرف ما سيكسبه من بيع محصوله اليوميّ خلال الموسم، ويخطّط لصرف ذلك المكسب على أجزاء: جزء للمأكل والمشرب، وجزء للوازم الأطفال، وإن بقي باقٍ فهو بالضّرورة سوف يخفيه عن أعين الرّغبات ويدّخره للحاجة. لا يذكر أنه استمتع يومًا بطبق المحار المخلّل في ماء البهارات والليّمون، مصحوبًا بحفنة من البطاطا المقليّة كما يرى على صور المجلات أحيانًا، وعن طريق الصدفة، أو كما يسمع من حديث الشّراء والبيع في سوق السّمك

ريم بسوف

المركزيّة. هذا المنتوج لم يخلق للفقراء، كغيره من المنتوجات التي ينحنون لجمعها، بينما يستمتع بها الأغنياء والوافدون من بلاد البرد البعيدة حين يأتون في المواسم، وما بينها للاستمتاع بغلال البحر الطّبيعية. كذلك كان يواسي نفسه كلّما اشتدّت به الرّغبة في اكتشاف تلك اللّذّة التي لم يدرك كنهها إلّا في بعض المسامرات البعيدة والنّادرة التي كانت قد جمعته بأهل الكيف، وعلب البيرة على غير طلب منه، بل على سبيل اعترافهم له بفضله وقدرته على فعل الكتمان الذي برع فيه.

في الآونة الأخيرة لم يعد سطله يحتوي على المحار وحسب، فقد قلّ ابن البحر وكثر ابن الأرض التّائه في عرض البحار والصّحارى. هل عافت الحيتان قاع البحر وما فيه فانتقلت إلى بحار بعيدة لم يصلها التّلوّث بعد، أم ماتت جرّاء ما تبتلعه غذاءً؟ لم يكن يدور بخلده كلّ ذلك السّؤال المتعلّق بالبيئة، إذ هو نفسه يعاني من انكسار سلسلة التّغذية، فلا هو باللّاحم ولا بالعاشب، بل يراوح بين الحالتين مراوحةً تزداد تعقّدًا وتعقيدًا ومباعدةً، لكنّه يواجه ذلك بالبحث الدّائم عن مورد رزق جديد. هكذا استفاق يومًا على رغبة جامحة في تغيير واقعه. هذا البحر الممتدّ صار شحيحًا، وهذه الرّمال الرّطبة لم تعد تؤوي فضلات المصطافين، ولا عظام السّمك المتروكة هنا وهناك، بل كثرت على صفحتها الأقدار المبتورة.

روائية وناقدة من تونس مقيمة في فرنسا

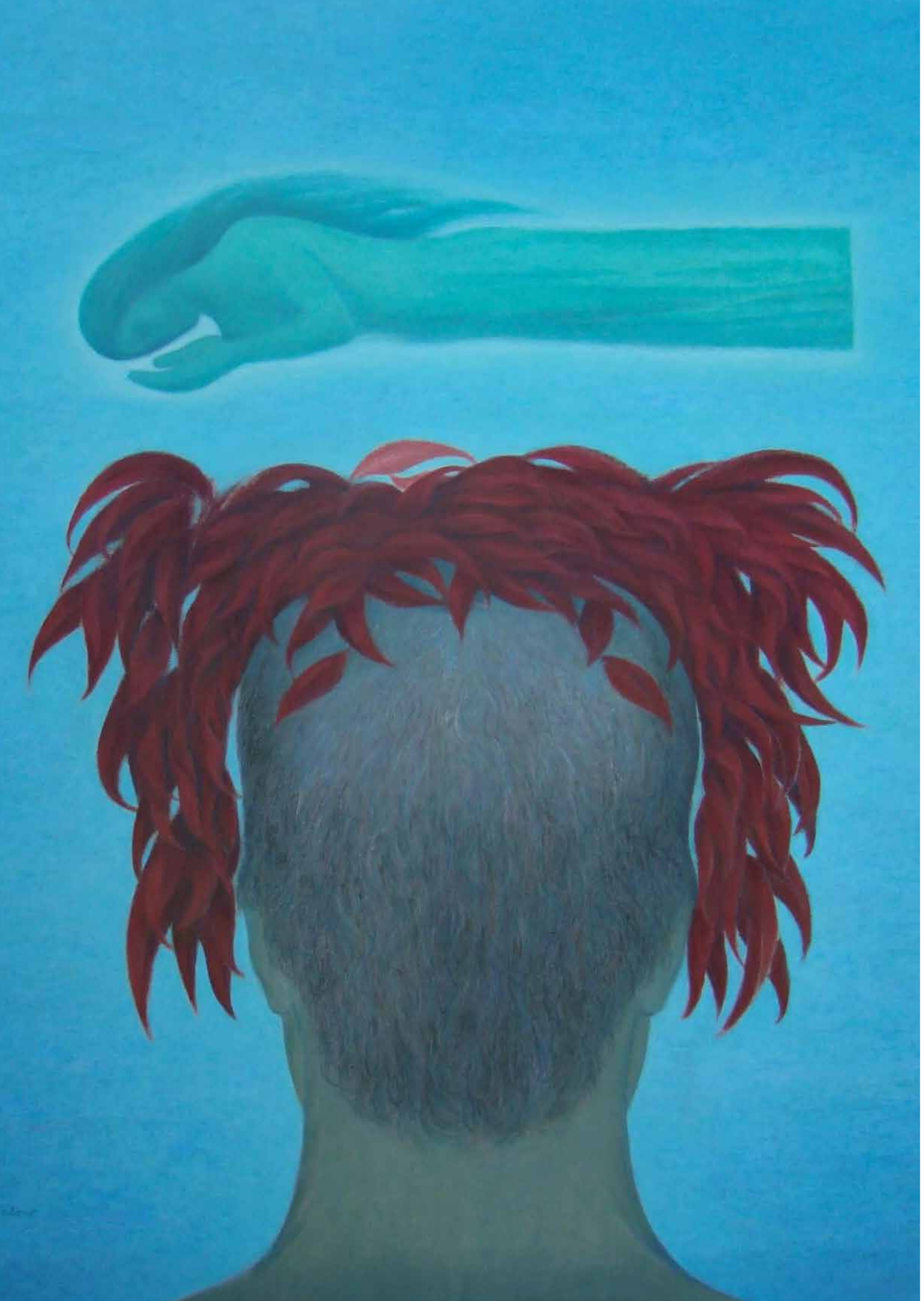

صبري منصور

ملف/فصول روائية

الرجل المئوي

وارد بدر السالم

(1)

تساءلتْ زوجتي باستخفاف:

"هل هذا ممكن؟".

أعرف نسبة استخفافها بالخبر الشائع، منذ إعلان بلدية المدينة عنه، لذلك حاولتُ أن أفسّر لها الحالة بطريقة ملتوية:

"لعلّ ذلك يحدث في الزمن من دون علمنا".

مطّت شفتيها والاستخفاف ذاته يرتسم على وجهها:

"وهل الزمن مطّاط إلى هذا الحد؟".

"أنتِ تعرفين ذلك أفضل مني".

لا أودّ الجدال معها في موضوع كهذا.

تتطير من الغيبيات وشواردها وشواذ الحياة التي نُحييها في مناسباتٍ كثيرة. وتتنكر في كثير من الأحيان لتعلقنا بما تركه السلف من أخبار وروايات ومرويات وأقوال وأفعال وطقوس. ولولا أنها زوجتي وأعرف طريقة تفكيرها، لوصفتُها بالارتداد عن مسار السماء الذي نعيشه جيلاً بعد جيل، والخروج عن طاعتها العمياء. لذلك كان من السهولة أن تردّ:

" تسيّرون الزمن بحسب أهوائكم".

أجيبها بعناد:

"إنه زمن مفتوح على كل شيء".

تستخفُّ من جديد:

"اعترف بأن خيالكم عجينة تتشكل بحسب الظروف".

قد يشوب كلامها شيء من الاعتراض وربما السخرية المبطنة. بل التقاطع الكلّي. أفهم طريقتها غير المباشرة بانتقاد الأشياء الصغيرة والهامشية وحتى الكبيرة منها. تُحوّل الخيال - خيالنا - إلى فصول من كتاب ينتهي تأليفه بطبيعة الحال، بنظريات ومفاهيم يُعتدّ أو لا يُعتدّ بها، إلا أن الأمر لا ينتهي بالنسبة إليها إلى هذا الحد، بل تديم وجودها النقدي كلما وجدتْ سبيلاً إليه في مجتمعها النسائي، وحتى الذكوري منه في الجامعة. وكأنها لا تريد أن تقف عند حدّ ما يحدث من خيال طقوسي مستمر. إنما تحلله وتُرجعه إلى أسبابه التاريخية والاجتماعية، وبالتالي تفسّر وتتوقع - حسابياً - خسارات الزمن الذي صرفته مجتمعاتنا على مرّ التاريخ الهجري. زوجتي متسلحة بالمعرفة الأكاديمية، وأحسدها على هذا المزاج في القراءة والكتابة والتحليل والاستنتاج، كأنها خريطة تتجدّد وتحدّث ذاتها في كل يوم.

تردد في كثير من الأحيان:

"غيّر طريقتك الفطرية في النظر إلى ما يُحيط بنا.. الفطرة توقفكَ عند مستوىً واحد في الحياة".

لعلي أفهم بالضبط ماذا تقصد، وكيف لا تستثنيني عن غيري ممن تعيش بينهم، من الأهل والمعارف والأقرباء وأساتذة الجامعات من العهد الجديد. غير أنني بطبيعة فطرية حقاً، لا أستجيب لمضامين الحياة الكثيرة إلا ما ندر منها. وقد يكون لها تأثير مباشر على منظومة الكثير من أفكاري وطقوسي المعتادة التي أقوم بها بحماسة وحسن نية، كأنني اقترضتها من زمن قديم، وعليّ واجب تسديدها في هذ الزمن لِـ.. لمَن؟

في كثير من الأحيان لا أعرف لمَن سأسددها، لكنني مطمئن إلى أنها ستصل إلى السماء على أقل تقدير(حتى السماء لنا)، وأحياناً أشعر بالعبث (أجد نفسي في فوضى لا طائل من ورائها)، وأحياناً بالمتعة (أنغمر مع الناس بسعادة شخصية)، وفي غالب الأحيان يعتريني شعور من أن هذه واجبات دينية تشكّلت في أعماقي الاجتماعية (أوليها اهتمامي ووقتي). غير أن زوجتي ترى بأن هذا هدرٌ للزمن والوقت وتعذيب للذات لا ينتهي (إنها محقة بعض الشيء)، تفسّر

الحالات التي أمرّ بها على أنها سلوك موروث وعليّ أن أتخلّص من الجزء الأعظم منه (أوافقها إلى حدّ ما) حتى أكون خفيف الأحمال، بدلاً من هذا العنف القسري الذي لا يُوصِل إلى نتيجة، بل يزيد من أثقالي ويجعلني إنساناً مشوهاً، (هكذا قالت لي أكثر من مرة بطريقة المزاح)، لكنه مزاح فيه قسوة، عكس أنوثتها التي أهيم بها حباً وشغفاً.

(2)

زوجتي أستاذة جامعية، وهي ابنة عمي، جمعني بها حبّ طفولي حتى اليوم. اعتدتُ على وجودها في حياتي منذ سنوات القرية التي كانت فيها بيوتنا متجاورة؛ نحن الأعمام والأخوال من فخذ العشيرة. لم نعش قصة حبّ كما يحدث عادة، لكننا متفاهمان وآمنان في هذا الزواج الجميل.

زوجتي حاصلة على شهادة الماجستير بدرجة امتياز من كلية العلوم الأساسية - قسم العلوم الاجتماعية. ذكرت في أطروحتها العلمية - بحسب فهمي لها - أن الزمن فعالية متحركة في المكان، ووَصَفته بأنه جسر لا مفرّ منه للعبور إلى المستقبل، وعلى المجتمع أن يعي أدواره الجمالية في إيجاد ملاذات زمنية أكثر أماناً ودقةً وإنتاجية.

وذكرت في رسالتها أيضاً - التي أخذت من وقتها أكثر من سنة كاملة - بأن الإنسان وليد ظروفه البيئية وموروثاته الاجتماعية والدينية، ومن الصعب عليه أن يتجاوز هذه المحددات التي يولد معها، وبالتالي فهو حالة شائكة ومانعة للتقدم الحضاري والعلمي إن بقيت تلك المغروسات مرافقة له في حياته العامة والخاصة، بمعنى يتعطل الزمن لديه ليكون عنصراً سالباً ضد المدنية والحضارة. وقد جاءت بأمثلة جريئة من الواقع وميدانه، تطبيقاً لمفهومها عن الزمن وهو يتسرب في المكان الاجتماعي بطريقة فوضوية غير مسؤولة.

درجة الامتياز التي حصلت عليها أهّلتها لنيل شهادة الدكتوراه، وهي جادّة في مواصلة دراستها لاختيار موضوعها الذي لم تحدده بعد. لكنها تبحث في المجتمع عن ظاهرة عامة، لتغوص في تاريخيّتها وتحللها وتخرج بنتائج علمية واضحة. وأعتقد بأنها استقرت على دراسة أثر الطقوس والشعائر الدينية في بلاد وادي الرافدين على الحياة العامة، ومدى أهميتها النفسية والروحية في البناء الاجتماعي، ودور الكهنة في إنشاء نظام ديني يتفوق على السياسي، وصفته لي بأنه كان أعلى من سلطات الملوك آنذاك. هذا يعني بأنها ستمضي إلى العصر العراقي القديم، لكن بتطبيقات معاصرة، لتبرهن على أن الزمن عبارة عن سلوك متصل في الحياة الاجتماعية، حتى لو مرّت عليه آلاف السنوات، وأن التوريث الاجتماعي ذو جذر ديني أسطوري وخرافي في أساسه. وتعدّ ذلك مشكلة مرافقة للزمن الاجتماعي.

زوجتي لديها مزاج وصبر استثنائي في مقاومة الزمن واستثماره في الدراسة والقراءة. وأنا لا مزاج عندي لكل هذه التفاصيل وهذه المعرفة الشائكة. اكتفيت بكوني مدرّساً في إعدادية للبنين ولا أكثر من ذلك. لهذا فهي تميل ببساطة إلى حلّ بعض المعضلات اليومية التي تواجه حياتنا البسيطة، وتبعث الروح في يومياتنا الميتة، وتتصرف دائماً بحكمة المرأة التي تسير في الاتجاه الصحيح إلى الحياة. وهذا لا يقلل من شأني أمامها كزوج وابن عم، سوى ما تراه وتلمسه في فطرتي الداخلية والخارجية، وقد تجعله مأخذاً عليّ، وكأنها لم تعش معي سنوات الطفولة والصبا في قريتنا البعيدة، وقد تطبّعنا - أنا وهي - بطباع فيها الكثير من العلاقات الاجتماعية والدينية، كما فيها الكثير من الطقوس الشعبية المُلزمة في كثير من الأحيان. لكن أن تحيلها إلى خرافاتها القديمة وأسطوريتها، فهذا شأن أكاديمي يخصّ دراستها ووظيفتها البحثية.

(3)

زوجتي قلقة.

تقول إن القلق منشؤه الشك.

لا تؤمن بنظريات كثيرة عالجت الزمن البشري وتحدثت عنه، وتميل إلى الشك في كل شيء. ولعل هذا ترك فيها حجة قوية أن تكون علمية أكثر من كونها امرأة تعيش واقعاً، اختلطت فيه الخرافة بالأسطورة في صراع الزمن الاجتماعي بواقعيته المعتادة. لكن هذه المرة كأنما تجسدت أطروحتها الماجستيرية في الواقع.. مصادفة ونبوءة قديمة متكررة في الأساطير والآداب والسرديات تحدث الآن بيننا بطريقة واضحة، جعلت المدينة تخرج عن صوابها وثباتها، وتتصرف برعونة وفوضوية، كأنها فقدت زمامها الأخلاقي والخرافي، وتبعت نداءات متكررة عن حكاية رجل عاش مئة عام ولا يزال حياً بيننا لكن من دون أن نراه.

بدا القلق المصحوب بالشكّ واضحاً عليها، كأنما التعايش مع الحدث الذي مرّ بمدينتنا واستمرّ لساعات ساخنة طويلة وطّد

صبري منصور

مصداقية رسالتها في الزمن العشوائي الذي نبتكره ونصدقه ونركض وراءه بعيون مغمّضة. وكرّس لديها التركيز على إعادة النظر في معاينة الواقع المشغول بغيبياته وخرافاته وانتماءاته الكيفية. وهو ما قد يجعلها تستحضر الماضي القديم وآلياته الدينية عبر الكهنة الذين لا ينقطعون عن اللجوء إلى الزمن بكل تجلياته ومراحله الإنسانية. إنهم آلهة بشكل واضح. تردد لي ذلك عندما تريد أن تقرّب إلي صورة القديم من الحياة وعلاقته المتوارثة مع الحاضر.

هذه طريقتها في معاينة ما يحدث في الواقع وتفسيره؛ على العكس مني، أنا المنقاد إلى خرافات الأشياء المحيطة بنا، إذ إني أخاف من كل شيء يخرج عن سجيته الحياتية ونظامه اليومي الذي نعيشه، وأشعر بخوف مضاعف في استثناءات الحياة التي تحصل.

ثمة أفكار قديمة لا تزول من رأسي أنقاد إليها بسهولة؛ لأشعر بأنني مؤتمن على وصايا المجتمع الريفي الذي عشته، ولا يمكن لي أن أتجاوزه أو أن أخرقه. أخاف الضياع والتشتت. مثل طائر الهجرة الذي لا بدّ أن يبقى مرافقاً لسربه حتى الموت.

(4)

يحدث في مدينتنا الصغيرة؛ وهي تعيش رتابة مملة كأنما زمنها تجمّد؛ ما يستثيرني ويجعلني مستفَزاً ومراقِباً لشأنٍ اجتاحنا بطريقة غريبة، فالدعوة المباشرة للأهالي إلى حضور احتفالية

صبري منصور

الخلود البشري؛ متجسماً في رجلٍ غير معروف؛ أمرّ أثار فينا الاستغراب، لا سيما زوجتي العنيدة والمتطرفة بعلميتها، فكانت، بين لحظة وأخرى، تتطلع إلى وجهها في المرآة، لتريني - ساخرة - أن مشوارها في الحياة لن ينتهي قريباً، ولديها ضعف عمرها ستعيشه بسعادة، كما عاشه هذا الرجل الذي أثار استغرابنا. حتى إنها قالت، بالسخرية ذاتها؛ إن الزمن رجلٌ طويلٌ، مربع الجسد، بوجهٍ مفلطح، وشارب غليظ نازل إلى صدره، يقبع في زاوية من البيت يراقبنا ولا نراه، بل يرانا ويتحكم في أمزجتنا وتطلعاتنا.

"مَن يسمع هذا الخبر يتصوّر أن الزمن رجل.. هههه".

كنت ألاطف شبابها الثلاثيني وأقول لها كلاماً واضحاً بشأن عمرها الجميل، وأحثّها على حضور الاحتفالية، لنرى الزمن على وجه الرجل وروحه. هذا الرجل الذي عاش عشرة عقود متواصلة ولا يزال على قيد الحياة، بعد أن قطع شوطاً طويلاً في أعوامه المئة.

"غداً يبدأ يومه الأول في المئة الثانية".

"وهل تصدّق هذه الخرافة؟".

لكنها تعترف بقلق:

"لا أستغرب من أن رجلاً يعمّر حتى المئة عام، ففي الطبيعة استثناءات كثيرة".

ثم تقول:

"مدينتنا البائسة لا تتحمّل مثل هذا الاستثناء".

توضّح لي:

"كثيرون في العالم عمّروا مئة عام أو أكثر. لكن هذا يتطلب هواءً نقياً وظروفاً صحية استثنائية، ومجتمعات لا تعرف الحروب والهزائم العسكرية والهزّات الاقتصادية والسياسية".

تخلص:

"الإنسان ابن بيئته، وبيئتنا لا تنجب خالدين للأسف".

وقبل أن تُنهي حديثها، تقول حكمتها:

"مدن الحرب يكون الموت فيها هو الحالة الطبيعية، أما الحياة الطبيعية فهي الاستثناء".

ثم:

"لا خلود في مدن الحرب، ولا استثناء فيها أبداً".

(5)

لها الحقّ.

لا أجادلها كثيراً.. فعلميتها المكتسبة من الدراسة الواعية تجعلها تقول ذلك. أنا مؤمن بالغيب وظواهر الطبيعة المفاجئة في حياتنا، وهي سيدة علم وثقافة أكاديمية رصينة. وأمام ما أعلنته بلدية المدينة، أعتقد بأننا تقاطعنا نسبياً في النظر إلى الحدث الغريب، فمثل هذه المؤسسة الغائبة عن حياتنا اليومية، والتي لا تعنينا بشيء، خرقت قاعدة تهميشنا ووجودنا الاجتماعي عندما أعلنت عزمها على الاحتفال برجل بلغ من العمر مئة عام، وهيّأت كوادرها الفنية والإعلامية، لتكون المناسبة شعبية متميزة، تبعث الأمل في نفوس الأهالي المصابين بعقدة الموت.

هذا أمر نادر الحدوث في مدينتنا التعيسة.. لهذا، وبشكلٍ عاجل، قام عمّال البلدية ومستخدموها بغسل الشوارع الترابية والفرعية والأرصفة والأزقة الموصلة إلى المسرح الصغير المتروك منذ سنوات. وكانت الحوضيات، منتفخة البطون، ترشّ مياهها من صنابير رشّاشة لامتصاص حرارة الشوارع والأرصفة وترطيب الجو على قدر المستطاع. كما زُيّنت بناية المسرح بأشرطة لمآعة، وبالونات ملونة وبوسترات تحمل صورة الرجل الشخصية التي نشرها صحفي في إحدى صحف العاصمة، بتحقيق استقصائي مثير أخذ صفحة كاملة من الجريدة، مُذيّلاً بسطر كتبته هيئة التحرير: (هذا ما يمكن نشره من ذكريات الرجل المعمّر).

(6)

بقينا أمام حدث غريب من نوعه في مدينتنا القديمة. وزوجتي ترقب مستويات ردود الفعل عند الأهالي والعامّة من الناس الذين فاجأهم أن تكون المدينة مُنجبة للخلود البشري، وهي التي مرّت بحروب وكوارث وعواصف سياسية وطائفية لا عدّ لها. ومثل هذا الحدث الذي أعلنته بلديتنا، سيبقينا يوم غد على قيد الانتظار لرؤية معجزة الخلود في رجل مئوي لا نعرف من هو على وجه التحديد؛ لكننا سمعنا منذ زمن قديم بمثل هذا الخيال العظيم من جداتنا وأمهاتنا وآبائنا القرويين. فلعله هو.

* تصدر قريبا عن دار الدراويش في ألمانيا

روائي من العراق

فؤاد حمدي

ملف/فصول روائية

الفتى الفلّوجي

عواد علي

أطلقوا سراحي ذات ظهيرة في صيف العام 2005، مع تسعة معتقلين، ليس بينهم من أهل الفلّوجة أحد سواي. أوصلونا إلى الطريق الرئيسة التي تربط الرمادي ببغداد، وتركونا لحال سبيلنا. كان الصهد في قيظ النهار أشبه بلظى في فرن محميّ يشوي أديم الأرض، وفي وجهي لفح هجير. شعرت بضيق شديد، على الرغم من توقي إلى أشعة الشمس التي افتقدتها في المعتقل، وغطيت رأسي بدفتر يومياتي لأحميه من وقدتها.

مكثت على حافة الطريق نحو نصف ساعة، في جوفي مرارة من الظمأ، إلى أن حظيت بسيارة حمل أقلّتني إلى الفلّوجة. قدّم لي سائقها الماء وبعض الحلوى التي غذّت معدتي. كان رجلًا ذا قلب كبير وضمير صاحٍ. كشف لي أنه كان ضابطًا برتبة نقيب في الجيش السابق، وبدا ذا ميل فطري إلى التفاؤل.

حدثته عن اعتقالي في سجن أبوغُريب، فربّت على كتفي قائلًا:

- لا تحزن، إنها تجربة مفيدة ستمنحك قوةً في مواجهة الشدائد. كم عمرك؟

- ست عشرة سنة.

- ماذا كانت تهمتك؟

- اتهموني بأني شاركت في قتل أربعة حرّاس أميركيين من شركة بلاك ووتر وسحل جثثهم وتعليقها على دعائم الجسر القديم في الفلوجة؟

- وهل شاركت بالفعل؟

- لا، كنت وقتها مريضاً طريح الفراش وإلاّ لما أطلقوا سراحي بعد عشرة شهور من اعتقالي.

أخرج من جيبه علبة سجائر وراح يدخّن، ثم مضى يحدّثني عن مشاركته في المقاومة، وأنا أصغي إليه بتركيز. عندما أنهى كلامه التفتُّ إلى المرآة الجانبية للسيارة، فهالتني صورتي فيها، "يا إلهي! لقد فقدت الكثير من وزني، وأصبحت شاحبًا"، قلت لنفسي، وخطر لي أن ذلك سيذهل أمّي، ويجعلها تذرف الدموع.

أفزعني ما أصاب الفلّوجة من دمار، خراب في كل مكان، في البنايات والمدارس والمنازل ومحطات الوقود والمساجد والشوارع والأرصفة، كما لو أنها أصيبت بزلزال شديد. قلت للسائق، الذي أصرّ على إيصالي إلى باب البيت:

- كل هذا الدمار ويدّعي الساقطون أنهم جاؤوا لتحريرنا.

ضحك وقال:

- ليس على الكذب ضريبة، الأطفال الذين ولدتهم الفلّوجيّات مشوّهين أعظم دليل على أنهم جاؤوا محررين!

ثم قطب وأضاف:

- ستُفجعك قصص هؤلاء الأطفال، بعضهم ولد بعين واحدة، وآخرون لديهم تشوّهات في القلب والأطراف وشقوق حلقية ورؤوس وأمعاء متضخّمة. وسمعت أن خبراء غربيين اكتشفوا حالات سرطان في المدينة تفوق نسبتها ما نتج عن القنابل الذرية التي ألقتها أميركا على هيروشيما وناكازاكي.

ران عليّ حزن ممزوج بالغضب، ورحت أنبش خزانة رأسي بحثًا عن أقذع الشتائم التي تليق بهؤلاء الأميركان الوحوش، فلم أعثر على واحدة تشفي غليلي منهم. وتمنيت لو أن الحارس الذي اغتصبني يقف قبالة عيني في تلك الساعة، لأثب عليه كذئب أمعط وأغرس أنيابي في رقبته.

سألني السائق عمّا إذا كنت قد تعرّضت إلى انتهاك جسدي في المعتقل، لكنني أحجمت عن الرد عليه خجلًا، وحين ألحّ بالسؤال أجبته بنعم. قال:

- لستَ وحدك من أساؤوا إليه، هناك كثيرون غيرك في أبوغُريب ومعتقل الديسكو، هل سمعت بهذا المعتقل؟

- سمعت عنه عرضًا.

- إنه معتقل في الموصل، سُمّي بهذا الاسم لأن الأميركان

يستخدمون فيه الموسيقى الصاخبة وسيلةً للتعذيب. ويُقال إنه أبشع من أبوغُريب.

- لعنة الله عليهم، أبناء عاهرات.

- نعم هم كذلك، ما يقومون به ليس أخطاء أفراد ولا سلوكًا اعتباطيًا، بل أمر موجَّه يشكّل جزءًا من سياسة عامة لجيشهم. وقد فضحهم إعلامي أميركي أمام الرأي العام، وأثارت الصور التي نشرها ضجةً واسعةً دفعتهم إلى إجراء محاكمات صورية لمرتكبي بعض الانتهاكات، إلاّ أن العقوبات التي صدرت ضدهم هزيلة ومضحكة.

- لا أستغرب ذلك، عندما شكوت للمحقّق ما فعله بي الحارس، كذّبني وصفعني صفعةً كافرةً، وهدّدني بعصا كهربائية.

حين فتحت لي أمّي باب البيت شهقتْ من الدهشة، وقبّلتني بحرارة، وضمّتني إلى صدرها وأخذت تنشج، ثم انفجرت في نوبة نحيب تصدّع الفؤاد. أما أختي أميرة فقد أخفت حزنها، وملأت البيت بالزغاريد كما لو كان ذلك اليوم يوم عرسي.

بعدما جفّفت أمّي دموعها سألتها عن أبي، غير أنها تملّصت عن الإجابة، وأمرت أختي، بصوت متحشرج، أن تجلب لي شيئًا آكله، ثم مسّدت شعري وراحت تمطرني بالأسئلة:

- يا ويلي عليك، أين أخذك الخنازير؟ هل أذلوك؟ هل آذوك، هل أجاعوك؟ هل مصوا دمك؟ هل... هل...؟

قلت:

- اعتقلوني في سجن أبوغُريب، لكن أين أبي؟

- كنتَ معتقلًا! ونحن نضرب أخماسًا في أسداس معتقدين أنهم قتلوك. حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي.

- لماذا لا تقولين أين أبي؟

- أبوك بخير. دعنا الآن نفرح بعودتك سالماً.

سحبت رأسي من صدرها ونظرت إليها مشكّكًا، وهرعت إلى المطبخ لأستطلع الأمر من أختي. أرادت أن تتهرّب وتشغل نفسها بإعداد الطعام، بيد أنها لم تجد مفرًا أمام إلحاحي، فتنهّدت وقالت إن أبي استشهد في حي "الجغيفي"، ولم يعثر أحد على جثمانه. صدمني الخبر وملأني حزنًا، وجلست على الأرض، وأخفيت رأسي بين ذراعي واستسلمت للبكاء.

في اليوم التالي لإطلاق سراحي، زارني الأستاذان أصلان البياتي وهيثم الدليمي، مدرّس التاريخ، حاملَين بعض الهدايا. قبّلاني وعانقاني بفيض من المحبة، وعزّياني باستشهاد أبي. كنت في فضول شديد لمعرفة أخبار المدرسة. أنبآني بأن وضعها لا يسُرّ، هدّم القصف الأميركي جزءًا منها، وأودى بحياة فرّاشها وحارسها المصري العم زكريا.

آلمني رحيل الرجل الطيب، خاصةً أنه تزامن مع رحيل أبي. كنت أكنّ له محبةً كبيرةً، وهو يبادلني مثلها وأكثر لأنني لم أتوانَ عن جلب بعض الخضار والفواكه له بين حين وآخر. وقد قفزت إلى رأسي لحظتها ذكرى إعارته لي مظلته في يوم ماطر قبل مغادرتنا الفلّوجة. قال لي "ستبتلّ ملابسك وتمرض، خذ مظلتي وأعدها غدًا". كانت مظلةً في أكمل حالاتها، ربما لم يستخدمها في ذلك الشتاء إلاّ مرةً أو مرّتين، لأنه نادرًا ما كان يبرح المدرسة، وإذا ما برحها فإنما لشراء بعض احتياجاته. وقد أسفت أشدّ الأسف لعدم استطاعتي إرجاعها له لأنني غادرت المدينة في اليوم التالي.

ليست هذه نهاية قصة زيارة أستاذيّ المبجلين أصلان البياتي وهيثم الدليمي، بل أنهما أفاضا في الحديث عما عانته الفلّوجة من مصائب خلال المدة التي قضيتها في المعتقل. وقبل أن يودعاني قالا إنهما سيقنعان مدير المدرسة بإصدار قرار يعتبرني ناجحًا في ذلك العام الدراسي، وقد خفّف ذلك قليلًا من حزني على أبي والعم زكريا.

عرضت عليّ ثلاث أُسر من معارفنا الزواج من بناتها، باعتباري بطلًا، من وجهة نظرها، لكنني شكرتها واعتذرت عن تلبية عروضها، مؤكدًا لها أنني لست مؤهّلًا للزواج في ذلك السن، وأعتزمُ إكمال دراستي من دون التزامات تثقل كاهلي.

لم ألحظ، خلال الأيام التالية، تدهورًا في مستوى معيشة أُسرتي، بل كانت ثمة وفرة من المؤونة في البيت: تمر ورز وسكّر وشاي وسمن وعدس وفاصوليا ومعجون طماطم وبرغل وحمص وطحين ومعلبات مختلفة الأصناف، بينما كان يُفترض أنها واجهت أيامًا عصيبةً بعد استشهاد أبي. قالت أمّي إن الأستاذ أصلان وبعض أقربائنا والجيران لم يقصّروا في توفير احتياجاتنا. وكان عمّي جاسم يرسل من الرمادي، بين حين وآخر، بعض النقود والمواد الغذائية. يا لها من أنباء سارّة! لم أتمالك نفسي من الفرح، الأميركان الأوغاد خطّطوا لتحويلنا إلى جرذان نعتاش على الفُتات، لكن فألهم خاب.

بمرور الأيام، تبيّن أن ما فقدته المدينة من أهلها لم يكن الحصيلة النهائية، ثمة عشرات مدفونون تحت أنقاض المنازل والمساجد والمحلاّت التجارية، التي هدّمها القصف فوق رؤوسهم. وبين حين وآخر كان يُعثر على جثث لرجال ونساء وأطفال، ممن لم يتمكّنوا من مغادرة المدينة، ويجري تسليمها إلى المستشفى العام.

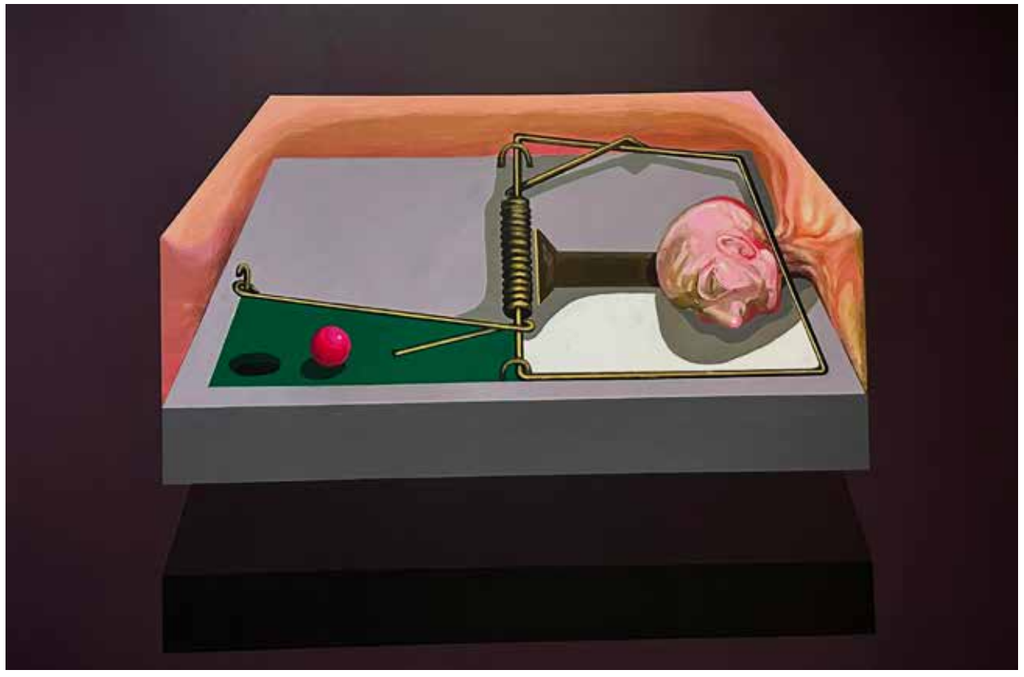

فؤاد حمدي

من حسن الحظ لم يتضرّر دكان أبي كثيراً من الدمار الذي لحق بالفلّوجة، رشقات رصاص فقط أصابت رول بابه، لذا قرّرت أمّي أن نعاود فتحه لنلتقط رزقنا منه، رغم أن عمّي جاسم حثّها على الانتقال إلى الرمادي ليرعى أُسرتنا، خاصةً أن ذريّته كلها من البنات، ويعتبرنا أنا وأخي أيمن بمنزلة ولدين له.

اتفقت مع أمّي على تقسيم ساعات العمل بيني وبينها، تعمل هي من الصباح حتى الظهر، وأعمل أنا تِلو عودتي من المدرسة حتى غروب الشمس، وفي المساء أتفرّغ لإنجاز واجباتي الدراسية.

كان قراراً حكيماً جعلنا نعيل أنفسنا اعتماداً على جهدنا. ولم يبخل الأستاذ أصلان في مساعدتنا خلال الأيام الأولى. كان يقتنص ساعةً أو ساعتين من وقته ويأتي لتقديم يد العون لي. ولو كان ميخائيل موجوداً آنذاك لعاضدني، لكن ماذا أفعل للأميركان الذين عجّلوا في هجرة أُسرته إلى الخارج؟

ظلّ بعض رجال المدينة ونسائها يتردّدون عليّ في الدكان والبيت، طوال أكثر من شهر، ليسألوني عن أبنائهم الغائبين أو المغيّبين. كانوا يجهلون ماذا حلّ بهم، ويذكرون لي أسماءهم وأعمارهم وصفاتهم، آملين في أن أكون قد رأيتهم، أو صادفتهم في المعتقل، فأجيبهم بأنني كنت في زنزانة انفرادية، ولم يسمحوا لي بالاختلاط مع المعتقلين إلاّ مرّات قليلةً تعرفت أثناءها على عدد قليل جداً منهم. وكنت أشعر بالأسى لأنني لا أعرف شيئاً عن أولئك الأبناء. امرأة مسنّة فقط اضطررت أن أكذب عليها لأريحها من العذاب الذي كانت تعيشه. قدّرت أنني سأمنحها حياةً إضافيةً إن زعمت أنني التقيت حفيدها في المعتقل. يا إلهي كم تألمت وهي تتحدث عنه بحزن يفطر القلب. قالت إنه الولد الوحيد لابنتها، شاب في العشرين من عمره، كان طالباً في كلية الطب، وقد اختفى في الأسبوع الأول من اقتحام الأميركان للمدينة. طمأنتها قائلاً إنني أعرفه، التقيته أكثر من مرّة، وإنّ صحته جيدة، إلاّ أنهم نقلوه قبل إطلاق سراحي بيومين إلى معتقل الديسكو في الموصل مع مجموعة معتقلين، وسيكون وضعه هناك أفضل مما كان عليه في أبوغريب. كذبة بيضاء أزاحت جبلاً من الكرب عن صدر تلك العجوز.

يا الله، لم أعد أتذكّر الآن اسم ذلك الحفيد! ولكَم أتمنى أن يكون على قيد الحياة.

روائي من العراق

بوابة الشميسي

عبدالسلام إبراهيم

خمسون مترا تفصله عن البوابة، تهتز خيوط الإحرام البيضاء التي تعكس اهتزازات لا تُحصى بداخله، يدرك أن الخمسين مترا لا يمكن أن يتلاشى معها الخوف المتنامي ويتحول إلى ذرات دقيقة جدا من الطمأنينة التي حاول بلوغها بالتلبية من خلال أنفاسه المتقطعة، وأن عمله الموسمي مرهونٌ بعبورها، واكتمال المناسك، أيضا، مرهون بولوج البوابة المنيعة، ويدرك أن العمل الموسمي والعمرة وجهان لعملة واحدة.

"لبيك اللهم لبيك"

قد يصل إلى البوابة وعندها قد تتوقف سيول الخوف التي تجرف كل معاني الخشوع المحتشدة بروحه والتي تتعانق مع الأماني القديمة كي يتخطاها ويصل إلى المسجد الحرام في يسر، لكنه أثناء إعادة لحظة البناء النفسي، تعاوده صور المُرحّلين إلى بلادهم وهم يطبعون بصمات أصابعهم في أجهزة أمن البوابة إيذانًا بخروجهم نهائيًا، وعندها تتحطم كل الطموحات بالعمل مرة ثانية، ويرفعون رايات اليأس من بلوغ المسجد الحرام، ولو كانت البوابة أمرًا روتينيًا فما كان الخوف منها بهذا الحجم، إذ جاءت كل الحكايات المتواترة عنها لتؤكد أنها البوابة التي يقف عندها مَلكٌ ذو بأس شديد يمنع، بما أُوتي من علمٍ رباني، رخصة الدخول إلى البلد الحرام، فيتيقظ رجال الأمن فيفحصون كل جوازات سفر العابرين، فمن يحمل تأشيرة يوضع فوقها عبارة "غير مسموح له بالعمرة"، يأمر صاحبها بأن يمد أصابعه فوق الجهاز كي يتم ترحيله.

"لبيك اللهم لبيك"

لبَّى مناديًا بصوتٍ يرتج له فضاء السيارة ويتجاوب معه بقية المعتمرين من جنسيات مختلفة؛ هندية وباكستانية وبنغالية ومصرية، وتختلط كل اللهجات لتصنع ابتهالاتٍ محشوة بخشوعٍ راقٍ، ويختبئ كل منهم في ظل الآخر الذي تصنعه أضواء أعمدة إنارة الطريق الجانبية، ويتمنى كل منهم أن التلبية بعزم الأنبياء تكون صيغة النجاة للمرور من بوابة الشميسي.

"لبيك اللهم لبيك"

ردَّد خلفه ركاب السيارة؛ كلٌ بلهجته العربية المتدهورة فتحولت التلبّية إلى مزيجٍ لُغوي صوفي صافٍ يطوف أثناءها ملائكة نورانيون حول رؤوسهم، ويغمسون في آذانهم طمأنينة يرتقون بعدها بوابات تتألق حولها أضواء مبهرة نحو السماء. يشعر بأن الخمسين مترا تتحول، في لحظات استثنائية، إلى كتلٍ خراسانية ضخمة تضيق حول جسده ويحاول أن يفلت بعيدًا عنها بأن يفرّ نحو التلال التي تحيط بالطريق الإسفلتي العريض، ويغرز أقدامه في الكثبان الرملية الشاسعة للوصول إلى نقطة الأمان. سوف يلوذ، حينئذ، بعنفوانٍ روحي ادّخره طيلة سنوات مرض أمه وملازمته لها ودعواتها له، أن يستدعي صورة أمه وهي ترفع أكف الضراعة تُلبّي في سرّها وتتخيل نفسها وهي تمر ببوابة الشميسي دون أن يوقفها حارس أمن وتحلِّق حولها طيور الحرم في موكب مهيب ملبّية بصوتٍ خفيض.

"بوابة الشميسي أكثر البوابات صعوبة" همس معتمرٌ هندي جالس بجواره لزميله الهندي فتسبب في أن تنقطع التلبية ويجف ريقه، نظر بطرف عينيه وتمنّى لو أن يسكته أو ينصحه بمواصلة التلبية لعلها تكون جواز مرور لهم في تلك الليلة العصيبة، لكنه لم يدرك كنه الابتسامة المرسومة على وجه الهندي وهو يروغ بوجهه وكأنه يستدعي التفاؤل من أجنحة الخوف، أو أن مساحات الخشوع التي قطعها بالتلبية بينه وبين نفسه تكفَّلت بأن تترجم له معاني الطمأنينة التي يصل إليها كل من تهفو نفسه لزيارة بيت الله الحرام، وما كان الباكستاني الجالس خلفه والذي يدمدم بلغته، حينما ينقطع عن التلبية، يربح بالتزامه بالسكون النفسي الذي استطاع أن يبنيه منذ أن انطلقت بهم السيارة وربما

فؤاد حمدي

تسامق في روحه وجعله يغمض عينيه ويقطع كل حبال الذكريات المؤلمة التي تناوبت على ذهنه طوال الطريق.

كان الخشوع الذي بدأ يتسرب إلى نفسه يمحو الخوف شيئًا فشيئا، لكنه شعر بأن الخشوع ما هو إلا خوف مغلّف في دوامات، فلو كان خشوعًا صافيًا لم تؤسسه دوافع الخوف من أن يتم إيقافه عند البوابة، فلماذا يدق قلبه بتلك السرعة وكانت دقاته أسرع من السيارة نفسها؟ بل شعر بأنه الوحيد الذي يستقلها وأن سقفها قد انخلع وطار مع الهواء المندفع إلى الوراء، وسيكون هدفًا سائغًا لحراس البوابة وسيكون تركيزهم منصبًا عليه هو وحده، وأن كل المعتمرين الموجودين في السيارات الأخرى سوف يشهدون مسألة تفتيشه ويسمعون بآذانهم تأنيبهم له وربما لا يستجيب الحراس لتوسلاته بأن يمنحوه إذنًا بالدخول ليس من أجله بل من أجل أمه المريضة التي سوف يؤدي عنها مناسك العمرة، ولو تعنتوا معه، كما كان يتخيل، فسوف يضع يده في الحقيبة الجلدية الصغيرة ويخرج لهم صورتها، وسوف يقسم لهم بأنها سوف تكون المرة الأخيرة التي يعبر بها بوابة الشميسي دون أن يحصل على تصريحٍ

بالعمرة، ولن يجادلهم في الزحام الذي يخشون حدوثه، بمنعهم أولئك الذين لم يُصرّح لهم، بأنه لن تشتد وطأته بجسده النحيل، جسده الذي لن يكون ذا شأن في الزحام، بل إنه على استعداد بأن يقسم لهم بأنه سوف يكون كائنًا خفيفًا يمشي على أطراف أصابع قدميه، بل سيكون هواءً بشريًا تُسهم رغبته الشديدة في أداء العمرة في تحوله إلى ذلك الكيان البشري الهوائي الذي يطوف حول الكعبة.

دنت، في مخيلته، الكعبة، وانداحت نحوه فوق بساطٍ حريريّ أخضر تدعوه للطواف حولها، وتسببت في أن تهدم جدران الخوف التي ارتفعت داخل روحه، وشعر حينئذ بأن الخشوع الذي بدأ في تشييده بالتلبية أصيل في ذاته، منذ أن نوى ودعم النية بالإحرام، وراح يستغفر الله ويدرك في قرارة نفسه بأن الخوف الذي سكن أطرافه قد زرعه بداخله الشيطان، ولو بدأ، منذ انطلاق السيارة، بالاستغفار فما كان شعر طوال الرحلة بطيفٍ واحد من أطياف الخوف، ولكان الخشوع هو الإحساس الوحيد الذي يدعم مسألة النية، إذ أن الشيخ، الذي جلس في حضرته بعد صلاة العشاء في الليلة السابقة، أكد له أن النية تتطلب خشوعًا، ولو كان الشيطان يجلس بين أرجل المعتمرين في السيارة فالخشوع كفيل بدهسه.

حينما يأتي الشيطان في ذهنه ويبني في قلبه الخوف تبتعد عنه صورة الكعبة، ثم يجف ريقه، وتتصارع بداخله كل الخواطر السيئة، وتجعله يتمنى لو أنه لم يستقل السيارة أو أنه لم ينوِ أداء العمرة من الأساس، ويدرك أن كل راكبي السيارة يتحالفون ضده وسوف يقومون بتسليمه لحراس البوابة حينما تتوقف السيارة عندها، وربما يكونون أكثر لطفًا بأن يشيروا لهم بأصابعهم نحوه، أو يكونون أكثر خبثًا بأن يتركوا للحراس مسألة اكتشافهم للمعتمر الذي يجرؤ على الدخول دون تصريح، لكنهم سوف ينظرون نحوه بأطراف أعينهم كي يضبطه الحراس، ولو نظر إليهم في تلك اللحظة سوف يطوفون بنظراتهم في سقف السيارة ويدعمون طوافهم الوهمي بالتلبية التي لن يقطعها وقوف السيارة أو الحراس الذين يطوقونها.

ربما يستغل بطء السيارة عند اقترابها من البوابة ويقفز منها ويركض بكل عزم نحو المرتفعات المحيطة بالطريق السريع، ويساهم الظلام في أن يختفي، ولو ركض خلفه الحراس سوف يصل إلى الجبال البعيدة ويرتقيها في اللاوقت، لن يستطيعوا، حينئذ، أن يلحقوا به لأنه في تلك اللحظة لن يكون بشرًا عاديًا بل سيكون طائرا بشريًا يفرد أجنحته ذات الريش الأبيض التي كان يلفها حول ساقيه ويطير بعيدا عنهم، وربما يعبر بوابة الشميسي ويحط عند المسجد الحرام، ويُعيد أجنحته ويدخل ملبيًا حتى تنقطع التلبية حينما يرى الكعبة، ولو كان الحراس قد قاموا بتصويره وهو يطير في السماء أو أن الأقمار الصناعية التقطت صورا له وهو يحلّق فوق أجواء مكة، وتُبَث في نفس الوقت على شاشات الحرم، حينئذ لن يضبطه أحد إذ يتوه، الآن، بين الزحام ولن يكون لأجنحته أثر، ولو تطابقت صورته مع صورة الطائر بعد أن يقوم مقتفو أثره بمضاهاتها مع كل المعتمرين سيكون حينئذ قد فرغ من أداء العمرة ولو قاموا بترحيله فلن يخسر سوى عمله الموسمي.

لا يعرف كم من الوقت مرّ أو كم ميلا قطعته السيارة، وهل اقتربت من البوابة أم لا؟ كل الخواطر التي انتابته وهو يلبّي قد استغرقت دقيقة واحدة، وأن بقية الخواطر ستكون أكثر شراسة كلما اقتربت السيارة من البوابة، ولو أحصى كل الخواطر الصعبة التي مرت به فلن يتفرغ للتلبية وسوف يعود الخوف إلى قلبه وإلى جبينه الذي بدأ ينتج عرقًا بغزارة، ولن يكون للخشوع مكان، وسوف يبذل كل ما أُوتي من تلبية والخوض في معانيه حتى يستدر منه أطياف الخشوع.

حاول أن يلوذ بمعتمري الجنسيات الآسيوية نفسيًا، مال بجذعه على الهندي وشعر بطمأنينة مؤقتة لكن الهندي ابتعد عنه قليلا ظنًا منه أنه يوفر له مساحة أكبر في الجلوس، أو أنه ضاق من اتكائه عليه، وتحطمت حينئذ كل الآمال بأن يذوب في جنسية أخرى قد تكون أكثر بعدًا عن هدف حراس البوابة في ضبط المخالفين من عابريها، وشعر بأن ملامحه قد اقتربت كثيرا من ملامحهم بسبب اشتراكهم في وعاءٍ نفسي واحد، ولو كان الحراس يبحثون بأعينهم عن مصري خالف قواعد العمرة بارتدائه إحرامها فلن يكون له وجود إذ سيكون قد تلاشت ملامحه المصرية تمامًا وتحوَّلت إلى ملامح هندية أو باكستانية أو جنسية أخرى تكون مزيجًا من كل الجنسيات ليس لها تاريخ في كسر القواعد أو مخالفتها.

لا يفهم لماذا توقفت السيارة، وحينما نظر أمامه وجد أن سيارات كثيرة في صفوف طويلة منتظمة قد توقفت تمامًا وقد أضاءت كشافاتها الخلفية الحمراء، ولم يستطع أن يتبين إذا كانت توقفت بسبب اقترابها من البوابة أم لسببٍ آخر، واستعد في نفس الوقت لتنفيذ أيّ سيناريو من السيناريوهات التي بناها في ذهنه طوال الطريق، ولن يكون الخوف، الذي راح الشيطان يصبّه داخل قلبه، سببًا في أن ينكمش داخل السيارة ويتلاشى أو أن يسلّم نفسه للحراس وتنتهي كل أحلامه.

السيارات القادمة في الاتجاه الآخر تنطلق سريعًا وتمنى لو أنه يقفز في إحداها وينهي بنفسه كل مخاوفه، ويعلل لنفسه أنه قام بكل ما استطاع أن يقوم به لأداء العمرة لكن الله لم يكتبها له، ولو أنها كُتبت لما كانت المخاوف تنهش في رأسه كطيور شرسة لا ترحمه، وسوف تتفهم أمه موقفه حينما يعود متخاذلا، ولو شعرت بغصة في قلبها فلن تبوح له بها، وربما تقول له كعادتها إنه حصل على الثواب كاملا، ومن المؤكد أنها ستدعو له مرة أخرى، ولكن بخشوع الأولياء، أن يكتبها الله له مرة أخرى، وسوف يلهج لسانها بذكر الله حتى تطمئن تمامًا وتنقل له اطمئنانها ولن يقف في وجهه شيطان يبث في قلبه الذعر.

تحرّكت السيارات ببطء وسرعان ما انطلقت سريعا وعلا صوت التلبية واستقى من أصوات ركاب السيارة نبرات تشي بالسكينة وهدأت روحه قليلا، وارتفع معها صوته في الوقت الذي كانت أصوات بقية الملبّين تخفت تدريجيًا، ولم يفهم مغزى ذلك، ربما بسبب التعب أو لجفاف ألسنتهم بسبب شدة الحرارة، وحينما نظر إليهم وجد أن رؤوسهم تتمايل وتوقف البعض منهم عن التلبية تمامًا وانتابه اليأس، وتمنى لو أنه يتحدث مع أحدهم ويبوح له بمخاوفه فربما كان لديه حل لما يعتمل بداخله، أو ربما قام بأداء عمرة من قبل ويطمئنه كما طمأنه من قبل زميل له بأن عبور بوابة الشميسي بالليل أسهل بكثير من عبورها بالنهار، وخطرت له فكرة أن يغمض عينيه حتى تمر السيارة من البوابة دون أن ينتبه الحراس لمن بداخلها، وقد فعلها.

لا يعرف كم وقتًا مر وهو مغمض العينين لكنه حينما فتحهما شّع نورٌ وهَّاج من كل جانبٍ وخُيّل إليه أنه غفا وقتًا طويلًا وأنه يرى ما يراه في الأحلام، إلا أن النور المتدفق من المصابيح قد أعاده إلى الوعي وأدرك أن السيارة قد اقتربت كثيرا من بوابة الشميسي وأن الأضواء التي كشفت كل من بداخل السيارة صادرة عن كشافات ضخمة تُحول الليل إلى نهار وضَّاح ولو تخيل عابرو البوابة، من الذين لا يحملون تصريحًا بالعمرة، أنهم بمأمن بالليل وفي استطاعتهم التلفح بظلامه فخيالهم حينئذ يتبدد إذ أن البوابة قد صنعت نهارا ليليًا لا يقل عن النهار الطبيعي في شيء، فالأنوار الوهَّاجة جعلت كل السيارات العابرة وكأنها تمر في النهار ولن يستطيع أيّ مخالف أن يركض خارجًا من أيّ سيارة نحو الجبال، إذ أن الأضواء تنير مسافة مائتي متر في كل الاتجاهات.

خَمَّن أعداد السيارات التي تمر من البوابة بعشرين ألف سيارة ولمح بعضًا منها وقد عبرت الشميسي في سهولة ويسر، وتخيل كل لحظة أن تتوقف صفوف السيارات ويقوم الحراس بالتفتيش، وكلما مرّت وعبرت انجلى من داخله الخوف وتحول إلى خشوع، وكلما أبطأت السيارات أو توقفت تحول الخشوع إلى خوف متنامي وتراقص بداخله ألف شيطان يحولون الخوف إلى ذعر شديد ويهتفون في أذنيه بنشيد اليأس.

تسبب الضوء في استيقاظ معتمري السيارة وراح كل منهم يلهج بالتلبية؛ كلٌ بلكنته، ويعتدل في جلسته، واقتربت السيارة من بوابة الشميسي، شعر بعجز شديد في ساقيه وتيقن تماما بأنه لن يستطيع أن يفتح باب السيارة ويقفز منها ويهرب في الصحراء نحو الجبال، ولن يكون بمقدوره أن يفتح جناحيه الوهميين ويطير بهما نحو الكعبة إذ أن الطيران يحتاج إلى ساقين تدفعان الأرض كي تتحقق نظرية الارتفاع نحو السماء، وشعر بخواءٍ شديدٍ في قدميه ولو أشار إليه أحد الحراس بأن ينزل من السيارة فلن يكون مؤهلًا لذلك، حينئذ سيقومون بجرّه خارجها. كانت البوابة تقترب وتتقزَّم أسفلها السيارات التي تمر كل مجموعة منها في صف من خلال حارة مرورية ضيقة يقف عندها حارس ويحدق في كل سيارة تمر بجواره، ولو رأى شيئًا غريبًا في أيّ سيارة سوف يوقفها ويقوم بتفتيشها.

مرت السيارة عبر بوابة الشميسي ببطء ويسر، بجوار الحارس الذي نظر وأطال النظر بداخلها وكأنه يكشف بعينيه كل مخالف ولو كان قد اكتشف لما عبرت السيارة وابتعدت وانزاحت من قلبه نزغات الشياطين التي كانت طوال الطريق تبثها في قلبه، وتحولت إلى خشوعٍ شديدٍ وانتابته فرحة ليس لها مثيل ولو كانت أمه قريبه منه لقبل يديها وارتفع عندها صوته بمقطع التلبّية، وكلما كان يفرغ من المقطع يدفع عن نفسه بقايا الشياطين التي يئست من أن ترسِّخ في ذاته القنوط. ومن فرط ابتهاجه لم يدرك أن السيارة توقفت أمام الحرم وترجّل خارجًا منها وهو يلبّي بكل قوة، داخلًا عبر باب السلام، مخترقًا جموع البشر المحتشدين في أروقة الحرم، وخشوع الصابرين يثلج قلبه ويذرف معه دموعًا غزيرة وحينما رأى الكعبة أمامه أجهش بالبكاء وأقبل نحوها بروح وليّ أُوتي كشفًا تحت أستارها.

كاتب من مصر

مسرحيون عراقيون في المهجر:

تجربة حازم كمال الدين

عواد علي

منذ ما يزيد على أربعة عقود عُرف عن المسرحيين العراقيين المغتربين، مهاجرين ولاجئين، أنهم الأكثر حضورًا في الحراك المسرحي بالعالم، مقارنةً بأقرانهم المسرحيين العرب. ولم يقتصر حضورهم على جغرافيات عربية وأوروبية فحسب، على الرغم من المصاعب التي واجهها معظمهم، ولا يزال يواجهها في تمويل تجاربه المسرحية، بل امتد إلى أستراليا وأميركا الشمالية ونيوزلندا. عن هذه المصاعب يقول أحد أبرز هؤلاء المسرحيين، وهو المخرج الراحل عوني كرومي، "كنا نعتقد بأن المسرح في بلدان المهجر سيفتح أبوابه مشرعةً ويرحب بنا، لكن رغم منافستنا لهم، إن لم نقل تفوقنا في هذا الشأن، فإن جدار القطيعة ما زال عاليًا لأن الآخر لا يقيّمك ما دام لا يعرفك، وإن تنازل قليلًا فإنه، في أحسن الاحوال، سيعرفك من خلال تجربتك معه، واستنادًا إلى قدرتك على الانصهار في ثقافته". وقد اضطر كرومي، بسبب انسداد الأبواب أمامه، إلى البحث عن فضاءات غير مسرحية في ألمانيا لتقديم عروضه، كالمصانع والساحات وباحات البيوت، بالرغم من أنه حاصل على الدكتوراه في المسرح من ذلك البلد الذي لجأ إليه، ويعتمد مسرح بريخت الألماني منهجًا في تجاربه الإخراجية!

لكن بعض المسرحيين العراقيين المغتربين استطاع أن يتغلب على هذه المصاعب، ويحظى بنجاحات مشهود لها، في سبيل المثال لا الحصر: حازم كمال الدين، كريم رشيد، فاضل الجاف، باسم قهار، محمد سيف، شامال عمر وزوجته نيكار حسيب، قاسم بياتلي، هيذر رفّو، رسول الصغير وآخرين. لكن بسبب ضيق المجال سأكتفي بتسليط الضوء في هذه الورقة على تجربة حازم كمال الدين.

المواجهة

غادر المخرج والممثل والكاتب المسرحي والروائي والمترجم حازم كمال الدين العراق عام 1979، وكانت بيروت هي الحاسمة. هناك ابتدأت المواجهة، جابه نفسه على أكثر من صعيد، حتى أجبرها على أن يبحث عنها، ليس كما أرادت لها "الثقافة والأعراف والتربية" أن تكون، بل كما هي حقيقته. وهناك جابه أيضًا مفاهيمه المسرحية التقليديّة اللاأصيلة والمكتسبة بجملة من التحديات: هل المسرح محاكاة فعل أم إنه فعل بحد ذاته؟ هل ثمة حاجة حقيقية إلى النص المسرحي المكتوب على الورق؟ ما علاقة الإخراج بالنص؟ أهو تفسير له أم تأويل، أم تأليف جديد، أم علاقة أخرى؟ وفي علاقته بالتقنيات المسرحية، هل هو تجسيد لما يحدث في النص؟ بناء معارض له؟ مواز لما يحدث فيه؟ أم في علاقة هارمونية؟ ما هو الأساسي في العرض المسرحي: الحوارية أم الصورية؟ وما هي علاقة هذه العناصر بعضها ببعض، وكيف تجتمع؟ من خلال توليفها، تنسيقها؟ تفاعل بعضها مع بعض؟ أم لصق بعضها (في كولاج) إلى جوار بعض؟ ما هو التمثيل؟ اندماج، تشخيص، مسافة من الشخصية، أم شيء آخر؟ هل المسرح هدف بحد ذاته؟ هل هو وسيط؟ ما هي علاقته بالتراث؟ هل هي عملية إسقاط على الواقع، أم تحليل ونقد للبنية التي أنتجت الواقع؟ هل العلاقات التي تربط هذه العناصر فيما بينها خارجية، شكلانية، أم داخلية، بنيوية؟... إلخ (حازم كمال الدين، "المنفى والفنان"، مجلة الجديد، لندن، 2017/5/1).

باختصار وضع كمال الدين، إبان تلك السنوات، كل معرفته المسرحية في أسئلة. وقد أجبره البحث عن إجابات عن تلك الأسئلة على التوقف عن العمل المسرحي من عام 1985 إلى عام 1990، وكان ذلك التوقف رحلةً قاسيةً في غابة نفسه: تأمل، مراجعة، نقد، نظر في المرآة كل يوم للتدقيق في الدمامل، كما يقول (المرجع نفسه).

بعد وصوله إلى بلجيكا، درس العلوم المسرحية في جامعة لوفان، وعلم الحركة في معهد مسرح الحركة بقيادة يان لوتس ليصبح بعد سنوات مدرسًا في المعهد نفسه، وأسس "محترف صحراء 93 المسرحي"، وحصل على دعم دوري من وزارة الثقافة البلجيكية، وهو أول تجمع مسرحي (مؤسسه شرقي) في تاريخ الغرب

يحصل على دعم ثابت من هذا النوع، وقد أنتج أكثر من خمس عشرة مسرحية معظمها من تأليفه وإخراجه، وأعد بعضها عن نصوص لكتاب آخرين، وكمال الدين مدير حالي لـ"جماعة مسرح الصبار" البلجيكية.

محترف صحراء 93 المسرحي

سنّ محترف صحراء 93 المسرحي، في أغلب تجاربه، تقليدًا يقوم على دعوة مرشد مسرحي أو دراماتورج أوروبي أو آسيوي، كتحضير ضروري للعمل المسرحي الذي يُقدَّم لاحقًا، انطلاقًا من أن المسرح ظاهرة شمولية، وكل من يريد أن يضعها في قالب أو مدرسة واحدة إنما يحكم عليها بالسجن، ففي مسرحية "ساعات الصفر" دعا ممثل البيوميكانيك المعروف توني دو ماير (جماعة مايرخولد)، وفي مسرحية "عين البلح" استقدم المختص بمسرح يوجينو باربا لودو فان باسل (جماعة أتيان دوكرو، المسرح الجسدي)، أما في مسرحية "رأس المملوك جابر" فقد استضاف اليابانية ميناكو سيكي (جماعة هيجيكاتا، مسرح البوتو)، وفي مسرحية "عاصفة من اللوحات" دعا رينا ميريسكا (الممثلة الرئيسة في جماعة جروتوفسكي، مسرح الينابيع)(إيمانويل ماس، "بحثاً عن كيمياء اللقاء: المحترف المسرحي البلجيكي صحراء 93، جريدة إيلاف الإلكترونية، لندن، آب 2002).

كتب العديد من النقاد الأوروبيين عن تجارب كمال الدين، التي شارك فيها مسرحيون بلجيكيون محترفون، منهم بيتر آنتونيسه الذي كتب تحت عنوان "أنشودة الجندي المجهول" "أكثر من كل الأعمال السابقة يثبت حازم كمال الدين في عرضه "عاصفة من اللوحات" أنه يحفر طريقًا مسرحيًا خاصًا، تمامًا مثل إيريك دو فولدر ويان لاوارتس... "عاصفة من اللوحات" عمل يمتلك منهجيةً متكاملةً، وهو عبارة عن أنفاس موسيقية، ينشد فيها كمال الدين برقّة أخاذة أنشودة الجندي المجهول"(المرجع نفسه). وكتبت هيلينا فيلنت تحت عنوان "بحثًا عن أرض خصبة بمقاسات محسوبة"، "إن ثيمات التغريب والاستلاب، السلطة والحب تجد طريقها غالبًا في المسرحيات التي تعالج فصول الحرب وأبعادها وتأثيراتها. أما 'عاصفة من اللوحات' فهي مجابهة بين ما هو قاس وما يتخلله من انطباعية شفافة. الحقيقة تغطي الحلم والحلم يبرقع الحقيقة. شخصيات تظهر في أبعاد مختلفة" (المرجع نفسه). كما كتبت الباحثة البلجيكية هيلينا فرلنت رسالة ماجستير عن مسرح كمال الدين بعنوان "تأثيرات شرقية في المسرح الغربي المعاصر" أكدت على أنه في مجال المسرح جرى اكتشاف الشرق بوصفه مصدرًا للتجديد، وأن للشرق تأثيرات على المسرح الغربي المعاصر(شبكة النبأ المعلوماتية، حوار موسع مع رجل المسرح المغترب حازم كمال الدين"، الجزء الثاني، 28-02-2014). وأخرج له المخرج البلجيكي لوك نايس عام 2002 نصه المسرحي "منفى"، الذي يسلط الضوء على المجابهة بين ثقافتين. وفي أواخر عام 2012 لبى كمال الدين دعوة من المسرح الكندي "أم تي سبايس"(MT Space) في مدينة كيتشجنر ليشرف بنفسه على إخراج مسرحية من تأليفه بعنوان "ربيع أسود"، أداها عدد من الممثلين العرب والكنديين والبلجيكيين باللغتين الهولندية والإنجليزية.

منهج حازم كمال الدين

يؤمن حازم كمال الدين بأن النص المسرحي طينة بيد المخرج يفعل بها ما يشاء، ويعتمد منهج "المعاناة" أسلوبًا في صياغة عروضه المسرحية، الأمر الذي دفعه إلى التركيز على البحث الداخلي (العودة إلى الذات) وصولًا إلى مركز الطاقة في الممثل، حيث يقضي مدةً طويلةً في تمارين متنوعة مع الممثل تحثّه على ملامسة ذلك المركز (الذات). وعندما يعثر عليه أو يشعر به يبدأ بالتعامل مع أدوات أخرى تقويّ المركز، وتدفعه إلى الحضور المجسّد من خلال تطويره الداخلي وربطه بما هو خارج الممثل.

في هذا السياق بدأ كمال الدين عمله متنكّرًا للإكليشيهات التي يرتديها الجسد اليومي،

أو الجسد المستخدم كوعاء لتجميع المعارف، ولم يعد يعتبر "المشاهدين" مجموعة عناصر استقبال يستخدمها لإيصال فكرة، أو للبحث من خلالها عن الشهرة، أو يمارس عليها سلطة ما أو يقول لها أو يعلّمها شيئًا، ذلك أنّ علاقة عمله المسرحي بالمتلقين هي علاقة امتداد وتواصل ومجابهة، لا تتم إلاّ عبر اكتشاف المركز، ثم تقويته وتطويره حتى يصل إلى مرحلة الاستعداد للوقوف وجهًا لوجه أمام العنصر الجديد: المشاهد. أما في مرحلة التركيز على اتصال المركز (الذات) بما هو خارجها، فإنه يعمل مع جملة عناصر أهمها: الممثل الآخر، الفضاء المسرحي، والنص.

إن علاقة الممثل بما هو خارجه في هذه المرحلة هي علاقة شرطها الأساسي التعرية (كشف الذات)، وملامحها الامتداد والتواصل والمجابهة. كما أن هدف هذه المرحلة يكمن في توحيد ذات الممثل العارية مع عناصر العمل المسرحي الأخرى لكي يصبح الجميع "ذاتًا" واحدةً لها مركزها الخاص الذي يوظّبه بحيث يتعامل مع عناصر جديدة خارج تلك الذات هي المشاهدين.

ومن أجل الوصول إلى نتائج مرضية في هذا الصدد، يحاول جميع الممثلين أن يتعلموا بجديّة كيف ينسون ما تعلموه لكي يُسمح للتجربة الجديدة أن تتغلغل في كيانهم، لأنهم إذا ما استخدموا معاييرهم التي تعلموها لن يغتنوا إلاّ بعدم الفهم لسياق التجربة، مما يدفع إلى الملل والكراهية الناتجتين عن محاولة إجبار التجربة الدخول في آليّات تفكيرهم وليس في بنيتها الذاتية.

التجربة أساس المعرفة

لهذا فإن المشاركين في العمل يفترضون أنّ من يأتي إلى المسرح عليه القدوم بقلب دافق، وذهن لا تكبّله تصورات مسبقة عن أسلوب عمل، أو عن زملاء آخرين، أو عن نفسه، أو عن حلول فنية معينة. إنهم يبحثون في العمل المسرحي عن أنفسهم في سياق صيرورة مراحله من أجل اكتشاف "الأنا"، ولا يفعلون ذلك في التمثيل، أو بالحلول الأجمل، أو بالتساؤل عن الـ"كيف"، أو بتساؤلات من قبيل كيف ألعب الدور، كيف ألقي هذه الجملة، وكيف يبدو شكلي من الخارج؟ بمعنى آخر، يقول كمال الدين "نحن لا نبحث في تطبيق استخلاصات نظرية/أكاديمية على تجربتنا المسرحية، لأننا لا نبدأ من البعد النظري، ولا ندرس مدى تحققه في التطبيق العملي. بالعكس، نحن نحاول أن نتعلم من خلال التجربة العملية. إنّ تجربة حالة محددة، وإعادة اكتشافها وصقلها وبلورتها والسماح لها بالتغلغل عميقًا في ذاتي هو الذي يمنحني المعرفة، فأنا لا أدّعي المعرفة قبل التجربة، أنا أؤمن وبشكل قاطع أنّ التجربة هي من يقودني إلى المعرفة".

وعلى هذا الأساس يتنكّر العمل للإكليشيهات التي يرتديها الجسد اليومي، أو الجسد المستخدم كوعاء لتجميع المعارف. كما يرفض استخدام الحواس كمتنصّت، أو كناقل للمعلومات عن العالم الخارجي. إنّ الحواس (النظر، السمع... إلخ) ليست مجرد وسائط نقل معلومات بالنسبة إلى طريقة عمل الفريق المسرحي، بل عناصر تواصل/توازن بين العالم خارج الذات وبين الذات. فالإنسان الشرقي ذو طبيعة استقبالية أكثر مما هو ذو طبيعة إرسالية.

لذلك لا يشغلون أنفسهم بالمشاهدين، في هذا القسم من عملهم، ولا يثيرون تساؤلات حول كيفية استقبال المشاهد ذلك الحدث؟ أو هل هذه المعالجة واضحة بالنسبة إليه؟ أو أليس هذا معقّد عليه؟ إنّ مثل هذه الأسئلة وأسئلة كثيرة في الاتجاه ذاته تُخرج عملهم من سياقه (مبدأ المعاناة) لتضعه في سياق آخر (مبدأ العرض)، الذي يشترط أوّلاً كيفية إيصال المادة المسرحية إلى المشاهدين من طرفهم، فهم لا يعتبرون في نهاية المطاف، بالنسبة إلى هذا الأسلوب، أكثر من ناقلي معلومة، أو مروّجي أفكار أو أدوات تُستخدم لإيصال مقولات محددة.

إن الممثل هنا لا يمثل شخصيةً (يندمج فيها أو يحافظ على مسافة محددة بينه وبينها)، فهذان المفهومين يدفعانه إلى البحث خارج ذاته عن ملامح شخصية مّا (تاريخها، أبعادها)، ومن ثم تطويعه لارتداء تلك الملامح، أو إرغامه على الاندماج في كيان مؤسس خارج ذاته، هدفه محاكاة الحالة الداخلية للشخصية المسرحية.

الشخصية بوصفها مشرطا

وفي هذا الصدد يقول كمال الدين "نحن نبحث في إطار آخر يدفعنا إلى أن نتعامل مع الشخصية المسرحية باعتبارها ملامح موجودةً في الذات، لكنّها غائبة عنا بسبب

القمع الواعي أو اللاّواعي الذي نمارسه عليها، أو بسبب إهمالنا لها، أو لأسباب أخرى. بحثنا هنا يريد تحطيم القيود أو العوائق التي تمنع ظهور ما هو كامن فينا. كذلك نتعامل مع الشخصية المسرحية (في أحيان أخرى ولأغراض محددة) باعتبارها مشرطًا يقودنا إلى ذواتنا، يكشف لنا من نحن بالضبط، ما الذي تخفيه أرواحنا، وأين تكمن العوائق التي لا تسمح لنا بالإجابة عن سؤال من نحن؟ إنّ النزعات الشريرة، مثلًا، موجودة داخل كيان كل ممثل، وما عملية الإلغاء لتلك النزعات أو محاربتها رغبة في انتصار الخير إلاّ شكل من أشكال العوائق التي تعيق الممثل عن أن يكون كما هو مكوّنًا وحدته الكلية. إنّ كشف الحالة الداخلية للممثل والتطهّر منها هي بالضبط ما نعنيه بإزالة العوائق. ذلك أنّ إماطة اللثام عن عناصر يريد الممثل أن يخفيها هو ما يدفعه للاعتراف بوجودها وبوعيها، وللتحرر أو التطهر منها" (حازم كمال الدين، "المنفى والفنان"، المرجع السابق).

ويرى كمال الدين أن هذه الطريقة في العمل تشترط أيضًا على الممثل أن يتعامل مع الفضاء المسرحي، ومعطيات العرض المسرحي الأخرى بعفوية وتلقائية وعمق أدوات الجسد والإحساس والخيال والتجربة. وإنّه لمن واجبه الفني والإبداعي أن يكيّف نفسه في كل عرض لكي يلتقي بمشاهد جديد وأدوات مختلفة وكأنّه يصنع العرض للمرة الأولى، متحسّبًا طوال الوقت لكل صغيرة وكبيرة في المعطيات الجديدة الحبلى بدلالات جديدة للعرض. أي أنّ عليه التصدي للتعامل مع كل ما هو غير متوقع، بما في ذلك الأخطاء الناتجة عن تغييرات اللحظة الأخيرة، والتي يجب عليه أن يستوعبها ويحتويها ويعيد إنتاجها وكأنّها جزء أصيل من العرض (المرجع نفسه).

يُذكر أن أعمال حازم كمال الدين المسرحية الـ49، التي أخرجها لفرقتيه «محترف صحراء 93»، و"زهرة الصبار"، عُرضت في مختلف المهرجانات المسرحية الدولية، خاصة في بلجيكا وهولندا وبريطانيا وألمانيا وكندا وصربيا وأوكرانيا ومصر والعراق. وألّف 25 نصًا مسرحيًا، نشر بعضها بصيغة كتب، منها "العدادة"، "عند مرقد السيدة" و"السادرون في الجنون". كما أنجز العديد من الأبحاث المسرحية، وكُتبت عنه أبحاث وأطاريح جامعية عديدة في بلجيكا والعراق، وأقام مجموعة ورشات مسرحية في التمثيل والدراماتورج وتكوين الممثل والصوت والإلقاء ولغة الجسد. إضافةً الى أنه نشر خمس روايات (كاباريهت، مياه متصحّرة، شونهيد راست، مروج جهنم، والوقائع المربكة لسيدة النيكروفيليا)، وترجم نصوصاً مسرحيةً وقصائد ودراسات أبرزها "ثلاثة مونولوجات لممثل"، "أنتيجون في مولنبيك"، "قيصر الخسارة "، "ملك الانتحال" و"سادن الجمال"، وقصائد للشاعرة الهولندية آن ماري إستور.

أخيرًا، لقد قرر المنفى مصير حازم كمال الدين ومسار عمله المسرحي، كما يقول، فلو لم يقتلعه من العراق لكان الآن مقلّدا للمسرح الأوروبي لا أكثر. لقد فرض عليه أن يخوض في لجج الأصالة، وأجبره على البحث عما أضاع: أرض الوطن، ودرجة الحرارة، والمناخ، والجسد، والصوت، والأحاسيس، والحنين.

كاتب من العراق

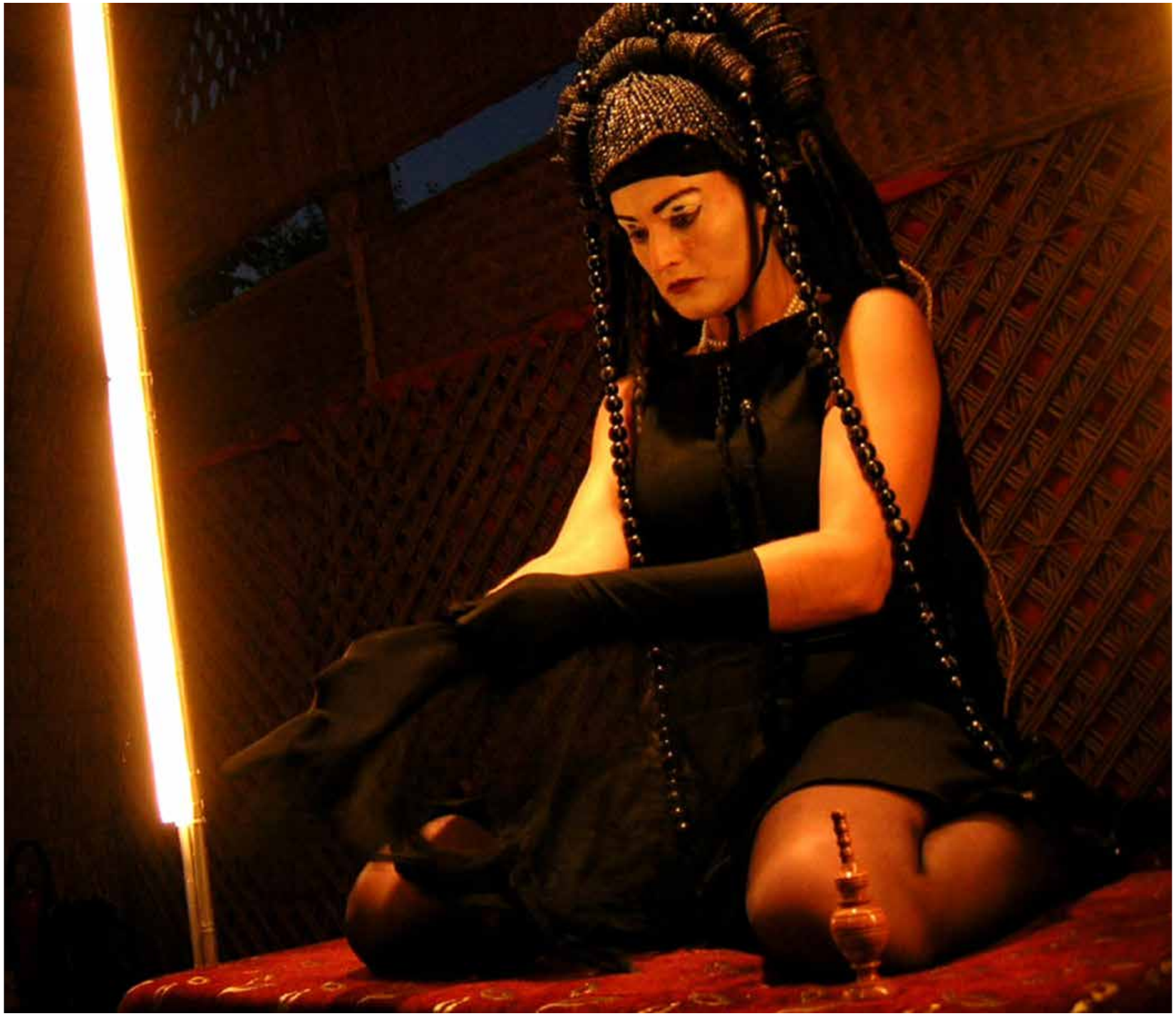

شعر

زهرة الكآبة

سبع قصائد

ديزيريه دي ماركو

رائحة الليمون

رائحة الليمون تخفّف خطايا الزهور. أتأملها تغفو بسكينة في
عالمها الخاص: المكان الذي لا تنعكس فيه أيّ صورة ولا المرايا
تتذكر الموضع الذي دفن فيه الموتى.
دع هذه الرائحة، رائحة هذا المنزل، تتجرع كل شيء. الأحلام
والكتب والكراسي الداعرة التي تدوس رايات آبائنا. لكلّ هذا نحن
معاً.
للحظة انتابني التوق للبقاء، لكنني أدركت فيما بعد أنه لم يكن
هناك سوى رجل ميت غابر.
يمشي في الليل الوضّاح بانتظار تضحية شخص لقاء ثواب صامت.

يصل الصيف

يصل الصيف ومُستفزّة تمسي الأشجار.
تغيب الجبال في الزُرقة، ويعود الموتى إلى ما وراء السحب.
يهتفون للشمس ويلقون أطفالهم في النهر ليتمكّنوا من الوصول
إليّ بسرعة أكبر.
مُتَرَاصّ ومتهاو جسدي العاري. أتوسل الحركة، إنما التشنّج أكثر
ما أناله.
هكذا جعلتني أعتاد على تذكّر الأسود ونواحي الموت فحسب.
فلسفة، قلتَ.
ومرّت الأيام وأصبح كل شيء ثمرة الخوف السوداء.
هذا ما قلته لي قبل النوم.
أضيء وجهك المميز.
الضوء يفلق السحائب إلى نصفين والموتى يتأهبون للعَوْدِة.

بلا حلم

بلا حلم بقينا
بلا درع لمواجهة الشمس
الأيام المشرقة أم الحرية
بلا خبز بقينا
بلا كلمات تبهرج جدران المنظر
والصمت أيضاً
أُنتُزِعَ من حطبات المنزل
أفكارهم
التي هي جدّ رقيقة وشفافة..

هي الآن
بحيرة الوعي السوداء.

رجعت الرغبات

رجعت الرغبات. هنا الزمن دائرةٌ، حركة متواصلة تتلهف للوجود.
لتكون. تحت الحراسة يتركون لحظة الوداع. هنا يدوم ما هو على
وشك أن يكون.

حركة الفضاء

حركة الفضاء تخترقني
ضرباته ترميني في الكآبة رأساً على عقب
شمس غائمة، حرية لم تتحقق أبدًا، ميناء لم نصله بتاتاً
ينتحب،
وفي جواره أرض الحجرة الباردة،
تنتظر
يتلقى ثقل سريرنا المبلل..
ما زال لعابي يأمل أن يتمكن من الطيران، ولكن
واحدة تلو الأخرى
غاصت أقاويلنا في سِرْبالك المسماري.

تنزلق كأس

تنزلق كأس من يد طفل
الزجاج يغمر المدينة
برمّتها
أيدي الظلال تمسك المارة
لم يعد هناك ثمة
أب، ابن، ومواطن
قناع من الورق المقوّى من الأعلى
يراقب قُلس الموتى:
هناك حيث يختبئ جحري وصوتي كرعد يخبو
أود أن أشهد تدمير كل الخطايا..

التواء المذنبات سيحوّل كل شيء إلى رماد
وكذلك الشمس والحرية والميناء.

زهرة الكآبة

أنا شجرة تنتظر مرآة لترى زهرة الكآبة الأخّاذة
بتلقائية ترسم - خارج جسدي - أجساد البشر
أتبرع بهذه الأبيات اليوم لأتذكّر فحسب أن الحياة، أكثر من
الموت، هي ما يلجمنا بلسعاته الغارقة في الأكاذيب والعار.
إنما حاول، إذا ما سافرت في تلك العيون الخضراء،
لربما ستنام طويلاً في ظلّ أوراقي.

أبو ظبي 10 يونيو 2023
شاعرة من إيطاليا تقيم في ميلانو
ترجمها عن الإيطالية يوسف وقاص

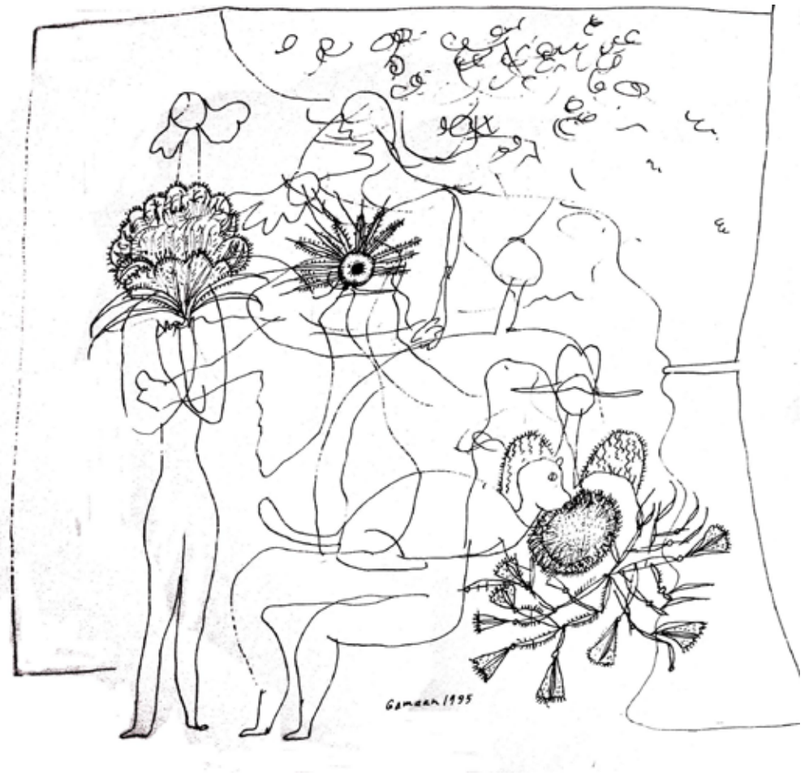

حسين جمعان

وليد علاء الدين

مقال

خيالية اللامحاكاة

نادية هناوي

للسرد غير الواقعي في الروايات والقصص ما بعد الحداثية دلائل وتطبيقات كثيرة، وأهم سمة تقوم عليها لاواقعية هذا السرد هي "خيالية اللامحاكاة" وتعني صناعة ما هو محال ذهنياً ومركزة وجوده قولياً، وتمويه فاعليته غير الحقيقية التي بها تتم مغادرة العالم الفعلي المعيش إلى عالم غير حقيقي، يستحيل وجوده ولا نظير له ومع ذلك نشعر به كواقع حاضر وحيّ ومحسوس وبالإمكان تصوّر فعليته.

الأساس في هذا الشعور هو العقل الذي يتفاعل مع السرد تفاعلاً لفظياً متحرّراً من كل تقليد أو عرف من خلال أقوال تحاكي نفسها بنفسها؛ فتغدو العملية السردية عبارة عن فاعلية قولية مرتبة ترتيبا منطقياً ومسببة في بداياتها ووسطها ونهايتها وبأطراف ثلاثة هي (قائل ومقول ومقول له). ولا يتعاكس هذا التوصيف مع السرد الواقعي كعملية سردية حددها المنظرون البنيويون في أطراف ثلاثة هي (سارد ومسرود ومسرود له) وبعلاقات داخلية ذات بناء فني موضوعي، ثم أضاف إليها منظرو ما بعد البنيوية أطرافاً ثلاثة أخرى: طرف خارجي سابق هو (المؤلف) وطرفان داخليان هما (المؤلف الضمني والقارئ الضمني) وطرف خارجي لاحق هو(القارئ الفعلي).

على الرغم من هذه الإضافات واللواحق لم تستطع نظريات السرد البنيوية وما بعد البنيوية الإحاطة بالسرد كله، فشاب بعض مفاهيمها النقص والارتباك والغموض، وحامت الإشكاليات حول مفهوم السارد والمسرود له والخطاب الحر غير المباشر والتبئير وغيرها.

***

إن الأساس الذي منه تتشكل خيالية السرد غير الواقعي هو تلفظي من ناحية جعل الأولوية في نقل الأحداث وتوجيه الشخصيات للأقوال وليس للأفعال، وهو ما يجعل أمر المحاكاة مفتوحا بلا حدود، فالمهم هو ترتيب الأقوال ترتيبا مقنعا يتقبّله الجمهور من دون الحاجة إلى وجود نموذج أو معيار يراعى في عملية السرد. ولقد أعطى أرسطو لمبدأ مراعاة الجمهور اهتماما خاصا، فقيمة العمل الفني تقاس بمقدار ما يتركه من تأثير في ذائقة المتلقين وطبيعة استجاباتهم وكيفية إدراكهم لخصائص العمل.

وفرادة أيّ عمل فني هي في طبيعة استجابة الجمهور لخصائصه. وبمراعاة هذا المبدأ توسّع مفهوم المحتمل عند أرسطو إلى إمكانية أن يكون غير محتمل، فعدَّ (المحتمل خيرا من الممكن غير المحتمل) أي أن الأصل ليس الإمكان أو الاستحالة ولا الصح أو الغلط وإنما هو الجمهور الذي بمراعاته لا تكون لمسألة المحاكاة واللامحاكاة أهمية بقدر الأهمية المنطقية المتمثلة في الأقوال. وغدت الضرورة والاحتمال أمرين يجعلان الكلام فاعلية تواصل عقلاني متتابع بسببية. وهذه السببية هي التي تحول اللامحاكاة إلى محاكاة فيغدو المستحيل محتملا.

ولقد طرح منظرو السرد غير الطبيعي مفهومين، وتناولوا كل واحد منهما على حدة وهما "الخيالية" و"اللامحاكاة" بوصفهما ركنين من أركان بناء الحبكة بناءً غير واقعي على وفق علاقات مبتكرة وغير معهودة واعتمادا على مجموعة من الوسائل التي تؤثر في استجابة القارئ النفسية وتدفعه نحو التلقي الايجابي بلا نفور أو استغراب. مما يتضح في توجهات جان ألبر مثلا وهو يضع سيناريوهات بها تصبح خيالية الأحداث غير الطبيعية مقبولة ومدركة إدراكا عقليا واعيا وهو القائل "إن أحد أكثر الأشياء إثارة للاهتمام هي الأشياء المتعلقة بالخيالية كونها لا تعيد إنتاج العالم من حولنا، بل ما تحتويه أيضًا من عناصر غير قابلة للتحقق من صدقها، لأنها ببساطة مستحيلة الحصول في العالم الحقيقي" [1].

واتخذ براين ريتشاردسون نهجا معرفيا في دراسة شعرية الحبكة من خلال القول

بالتضاد مع المحاكاة. واقترحت ماري لوري رايان ومونيكا فلودرنك وهنريك سكوف نيلسون وماريا ماكيلا إستراتيجيات قرائية أخرى مختلفة، وبالشكل الذي يجعل لاطبيعة السرد طبيعية أي محتملة. وعلى الرغم من تفاوت هؤلاء المنظرين في تفسير الخيالية ودور اللامحاكاة في السرد غير الواقعي، فإنهم استطاعوا أن يلقوا ضوءًا جديدًا على التحبيك وإمكانية صنع المحتمل من المستحيل ضمن عوالم غير طبيعية تخرق الأعراف السردية المعتادة وتبتكر الجديد الذي يتحدى المنطق وفيزياء المكان والزمان كأن يجعل ما لا منطق له ناطقاً وما لا حياة له حياً والذي هو ثابت ولا حركة له متحركاً وهكذا.

إن أهمية الخيالية في الأدب كحاجة إنسانية درج عليها بنو البشر وبها واجهوا أيّ إغماض أو عدم إفهام من دون أيّ حدود تفرض عليهم أن يكونوا محاكين أو لامحاكين، هو الذي لم يجرِّب نقاد السرد غير الطبيعي النظر فيه، ولم يختبروا خيالية اللامحاكاة في صنع الاحتمالية التي تجعل المستحيل ممكناً بالأقوال لا الأفعال.

لا خلاف في أن اللغة هي أداة التخييل الذي هو عنصر من عناصر الأدب، ولا حدود لغوية في تخيل الأقوال، والأدب مثل (الرياضيات لغة واللغة بحد ذاتها لا تمثل أيّ حقيقة ولكنها قد تزودنا بالوسيلة للتعبير عن عدد من الحقائق غير أن الشعراء والنقاد على حد سواء آمنوا دائما بنوع من الحقيقة الإبداعية) [2]، والحقيقة الإبداعية ليست نهائية ولا مثالية. وهذه السعة اللغوية في مسألتي التخيل والتحقق هي التي تجعل للأدب وجهين: وجه قصصي ووجه ثيمي، ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال تحديد أيّ الوجهين أكثر واقعية من الآخر كما لا يمكن القطع بصحة واحد منهما على حساب الآخر، لأن لا مقاييس للمعقول ولا لغير المعقول، غير أن التقاليد الأدبية هي التي جعلت للتخيل الأدبي مواضعات بها يصبح قابلاً للتصديق، فلا يؤخذ على حرفيته اللفظية ومن هنا أيضا تشكلت تراتبية الأجناس الأدبية بأشكال عالية وأخرى واطئة. وحدد النقاد الأشكال العليا بالملحمة والمأساة وبشخصيات من الطبقة الحاكمة، وحددوا الأشكال الدنيا بالكوميديا والهجاء وبشخصيات على شاكلتنا [3].

إن لا حدية التخييل التلفظية هي التي تجعل مرافقة الخيالية اللامحاكاة أمراً ضرورياً بوصفهما اشتغالاً واحداً، فيه تتأكد أهم سمة من سمات السرد غير الواقعي التي تفرضها سعة تمثيلاته، من قبيل تداخل عالم الموتى بعالم الأحياء وعالم الحيوان بعالم البشر وعالم الروح بعالم المادة.. فإذا كتب أحدهم (كتابا عن البطة دونالد فهذا لا يعني أنها موجودة وأن هذا المؤلف يؤمن بوجودها.. فالبحث عن لغة مثالية كان ولا يزال حلما مستحيلا استحوذ على تفكير الجنس البشري لقرون طويلة) [4].

ولقد سبق نورثروب فراي منظري السرد غير الطبيعي في تأكيده لأمرين: الأول قوله إن "لا أحد يعرف ما هو الممكن أو بعبارة أدق ما هو المستحيل. ويفترض كثير من الكتاب أو يؤكدون أن معجزات.. الأناجيل غير قابلة للتصديق وأن قصص إخراج الشرور من الأجساد ترتبط بأفكار بدائية جدا عن الأمراض العقلية ويجب إنكارها أيضا" [5]. فسعة (الخيالية) في الأدب هي التي بها يتمكن المستحيل من إثبات احتماليته، والأمر الثاني اعتباره (المحاكاة)

وليد علاء الدين

في الأدب لا تقتصر على الطبيعة، وصنّف الأدب إلى نموذجين كبيرين احدهما الدورة الطبيعية والآخر هو الانفصال النهائي عن الطبيعة ما بين عالم مؤمثل وسعيد وعالم مرعب وشقي [6]. وما الانفصال عن الطبيعة سوى اللامحاكاة أي محاكاة ما لا وجود له.

و"خيالية اللامحاكاة" تغدو مساحات السرد غير الواقعي في العبور والخرق والتجاوز منفتحة فلا حدود بين الفن والواقع على جميع المستويات الجسدية واللغوية والعاطفية وبتحولات ومناهج جديدة ووجهات نظر متعددة، تعطي للسرد دفقاً جديداً غير معتاد ولا مسبوق. وليس أمر الانفتاح والسعة رهناً بالسرد غير الواقعي وحده، بل هو أمر عام ينماز به الأدب ما بعد الحداثي عموماً بعد أن تخطى الوسائط والجغرافيات والأعراق والثقافات، وانتفت التراتبيات الهرمية بين آداب كانت توصف بأنها عليا استعمارية وآداب أخرى كان ينظر إليها كنتاجات تابعة ومهمشة ومهملة ودنيا لكنها الآن متمركزة وفاعلة. وبسبب ذلك أيضا تزحزحت فاعلية الدراسات المقارنة؛ فالبحث في التأثرات والتأثيرات ما عاد يؤتي أكله في خضم التطورات المتسارعة والعميقة في مجال النظريات الأدبية عامة والسردية بوجه خاص.

وإذا كان من المفارقة أن يكون التنظير النقدي للخيالية واللامحاكاة ما بعد حداثي ويكون التمثيل عليها كلاسيكيا بسرديات من العصور الغابرة وروايات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فإن ذلك مجرد مصادفة ثقافية ليس من ورائها أيّ أغراض أيديولوجية ولا محايدة فكرية. والسبب هذه السعة في فهم اللاواقعية التي معها يغدو الفرق واضحا بين سرد غير واقعي وسرد عجائبي غايته ترميزية وبأغراض أيديولوجية.

وإذا افترضنا أن "الخيال أو التخييل" في السرد العجائبي يصل إلى أقصى درجات الجنون، فإنه يظل قابلا للقياس بنموذج معين على مستوى التمثيل بما هو سحري وغرائبي وفنتازي بينما "خيالية" السرد غير الواقعي تلفظية قولية بلا نموذج يمكن به قياسها كما لا مستوى أو معيار يحدد درجتها. إن خيالية اللامحاكاة فاعلية سردية بها يكون المستحيل ممكنا، فتصبح الفواعل حية وهي في الأصل ليست حية أو تظهر ناطقة مع أن لا عقل لها. وليست الاستحالة سوى وسيلة، وما يجعل هذه الوسيلة فاعلة في تحقيق غاياتها هي العواطف التي تضفي على السرد واقعية كالغضب والعار والخوف والازدراء والافتتان والغيرة، وبها تتأكد منطقية الترتيب للأقوال فتتحول الاستحالة إلى احتمال واللامحاكاة إلى محاكاة. أما الغاية فليست رمزية تشفيرية، بل هي عقلية واقعية تجعل القارئ ينظر إلى العالم غير الحقيقي بوصفه حقيقيا ومنطقيا.

وإذا كان البون كبيرا بين "خيالية اللامحاكاة" في السرد غير الواقعي و"التخييل" في السرد العجائبي، فإن البون ضئيل وقد يتلاشى ما بين السرد غير الواقعي والسرد التاريخي بالمعنى ما بعد الحداثي للتاريخية التي بموجبها يتجسد التاريخ سردية صغرى محبوكة حبكا قصصيا. ولقد انبرى المفكر بول ريكور في دفاعه عن السرد إلى البحث في أطروحات المفكرين عمّا يدعم فكرته ما بعد الحداثية حول سردية التاريخ. فوقف أولا عند أطروحة وليم دراي عن القوانين في السرد والتحليل السببي والتفسير العقلي، فوجدها غير مقنعة كثيراً، لصعوبة فهم ما هو محتمل من ناحيتي:

1) تقاطع نظرية الفعل مع نظرية التاريخ.

2) ما يتضمنه التفسير العقلي من العمومية أو الشمولية.

حتى بدا دراي محاربا على جبهتين: جبهة أولئك الذين يربطون مصير فكرة ما بمصير فكرة القانون، وجبهة أولئك الذين يرمون إلى استبعاد التفسير كله عن حقل كتابة التاريخ.

ثم بحث ريكور في أطروحة فون رايت، فلم يرضه القول بالقطيعة الإبستمولوجية بين التاريخ والسرد باستثناء مسألة ترتيب الأحداث (episodic) كخاصية تصورية، وجد فيها بعض الأمل بإمكانية فهم السرد وتفسير التاريخ. وعلى الرغم من إشادته بأطروحة آرثر دانتو عن الجمل السردية، وعدّه أول من دافع عن التأويل السردي للتاريخ، فإنه وجد في أطروحته عيباً يتمثل في أنها تأخذ المستقبل بنظر الاعتبار في كتابة جمل سردية لا يمكن كتابتها إلا بأخذ الماضي [7]. ووقف ريكور عند رأي طرحه المفكر غالي في كتابه "الفلسفة والفهم التاريخي" مفاده: أنه مهما كانت التفسيرات التي يحتويها عمل تاريخي ما، فلا بد من تقييمها على وفق علاقتها مع شكل سردي تنشأ عنه وتدفع تطوره [8]. وتساءل ريكور: لماذا يكون بوسع المؤرخين أن يطمحوا إلى تفسير الأشياء بينما يكونون عاجزين عن التكهن بها لأن التفسير لا يكافئ دائما إدراج حقائق تحت قوانين؟ ووجد الحل في ترحيل مفهوم الحبكة من النقد الأدبي إلى إبستمولوجيا التاريخ كجدلية سردية لم تؤخذ بالحسبان بما يكفي [9].

وهو ما وجده ريكور متحققاً في أطروحة المفكر هايدن وايت الذي نظر إلى التاريخ ككتابة سردية وأن تفسير التاريخ يعتمد على التحبيك. وهذا الفهم يتوافق مع ما حدده ريكور للمحاكاة بالدرجة الثانية، من هنا وصف تحليلات وايت بـ"الوضوح الذي يعطيها قوة"[10]، وبرأينا، فإن هذا الوضوح أساسه "الخيالية" التي تجعل بنية الخطاب التاريخي هي نفسها بنية القصص، وتنطبق من ثم احتمالية المحاكاة واللامحاكاة على التاريخ والقصة معا. فالتاريخ كتابة، والكتابة صناعة أدبية أساسها الخيال، والخيال هو أساس التحبيك الذي بموجبه يكون المؤرخ كالسارد وكالشاعر يؤلف حبكات بعضها محتمل على نية ما حصل فعلا على أرض الواقع، وبعضها حاصل على نية ما يحتمل أنه واقع أو سيقع حتماً. والمحصلة أن "المؤرخ مجبر على حبك مجموع القصص التي تكون سرده على شكل قصة شاملة أو نمطي علوي" [11].

وإذ استبعد أرسطو التاريخ وغلّب عليه الشعر، فبمعنى أن التاريخ خبر ينقل ما حصل فعلا بالمشاهدة العيانية والسماع المباشر. أما تدوين الخبر فهو كتابة تاريخية تصنعها المحاكاة. مما نجد تمثيلاته في الروايات التاريخية التي عرفت في القرن التاسع عشر.

وما إقرار ريكور بوجود درجات للمحاكاة إلا توكيد لحقيقة أن للخيالية تفاوتات، وليس في هذا التصور إساءة فهم للتاريخ إذا نظرنا إلى "ما وراء التاريخ" بوصفه أيديولوجيا وليس علما كـ"بنية صراعية يستعيرها وايت من كتاب كارل مانهايم الأيديولوجيا واليوتوبيا ويسلّم بوجود أربعة مواقع أيديولوجية: الفوضوية والمحافظة والراديكالية والليبرالية" [12]، وإذ كنا قد نفينا عن السرد غير الواقعي أيّ غايات ترميزية، فإن وجود خيالية اللامحاكاة في السرد التاريخي يؤكد ذلك أيضا لأن الغاية تظل مباشرة وواقعية. وكما أن خيالية اللامحاكاة تمنح التحبيك السردي اتساعا في تجسيد الواقع، فكذلك هي تمنح التحبيك التاريخي اتساعا في بلوغ الحقيقة.

إن أهمية مفهوم "خيالية اللامحاكاة" على صعيدي: السرد الواقعي والسرد التاريخي، تفرض علينا استجلاء فضاءات هذا المفهوم وتلمّس أبعاده في نوعين من الرواية العربية هما رواية التاريخ والرواية الاجتماعية.

ناقدة وأكاديمية من العراق

إحالات

[1] See: Unnatural Narrative: Impossible Worlds in Fiction and Drama, Jan Alber, Nebraska university press, 2016, P3.

[2] تشريح النقد محاولات أربع، نورثرب فراي، ترجمة محمد عصفور (الأردن، منشورات الجامعة الاردنية، 1991 ص 468).

[3] ينظر: المصدر السابق، ص 83.

[4] حكايات عن إساءة الفهم، أومبرتو إيكو، ترجمة ياسر شعبان (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1 ، 2006 ص 11).

[5] تشريح النقد، ص 102.

[6] المصدر السابق، ص 142.

[7] ينظر: الزمان والسرد، الجزء الأول، الحبكة والسرد التاريخي، بول ريكور، ترجمة سعيد الغانمي وفلاح رحيم (ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، -2009 ص ص 200 228-).

[8] المصدر السابق، ص ص 236.

[9] ينظر: المصدر السابق، ص ص 246 – 253.

[10] المصدر السابق، ص 254 .. وتجدر الإشارة إلى أن ريكور وبالرغم من إشادته بأطروحة هايدن وايت، فإنه فضّل عليه الفرنسي بول فين وكتابه "تعليق على كتابة التاريخ" لأن فيه دفاعا عن الحبكة عند مارك بلوخ ولوسيان فيفر وبروديل وارينيه مارو، ولان فين قد أجاب عن سؤال تجنبه. بحسب ريكور. دعاة النظرية السردية في التاريخ الناطقون بالإنجليزية حتى الآن والسؤال أنه لكي يكون تفسير الكيفية التي بها يمكن للتاريخ أن يكون سردا مقنعا يجب أن يوضّح أيضا كيف يمكن للحبكة أن تحافظ على قدرتها التمييزية؟ وثالثا أن أمثلة المنظرين "ساذجة ولا تتجاوز مستوى تاريخ الوقائع" بينما أمثلة كتاب فين فيها قوة تدعم "فكرة أن التاريخ لا يعدو كونه بناء حبكات وفهمها الى هذه النقطة الحرجة" السرد والزمان ، ص 274

[11] المصدر السابق، ص 261.

[12] المصدر السابق، ص 260.

مغامرة رأس البقرة
واستيبانيكو الأزموري
رحلة استكشاف فلوريدا

الترجمة والتقديم:
عبد القادر الجموسي

مقال

ملف

رأس البقرة واستيبانيكو الأزموري

رحلة استكشاف فلوريدا

الترجمة والتقديم: عبد القادر الجموسي

أقدم للقارء المغربي والعربي الترجمة الكاملة لتقرير ألفار نونيز كابيزا دي فاكا (رأس البقرة) لوقائع البعثة التي قادها الحاكم بانفيلو دي نارفايز سنة 1527، بتفويض من عاهل اسبانيا شارل الخامس لغزو منطقة فلوريدا وإلحاقها بالتاج الاسباني.

يجعل أهل الاختصاص في مجال الدراسات الأمريكية . الاسبانية رحلة رأس البقرة ورفقائه الثلاثة، من ضمنهم مصطفى الأزموري المغربي، من العلامات البارزة في سجلات غزو واستكشاف العالم الجديد معتبرين تقريره الموسوم La Relacion وثيقة قيّمة ضمن أدبيات وحوليات القارة الشمالية. يرجع ذلك لعدة اعتبارات: فهو أول نص منشور للعموم ضمن نمط كتابة التقارير الرحلية الرسمية. وعلى عكس التقارير الأخرى التي انحصرت في ذكر معالم البلاد الهندية وجرد ثرواتها، تميزت رواية رأس البقرة بالانسجام والاتساق في رواية وقائع الرحلة، واستعمالها لعناصر الغرابة وطرائق السرد الأدبية مما منحها مسحة مميّزة. هذا فضلا عما تقدمه من مادة معرفية إثنوغرافية، غير مسبوقة، عن مناطق شاسعة من العالم الجديد وأنماط عيش قبائل عديدة لم تكن معروفة لدى الغزاة الاسبان إلى حدود كتابة ونشر التقرير لأول مرة عام 1542 بمدينة بلد الوليد الأندلسية.

انطلقت بعثة الحاكم بانفيلو دي نارفايز، بتفويض من الملك شارل الخامس، من ميناء سان لوكار دي باراميدا، يوم 17 يونيو 1527 بأسطول يتألف من خمسة مراكب وزهاء ستمائة جندي وغاز، من بينهم رأس البقرة، لغزو واستيطان منطقة فلوريدا الأمريكية المجهولة.

وصولا إلى سواحل هيسبانيولا Hispaniola ، أواسط شهر سبتمبر، سيغادر حوالي 140 من الرجال الأسطول خوفا من عنت البحر وهول عواصفه العاتية لتستأنف الحملة وجهتها نحو فلوريدا بمراكب ورجال أقل. ورغم معارضة نائبه رأس البقرة، قرر نارفايز (1528) التوغل داخل فلوريدا بحثا عن الذهب. وعند عودته إلى الساحل وجد أن كل المراكب قد ضاعت مما اضطر الجنود إلى صنع قوارب بأنفسهم بوسائل بدائية، رغم عدم خبرتهم، مستنفدين في ذلك كل تبقى لهم من متاع وأحصنة اضطروا إلى أكلها تحت غائلة الجوع واستعمال جلودها قربا لحمل الماء. لكن هذه المراكب التي صنعها جنود عديمو الخبرة لم تصمد أمام رياح البحر وأهواله.

انفصل رأس البقرة وبعض من رجاله عن قائد الحملة نرفايز لترسو مراكبهم بجزيرة غالفستون (تكساس). هناك يسقط هو ورفقاؤه الثلاثة، دورانتيس، كاستيو ومصطفى الأزموري المغربي (استيفانيكو)، تحت رحمة قبائل الهنود. وبعد سنوات من التيه والعبودية على يد قبائل الهنود، يصل رأس البقرة ورفقاؤه سنة 1536 إلى مستوطنة إسبانية قرب مدينة كولياكان Culiacan حيث يلتقون بأبناء جلدتهم من الغزاة وتجار العبيد. هناك يستقبلون من طرف أنطونيو دي مندوزا، نائب الملك في المنطقة.

وفي شهر أبريل من سنة 1537 يركب رأس البقرة سفينة العودة إلى إسبانيا. ووفاء بمهمته الرسمية، أعد تقريره الرسمي Relacion، الذي ألقاه في حضور موثق الحكومة آنذاك بيدرو هيرنانديز Pedro Hernandez. بع التقرير ونشر للعموم أول مرة سنة 1542 في مدينة زامورا.

المؤلف كابيزا دي فاكا (رأس البقرة):

ولد ألفار نونيز المعروف باسم كابيزا دي فاكا (رأس البقرة)، بمدينة خيريث دي لافرونتيرا الأندلسية سنة 1488. كان أبوه فرانسيسكو دي فيرا ابن الغازي بيدرو دي فيرا مندوزا مستعمر الجزر الخالدات (الكناري) سنة 1483. اكتسب لقب رأس البقرة عن جده من جهة الأم، مارتين آل هاخا Martin Alhaja الذي تحكي الرواية أنه كان راعيا بسيطا قدم خدماته لملوك قشتالة وأراغون وساعدهم بواسطة جمجمة رأس بقرة كان قد وضعها علامة هادية لجيوش الإسبان مما مكنهم من اختراق إحدى حصون العرب المسلمين في الأندلس والانتصار عليهم في معركة نوفاس دي طولوزا Novas de Tolosa سنة 1212. من ثمة اكتسبت العائلة سمة الشرف والنبالة.

انخرط رأس البقرة في الخدمة العسكرية تحت دوقات مدينة صيدونية من 1503 الى 1527. وشارك في حروب ايطاليا. وفي عام 1527، تم تعيينه من طرف الملك كخازن ونائب قائد حملة بامفيلو دي نارفايز، الذي كانت مهمته استكشاف واستعمار البلاد الممتدة بين شرقي مكسيكو وفلوريدا بحثا عن مزيد من الثروة لفائدة تاج قشتالة. تمثلت مهمة رأس البقرة في تحصيل الثروات وإحصائها وأداء أجور المسؤولين، وإرسال التقارير عن السير العادي للحملة، لكي تعرض على أنظار الإمبراطور شارل الخامس.

ومع تعديلات طفيفة أعيد نشره كملحق لكتاب «التعليقات» Comentarios عام 1555 الذي يحكي فيه رأس البقرة تجربته كقائد حملة جديدة إلى العالم الجديد.

طبيعة تقرير رأس البقرة:

كتب كابيزا دي فاكا تقريرا رسميا عن بعثة كولونيالية منيت بفشل ذريع لم يبق من عناصر نجاحها إلا التقرير نفسه كوثيقة تقدم شهادة واصفة للتجربة والمكان والإنسان في تلك البقاع من أرض فلوريدا المجهولة والعصية على الاختراق.

نحن إذن أمام «تقرير» ألفه رأس البقرة بموجب المهمة التي أنيطت به كخازن البعثة ونائب الحاكم بانفيلو دي نارفايز. فهو ليس رواية أدبية صرفة، ولا نصا رحليا بمعنى الكلمة، مع أنه لا يعدم عناصر أدبية في الوصف والتخييل واختيار الغريب والمدهش، في حدود خبرته في الكتابة، للتأثير على عاهل اسبانيا طلبا للحظوة لديه والتماسا لتفويضه لقيادة بعثة أخرى. وهو ما سيتأتّى له بتعيين حاكمت على ....

إن طبيعة المؤلف والنص والسياق والمتلقي المستهدف من التقرير، كلها محددات كان لها أثر واضح على لغة المحكي وطرائق التعبير وانتقاء مادة السرد. هذا علما بأن ماجريات ووقائع بعثة بانفيلو دي نارفاييز الكارثية قد تم سكبها من قبلُ في تقرير موجز، يعرف بالتقرير المشترك، شارك في إعداده المسيحيون الثلاثة الذين نجوا من الكارثة التي تعرضت لها البعثة وهم: كابيزا دي فاكا نفسه، وألونصو ديل كاستيو وأندريس دورانتيس، باستثناء المغربي «استيفانيكو الأزموري» الذي، بحكم وضعه كخادم أو عبد لدورانتيس، لم يكن له حق الإفضاء بروايته للأحداث التي كان له دور فيها. علما بأنه كان هو لسان حالهم والأكثر تواصلا وتفاوضا مع قبائل الهنود في كل المحطات العصيبة التي مرت بها رحلة المسيحيين في مجاهل أمريكا العصية.

هكذا فإن كابيزا دي فاكا ألف تقريره استنادا على نص مشترك وجيز أعد لإطلاع الملك على ما جرى زهاء تسع سنوات من

التيه والمعاناة. لا شك أن الكاتب كان له سهم وافر في تطور الأحداث وصياغة النص معا. ولا شك أيضا أنه قدم تجربته بوعي كبير بتفاصيل الرحلة وتفقّد أخبارها وجمع وجهات النظر من مختلف الرواة وتسقّط الأنباء عن تجارب ومصائر الآخرين، مما جعله يمتلك مادة وافرة تؤهله، أكثر من غيره، لتقديم توليفة متعددة الأبعاد، هي ما سيسفر عنه نص «الرحلة» المعروف باسم «التقرير» Relacion.

الفصل التاسع
كيف غادرنا خليج الخيول

أطلقنا على الخليج الذي تركناه خليج الخيول(1). أبحرنا سبعة أيّام بين خلجان صغيرة فوق مياه لا تجاوز الخصر، دون علامة هادية على وجود شاطئ قريب. ثم وصلنا إلى جزيرة قريبة من الساحل. لاحت لنا من على متن قاربي، الذي كان في الطليعة، خمسة زوارق هندية تتقدّم باتجاهنا. ما أن رآنا ركّابها حتى فرّوا تاركين زوارقهم. أمّا المراكب الأخرى فواصلت طريقها إلى أن بلغت بعض مساكن نفس الجزيرة.

وجدنا هناك كفايتنا من سمك البوري وبيض مجفّف. تزوّدنا منه ثم توغّلنا أكثر. وعلى بعد فرسخين اعترَضَنا مضيق أطلقنا عليه اسم سانت ميغيل لمصادفة يوم وصولنا ذكرى هذا القديس(2). جزنا المضيق وأرسينا عند أحد السواحل. فاستخلصت ألواحا من خشب الزوارق التي أخذناها عن الهنود وقمنا باستعمالها في ترميم حوافّ قواربنا على نحو يجعلها ترتفع فوق الماء بنحوشبرين.

أقلعنا من جديد بمحاذاة الشاطئ تجاه نهر ريو دي لاس بالماس. ويوما بعد يوم زادت سطوة الجوع والعطش بسبب نفاد الزّاد وفساد الماء جرّاء تعفّن القرب التي صنعناها من جلود أقدام الخيول. وفي كل مرّة كنّا نلج فيها مدخلا أو مضيقا صغيرا موغلا في الداخل، كانت المياه ضحلة وخطرة، فأبحرنا عبرها مدّة ثلاثين يوما. وبين مسافة وأخرى كنّا نصادف هنودا يصطادون السمك. كانوا فقراء بائسين.

ذات ليلة، سمعنا صوت زورق يتقدّم نحونا. ولمّا قابَلَنا توقّف ثمّ مضى غير عابئ بهتافنا. وإذ كان الوقت ليلا، لم نقم بأيّ محاولة للّحاق به. فواصلنا طريقنا.

عند طلوع الفجر، قصدنا إحدى الجزر بحثا عن الماء دون جدوى. وخلال فترة رسوّنا، داهمتنا عاصفة واحتجزتنا ستّة أيّام لم نجرؤ خلالها على المغادرة. خمسة أيّام حسوما لم نذق فيها طعم الماء. ومن شدّة العطش اضطررنا إلى شرب الماء المالح الذي أودى بحياة خمسة من رجالنا.

أروي كل هذا باختصار شديد لأنّني لا أرى جدوى من الإفاضة في الحديث عن عذاباتنا. فبالنظر إلى ضراوة المكان وتلاشي الأمل، يمكن لأيّ شخص أن يتخيّل مدى معاناتنا.

هكذا، لمّا أنهكنا العطش وصار الماء نفسه سبب هلاكنا، قرّرنا التوكّل على الرب والمجازفة بحياتنا في عرض البحر وأهواله، بدل انتظار الموت عطشا.

أقلعنا في نفس الاتجاه الذي سار فيه زورق الهنود ليلة وصولنا. في اليوم الأوّل كدنا نستسلم للغرق مرارا. ومن شدّة اليأس صرنا موقنين بهلاكنا. وعند الغروب، وصلنا بمشيئة الربّ إلى موضع وجدنا فيه طقسا هادئا وملجأ آمنا.

هناك تردّدت علينا زوارق هنود كانوا، في كل مرّة، يخاطبوننا بلغة الإشارة ثم يختفون. كانوا فارعي القوام بأجسام قويّة، لا يحملون قوسا أو نشابا. سرنا خلفهم إلى منازل محاذية لمدخل بحري رسونا عنده. وجدنا أمام بعض المساكن حاويات ماء وكمّيات وافرة من السمك المطبوخ. ناول زعيم تلك البلاد كل شيء للحاكم (نارفاييز) واصطحبه معه إلى مسكنه .

كانت مساكنهم مؤثّثة بحُصُر مثبتة على الأرض. وعند ولوجنا مسكن زعيمهم، قدّم لنا الكثير من السمك. فبادلناهم بعضا من الذرة شرعوا في تناولها طالبين المزيد فأعطيناهم. ومن جهته، سلّم الحاكم (نارفايز)بعض الحلي لزعيم الهنود.

بعد نصف ساعة من غروب الشمس، هاجمنا الهنود في مسكن زعيمهم، فيما انقضّ آخرون على مرضانا بالساحل. أصيب الحاكم بحجر في وجهه. وألقى رجالنا القبض على الزعيم الهندي. وبمساعدة من رجاله المقربين تمكّن هذا الأخير من الهرب، تاركا في أيدينا رداءه المصنوع من جلد السمّور. لعلّه الأجمل والأجود من نوعه في العالم. تنبعث منه رائحة أشبه برائحة العنبر والمسك. يكاد يشمّها المرء من بعيد. لقد سبق لنا أن صادفنا أنواعا أخرى في أنحاء تلك البلاد، لكنّنا لم نشهد شيئا من ذلك القبيل.

حمل الجنود الحاكم الجريح إلى أحد القوارب. وأمّنوا الطريق لمن تبقّى من الرجال باتّجاه المرفأ فيما بقي حوالي خمسون رجلا على اليابسة لمواجهة الهنود الذين دبّروا، في ليلة واحدة، ثلاث غارات عنيفة اضطرّتنا إلى التراجع كلّ مرّة مسافة رمية حجر.

لم ينج أحد من سهامهم. أُصِبْتُ بدوري في وجهي. ولو كان لدى الهنود سلاحا أكثر

لكبّدونا أفدح الخسائر. لكن، عند الهجوم الأخير، نصب القائد دورانتيس وبينيالوزا وتيليز وخمسة عشرة رجل، كمينا باغتوا فيه الهنود من الخلف مما أربكهم وأجبرهم على الانصراف.

صبيحة اليوم التالي، قمت بتفكيك زهاء ثلاثين زورق، استعملنا خشبها حطبا للتدفئة اتقاء ريح الشمال التي اضطرّتنا إلى المكوث في البرد القارس غير مجازفين بالإبحار تحت رحمة عاصفة هوجاء. ثمّ صعدنا إلى قواربنا وأقلعنا ثلاثة أيّام متزوّدين بالماء قدر ما توافر لدينا من قرَب جلدية. هكذا وجدنا أنفسنا في نفس الخصاص كذي قبل.

واصلنا الطريق إلى أن بلغنا لسانا بحريا صادفنا عنده زورقا يتقدّم نحونا على متنه بعض الهنود. لوّحنا لهم فيمّموا تجاهنا. طلب منهم الحاكم، من على مركبه الذي كان في المقدمة، إمدادنا ببعض الماء. فوافقوا شريطة أن نعطيهم قِرَبا. تطوّع المسيحي* اليوناني، دوروتيو تيودورو، سالف الذكر، لمرافقتهم. ورغم محاولات الحاكم وغيره لثنيه عن قراره، إلا أنه أصرّ على الذهاب مصحوبا بأحد الزنوج**.

من جهتهم ترك الهنود اثنين من رجالهم رهينتين لدينا. وفي المساء، عاد الهنود من دون المسيحيَّين الاثنين حاملين قِرَب الماء فارغة. وعندما تحدّث الهنود إلى الرهينتين، حاولا الهرب بإلقاء نفسيهما في الماء. إلا أن رجالنا تمكّنوا من الإمساك بهما، فيما تخلّى الهنود الآخرون عن زوارقهم وتركونا أسفين على فقدان رفيقَيْنا المسيحيَّيْن.

الفصل العاشر
اشتباكنا مع الهنود

في الصباح وصلت مجموعة من الهنود على متن زوارق مطالبين بإطلاق سراح الرهينتين اللذين تركوهما على قواربنا. وافق الحاكم على تسليمهما شريطة أن يعيدوا لنا المسيحيَّيْن الاثنين.

كان الهنود مصحوبين بخمسة أو ستّة من زعمائهم تبدو عليهم علامات التجربة

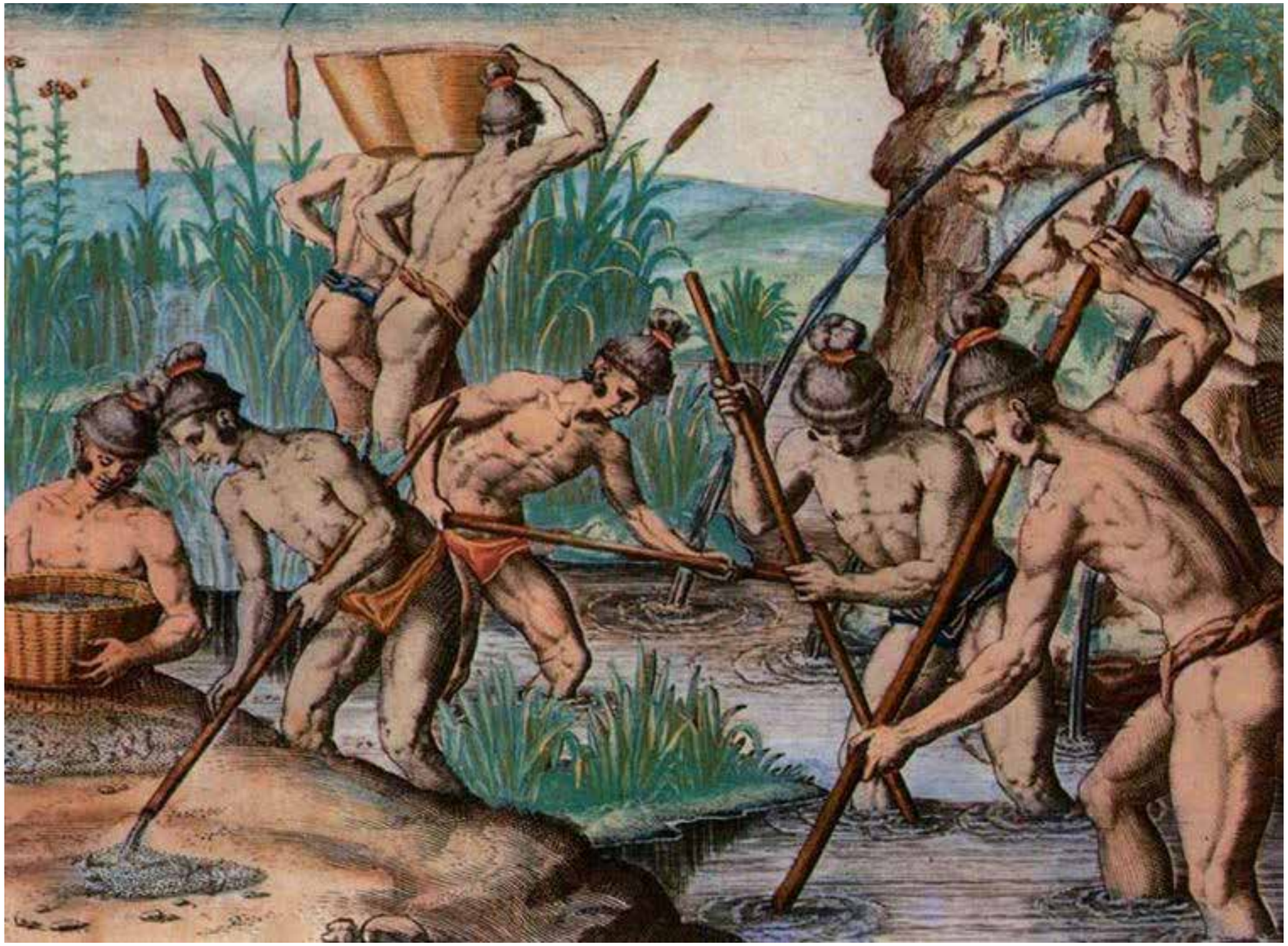

والثقة بالنفس وسلطة أكبر من أولئك الذين تحدّثنا عنهم من قبل. كانوا أقصر قامة بشعور مسدلة طويلة. يلتحفون أردية مصنوعة من جلد السّمور، من ذات النوع الذي حصلنا عليه من قبل، بعضها معقودة بطريقة غريبة، برباطات جلدية ذات ألوان زاهية.

دعانا الهنود لمرافقتهم على وعد تسليمنا المسيحيَين الاثنين والماء وأشياء أخرى. تدريجيا أخذت تتوارد على المكان زوارق إضافية سدّت فم الخليج في وجهنا. ونظرا لخطورة الموقف ووعورة البلاد، أقلعنا بصحبتهم حتّى المساء. ولمّا رفضوا تسليمنا رفيقَيْنا، رفضنا بدورنا تسليمهم الرهينتين فشرعوا يرموننا بحجارة متوعّدينا بإطلاق سهامهم علينا رغم أنه لم يكن بحوزتهم أكثر من ثلاثة أو أربعة أقواس.

ارتفعت قوّة الريح خلال الاشتباك فتراجع الهنود تدريجيّا ثم انصرفوا. جذّفنا حتى المساء فصادف قاربي، الذي كان في المقدمة، لسانا بحريا اعترضنا عند نهايته نهر واسع(3) وخليج صغير رسوت عنده في انتظار وصول القوارب الأخرى.

رفض الحاكم النزول إلى اليابسة، وقرّر مواصلة الإبحار نحو خليج مجاور لمجموعة من الجزر الصغيرة. التحقنا به هناك ونهلنا من سيل ماء نهر جارف يصبّ في الخليج. طيلة يومين كان قُوتُنا بعضا من ذرة نيّئة. ذهبنا إلى ساحل الجزيرة عسى نعثر على خشب نشوي على ناره بعضا من الذرة التي كانت مصدر غذائنا الوحيد. ولمّا باءت محاولتنا بالفشل، توجّهنا صوب النهر مقدار فرسخ. لكنّ قوّة التيّار جعلت الرّسوّ صعب المرام. ورغم جهودنا، جرفنا التيّار بعيدا عن الساحل. ثم ثارت ريح شمالية في وجهنا ودفعتنا في عرض البحر دون أن نستطيع مقاومتها. وعلى بعد نصف فرسخ من الساحل أنزلنا حبال قياس بعمق ثلاثين ذراع، لكنّها لم تبلغ القعر ربّما بسبب التيّار.

أقلعنا يومين آخرين مجدّين في بلوغ الساحل. وقبيل فجر اليوم الثالث لاحت لنا أعمدة دخان على الشاطئ يمّمنا تجاهها إلى أن بلغنا مياهً بعمق ثلاثة أذرع. ولمّا كان الوقت ليلا، لم نجرؤ على الرّسوّ. وبالنظر لكثافة الأدخنة، أحسسنا بأن خطرا كبيرا يترصّدنا هناك. وبسبب حلكة الظلام لم نستطع اتخاذ قرار مناسب، ففضّلنا الانتظار حتّى الصباح.

عند الفجر، كانت القوارب قد تباعدت عن بعضها البعض، ووجدت نفسي على عمق ثلاثين ذراعا، فواصلت طريقي. عند المساء تقدّمت نحو قاربَين آخرين. كان أوّلهما قارب الحاكم (نارفايز) الذي بادرني بالسؤال عمّا يمكن القيام به. فأشرت إليه بالانضمام إلى القارب الأول والحرص على ملازمته ومواصلة الرحلة بمشيئة الرب. فردّ بأن ذلك لن يجدي نفعا، لأن القارب ينجرف أكثر فأكثر في عرض البحر، بينما هو يرغب في بلوغ اليابسة، وأنّني إن أردت اللّحاق به، على الرجال الذين يوجدون على متن قاربي أن يحملوا المجاذيف ويشمّروا عن سواعدهم، لأن بالسواعد فقط يمكن بلوغ اليابسة.

كان مرافقه القبطان بانتوخا هو من أشار إليه بأنه إذا لم يبلغ اليابسة ذلك اليوم، فإنّه لن يبلغها قبل ستّة أيام، وأنّ الموت جوعا حينئذ سيكون محتّما. ولمّا بدا لي تشبّثه برأيه، حملت مجذافي، وكذلك فعل كلّ رجالي. فجعلنا نجذّف حتّى غروب الشمس تقريبا.

ولمّا كان قارب الحاكم يحمل أقوى الرجال، فإنّنا لم نستطع مجاراته. فطلبت منه أن يمدّني بحبل من قاربه حتى يتسنّى لي اتّباعه. فردّ عليّ بأنّه يكفيه لو تمكّن هو ورجاله من بلوغ اليابسة عند المساء. فالتمست أوامره طالما أنّه لا حظّ لنا في اللحاق به. فأجابني بأنّه لم يعد هناك وقت لإصدار أو تلقّي الأوامر، وأنه على كل واحد منّا أن يفعل ما يراه مناسبا لإنقاذ حياته. وأن ذلك ما هو عازم على فعله. هكذا لفظ آخر كلماته ونأى بعيدا بقاربه.

ولمّا تعذّر اللحاق به، توجّهت صوب قارب آخر كان بانتظاري في عرض البحر. وحين بلغته وجدته قارب القائدين بينيالوزا وتيلّيز. أبحرنا معا أربعة أيّام، لا نقتات إلا بنصف مُدّ من ذرة نيّئة. وفي اليوم الخامس ثارت في وجهنا عاصفة فقدنا من جرّائها القارب الآخر. وبلطف من الرب نجونا من الغرق.

كان الطقس شتائيا باردا. ومن أثر الجوع وهياج الموج أيّاما متتالية أخذ الرجال

يفقدون وعيهم. وما أن حلّ الغروب حتى انهار جميع من كان على متن قاربي، وصاروا أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة. قليل منهم ظلّ واعيا وخمسة فقط كانوا يستطيعون الوقوف.

عند حلول الظلام، لم يبق إلا الربّان وأنا بمقدورنا قيادة القارب. وبعد ساعتين، أسلم لي الربّان الدفّة قائلا أن لديه إحساسا بأنه سيموت تلك الليلة. وبعد منتصف الليل، تفقّدته لأرى إن كان قد قضى نحبه، فأجابني، على عكس التوقّع، بأنّه يشعر بتحسّن، وأنه يودّ استلام دفّة القيادة حتّى الصباح. في تلك اللحظة تمنّيت الموت على أن أرى الرجال من حولي على تلك الحال.

بعدما استلم الربّان منّي دفّة القيادة، أخذت قسطا من الراحة دون أن يغمض لي جفن. وعند اقتراب الفجر سمعت صوت ارتطام الموج. وحيث أن الساحل كان واطئا، فإنه كان يُصدر صوتا قويّا. ومن أثر المفاجأة ناديت على الربّان فأجابني بأنه يعتقد أنّنا صرنا على مقربة من اليابسة. فقمنا بقياس عمق الماء فوجدناه في حدود سبع قامات(4).

ارتأى الربّان ألّا نبارح الماء حتّى الفجر. فحملت مجذافا ويمّمت صوب الساحل مسافة فرسخ، وجعلت مؤخّرة القارب جهة البحر. وما أن اقتربنا من اليابسة حتى تخطّفتنا موجة عالية وطوّحت بنا خارج الماء. ومن وقع تلك الرّجة استعاد الرجال، شبه الموتى، وعيهم. ولمّا أدركوا أنّنا بمحاذاة اليابسة، أخذوا ينسِلون من القارب زاحفين على أيديهم ورُكَبهم. وما أن تجمّعوا على جرف صخري، حتى أضرمنا نارا شوينا عليها ما تبقّى لنا من ذرة. ارتوينا من ماء المطر. ومن أثر دفء النار أخذ الرجال يستعيدون حيويّتهم وعافيتهم. كان اليوم الذي نزلنا فيه هناك هو السادس من نوفمبر.

القسم الرابع
في مجاهل بلاد الهنود

الفصل الحادي عشر
ما حدث بين لوبي دي أوفيدو وبعض الهنود

تناولت ما تيسّر من طعام، وأوعزت إلى لوبي دي أوفيدو، أقوى الرجال وأكثرهم صلابة، بصعود إحدى أشجار غابة قريبة لاستكشاف طبيعة البلاد وجمع معلومات عنها. فاكتشف أنّنا على أرض جزيرة(1) بها أثر أقدام حيوانات، معتقدا أنها أرض مسيحيّة(2).

أرسلته ثانية للبحث عن طريق سالك، على أن يتوخّى الحذر ولا يعرّض نفسه للخطر، فعثر هناك على ممشى سار فيه مدّة نصف فرسخ. فوجد أكواخ هنود خالية من سكانّها الذين كانوا قد خرجوا إلى الحقول. فحمل قِدْرا به طعام، وكلبا صغيرا، وبعض السمك، ثم غادر المكان.

وحين أبطأ في الرجوع، أرسلت مسيحيَين اثنين لتفقّده. ومن مسافة قريبة شاهدا ثلاثة هنود يحملون أقواسا وسهاما يلاحقونه ويخاطبونه بلغة الإشارة. كان يردّ عليهم بنفس الطريقة. انضمّ إلينا فيما توقّف الهنود عند الساحل. وبعد نصف ساعة، التحق بهم مائة من الرماة. وفيما إذا كان هؤلاء الهنود ذوي قامات طويلة أم قصيرة، فإن الخوف الذي استبدّ بنا لحظتها جعلهم يبدون لنا كعمالقة.

حين توقّفوا على مقربة من رجالنا الثلاثة، لم نفكّر حتّى في مقاومتهم، لأنه لم يكن من بيننا حتى ستّة رجال لهم القدرة على الوقوف. تقدّمت نحوهم أنا والمراقب (ألونصو دي صوليص) وأشرنا إليهم بالاقتراب ففعلوا. وكي ننفذ بجلدنا جعلنا نهدّئ الموقف بكلّ ما أوتينا من قوة. فأهديناهم خرزا وأجراسا، فيما قدّم لنا كلّ واحد منهم سهما عربون صداقة. وبلغة الإشارة جعلونا نفهم بأنهم سيجلبون لنا طعاما غدا، لأنّه لم يكن لديهم ما يقدّمونه لنا آنذاك.

الفصل الثاني عشر
كيف حمل لنا الهنود الطعام

برّا بوعدهم، عاد الهنود فجراً حاملين سمكا كثيرا وبعض الجذور التي يقتاتون منها، وهي أشبه بثمر الجوز، ذات أحجام مختلفة، ينتشلونها من الماء بعسر. وعند المساء، جاءوا ثانية مصحوبين بنسائهم وأطفالهم، محمّلين بمزيد من الأسماك والجذور. ثم رجعوا إلى مساكنهم أغنياء بما وهبناهم من خرز وأجراس. هكذا دأبوا على زيارتنا أيّاما متتالية يمدّوننا بما تيسّر لهم من طعام.

ولمّا توافر لدينا ما يكفي من سمك وجذور وماء، وحصلنا على كفايتنا منها، قرّرنا استئناف المسير. انتشلنا القارب الغائص في الرمل، وهو ما تطلّب منّا نزع ملابسنا وبذل قصارى جهدنا لإرسائه في الماء، لأنّنا كنّا على حال من الوهن جعل كلّ شيء، مهما خفّ وزنه، مصدر ألم كبير لنا.

أقلعنا من جديد. توغّلنا في عرض البحر مقدار غلوتين(3) فغمرتنا موجة كبيرة. ولمّا كنّا عراة وكان البرد قارسا، انفلتت المجاذيف من أيدينا. ثم انهالت علينا موجة ثانية فقلبت القارب رأسا عن عقب. تشبّث

المراقب (ألونصو دي صوليص) واثنان من رفقائه بالقارب، لكنّه انقلب على رؤوسهم فعلقوا تحته وانجرفوا معه إلى حتفهم الأخير.

كان الساحل وعرا. جرف البحر رجالنا وقذف بهم، شبه أحياء، إلى شاطئ نفس الجزيرة، اللّهم إلّا الرجال الثلاثة الذين قضوا غرقا تحت القارب. أمّا نحن فضيّعنا كلّ ما نملك وبقينا عراة كما ولدتنا أمهاتنا. ومع أن الأشياء المفقودة لم تكن ذات قيمة، فإنّها كانت تعني الكثير بالنسبة لنا.

كان شهر نوفمبر باردا. وكنّا في حال من الهزال يجعل المرء يحصي عظامنا. صرنا أشبه بالموت نفسه. أما عنّي، فيمكن القول بأنّني منذ شهر ماي لم أتناول من الطعام إلا بعض الذرة المشوية التي كنت أضطرّ أحيانا إلى ابتلاعها نَيِّئة. حتّى الخيول التي عقرت أثناء بناء القوارب لم أستسغ أكلها. وطوال تلك الفترة لم أتناول السمك إلا أقل من عشر مرّات. أقول هذا ليعلم الجميع الوضع الذي أصبحنا عليه.

فوق كلّ ذلك، ثارت في وجهنا ريح شمالية جعلتنا أقرب إلى الموت منّا إلى الحياة. وبمشيئة الربّ عثرنا على خشب كنّا قد أوقدناه من قبل، فأضرمنا فيه نارا هائلة سائلين الرب، بعيون باكية، أن يرحمتنا ويغفر خطايانا. وبالنظر إلى بؤس الحال، كان كل واحد منّا يشفق على نفسه وعلى من حوله من الرجال على حدّ سواء.

عند الغروب، وظنّاً منهم بأنّنا لم نغادر المكان، جاءنا الهنود بطعام. ولمّا رأونا على تلك الهيئة المزرية، أصيبوا بالذهول وأقفلوا عائدين. نهضت مناديا عليهم فاقتربوا واجفين. وبكل ما أوتيت من لغة الإشارة جعلتهم يفهمون أننا أضعنا قاربا، وأن ثلاثة من رجالنا ماتوا غرقا. وكان أمام أنظارهم جثتان لاثنين من رجالنا، وآخرون ينتظرون نفس المصير.

وإذ شاهدوا ما حلّ بنا من كارثة وما لقيناه من عَنَتٍ، جلس الهنود قربنا وشرعوا في البكاء إشفاقا على سوء طالعنا. لنصف ساعة أخذوا يبكوننا بصوت عال وصادق يُسْمَع من مكان بعيد. والحقيقة أن مرأى رجال طائشين سذَّج جفاة الطباع يرقّون لحالنا، قد حرّك مشاعرنا وجعلنا نتأسّى أكثر على وضعنا المزري.

بعد توقّف النحيب، سألت المسيحيّين

إن كانوا يمانعون أن أطلب من الهنود اصطحابنا إلى منازلهم. فأشار عليّ بعضهم ممّن عاشوا لفترة في إسبانيا الجديدة أن لا أفعل، لأنّه حالما سنصل إلى منازل الهنود سيقدّموننا قرابين لأوثانهم.

ولمّا لم يكن لدينا بديل، وكان الموت محتمّا ووشيكا، تجاهلت نصيحتهم، والتمست من الهنود أخذنا إلى قريتهم. فردّوا بترحاب كبير ملتمسين منا التريّث حتى يستجيبوا لطلبنا. هكذا احتطب ثلاثون رجلا منهم خشبا للتدفئة واتجهوا نحو منازلهم البعيدة، بينما لبثنا مع من تبقّى منهم حتى أوشك الظلام. ثم اقتادونا سراعا باتجاه منازلهم.

لحمايتنا من برودة الطقس، أضرم الهنود أربعة أو خمسة مشاعل على مسافات متقاربة طوال الطريق، وأخذوا يدفئوننا حتّى لا ينهار أحد من رجالنا أو يموت. وكلّما آنسوا منّا الدفء والمقدرة، سارعوا إلى حملنا صوب موضع النار الموالي بخفّة جعلت أرجلنا تكاد لا تلامس الأرض.

عندما وصلنا إلى منازلهم، أعدّوا لنا مساكن وضعوا فيها مشاعل. وبعد ساعة من وصولنا، شرعوا يرقصون طوال الليل احتفاء بنا. أمّا نحن، فلم ننعم بفرح أو احتفال أو نوم، لأننا كنّا ننتظر لحظة تقديمنا كقرابين. لكن عند الصباح، قدّموا لنا سمكا وجذورا. وعاملونا معاملة حسنة بعثت الطمأنينة في قلوبنا فتخلّصنا من هاجس أن نصير قربانا لهم.

الفصل الثالث عشر
كيف علمنا بوجود مسيحيّين آخرين

في ذات اليوم، رأيت حِلْية صغيرة على أحد الهنود لم تكن من الهدايا التي قدّمناها لهم. ولمّا سألته عن مصدرها، أعلمونا بلغة الإشارة، بأن رجالا يشبهوننا، تركوهم خلفهم، هم من أهداهم تلك الحِلْية. بمجرد سماع ذلك، أرسلت مسيحيّين اثنين مع مرشدَين هنديّين، تجاه موضع أولئك الرجال الذين التقوا بهم على مقربة. كانوا بدورهم يبحثون عنّا، لأنّ هنودا آخرين أخبروهم بوجودنا في تلك الأنحاء. كان من بينهم أندريس دورانتيس وألونصو ديل كاستيّو وما بقي معهما من الرجال. لما اقتربوا منّا أصيبوا بالذهول لهيئتنا المزرية وكانوا أسفين لعدم قدرتهم على مدّنا بأيّ شيء لأنّهم لم يكونوا يملكون بدورهم سوى الثياب على أجسادهم. أقاموا معنا وأخبرونا كيف علق قاربهم، في الخامس من ذلك الشهر، على بعد فرسخ ونصف من ذلك المكان. ثم كيف استطاعوا الفرار دون أن يفقدوا شيئا.

اتفقنا على إصلاح قاربهم، على أن يواصل الأقوياء منهم المسير، بينما ينتظر الآخرون هناك حتّى يستعيدوا عافيتهم فيسلكوا طريق الساحل عسى أن يهدينا الربّ جميعا إلى أرض المسيحيّين. هكذا شرعنا في العمل. وقبل أن نضع القارب في الماء مات أحد الفرسان يدعى طافيرا. تأكّد لنا أن القارب غير صالح للإبحار. وإن هي إلّا فترة قصيرة حتى غرق في البحر.

وحيث أنّ معظم رجالنا كانوا عراة، وبسبب سوء الطقس الذي يعيق المشي والسباحة عبر الأنهار والخلجان، ولأنّنا كنّا نفتقر لكل زاد أو طعام، استسلمنا للأمر الواقع وقرّرنا قضاء فصل الشتاء هناك. ثم اتفقنا على أن يذهب أربعة من أقدر رجالنا إلى بانوكو التي كنّا نعتقد أنّها قريبة، آملين أن يصلوا هناك بمشيئة الرب ويخبرون عن تواجدنا على الجزيرة، وعن عوزنا ومعاناتنا. كان ضمن هؤلاء الرجال، وهم سبّاحون مهرة، كل من البرتغالي ألفارو فرناندیز. وميندیز، وهو نجّار وبحار، وفيغويروا الطليطلي، وأستوديّو سليل مدينة زَفْرا. اصطحبوا معهم هنديا من أهالي الجزيرة.

الفصل الرابع عشر
كيف غادر المسيحيّون الأربعة

بعد بضعة أيام من مغادرة المسيحيّين الأربعة، صار الطقس باردا وعاصفا تعذّر معه على الهنود انتشال الجذور من الماء. كما لم تعد القنوات التي ينصبونها للصيد تجود عليهم بشيء. ولمّا كانت المساكن لا تقدّم لهم الحماية اللازمة، فقد لقي بعض الرجال حتفهم. بلغت الحال بخمسة من المسيحيّين، الذين كانوا يقطنون كوخا بالساحل، حدًّا صاروا معه يأكلون بعضهم البعض حتى لم يتبقّ منهم سوى واحدًا لم يجد من يأكله. وهُمْ سييرا، دييغو لوبيز، كورال، بالاسيوس، و غونزاليس رويز.

ارتاع الهنود لأمرهم وسرت بينهم موجة من الاشمئزاز حتّى صرت موقنا بأنّه لو تسنّى لهم مشاهدتهم في ذلك الوضع من قبل لكانوا قد أجهزوا عليهم منذ البداية، ولصرنا جميعًا في خطر كبير. بعد فترة وجيزة، لم يبق على قيد الحياة من بين الرجال الثمانين الذين نزلوا هذا المكان، من كلا الطرفين، سوى خمسين نفرا.

إثر ذلك، أصيب الهنود بمرض في البطن أودى بحياة نصفهم. اعتقدوا أنّنا سبب موتهم فقرّروا قتلنا جميعا. لكن عند ساعة التنفيذ، ظهر من بينهم هندي عشت في كنفه من قبل، فنفى أن نكون سبب موت رجالهم، لأنّه لو كانت لنا تلك المقدرة لما تركنا رجالنا المسيحيّين يموتون تباعا دون أن نستطيع علاجهم. وأضاف بأنّ القليل ممّن بقي منّا على قيد الحياة لم يصب أحدا بأذى. ثمّ أشار عليهم بإخلاء سبيلنا وتركنا لمصيرنا. وشاء الرب أن يلقى هذا الرأي قبولًا حسنا لديهم ويجعلهم يعدلون عن فكرة قتلنا.

سمّينا تلك الجزيرة جزيرة النحس(4). أجسام رجالها عريضة وقوية. لا يملكون من السلاح إلا أقواسا وسهاما يسعملونها بمهارة كبيرة. كان من عادة بعض رجالهم أن يثقبوا إحدى حلمتي الثديين. فيما يثقب بعضهم الحلمتين معًا. يسلكون عبر الثقب قصبة بطول شبرين وسُمْكِ أصبعين. كما كانوا يخترمون شفتهم السفلى ويضعون مكان الخرم قصبة بحجم نصف أصبع. أما نساؤهم فكنّ يُنْجِزْنَ أشقّ الأعباء.

يقيم الهنود عادة بهذه الجزيرة ابتداء من شهر أكتوبر إلى نهاية فبراير. يقتاتون على الجذور التي وصفتها من قبل، التي ينتشلونها من الماء خلال شهري نوفمبر وديسمبر. ينصبون للسمك قنوات، ويحصلون منه على صيد وفير خلال تلك الفترة من السنة. بعد انقضاء المدة يتخذّون إلى مناطق أخرى بحثًا عن الطعام، لأنّ الجذور تكون قد بدأت تورق ولا تعود صالحة للأكل.

من بين شعوب العالم، يحبّ أولائك الهنود أبناءهم حبّا جمّا ويتعهّدونهم بأفضل عناية. وإذا صادف أن مات أحد الأبناء، فإنّ الآباء والأقارب وكلّ أهالي القرية يبكونه ويقيمون عليه الجداد سنة كاملة. يشرع أهل الطفل الميت في البكاء كلّ صباح قبيل طلوع الشمس، ثم ينضمّ إليهم جميع أهالي القرية. ويستأنفون نفس النحيب في واسطة النهار وعند المساء. وبعد عام من الجِداد، يقدّمون فروض الاحترام للميت، ويغتسلون من الأصباغ التي طلوا بها أجسادهم.

بيكي هؤلاء الهنود جميع موتاهم باستثناء الشيوخ الذين أخذوا حصّتهم من الحياة ولم يعد لهم نفع اللّهم إلا مزاحمة الأطفال في قوتهم وسكنهم. من عادتهم أيضا دفن موتاهم، باستثناء كاهن القبيلة. فإنّهم يحرقون جثمانه ويقيمون عليه احتفالا كبيرا راقصا. ثم يجعلون من عظامه مسحوقا. وبعد عام، يحيون ذكراه مجدّدين له فروض الاحترام. ثمّ يسلّمون أقاربه مسحوق عظامه يشربونه مع جرعات ماء.

لكلّ هندي زوجة واحدة تعترف له بها كل القرية. أما الكهّان فيجوز لهم الحصول على زوجتين أو ثلاثة تجمع بينهنّ صداقة وانسجام. وما أن يتزوّج أحدهم حتّى تأخذ الزوجة كل ما يوفّره زوجها من سمك أو طرائد إلى بيت أبيها دون أن تجرؤ على لمسه أو أكله. فيما يتلقّى الزوج طعامه من بيت أهل زوجته.

في معهودهم أيضا أن لا يُسْمَحَ لأب الزّوجة وأمّها دخول منزله، كما لا يجوز له زيارة بيتهما أو بيت أبنائهما. وإذا صادف أن التقى الزوج بأهل زوجته، فإنه يحتفظ بمسافة بعيدة عنهم، ويمرّون منكّسي رؤوسهم، معتقدين أنّ في رؤية بعضهم البعض أو الكلام فيما بينهم شرّ كبير. فيما يجوز للنساء الاتصال والكلام مع أهلهنّ وأهل أزواجهنّ وأقاربهنّ. تنتشر هذه العادة من تلك الجزيرة على مدار خمسين فرسخ وسط البلاد.

هناك عادة أخرى جديرة بالذكر. حين يموت طفل أو قريب، يتوقّف أفراد أسرته عن السعي لتحصيل الطعام بأنفسهم لمدة ثلاثة أشهر، مفضّلين الموت جوعًا. لكنّ أقاربهم وجيرانهم يمدّونهم بما يسدّ الرمق. فطيلة المدّة التي أقمنا بينهم لقي كثير منهم حتفهم لهذا السبب. كان الجوع منتشرا بين معظم أفراد الأسر لتشبّثهم بعاداتهم ومراسيمهم. علاوة على أن قساوة الطقس كانت لا تساعدهم على تحصيل الطعام الكافي رغم أنهم يبذلون لأجل ذلك جهدًا كبيرًا.

هكذا غادر الهنود، الذين كنت في كنفهم، الجزيرةَ على متن زوارق باتجاه وسط البلاد حيث توجد خلجان غنية بالمحار. طيلة ثلاثة أشهر من السنة كان المحار يشكّل طعامهم الوحيد، أما شرابهم فَمَاءٌ فاسد. يفتقر المكان إلى حطب التدفئة ويعجّ بالبعوض. مساكنهم مصنوعة من ألياف نباتية توضع على صدفات محار يفترشون عليها جلود حيوان التماسا للنّوم. وهو ما لا يتأتّى لهم إلّا لِماماً.

دامت فترة مقامنا بينهم حتى نهاية شهر أبريل كنّا نصاحبهم خلالها إلى ساحل البحر. فنظلّ نقتات على ثمر العلّيق شهرا كاملا. كانوا يقضون تلك الفترة في رقص واحتفال متواصل.

الفصل الخامس عشر
ما حدث لنا على جزيرة النحس

أراد أهالي الجزيرة المذكورة أن يجعلوا منّا أطبّاء نعالج مرضاهم دون أن يطلبوا منّا شهادة خبرة، لأنّهم كانوا يعالجون عادة بواسطة النفخ على المرضى معتقدين أنّه عن طريق النَّفَس واللمس باليد يمكنهم طرد المرض. فرضوا علينا أن نقوم بنفس الشيء حتى يكون لبقائنا بينهم مبرّر ونفع. بداية، قابلنا هذا الطلب باستخفاف. وأخبرناهم بأنّنا لا نعرف كيف نعالج الناس.

لإرغامنا على ذلك منعوا عنّا الطعام. وأمام إصرارنا، توجّه إليّ أحد الهنود يحذّرني من جسامة ما أقول حين أدّعي أنّ علمه غير مجدي، لأنّ للحجر ولكلّ ما ينبت في الحقول فضائل خاصة. وأنه، بواسطة حجر حامي يضعه على بطن المريض يخلّصه من كلّ ألم. وأننّا، نحن المسيحيّين، نمتلك حكمة وافرة وفضيلة أكبر. في الأخير، وجدنا أنفسنا مضطرّين لتنفيذ ما طلبوا منّا تلافيا للعقاب.

أمّا طريقة علاجهم فهي كالتالي: عندما يشعر أحدهم بالمرض، فإن الأهالي يلجؤون إلى كاهن القبيلة. وعندما يتمّ العلاج يمنحونه كلّ ما بحوزتهم ويجلبون له ما استطاعوا من ممتلكات أقاربهم. يقوم الكاهن بفصد موضع الألم ومصّ الدم من حوله وكيّ مكان الجرح بالنار مسلّما بنجاعة العلاج وهو ما تأكّد لي فعلا من خلال التجربة. ثم ينفخ في موضع الألم معتقدا أنّه بهذا الصنيع يزيل المرض.

أما طريقة علاجنا نحن، فكانت تتمّ برسم علامة الصليب على المرضى والنفخ عليهم وتلاوة صلوات من الكتاب المقدّس*، ثم التوسّل إلى الربّ أن يمنحهم العافية ويلهمهم حسن معاملتنا. وبمشيئته ورحمته الواسعة، كنّا كلّما رسمنا إشارة الصليب نهض المرضى معلنين شفاءهم وتخلّصهم من الألم. مقابل ذلك، كانوا يعاملوننا معاملة حسنة ويقدّمون لنا طعامهم اليومي موثرين على أنفسهم الجوع. كما كانوا يمنحوننا بعض الأشياء المصنوعة من جلود الحيوان وهدايا أخرى صغيرة.

أما الهنود الذين كانوا يحتجزون ألونصو ديل كاستيّو، وأندريس دورانتيس، ومن بقي منهم على قيد الحياة، فكانوا من قبيلة لغوية مختلفة. يقتاتون على المحار في أنحاء أخرى من البلاد. يمكثون هناك إلى فاتح أبريل، ثم يعودون إلى الجزيرة التي تبعد عن مكان تواجدنا بحوالي فرسخين حيث عرض المياه أوسع. كان عرض الجزيرة نصف فرسخ عرضا وطولها خمس فراسخ.

كان أهالي الجزيرة يمشون عراة. وحدهنّ النساء كنّ يضعن على أجسادهنّ سِترا من صوف ينمو على شَجَر، فيما تغطّي الفتيات أعضاءهنّ الأنثوية بجلود الغزال. هؤلاء الهنود متساهلون في أمور المِلكية، وليس لهم حاكم. يعيش الأقارب مجتمعين. تنطق على أرض الجزيرة لغتان متمايزتان: لغة شعب كافوكويس، ولغة شعب الهان.

من عادتهم عندما يتعارفون أو يلتقون فيما بينهم (عند اللقاء) أن يشرعوا في البكاء مدّة نصف ساعة قبل أن يتبادلوا الكلام. وبعد طقس البكاء يهدي المضيف كلّ ما يملك لضيفه. فيحمل هذا الأخير الهديّة ويغادر. أحيانا يفترق المضيف والضيف بعد استلام الأعطية دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

لدى هؤلاء الهنود عادات غريبة كثيرة. وإذ ذكرت الأساسيَّ منها والأكثر مدعاة للدهشة، سأواصل الآن سرد ما حدث لنا هناك.

الفصل السادس عشر
كيف غادر المسيحيّون جزيرة النحس

عندما عاد دورانتيس وكاستيّو إلى الجزيرة، قاموا بتجميع المسيحيّين الأربعة عشر. من جهتي، كنت صحبة هنود، في موضع آخر داخل البلاد، أعاني من مرض شديد. ففي ظروف مغايرة، كنت سأمنّي النفس بالعيش، لكنّ المرض كان كافيا ليجرّدني من كل أمل في الحياة. ولمّا علم المسيحيّون بوجودي، أهدوا أحد الهنود معطف جلد السمّور الذي أخذناه سلفا من زعيم القبيلة، ليدلّهم على مكاني.

وصل اثنا عشر رجلا من المسيحيّين فقط، بينما تعذّر حمل اثنين منهم كانا في حالة من الوهن. أما الذين تمكّنوا من الوصول فهم: ألونصو ديل كاستيّو، أندريس دورانتيس، دييغو دورانتيس، فالديفييزو، إسترادا، كوسكادو، شافيس، غوتيريز، راهب من أستورياس، دييغو دي هويلفا، استيبانيكو الزنجي*، وبينيتيز. لمّا توغّلوا داخل البلاد عثروا على أحد رجالنا يدعى فرانسيسكو دي ليون. سلك الرجال الثلاثة عشر طريق الساحل. وعندما مرّوا بجوارنا، أخبرني الهنود الذين كنت أعيش في كنفهم بوجودهم وببقاء هيرونيمو دي ألانيز ولوبي دي أوفيدو في الجزيرة.

منعني المرض من اقتفاء أثرهم أو رؤيتهم، فاضطررت للبقاء مع نفس القبيلة زهاء سنة. وبسبب الأشغال الشاقّة التي أُزغِمْتُ على أدائها، وسوء المعاملة التي كنت أتلقّاها منهم، قرّرت الهروب والانضمام إلى هنود شعب شاروكو الذين يقطنون الغابات وسط البلاد.

لم أطق نمط العيش الذي فرض عليّ. فمن بين العديد من الأعباء، كنت ملزما بانتشال الجذور الصالحة للأكل من القصب الغائص في الماء، حتّى صارت أصابعي، من فرط طراوتها، تُدمى من ملمس أدنى شيء. كاد القصب المكسور يقطع أجزاء من جسدي. فكنت مضطرّا للمناورة بينه مرتديا ملابسي التي وصفتها من قبل. لذلك عملت كلّ ما في وسعي

للفرار والالتحاق بالهنود الآخرين الذين تحسّن وضعي بينهم إذ تحوّلت إلى مُتاجِر. كنت أعمل كلّ ما بوسعي لإرضائهم، وكانوا بالمقابل يطعمونني ويحسنون معاملتي. كانوا يحنّونني على التنقّل من مكان إلى آخر لجلب احتياجاتهم. لا سيّما أن حروبهم المتواصلة لم تكن تترك لهم متّسعا من الوقت للسفر والتجارة. كنت أحمل بضاعتي متجوّلا داخل البلاد على سجيّتي قاطعا ما بين أربعين وخمسين فرسخا على طول الساحل. كانت السلع التي أداولها بين العشائر تتكوّن من قطع المحار وصدف البحر الصالح للأكل، ونوع خاص من الأصداف يستخدمونه أداةً لقطع فاكهة شبيهة بالفاصولياء يستعملونها كعلاج وشراب طقوسي في رقصاتهم واحتفالاتهم، وهي ذات قيمة عالية لديهم إلى جانب خرز البحر وأشياء أخرى.

كنت أجوب البلاد بهذه الأشياء، وأجلب مقابلها ما تيسّر لي من جلود الحيوان، ومُغْرة حمراء يدلكون ويصبغون بها وجوههم وشعورهم، وحجر صوان لرؤوس سهامهم، وصمغ وقصب صلب لصنع السهام، وشرابات مصنوعة من شعر الغزال يدبغونها باللون الأحمر.

أحببت هذه المهنة لأنّها مكّنتني من التنقّل بحرّية والتخلّص من كل الأعباء الأخرى. والأهمّ من كلّ ذلك أنها حرّرتني من العبودية. حيثما حللت كان الهنود يعاملونني معاملة طيّبة، ويكرمون وفادتي طمعا في بضاعتي. وكان منتهى أملي أن أواصل على هذا المنوال حتّى أجد لنفسي مخرجا من ذلك الوضع.

ذاع صيتي بين الناس وصاروا يبتهجون لمَقْدَمي، لأنّني كنت أحمل إليهم ما يحتاجونه من بضاعة. وما أن ينتشر خبر وصولي، حتّى يهبّون للقائي. أما أولئك الذين لا يعرفونني فيعملون ما بوسعهم لرؤيتي

أحتاج وقتا طويلا لأروي ما عانيته من تلك المهنة، وما تجرّعته من حرمان ومخاطر، وواجهته من عواصف وصقيع خلال تجوالي وحيدا في تلك البراري الشاسعة. التي لم أنج منها إلّا بلطف من الربّ.

كنت أتوقّف عن مزاولة التجارة خلال فصل الشتاء، الذي يلزم فيه الأهالي مساكنهم عاجزين عن تقديم العون لبعضهم البعض. لقد قضيت ستّة أعوام طوال في تلك البلاد، وحيدا وسط الهنود، عاريا مثلهم. تحدوني في ذلك الرغبة في اصطحاب لوبي دي أوفيدو، المسيحيّ الوحيد الذي ظلّ على الجزيرة. بينما لقي رفيقه ألبانيز، الذي لبث صحبة ألونصو ديل كاستيّو وأندريس دورانتيس، مصرعه بعد مغادرتهما بوقت قصير. ولإنقاذ دي أوفيدو، كنت أذهب إلى تلك الجزيرة كلّ سنة، أستحثّه على الرحيل بحثا عن المسيحيّين. وكان في كلّ مرّة يتردّد مُرْجِئا ميقات الرحيل إلى السّنة الموالية.

وأخيرا تمكّنت من إقناعه. عبرت به خلجانا صغيرة والأنهر الأربعة على الساحل،

لأنه لم يكن يستطيع العوم. هكذا مضينا مصحوبين ببعض الهنود قاصدين خليجا عرضه فرسخ واحد لكنّه عميق من كلّ ناحية. فبدا لنا، من خلال ما شاهدناه، أن يكون هو ذاك المعروف باسم خليج روح القدس(5).

اعترضنا على الساحل المقابل هنود أتوا للقاء رجالنا وأخبرونا بأنه غير بعيد من مقامنا يوجد ثلاثة رجال يشبهوننا وذكروا لنا أسماءهم. وعندما سألناهم عن الباقين منهم، أجابوا بأن الجميع لقي مصرعه بسبب البرد والجوع. ثم أضافوا بأنّ هنودا من نفس قبيلتهم، قتلوا دييغو دورانتيس، وفالديفيزو، ودييغو دي هويلفا، من باب تزجية الوقت، لا لشيء إلّا لأنّهم استبدلوا منزلا بآخر. وأفادوا كذلك بأنّ جيرانهم، حيث يقيم القائد دورانتيس قاموا بقتل إسكيفيل ومنديز بسبب حلم في المنام. سألناهم عن الأحياء منهم، فأشاروا إلينا بأنّهم يعيشون في أسوأ حال، لأنّ الأطفال وبعض الهنود المتقاعسين الأجلاف، كانوا ينهالون عليهم صفعا وضربا ليل نهار.

استطلعنا عن وضع البلاد وما يمكن أن توفّره من قوت. فذكروا أنّ المكان قليل السكّان ولا يوفّر ما يكفي من الغذاء، وأنّ الأهالي هناك يموتون من البرد لافتقارهم لجلود الحيوان وكلّ ما يقيهم شدّة القرّ. وأفادوا أيضا بأنا إذا أردنا لقاء المسيحيّين االثلاثة، فإنّ الهنود الذين يعيشون في كنفهم سيحلّون بعد يومين لجني جوز البِقان(6) في مكان على ضفّة النهر يبعد بحوالي فرسخ واحد.

ولكي يؤكّدوا لنا صحّة قولهم بشأن سوء معاملة رفقائنا، انهالوا علينا ضربا ورفسا. راحوا يقذفوننا بالطمي، ويضعون رؤوس سهامهم على صدورنا كلّ يوم متوعّدينا بالقتل بنفس الطريقة التي أجهزوا بها على رفقائنا. ومن جزع، أسرّ لنا لوبي دي أوفيدو بأنه يودّ المغادرة مع بعض نساء الهنود اللواتي عبرن معنا الخليج وظللن وراءنا. أصررت عليه ألّا يفعل، وبذلت قصارى جهدي لإقناعه بالبقاء دون جدوى. هكذا التحق هو بقبيلة ديغوانيس، فيما بقيت وحدي وسط أهالي قبيلة كيفينيس.

الفصل السابع عشر
كيف جاء الهنود مصحوبين

بأندريس دورانتيس وكاستيّو واستيفانيكو بعد يومين من مغادرة لوبي دي أوفيدو، توافد مُحتَجِزو ألونصو ديل كاستيّو وأندريس دوانتيس* على حقل جَوْز يقتاتون منه حصريا لمدة شهرين في السنة، مع بعض البذور التي يجرشونها بعد تحصيلها مرّة كلّ عامين. أشجار الجوز هناك وافرة وكبيرة، حبّاتها بحجم حبّات جوز غاليسيا(7).

أشعرني أحد الهنود بأنّ المسيحيّين وصلوا إلى المكان المذكور، وللقائهم ينبغي عليّ الانتظار في غابة صغيرة مجاورة. وأضاف بأنه سيزور أولئك الهنود صحبة بعض أقاربه، ويأخذني معهم إلى المسيحيّين. وثِقْت فيهم لأنهم كانوا يتحدّثون لغة مختلفة عن تلك التي يتكلّم بها الهنود الذين كنت أقيم معهم. عملت بما أشاروا عليّ. وفي اليوم التالي، وجدوني في الموضع المحدّد، فاصطحبوني معهم.

ولما اقتربت من مساكنهم، ظهر لنا أندريس دورانتيس* مستطلعا، لأن الهنود كانوا قد أخبروه بقدوم مسيحيّين. وعندما لمحني أصيب بالجزع، لأنّه قبل بضعة أيام كان يحسبني في عداد الموتى، حسبما أخبره الهنود. فشكرنا الرب الذي قيّض لنا أن نلتقي من جديد. فكان ذلك من أسعد أيّامنا. يمّمنا نحو مكان كاستيّو. فسألونا عن وجهتنا. فأخبرتهم بأننا نرغب في الوصول إلى أرض المسيحيّين، وأنّني ما سلكت هذه الطريق إلّا لبلوغ تلك الغاية. أخبرني أندريس دورانتيس أنه منذ أيام وهو يستحثّ كاستيّو وإستيفانيكو للمغادرة. لكنّهما امتنعا عن المجازفة، لأنّهما كانا غير قادرين على السباحة خوفا من مخاطر عبور الأنهار والخلجان الكثيرة في تلك البلاد.

ولمّا شاءت الإرادة الإلهية نجاتي من كلّ الآلام والأوجاع وجعلتني أنعم بصحبتهم، قرّروا الهروب معي ما دمت أستطيع أن أعبر بهم بأمان جميع الأنهار والخلجان التي قد تعترض سبيلنا. هذا وقد ألحّوا عليّ بالتكتّم على ما استقرّ عليه رأينا، وحذّروني من مغبّة إفشاء سرّ خطّتنا للهنود، وإلّا سيكون مصيرنا القتل. وتلافيا لذلك المآل لبثت بين الهنود ستّة أشهر، بحيث سيكون عليهم الانتقال بعدها إلى منطقة أخرى لجني ثمار التين الشوكي. وهي فاكهة بحجم البيض، طيّبة الطعم، سوداء وحمراء اللون يقتاتون منها ثلاثة أشهر في السنة. وفي موسم الجني يلحق بهم هنود آخرون من مناطق بعيدة. يحملون معهم سهاما للمقايضة. وقد خمّنا بأنه حين يغادرون، يمكن لنا مصاحبتهم والهروب برفقتهم.

بهذه النيّة، لبثت هناك. وقد قدّموني عبدا لرجل هنديّ من قبيلة تدعى مريامي، كان دورانتيس يعيش في كنفه. كان أخوَلًا هو وزوجته وابنه ومرافقه. فيما التحق كاستيّو بقبيلة تدعى إغواسيس.

خلال الفترة التي قضيتها معهم أخبروني بما حدث لهم بعد مغادرة جزيرة النحس.

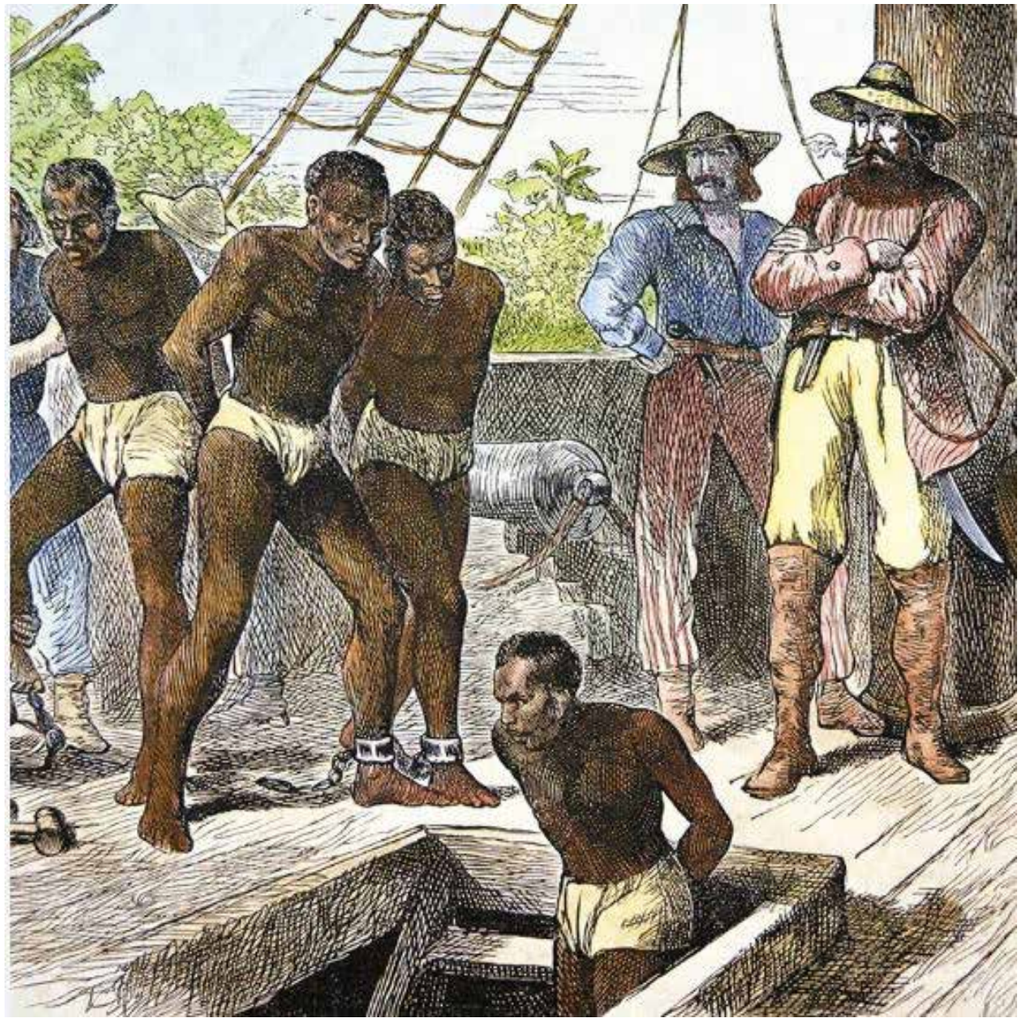

عثروا في الساحل على قارب المحاسب (الونصو إنريكيز) والرهبان الذين جرفهم التيّار. وبعبورهم أربعة أنهار واسعة وجارفة غرق أربعة منهم في عرض البحر. واصلوا الإبحار إلى أن اجتازوا خليجا بشقّ الأنفس. وبعد خمسة عشر فرسخا اعترضهم خليج آخر مات عنده اثنان منهم بعد ستّين فرسخ من الترحال. أما الذين قيّضت لهم النجاة، فكانوا على حافة الموت. لأنّهم لم يتناولوا طوال رحلتهم إلّا نزرا قليلا من سلطعون البحر وبعض الأعشاب البحرية(8).

عندما بلغوا خليجا صغيرا، وجدوا عنده هنودا يقتاتون من توت العلّيق الأسود. ما أن لمحهم الهنود حتّى انتقلوا إلى الجهة الأخرى من الخليج. ولمّا عزم المسيحيّون على العبور، وفد إليهم أحد الهنود سباحة مصحوبا بأحد المسيحيّين. فكان هو فيغويروا، أحد الأربعة الذين كنت قد أرسلت من جزيرة النحس.

حدثّهم فيغويروا عن كيفية وصوله مع رفقائه إلى ذلك الموضع، وكيف مات اثنان من المسيحيّين وأحد الهنود من شدّة البرد والجوع. لأنّه منذ وصولهم إلى المكان وطيلة الفترة التي قضاها هناك، كان الطقس في أسوأ أحواله. ذكر أيضا بأنّ الهنود أخذوه هو ومنديز. إلّا أنّ هذا الأخير

هرب باتجاه بانوكو. لكنّ الهنود لحقوا به وفتكوا به. من جهته، علم فيغويروا إبّان فترة مقامه بينهم، بأن مسيحيّا يقيم مع شعب ميريامي جاء من الجهة الأخرى وقد عثر عليه مع شعب كيفينيس. كان هذا المسيحيّ هو هرناندو دي إسكيفيل، من بلدة باداخوز، الذي التحق بالأسطول رفقة المندوب (سواريز). علم فيغويروا من إسكيفيل ما انتهى إليه مصير الحاكم (نارفايز)، والمحاسب (انريكيز)، ومن كان معهما من الرجال.

أخبره بأن قارب المحاسب والرهبان علق بين الأنهار. ولمّا كانوا يمرّون بجانب الساحل، رسى قارب الحاكم ورجاله على اليابسة. ثم قاد الحاكم قاربه حتّى بلغ خليجا واسعا. وعاد لنقل رجاله إلى الجهة الأخرى. وللمرّة الثانية عاد لحمل المحاسب والرهبان ومن بقي معهم. وحالما نزلوا اليابسة، سحب الحاكم نارفايز صفة نائب الحاكم عن المحاسب ومنحها للمدعو بانتوخا الذي كان قد جلبه معه.

لم ينزل الحاكم إلى البرّ ذلك المساء. بل ظلّ في مركبه صحبة ربّان وخادم مريض. لم يكن يتوفّر على ماء أو طعام. وعند منتصف الليل، هبّت ريح عاتية. ولمّا لم تكن لقارب الحاكم مرساة سوى صخرة، فإنّ الريح جرفته إلى عرض البحر في غفلة من الجميع ومن حينها لم يُسْمَعْ له ذكر.

أما الذين ظلّوا على اليابسة فقد يمّموا جهة الساحل. وبسبب قوّة التيّار لم يستطيعوا صنع طوّافات إلّا بشقّ الأنفس، تمكّنوا بوساطتها من العبور إلى الضفّة الأخرى.

واصل الرجال المسير فبلغوا غابة وجدوا عندها هنودا ما أن لمحوهم حتى حملوا خيامهم على متن زوارقهم وغادروا إلى الضفّة الأخرى من الساحل. أما المسيحيّون، وبسبب من قسوة الموسم وبرودة طقس شهر نوفمبر، فقد قرّروا البقاء في الغابة حيث وجدوا ماء وحطبا وسلطعونا وبعض فواكه البحر. لكنهم سرعان ما استسلموا للموت من شدّة القرّ والجوع.

أخذ بانتوخا، نائب الحاكم، يعامل الرجال بقسوة. لكن سوطومايور، أخ فاسكو بوركالي من جزيرة كوبا، الذي كان قد التحق بالأسطول كقائد ميداني، لم يتحمّل فظاظة بانتوخا، فتشاجر معه، وبضربة عصا أودى بحياته.

هكذا هلكوا تباعا. وصار اللاحقون يقتطعون شرائح من لحم الموتى. وكان آخر الباقين منهم هو سوطومايور نفسه الذي اقتات إسكيفيل من جثّته حتى شهر مارس حين جاء أحد الهنود الذين فرّوا من قبل لمعرفة إن كانوا ما يزالون على قيد الحياة. فاصطحب معه إسكيفيل. ولمّا كان فيغويروا محتجزا هو الآخر لدى نفس الرجل الهندي، فقد تحدّث إلى إسكيفيل وتلقّى منه كلّ الأنباء التي قمت بروايتها الآن. وقد حاول إقناعه بالذهاب معاً باتجاه بانوكو. فرفض إسكيفيل قائلا إنّه علم من الرهبان بأن بانوكو توجد خلفهم، بالاتجاه المعاكس. لذلك قرّر البقاء، فيما عاد فيغويروا إلى الساحل الذي كان فيه من قبل.

الفصل الثامن عشر
ما رواه إسكيفيل

قدّم فيغويروا هذه روايته تلك حسب شهادة إسكيفيل التي وصلتني تفاصيلها عبر سلسلة من الرواة. من خلالها تمكّنت من معرفة مآل الأسطول وما عرض لكلّ فرد من طاقمه.

أفاد فيغويروا أيضا أنّه لو تقدّم المسيحيّون في أنحاء تلك البلاد قليلا لتمكّنوا من لقاء إسكيفيل، لأن فيغويروا كان مدركا بأنّه فرّ من الهنود الذين كان يقيم بينهم والتحق بجيرانهم من قبيلة مريميس. وكما سلف الذكر، لقد حاول فيغويروا رفقة الراهب الأستوري الذهاب إلى هنود آخرين في مكان أبعد. لكن، عندما اكتشف الهنود خطّتهما، انهالوا عليهما بالضرب المبرح، ونزعوا لباس رفيقه الأستوري واخترموا ذراعه بسهم.

في الأخير، فرّ المسيحيّون وأقاموا مع هنود قبيلة مريميس الذين اتخذوهم عبيدا. ورغم ما أبدوه من تفان في خدمتهم، فإنّهم تجرّعوا من التنكيل وسوء المعاملة ما لم يتجرّعه عبد من قبل، حيث دأب الهنود على ضربهم وجلدهم وجذب لحاهم تزجية للوقت، كما قاموا بقتل الرجال الثلاثة: دييغو دورانتيس وفالديفييزو وديغو دي هويلفا، لا لشيء إلّا لأنّهم بدّلوا مسكنا بآخر، كما ذكرت من قبل. فيما ظلّ الثلاثة الآخرون ينتظرون نفس مصير رفقائهم.

ضاق أندريس دورانتيس* ذرعا بتلك المعيشة الضنكى فلاذ بأهالي قبيلة مرياميس، مُقام إسكيفيل، الذين أخبروه عن محاولة هذا الأخير الهرب بسبب امرأة رأت في المنام أنّه يقتل ابنها. لكنّ الهنود قاموا بملاحقته وفتكوا به. وكدليل على ذلك، عرضوا أمام أندريس دورانتيس سيفه ومسبحته وكتاب صلاته وأشياء أخرى من ممتلكاته. لقد كان من عادة أولائك الهنود قتْل أبنائهم بسبب الأحلام، والتخلّي عن بناتهم فريسة للكلاب بدعوى أنّ جميع جيرانهم يناصبونهم العداء. وأنهم يعيشون في حرب دائمة مع

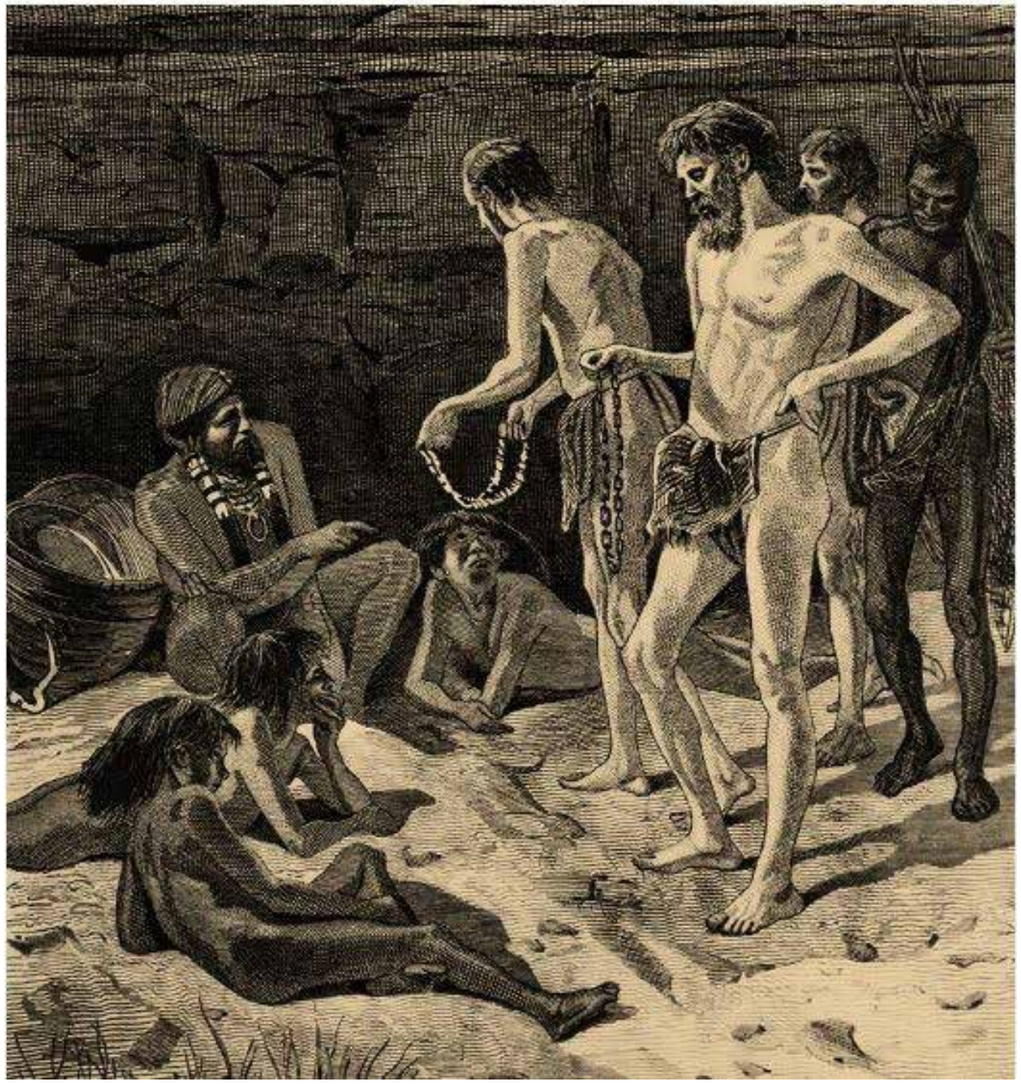

أعدائهم. ولو قيّض لهم أن يسلّموا بناتهم للزواج، فإنّ عدوّهم سيصير أكثر نفرا وأقدر على التغلّب عليهم واسترقاقهم. لذا كانوا يفضّلون قتل بناتهم على تركهنّ ينجبن من أرحامهنّ أطفالا منذورين ليكونوا أعداء لهم.

سألناهم لماذا لا يزوّجون بناتهم من أبناء القبيلة. فقالوا إنّه من المشين، في عرفهم، تزويجهنّ لأقاربهنّ. وأنهم يفضّلون قتلهنّ على تسليمهنّ لأقاربهنّ أو أعدائهنّ على حدّ سواء. وهم يشتركون في هذه العادة فقط مع جيرانهم من قبيلة إغواسيس دون القبائل الأخرى. وحين يرغبون في الزواج فإنّهم يشترون زوجاتهم من أعدائهم. ويكون مهر المرأة سهما أو سهمين في أحسن الأحوال. ومن لم يتوفّر على سهم، يقدّم بدلا عنه شبكة صيد بطول قامة. هكذا فهم يقتلون أبناءهم ويشترون أبناء الغير. أمّا رباط الزواج عندهم فلا يدوم إلّا عن تراض، وقد يتمّ فضّه لأتفه الأسباب.

قضى دورانتيس* أيّاما معدودة بين أولئك الهنود. ثم سرعان ما ضجّ منهم ولاذ بالفرار. أما كاستيّو وإستيفانيكو* فتوغّلا بالداخل لدى قبيلة إغواسيس التي يعتبر

رجالها من أمهر رماة السهام. أجسامهم قويّة البنية رغم أن قاماتهم أقصر من الهنود سابقي الذكر الذين يجعلون خرما في حلماتهم وشفاههم.

يتألّف غذاؤهم من ثلاثة أنواع من جذور النباتات يجوبون لأجلها أرجاء البلاد. وهي جذور مُؤْذية تملأ بالغاز بطن من يتناولها. تحتاج يومين لشيّها. أغلبها مرّ. لكن، بسبب الجوع لا يستطيعون البقاء بدونها. يقطعون لجمعها فرسخين مشيا على الأقدام. تارة يقتلون الغزلان، وآونة يصطادون السمك. ومن فرط الجوع يقتاتون من العناكب وبيض النمل والدود والسحالي، والسمندر(9)، والثعابين، والأفاعي الفتّاكة. كما يأكلون التراب والخشب، وكلّ ما تطاله أيديهم، بما في ذلك روث الغزلان وأشياء لا داعي لذكرها. وإنّني لموقن، من خلال ما شاهدته عَياناً، بأنّهم لو وجدوا صخرا هناك لأكلوه. فضلا عن أنّهم يحتفظون بعظام السمك والثعابين وغيرها من الحيوانات لطحنها لاحقا وتناولها مسحوقا.

لا يحمل رجال تلك القبيلة أثقالا ولا يقومون بالأعباء الشاقة. فتلك، في عرفهم، من وظائف النساء والعجزة الذين لا يولونهم اهتماما. كما أنّهم لا يعطفون على أبنائهم مثل عطف أولئك الهنود الذين تحدّثت عنهم من قبل. ناهيك عن أنّ لبعضهم ميولات مخالفة للطّبيعة. أمّا نساؤهم فيكدحن كثيرا. لا يسترحن إلّا ستّ ساعات في اليوم. يسهرن الليل أمام أفران يجفّفن فيها جذور النباتات التي يتّخذنها طعاما. ومع طلوع الفجر يبدأن في الحفر وجمع الحطب وجلب الماء، وإنجاز شتّى الأشغال الضرورية.

بالجملة، أولئك الهنود متسامحون. لكن بعضهم لصوص، ما أن يدير أحدهم ظهره حتّى يسطو ابنه أو أبوه على ممتلكاته. فهم كذّابون مدمنون على السكر. يستعملون لذلك شرابا يستخلصونه من بعض النبات. لا يكلّون من العدْو. تراهم يركضون طوال يومهم وراء الغزلان ممعنين في قتلها. يصرّون على مطاردتها حتّى تخور قواها وأحيانا يقبضون عليها حيّة.

أما مساكنهم فمصنوعة من خيش غليظ يضعونه على أربعة أقواس، يحملونه على ظهورهم عند ترحالهم كلّ يومين أو ثلاثة أيام بحثا عن الطعام. وهم لا يزرعون شيئا ذانفع.

مع ذلك، فهم شعب مرح، لا يتوقّفون عن الاحتفال حتى في فترات الجوع. تكون أفضل فترات حياتهم حين تنضج ثمار التين الشوكي، فيقضون أيّاما وليالي في الرقص والأكل. ولمّا يتوافر لديهم التين الشوكي، يقومون بعصره وفتحه وتجفيفه. ثم يضعونه في سلال مثل التين، ليكون قوتهم في ترحالهم. أما القشور فيطحنونها ويجعلون منها مسحوقا.

كنّا نقضي بصحبتهم ثلاثة أو أربعة أيّام دون قوت. ولطمأنتنا كانوا يحنّوننا على الصبر على أمل أن نحظى بحصّة من التين الشوكي نأكل منه ونشرب من عصيره حدّ الشّبع. لكن بدءً من اليوم الذي يعِدوننا بذلك حتّى موسم نضوج التين الشوكي كانت أمامنا خمسة أو ستة أشهر من الانتظار والجوع.

ولمّا حان أوان قطاف التين الشوكي، وجدنا أمامنا جحافل من الناموس تعجّ تلك البلاد بثلاثة أنواع منها. وهي شرسة ومزعجة نغّصت علينا فصل الصيف. لكي نقي أنفسنا من لسعاتها المؤذية، أضرمنا حول مخيّمنا نارا كبيرة من خشب فاسد مبتلّ يبثّ دخانا كثيفا دون أن يحترق. وقد كانت هذه الطريقة الدفاعية مصدر ألم جديد لنا، بحيث صرنا نقضّي الليل كلّه بعيون دامعة من فرط الدخان، ناهيك عن الحرارة المفرطة المنبعثة من النيران التي كانت تضطرّنا إلى مغادرة المكان والتماس بعض الراحة على ساحل البحر. وكنّا كلّما نعمنا بقسط من النوم، قام الهنود بِلَكْزِنا كي ننهض لإضرام النار من جديد.

يستعمل هنود الداخل طريقة أسوأ للتخلّص من الناموس. تتمثّل في حمل مشاعل وإضرام النار في السهول والغابات المجاورة لطرد الحشرات وإخراج السحالي وغيرها من تحت الأرض للاقتيات منها. نفس الطريقة يستعملونها لقتل الغزلان إذ يطوّقونها بالنار التي يستعملونها لحرمان الحيوانات من العشب وإكراهها على الذهاب بحثا عن المراعي حسب مشيئتهم. لذلك تجدهم لا يشيّدون مساكنهم إلا حيث يتوافر الخشب والماء. وأحيانا يحملون ما يلزمهم من تلك الأشياء ويجدّون بحثا عن الغزلان التي ترتع في مواضع تخلو من الخشب والماء.

حال وصولهم إلى المكان المقصود، كانوا يشرعون في قتل الغزلان وكلّ ما تطاله أيديهم. ولطهي الطعام يستعملون ما بحوزتم من ماء وخشب. كما يستخدمون النار لحماية أنفسهم من لسعات الناموس. وقد ينتظرون يوما كاملا لصيد طرائد أكثر يحملونها معهم في طريق العودة. وحين يغادرون يكون الناموس قد فتك بأجسامهم التي تبدو كمن أصيب بمرض اليعازر(10). هكذا كانوا لا يشبعون إلّا مرّتين أو ثلاث مرّات في السنة، مؤدّين على ذلك ثمنا باهظا. فمن خلال معايشتي

لهم، يمكنني القول بأنّه لا توجد معاناة أو ألم في العالم يضاهيان معاناة هؤلاء الهنود.

تنتشر في هذه البلاد أنواع كثيرة من الغزلان والطيور وغيرها من صنوف الحيوان التي تحدّثت عنها سابقا. كما ترد على المكان قطعان من البقر(11) شاهدتها في ثلاث مناسبات وطعمت من لحمها. وهي بحجم أبقار إسبانيا. ذات قرون صغيرة كقرون الأبقار الموريسكية (المغربية)*، وشعورها طويلة مثل الخروف المريني(12)، بعضها بنّية اللون وأخرى سوداء. لحمها وافر وأطيب من لحم أبقار إسبانيا. من صغارها يصنع الهنود أردية، ومن الكبيرة يجعلون أحذية ودروعا. تنزح من جهة الشمال وتقطع مسافات طويلة داخل البلاد حتّى سواحل فلوريدا. تنتشر على مدار أربعمائة فرسخ ينزلها الأهالي فيترصّدونها في الوديان التي تمرّ بها. فتشكّل بذلك مصدر قوتهم، كما توفّر لتلك البلاد كمّية كبيرة من الجلود.

الفصل التاسع عشر
كيف قام الهنود بتفريقنا

خلال الشهور الستّة التي قضيتها صحبة المسيحيّين، وضعنا خطّة للهرب متحيّنين الفرصة السانحة لتنفيذها. أثناء تلك الفترة، خرج الهنود لجمع التين الشوكي على بعد مسافة ثلاثين فرسخ. وفي اللحظة التي كنّا فيها على وشك الفرار، نشب شجار عنيف بين الهنود من أجل امرأة. أخذوا ينهالون على بعضهم البعض ضربا وجرحا. وفي حمأة الغضب حمل كلّ واحد منهم خيمته وذهب إلى حال سبيله. هكذا قيّض لنا نحن المسيحيّين أن نفترق، ولم يكن أمامنا من حظّ للاجتماع مجدّدا إلّا في السنة الموالية.

قضيت فترة عصيبة من فرط الجوع وسوء معاملة الهنود إذ بلغ عسفهم بي حدّا لا يطاق حتّى أنّني حاولت الفرار ثلاث مرّات. وكانوا في كلّ مرّة يطاردونني مصمّمين على قتلي. لكنّ الربّ كان أرحم بي إذ نجّاني من بطشهم وأنقذ حياتي.

بحلول موسم جني التين الشوكي، تجدّد لقاؤنا في نفس المكان. اتّفقنا على الهرب وحدّدنا لذلك يوما معلوما. لكن في الميقات الموعود، قام الهنود بتفريقنا وأرسلوا كلّ واحد منّا إلى مكان مختلف. أخبرت رفقائي بأنني سأنتظرهم يوم اكتمال القمر الذي صادف الفاتح من شهر سبتمبر وأوّل الأيّام القمرية. وتوعّدتهم إن لم يأتوا في الموعد المحدّد، سأكون مضطرّا إلى المغادرة من دونهم. وعلى هذا الوعد، ذهب كلّ واحد منّا مع قبيلته.

لبثت مع الهنود حتى الثالث عشر من الشهر، وقرّرت الهروب إلى قبيلة أخرى عند اكتمال القمر. يومها وصل أندريس دورانتيس ثم استيفانيكو* وأخبراني بأنّهما تركا كاستيّو مع قبيلة مجاورة تدعى أناغادوس، وكيف عانوا من عسف الهنود حتى أصابهم اليأس.

في اليوم التالي توجّه الهنود الذين كنّا بصحبتهم نحو محتجزي كاستيّو، بهدف عقد حلف صداقة، لأنّهم كانوا حتّى ذلك الحين في حالة حرب معهم. بهذه الطريقة استطعنا أن نستعيد كاستيّو.

خلال الفترة التي كنّا نقتات فيها على التين الشوكي، كنّا نعاني من العطش. ولنشفي غليلنا، كنّا نشرب عصير التين الشوكي نكتنزه في حفرة حتّى تمتلئ، فنعبّه حدّ الارتواء. نظرا لعدم وجود آنية، كان الهنود يستعملون هذه الطريقة لاستخلاص وشرب عصير مخمّر حلو المذاق.

هناك أنواع كثيرة من التين الشوكي متشابهة المذاق. بعضها طيّب الطعم، مع أن الجوع لم يكن يترك لي مجالا لاختيار الأفضل منها. يشرب الأهالي من ماء المطر الذي يستجمعونه من مواضع متفرّقة. ورغم توافر الأنهار في بلادهم، فهم، من فرط ترحالهم، لا يملكون معرفة بالينابيع أو بمواطن تجمّع المياه.

تتوفّر تلك الأرض على مروج جميلة ذات عشب غزير يصلح مرعى للقطيع. ويخال إليّ أنّها ستكون أرضا خصبة لو عمّرها وتعهّدها بالعناية شعب حصيف. لم نشاهد فيها جبالا طوال فترة إقامتنا بها. لقد أخبرنا أولئك الهنود بأنّه على مقربة من الساحل تعيش قبيلة كامونيس، التي قتلت جميع من كان في قارب بينيالوزا وتيليز. كان الرجال من الضعف والوهن بحيث لم تصدر عنهم أية مقاومة تُذْكَرُ عندما أقدم الهنود على قتلهم وتصفيتهم بالساحل دون عناء. كدليل على ذلك، عرضوا علينا بعض ثيابهم وأسلحتهم، وأخبرونا بأنّ قاربهم لا زال مرابطا هناك. كان القارب الخامس المضاع. وقد ذكرت من قبل بأنّ قارب الحاكم (نارفايز) جرفه التيّار في عرض البحر. بينما قاربا المحاسب والرهبان علقا بالشاطئ كما سبق أن أخبرنا إسكيفيل بمصيرهم. أما بخصوص قاربي وقارب كاستيّو ودورانتيس، فقد ذكرت سلفا كيف غرقا بجزيرة النحس.

الفصل العشرون
كيف تمكّنا من الهروب

بعد يومين من انتقالنا، أسلمنا أمرنا للعناية الإلهية ولذنا بالفرار على أمل أن نقتات مما تبقّى من التين الشوكي

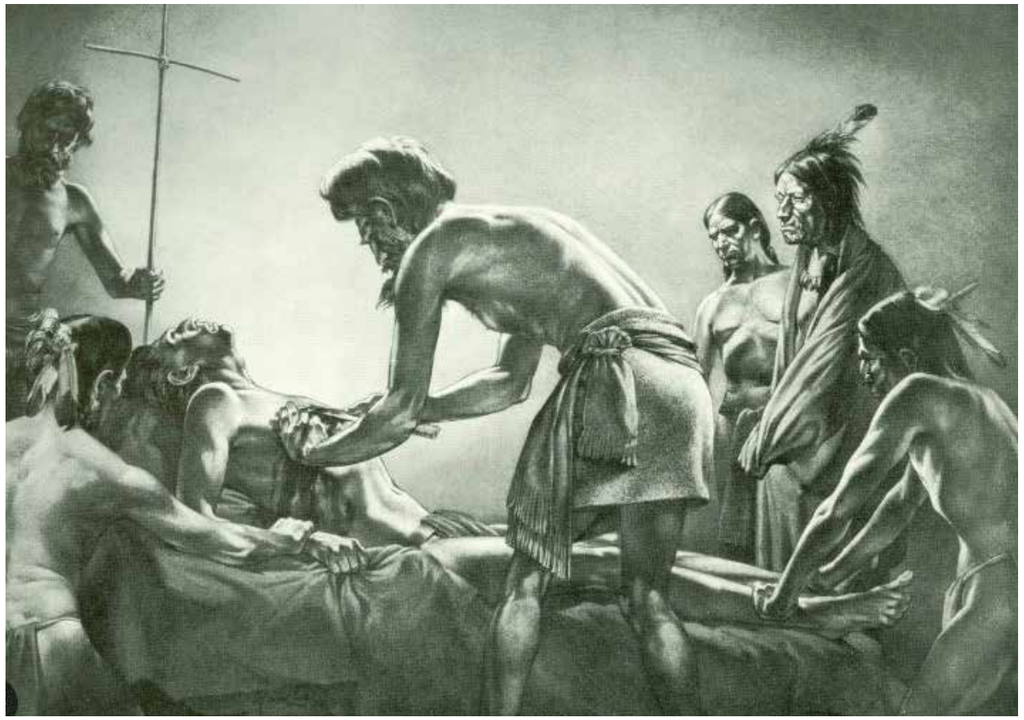

في الحقول، رغم انتهاء الموسم، لسدّ الرمق مسافة كافية من البلاد. ثم انطلقنا متسلّلين مخافة أن يلحق بنا الهنود. رأينا أعمدة دخان فتوجّهنا نحوها. وصلنا هناك بعد الغروب. لمحنا أحد الهنود نتّجه صوبه فقام وأطلق رجله للريح. فأرسلنا الزنجي* وراءه ركضا. ولمّا رآه الهندي يتقدّم نحوه بمفرده توقّف وانتظره. أخبره الزنجي* بأنّنا نبحث عن أهالي القرية التي ينبعث منها الدخان. فأعلمه بأنّ على مقربة من مصدر الدخان توجد منازل سيقودنا إليها فتبعناه. تقدَّمَنا ركْضا ليُشعر قومه بقدومنا. عند الغروب لاحت لنا بعض المنازل. وبعد قطع مسافة طويلة وجدنا في انتظارنا أربعة هنود مرحّبين. أخبرناهم بلغة قبيلة مرياميس أنّنا كنّا نبحث عنهم. فرحّبوا بنا واصطحبونا إلى مساكنهم. أنزلوا دورانتيس والزنجي* في مسكن أحد كهنتهم، وأنزلوني رفقة كاستيّو في منزل آخر.

يتحدّث هؤلاء الهنود ، المعروفون باسم أفافاريس، لغة مختلفة. وهم نفس الهنود الذين كانوا يجلبون الأقواس لمقايضتها مع القبيلة التي كنّا نقيم فيها. ورغم أنّهم من قوم يتحدّث لغة مغايرة، فإنّهم كانوا يفهمون بعضهم البعض. كانوا قد وصلوا بخيامهم في نفس ذلك اليوم.

قدّموا لنا الكثير من ثمار التين الشوكي، لأنهم كانوا قد سمعوا عن سيرتنا وعلاجنا للناس وعن المعجزات التي اجترحها الرب على يدنا. ورغم أنّه لم تظهر إشارات أخرى، فإنّنا نحمده لأنّه عَبَّد لنا سبلا في تلك الأصقاع الموحشة، وقيّض لنا أقواما في مجاهل خالية. نشكره لأنّه آمنّنا من خوف، وأنقذنا من موت، وأطعمنا من جوع، وسخّر لنا من يحسن معاملتنا ويكرم وفادتنا، كما سنأتي على ذكره لاحقا.

الفصل الواحد والعشرون
كيف عالجنا بعض المرضى

ليلة وصولنا هناك، جاء بعض الهنود إلى كاستيّو يشتكون من ألم في الرأس يطلبون علاجهم. وما أن رسم أمامهم علامة الصليب ملتمسا لهم الشفاء من الربّ حتّى أعلن الهنود أنّ الألم قد زال عنهم. فرجعوا إلى مساكنهم ثم جاءوا بكمّيات من التين الشوكي وبشرائح من لحم الغزال لم نتعرّف عليه بداية. انتشر الخبر في نفس الليلة، فتردّد على كاستيّو مزيد من المرضى طلبا للعلاج، حاملين قطعا كثيرة من لحم غزال لم نجد مكانا يتّسع لتخزينها. شكرنا للربّ غامر لطفه. وما أن

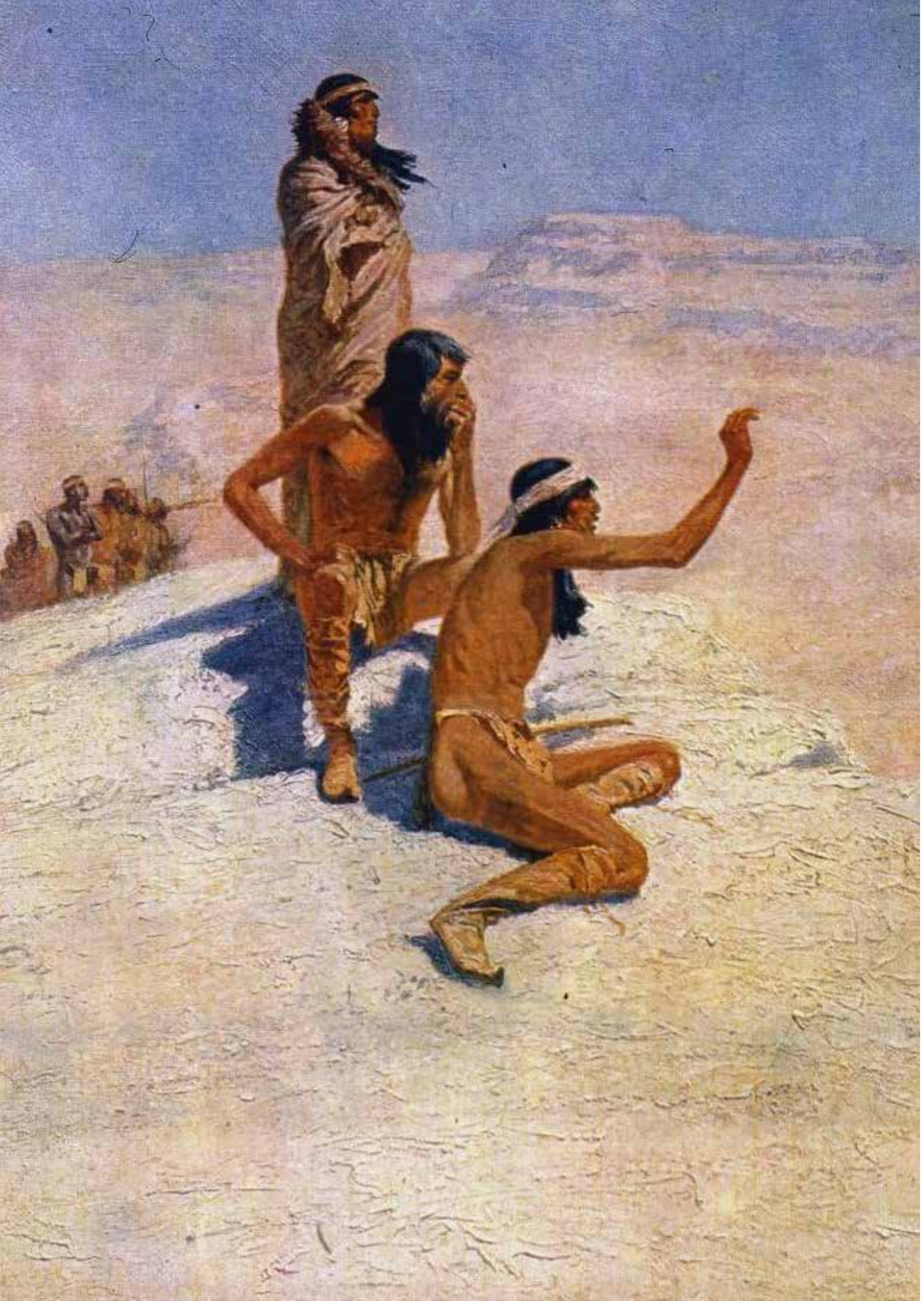

تعافى الجميع حتّى شرعوا في الاحتفال والرقص حتّى الفجر.

احتفل الهنود بمقدمنا ثلاثة أيّام متتالية. وعندما أتمّوا احتفالهم، سألناهم عن البلاد المجاورة والشعوب التي تقطنها ونوع الغذاء الذي يتوافر فيها. فأجابوا بأنّ تلك البلاد غنيّة بالتين الشوكي، وأنّها خالية في تلك الفترة، لأنّ جميع سكّانها رحلوا بعد انتهاء موسم القطاف. فضلا عن أنّها باردة ولا توفّر جلودا تقي من شدّة البرد. لدى سماع ذلك، قرّرنا قضاء فصل الشتاء بصحبتهم.

بعد مرور خمسة أيام من وصولنا، غادروا منازلهم لجلب مزيد من التين الشوكي من قوم آخرين يتحدّثون لغة مغايرة. رافقتهم لخمسة أيّام أخرى عانينا فيها الجوع بحيث لم نلق في طريقنا ثمارا أو تينا شوكيا. بلغنا نهرا نصبنا خيامنا جواره، ثمّ شرعنا في البحث عن ثمار شجرة أشبه بالبازلاء. ولمّا كانت الدروب شائكة، فقد تطلّب مني الحصول على بعض من تلك الثمرة وقتا طويلا. ونظرًا لتخلّفي عن الركْب، فقد غادر أصحابي بدوني. وعندما حلّ الليل، حاولت الالتحاق بهم فضللت الطريق. وبفضل العناية الإلهية عثرت على شجرة أضرمت من أغصانها نارا وقضيت الليلة قربها اتّقاء البرد. وفي الصباح، احتطبت خشبا وعودين سريعي الاشتعال، ثم واصلت رحلتي بحثا عن الهنود.

أمضيت خمسة أيّام حاملًا كومة حطب ونارا مخافة أن تنطفئ الشعلة حيث لا يوجد حطب. كثيرة هي مناطق تلك البلاد التي لا يوجد بها خشب. هكذا صرت متأهّبا في كلّ حين لإضرام النار كوسيلة وحيدة لمقاومة البرد لأنّني كنت عاريًا كيوم ولادتي. في الليل كنت أتدبّر حالي بهذه الطريقة. أتوجّه قبيل غروب الشمس نحو غابة قرب الأنهار. أحفر حفرة أضع فيها حطب أشجار مختلفة. أجمع خشبًا جافًّا أجعل منه أربع كومات متشابكة أوزّعها حول الحفرة وأحرص على تحريكها بين الفينة والأخرى. ثمّ أشكّل حزما من العشب الطويل المتوافر هناك وأتغطّى بها داخل الحفرة اتّقاء برد الليل.

لكن، ذات ليلة سقطت نار على القشّة التي أتغطّى بها خلال منامي داخل الحفرة. فاندلعت بسرعة. ورغم أنّني هرعت من مرقدي بأقصى سرعة، فإنّني لازلت أحتفظ بعلامة في شَعَري من أثر تلك الحادثة الخطيرة. طيلة تلك المدّة لم أتناول طعاما، ولم أجد ما أسدّ به رمقي. فيما كانت قدماي الحافيتان تنزفان دما. لكن، بفضل من الربّ لم تهبّ ريح الشّمال الباردة طوال تلك الفترة، وإلّا لكنت من الهالكين. مساء اليوم الخامس. بلغت ضفّة النهر، وهناك التقيت بالهنود الذين كنت أبحث عنهم. فقد ذهب بهم الظنّ، شأن المسيحيّين، أنّني مُتُّ من عضّة أفعى. ابتهج الجميع لرؤيتي، وخصوصا رفقائي المسيحيّون الذين أخبروني بأن معاناتهم من الجوع دفعتهم إلى الرحيل دون انتظار عودتي. في تلك الليلة تقاسموا معي ما تيسّر لديهم من التين الشوكي. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى مكان تتوافر فيه ثمار الشجرة المذكورة. فأكلنا منها حدّ الشّبع. وحمدنا الربّ على دوام نعمته.

الفصل الثاني والعشرون
كيف جاءنا الهنود بمرضى جدد

صبيحة اليوم التالي جاء عدد من الهنود مصحوبين بخمسة أشخاص مصابين بالشلل. في حالة مزرية. التمسوا من كاستيّو علاجهم. وقدّم له كلّ مريض قوسه وسهمه، فقبل الأعطية. وعند الغروب رسم على كلّ مريض علامة الصليب، متضرّعا إلى الربّ. وبدورنا صلّينا بخشوع راجين لهم الشفاء. وإذ يعلم الربّ أنْ لا وسيلة أمامنا لمساعدة هؤلاء القوم والتخلّص من وضعنا البائس، فقد أسبغ علينا رحمته بحيث نهض جميعهم من النوم أصحّاء معافين وانصرفوا كأنّهم لم يشعروا بألم من قبل. أثار هذا الأمر إعجابهم، فشكرنا للربّ جميل فضله، آملين أن يخلّصنا ويهدينا مكانا نخدمه فيه. أما عنّي، فقد كنت واثقا من رحمته وقدرته على إنقاذي من الأسر. وذاك ما كنت أردّده باستمرار على مسامع رفقائي.

عندما غادر الهنود فرحين بشفاء مرضاهم، انتقلنا إلى قوم آخرين يدعون كوتالشيس ومواليكونيس، يتحدّثون لغة مختلفة ويقتاتون هم أيضا من التين الشوكي. وجدنا معهم قوما يدعون كوايوس وسوسولاس، وقبيلة أطايوس التي كانت في حالة حرب مع سوسولاس، بحيث لم يكن يمرّ يوم دون تبادل رمي السهام.

انتشر خبر المعجزات التي جعلها الربّ على يدنا في جميع أنحاء البلاد. فتوافد علينا هنود من كلّ ناحية. وبعد يومين من مقامهم بيننا، التمس بعض رجال قبيلة سوسولاس من كاستيّو مرافقتهم لمداواة أحد جرحاهم وعلاج بعض مرضاهم. ذكروا أن هناك رجلا على حافة الموت. فاستبدّ التردّد بكاستيّو كعادته خصوصا إزاء الحالات الخطرة المستعصية، خشية أن تحول خطاياه بينه وبين مسعاه في العلاج. وبسبب تردّده طلب منّي الهنود أن أقوم لعلاجهم. كانوا يحبّونني ويتذكّرون

أنّني سبق لي أن عالجت بعضهم عندما خرجوا لجَنْي الجوز فقدّموا لنا لقاء ذلك بعضا من جوز وجلود. حدث ذلك عندما كنت أبحث عن المسيحيين. لذلك لم أجد بدّا من مرافقتهم صحبة دورانتيس واستيفانيكو.

عندما بلغنا منازلهم وجدت الرجل المريض الذي أتينا لعلاجه قد قضى نحبه. كان محاطا بهنود يبكونه. وكانت خيمته مفكّكة علامةً على موت صاحبها. انقلبت عيناه وتوقّف نبض قلبه وبدت عليه سمات الموت فعلا. هذا على الأقلّ ما بدا لي حينها. وقد وافقني دورانتيس على ذلك. أزحت عنه غطاءه ورحت أصلّي راجيا له الشفاء ولكلّ من توافد علينا من الهنود نشدانا للعلاج. وبعدما رسمت عليه علامة الصليب ونفخت عليه من نَفَسي، جلبوا لي قوسه وسلّة من طحين التين الشوكي. ثم أخذوني إلى هنود آخرين كانوا يعانون من حالة خَدَر جماعية. فمنحوني بدورهم سلّتين من التين الشوكي، سلّمتها لرفقائنا الهنود الذين تركناهم وراءنا فيما رجعنا نحن إلى مساكننا.

عاد أولئك الهنود مساءً مبشّرين بأنّ الرجل الميت الذي تعهّدته أمامهم قد بعث حيّاً. نهض من سريره، وتمشّى، وتناول طعامه، وتحدّث إلى أهله. وأضافوا بأنّ جميع الذين قمت بعلاجهم صاروا أصحّاء فرحين. سرت بين القوم موجة إعجاب ودهشة. واستأثر الأمر باهتمام الناس، فتقاطر علينا كلّ من سمع بصنيعنا ملتمسين علاجهم ومباركة أبنائهم. وعندما همّ رجال قبيلة كوطالشيس الذين كانوا في ضيافة هنودنا (أفافاريس) بالمغادرة، تركوا لنا كلّ ما لديهم من تين شوكي. لم يحتفظوا لرحلتهم ولو بتينة واحدة. كما منحونا حجرا صوانا ذا قيمة عالية لديهم، بحجم كفّ ونصف، يستعملونه لقطع الأشياء.

التمسوا منّا أن نتذكّرهم وأن نصلّي للرّب لينعم عليهم بدوام العافية. واعدناهم بذلك فغادروا فرحين متخلّين لنا عن أثمن ملبوحتهم.

وفقا للحساب القمري، قضينا ثمانية أشهر صحبة قبيلة أفافاريس تردّد علينا خلالها أقوام من كل حدب وصوب مصرّين على أنّنا أبناء الشمس*(13). حتّى ذلك الحين لم يقم دورانتيس والزنجي بعلاج أحد من الهنود. لكن من فرط توافدهم علينا، وجدنا أنفسنا مضطرّين إلى القيام جميعا بدور الأطبّاء الروحيّين. كنت الأكثر جرأة وجسارة في مزاولة المهمّة. وقد تماثل كلّ الذين خضعوا لعلاجنا للشفاء وأظهروا ثقتهم في كفاءتنا حتّى أنّهم كانوا يعتقدون بأن لا أحد منهم سيموت طالما نحن نقيم بينهم.

روى لنا أولئك الهنود وغيرهم ممّن تركنا وراءنا حكاية غريبة وقعت منذ خمسة عشرة أو ستة عشرة سنة. ذكروا أنّه في ذلك الزمان كان هناك رجل يجول في البلاد يسمّونه «الشيء الشرّير». كان قصيرا ملتحيا. ورغم أنّه كان يتعذّر عليهم رؤية ملامح وجهه بوضوح، كان كلّما اقترب من منازلهم وقف شعر رؤوسهم وأخذوا يرتجفون من الخوف. ثم تتجلّى لهم كتلة من لهب على باب مساكنهم. فيدخل الرجل الشرّير وينقضّ على أحدهم. وبخنجر حادّ مصنوع من حجر صوان، بطول كفّين وبعرض راحة اليد، يحدث جرحا بليغا عند خاصرة ضحيّته. يدسّ يده في جرحه الغائر منتشلا أحشاءه. يجتزّ منها قطعة بحجم الكفّ ويرمي بها في النار. ثم يحدث ثلاثة جروح على مستوى الذراع والمرفق، فيضع يده على الجروح فتلتئم دفعة واحدة. وفي غالب الأحيان، كان يظهر بينهم عندما يكونون في حمأة الرقص. تارة في شكل امرأة، وطورًا في هيئة رجل. وإن شاء كان يرفع أحد المساكن في الهواء، ويهوي به أرضا محدثا ضجّة مدوّية. وذكروا أيضا أنّه لم يقرب طعامهم قطّ. وكان كلّما سألوه عن موطنه، أشار إلى فجوة مومئا بأن مسكنه في باطن الأرض.

في البداية، سخرنا من تلك القصص. ولما استشعروا استخفافنا بروايتهم استقدموا لنا عددا من ضحايا الرجل الشرّير. وقد شاهدنا بأنفسنا الندوب الموصوفة التي أحدثها في مواضع معيّنة من أجسادهم. فأخبرناهم من جهتنا بأنّ الرجل الشرّير لا يعدو أن يكون شيطانا. وطفقنا نشرح لهم قدر المستطاع أنّهم إذا آمنوا بالربّ، وصاروا مسيحيّين مثلنا، لن يصيبهم منه أذى منذ ذلك اليوم، ولن يرجع ليفعل بهم ما درج عليه من قبل. وأنّ عليهم أن يعلموا أنّنا ما دمنا برفقتهم في تلك البلاد، فإنّه لن يجرؤ على الظهور مرّة ثانية. تلقّوا كلامنا بابتهاج وانزاح عنهم خوف كبير.

أخبرنا نفس الهنود بأنّهم شاهدوا (الراهب) الأستوري وفيغويروا على الساحل صحبة هنود آخرين أطلقنا عليهم اسم شعب التين. لم يكن من بينهم من يعرف عدّ الفصول وفق الحساب الشمسي أو القمري. كما أنّهم لم يكونوا يحسبون بالشهور والسنين. وإنّما يقيسون الفصول، بدقّة عالية، بمواسم نضوج الثمار وموت السمك ومواقيت ظهور النجوم. تلقّينا منهم معاملة حسنة طوال مدّة مقامنا بينهم، رغم أنّنا عانينا باستمرار من نقص شديد في الغذاء وكنّا مرغمين على حمل مائنا وحطبنا.

مساكنهم وغذاؤهم أشبه بما عهدناه عند غيرهم من الهنود الذين عرفناهم من قبل. بيد أنّهم كانوا يعانون من الجوع لافتقارهم إلى الذرة وشجر الجوز والبلّوط. في النهار كنّا نمشي عراة مثلهم وفي الليل نلتحف جلود الغزلان.

عانينا برفقتهم من الجوع طيلة ستّة أشهر، لأنهم لم يكونوا يتوفّرون على السمك. وفي نهاية الشهور الثمانية التي قضيناها بين ظهرانيهم بدأ التين الشوكي في النضوج تدريجيا. وعلى غفلة منهم تسلّلنا أنا والزنجي*، وانضممنا إلى هنود مالياكونيس الذين يقطنون على بعد مسافة يوم واحد. وبعد ثلاثة أيّام من وصولنا، أرسلته في أثر كاستيّو ودورانتيس. وعند وصولهم غادرنا جميعا برفقة الهنود الذين ذهبوا لقطاف ثمار نوع من الشجر يسدّون به الرمق مدة عشرة أو اثنتي عشر يوما حتّى تنضج ثمار التين الشوكي تماما. هناك انضموّا إلى قبيلة أرباداوس، الذين كانوا يعانون من مرض أصابهم بالهزال والتورّم. عاد الهنود الذين جئنا معهم من نفس طريقنا. وقبل ذلك أخبرناهم برغبتنا في البقاء، فحزنوا لسماع ذلك. هكذا لبثنا مع الهنود الجدد في حقل قريب من مساكنهم.

أخذ الهنود يتفحّصوننا ويتشاورون فيما بينهم. ثم اقتاد أربعة رجال منهم كلّ واحد منّا إلى مسكنه. وخلال مقامنا بينهم، عانينا الجوع أكثر من أيّ وقت مضى. فما كان قوت يومنا سوى حفنتين من ثمرة خضراء غنيّة بعصير حليبي يحرق فم شاربه. ولمّا كان الماء نادرا، فإنّ كلّ من يتناول من هذه الثمرة يصاب بعطش شديد. ومن فرط الجوع اشترينا كلبين قدّمنا مقابلهما شباك صيد وغطاءً جلديّا كنت ألتحف به، وأشياء أخرى ممّا كان بحوزتنا.

ذكرت من قبل أنّنا كنّا نسير عراة في تلك البلاد. ولكوننا لم نكن معتادين على ذلك، فقد كنّا نبدّل جلودنا كالأفاعي مرّتين في السنة. وكان تعرّضنا للشمس والهواء يصيب صدورنا وظهورنا بقروح تجعل كلّ حمل ثقيل مصدر ألمٍ لنا، حتّى أنّ الحبال التي نشدّ بها أحمالنا كانت تقطع أذرعنا.

كانت البلاد صلدة تعلوها الأعشاب البرّية. وكنّا كلّما جمعنا خشبا للتدفئة وقمنا بسحبه خارج الغابة، دَمِيَتْ أجسادنا بسبب الأشواك والحسك التي تجرح كل موضع نلمسه. وقد حدث أحيانا أن صرت أعجز عن حمل أو جرّ ما احتطبته من خشب. فنزف منّي دم كثير. أمام ذلك الموقف لم أجد عزاء أو ملاذا سوى التفكير في آلام المخلّص يسوع المسيح وفي الدم الذي نزفه لأجلي، وكم كانت الآلام التي عاناها من الأشواك أكبر وأقسى من تلك التي عانيتهاهناك.

قطعت عهدا مع الهنود، أن أصنع لهم أمشاطا وسهاما وأقواسا وشباك صيد. كما صنعنا لهم الحصر التي تُبنى بها خيامهم التي كانوا في أمسّ الحاجة إليها. فرغم درايتهم بكيفية صنعها كانوا يمتنعون عن القيام بأيّ عمل يشغلهم عن البحث عن الغذاء. لأنّهم كلّما انشغلوا بعمل وجدوا أنفسهم عرضة للجوع.

في أوقات أخرى، كانوا يجعلونني أشتغل في دباغة الجلود، وكان يوم السعد حين يطلبون منّي القيام بذلك لأنّني كنت أصقل الجلود بدقّة حتّى أقتات من الفتات الذي أستخلصه من عمل يومين أو ثلاثة. وكان إذا حدث أن منحنا أولئك الهنود أو غيرهم ممّن أتيت على ذكرهم قطعة لحم فإنّنا كنّا نأكلها نيّئة، لأنّه لو قمنا بشيّها لانتزعها منّا أحدهم والتهمها بمفرده. لذا، كان من غير المجدي أن نجشّم أنفسنا عناء شيّها ونعرّض أنفسنا للخطر طالما كان بمستطاعنا تناولها نيّئة.

تلك كانت طريقة عيشنا هناك. وكنّا مضطرّين إلى انتزاع النَّزْر القليل من الطعام لنقيم به أَوَدَنا مقابل ما نصنعه بأيدينا من أشياء.

الفصل الثالث والعشرون
كيف غادرنا بعد أكل لحم الكلاب

بعد تناولنا لحم الكلاب(14)، التمسنا في أنفسنا القدرة على مواصلة المسير. أسلمنا أنفسنا لمشيئة الله، وغادرنا الهنود الذين أرشدونا إلى طريق يفضي إلى أرض قبيلة مجاورة تتكلّم نفس لغتهم.

أرْسَلَت السماء، فقضينا اليوم كلّه مشيا تحت المطر، فضللنا الطريق ووجدنا أنفسنا في غابة كبيرة. جمعنا الكثير من أوراق التين الشوكي وقمنا بشيّها طوال الليلة على أفران صنعناها بأنفسنا. وعند الصباح تناولناها جاهزة، ثم انطلقنا، بهدي من الربّ، بعد عثورنا على الطريق التي أضعناها من قبل. خرجنا من الغابة، فلاحت لنا منازل هنود. ومن بعيد لمحنا امرأتين وأطفالا لاذوا بالفرار جَزَعاً من رؤيتنا. وتوغّلوا داخل الغابة لإشعار الرجال الذين ظلّوا يرصدوننا من خلف الأشجار. دعوناهم فاقتربوا وقد بدت عليهم سَوْرَة الخوف. وبعد مخاطبتهم، أعلمونا بأنّهم يعانون من الجوع، وأنّ مساكنهم قريبة، وأنّهم سيصطحبوننا إليها. في المساء، بلغنا

موضعا به خمسون مسكنا. استقبلنا أصحابه باندهاش وخوف كبيرين. ولمّا اطمأنّوا لنا، راحوا يتحسّسون وجوهنا وأجسادنا ثم وجوههم وأجسادهم أيضا. بتنا الليلة هناك. وفي الصباح جلبوا بعض مرضاهم والتمسوا منّا مباركتهم. ثم تقاسموا معنا طعامهم الذي كان يتكوّن من أوراق التين الشوكي وبعض ثمراته الخضراء المشويّة.

ونظرا لما بدر منهم من حسن معاملة وكرم وإيثار، فإنّنا قضينا برفقتهم بضعة أيّام تقاطر علينا خلالها هنود كُثُرٌ أتوا من بعيد. ولمّا همّ هؤلاء بالمغادرة أخبرنا مضيفينا برغبتنا في مرافقتهم. فأحزنهم ذلك كثيرا وأصرّوا علينا متوسّلين بقاءنا. وفي الأخير تركناهم وراءنا تفيض أعينهم من الدمع حزنا على فراقنا.

الفصل الرابع والعشرون
عن عادات هنود تلك البلاد

في المنطقة الممتدّة من جزيرة النحس إلى حدود تلك البلاد، كان من عادة(1) قبائل الهنود أن يعتزلوا نساءهم عند وقوع الحمل إلى أن يبلغ الطفل عامين. ويتمّون الرضاع إلى الثانية عشرة من العمر حتّى يصبح الأطفال قادرين على تحصيل طعامهم بأنفسهم. سألناهم عن سبب تربية أبنائهم بتلك الطريقة(2). فأجابوا بأن ذلك يرجع إلى ندرة الطعام، ولاضطرارهم، كما شاهدنا ذلك، إلى الانتقال من مكان إلى آخر دون غذاء لأيّام متتالية. لذلك فهم يرضعون أطفالهم طوال تلك المدّة حتّى لا يموتوا من القحط. وإن قيّض لهم العيش، فإنّهم يكونون في حالة من الوهن والضعف. وإذا مرض أحدهم، ما لم يكن له أبوان، فإنّه يترك في البريّة إلى أن يلقى حتفه. أمّا من بهم عاهة تعيقهم عن السفر، فإنّ مصيرهم يكون النبذ، اللّهم من كان له أهل يتكفّلون بحمله.

من الدارج في أحوال الأزواج عندهم أن يهجروا زوجاتهم عند نشوب خلاف، ويختاروا لأنفسهم زوجات أخرى. يحدث هذا خاصّة في صفوف الشباب. أما عندما يرزقون أطفالا، فإنهم يظلّون مع زوجاتهم لا يفارقوهنّ أبدا.

وفي حين يحدث خلاف بين الرجال، فإنّهم ينهالون على بعضهم البعض ضربا بالعصيّ ولا يتوقّفون عن العراك حتّى تخور قواهم تماما. وقد تتدخّل النساء لتفريقهم، بينما لا يتدخّل رجال القبيلة لفضّ النزاع. مع ذلك، فهم لا يلجأون إلى أقواسهم وسهامهم. وحين تهدأ ثائرتهم، يحمل كلّ طرف خيمته وأسرته خارج القبيلة. ولمّا يسكت عنهم الغضب، يعود المتخاصمان إلى قريتهما دون وساطة من أحد، ويصبحون أصدقاء كأنّ شيئا لم يكن.

وإذا كان طرفا النزاع من غير المتزوّجين، فإنّهما يستشيران جيرانهما. حتّى لو كانوا من قبيلة معادية. فيستقبلونهما بحفاوة ويغدقون عليهما الهدايا، حتّى إذا عاد الوئام بينهما رجعا إلى أهلهما أغنياء.

أولئك الهنود محاربون أشدّاء، حاذقون في الدفاع عن أنفسهم ضدّ الأعداء، كما لو كانوا قد تلقّوا تدريبا في إيطاليا وخاضوا حروبا متواصلة هناك(3). وإذا تعرّضوا لعدوان، فإنّهم ينصبون خيامهم وسط دغل كثيف حيث يحفرون خندقا ينامون فيه. فيختبئ المحاربون منهم خلف أجمة ذات منفذ يستعملونه للهرب عند الضرورة. ومن أساليبهم في التمويه أن يلفّوا أجسادهم بأغصان الأشجار بنحو يجعل من المتعذّر على عدوّهم رؤيتهم ولو من مسافة قريبة.

يفتح الهنود طريقا ضيّقا في أكثر المناطق وعورة وسط الغابة، يجعلونها مهجعا لزوجاتهم وأبنائهم. وفي المساء، يضرمون النار في مساكنهم لإيهام جواسيس أعدائهم بأنّهم داخلها. وقبيل طلوع الشمس، يشعلون النار مجدّدا. وإذا اقترب غريب من مساكنهم، باغته محاربوهم من مكامنهم وألحقوا به أكبر الأضرار دون أن يتركوا له فرصة رؤيتهم أو تحديد موقعهم. وفي حال عدم وجود غابة يختبئون فيها أو ينصبون بها كمائنهم، فإنهم يختارون أنسب مكان منبسط، ويطوّقون أنفسهم بخنادق محاطة بشجيرات صغيرة متشابكة واقية يفتحون فيها منافذ محدّدة بعناية يرسلون منها سهامهم ضدّ أعدائهم. وفي المساء يبنون حواجز رملية.

كنت ذات مرّة بصحبة قبيلة أغوينيس. وإذ لم يأخذوا حِذْرهم، باغتهم أعداؤهم ليلا، فقتلوا منهم ثلاثة وأصابوا البعض بجروح، ولاذوا بالفرار داخل الغابة. ولمّا غادر المعتدون، عاد رجال أغوينيس إلى منازلهم والتقطوا نفس السهام التي استعملها أعداؤهم ثم ذهبوا في إثْرهم سرّا. وصلوا إلى منازلهم عشاء. وقبيل طلوع الفجر، شنّوا هجومهم فقتلوا خمسة منهم وجرحوا الكثير. فيما لاذ الباقون بالفرار تاركين خلفهم سهامهم وأقواسهم وكلّ ممتلكاتهم. بعد ذلك، جاءت نساء كيفينيس يفاوضن رجال قبيلة أغوينيس فتوّجت مساعيهم باتفاق صداقة. هذا علما بأنّ النساء يكنّ أحيانا هنّ سبب نشوب الحرب.

وعندما يخوض هؤلاء القوم نزاعات شخصية مع خصوم من خارج عائلتهم، فإنّهم يتقاتلون بكلّ ضراوة ويفتكون ببعضهم البعض بأقصى درجات القسوة.

الفصل الخامس والعشرون
عن استعداد الهنود لحمل السلاح

وجدت هؤلاء الهنود أكثر استعدادا لحمل السلاح من أي شعب آخر في العالم . فما أن يشعروا باقتراب عدوّ من منازلهم حتى يبيتون مستيقظين متأهّبين لحمل السلاح. وقبل أن يذهب أحدهم للنوم، فهو يُعدّ قوسه. وإذا لم يطمئن لوتر القوس سهر الليل كلّه على إحكامه. وهم غالبًا ما يخرجون من مساكنهم زحفا على الرُّكب حتّى لا يراهم أحد. يحرصون على مراقبة جميع الجهات. وإذا استشعروا ما يريبهم، خرجوا زمرة واحدة إلى الحقل في حالة تأهّب ممتشقين أقواسهم وسهامهم. يظلّون على تلك الحال حتّى مطلع الصبح. فتراهم يذرعون المكان تحسّبا لأيّ خطر أو عدوّ مداهم. وفي الصباح، يفكّون وتر القوس إلى حين ميقات خروجهم إلى الصيد.

يصنع الهنود وتر أقواسهم من أحشاء الغزلان. يقاتلون بأجساد منحنية. يهتفون حين يرمون سهامهم، ويراوغون بخفّة تلافيا لسهام العدو. لذلك فإنّ أسلحتنا من قوس ونشاب وبنادق لا تلحق بهم أضرارًا كبيرة. بل، على عكس ذلك، فهم يقابلونها بسخرية، لأنّها لا تشكّل خطرًا عليهم لا سيّما في تلك السهول الشاسعة التي ينتشرون فيها. وهي لا تكون فعّالة إلا في المناطق الضيّقة والمستنقعات. وتظلّ الخيول أخشى ما يخشاه الهنود(4). فهي الوسيلة المناسبة للتغلّب عليهم.

يتعيّن على كلّ من يحاربهم ألّا يدعهم يشعرون بأنّه ضعيف أو طامع في ممتلكاتهم. أثناء الحرب تجب معاملتهم بقسوة. لأنّهم إذا التمسوا في خصمهم خوفا أو طمعا، انتهزوا الفرصة السانحة للانتقام. فهم يستمدّون قُوّتهم من خوف أعدائهم. ومن عاداتهم القتالية أيضا أنّه ما أن يستنفد أحد الطرفين المتحاربين سهامه حتّى يذهب كلّ فريق إلى حال سبيله، دون أن يلاحق الطرف الغالب غريمه مهما فاقه عُدَّة وعددا. تلك هي عوائدهم في الحرب. حين يصاب أحد الهنود بالسهام، لا يموت بسبب جروحه طالما لم يصب في أحشائه أو قلبه. بل إنّه يتماثل للشفاء بسرعة.

يتمتّع أولئك القوم بحدّة البصر والسمع. حواسّهم مرهفة بشكل يفوق كل شعوب العالم. وبفضل العادة والتجربة، فهم يمتازون عن غيرهم بقدرة نادرة على تحمّل الجوع والعطش والبرد.

أصرّ على ذكر هذه الأمور لأنّ الناس عموما تتطلّع إلى معرفة عادات وسلوكات الغير. لكن من أتيحت له فرصة اللقاء بهم مباشرة، فإنّه سيستفيد كثيرا من معرفته بعاداتهم وخدعهم.

الفصل السادس والعشرون
عن الأمم واللغات

سأتحدّث في هذا الفصل عن جميع الأمم واللغات التي وجدناها في تلك البلاد مذ غادرنا جزيرة النحس. يتحدّث هنود جزيرة النحس لغتين: لغة كاوكويس ولغة الهان. وفي الداخل، مقابل الجزيرة، يقيم شعب شوروكو، الذي يستمدّ اسمه من الغابة التي يقطنها. يليه، على طول الساحل شعوب دوغوينيس، يقابلها شعب مينديكا وغويفينيس (كيفينيس). وإذا أوغلت أكثر وسط البلاد لاقيت شعب مريراميس.

أمّا طريق الساحل، فيفضي إلى شعب غوايكونيس يقابلهم شعب إغواسيس، ثم أطايوس وأكوباداوس، وهم كُثُرٌ في تلك الناحية من البلاد. وعلى الساحل أيضا يعيش شعب كيطوليس، يقابلهم في الداخل، شعب أفافاريس، وما جاوره من قبائل مالياكونيس وكوطالشيس وسوسولاس وكوموس. وعلى طريق الساحل يقطن شعب كامووليس، يليه شعب التين الذي أتينا على ذكره من قبل. لهؤلاء الهنود منازل وقرى ولغات مختلفة. في إحداها، على سبيل المثال، عندما يريد أحدهم مناداة شخص يستعمل صيغة: «أرّاكا». وعندما يودّون الهتاف على كلب يصرخون «زو».

يسكر الهنود في تلك البلاد بنوع من الدخان يجازفون بكلّ شيء في سبيل الحصول عليه. كما يشربون سائلا يستخلصونه من أوراق شجر شبيه بالبلّوط. يطهون الأوراق في قدور، يملأونها بماء يُغْلى فوق النار مرّتين. ثم يسكبون السائل في نصف وعاء من يقطين مجوّف. وعندما يطفح الزبد، يشربون السائل ساخنا. وفي كل مرّة يهمّون بشربه يهتفون: «من يرغب في الشرب؟». وحال سماع هذا الهتاف، يجب على النساء التوقّف عن الحركة تماما حتّى لو كنّ يحملن على ظهورهنّ أثقالا. وكلّ من تجاسرت منهنّ على التحرّك، توصم بالعار وتتعرّض للضرب. فيهرقون السائل الجاهز للشرب حانقين، وأما الذين تناولوا جرعة منه فيلفظونه في التّو طواعية.

يعلّل الهنود هذه العادة بكونهم عندما يشربون السائل وتتحرّك إحدى النساء لدى سماع الهتاف، فإنّ روحا خبيثة تتسرّب إلى أجسادهم عبر الماء، وتفتك بهم. لذلك يتمّ غلْي الماء على قِدْر مغطّى. ولو صدف أن تمّ كشف الغطاء ومرّت امرأة، يتم دلْق الماء فورا والامتناع عن شربه. فهو سائل أصفر اللون يشرب كلّ واحد منه عدّة لترات دون طعام على مدى ثلاثة أيام. وعندما تكون المرأة في فترة الحيض، تبحث عن غذائها لنفسها فقط، لأنّه ما من أحد سيتناول ممّا بحوزتها.

خلال مقامي بينهم رأيت أمرا مُنْكَرا يتمثّل في زواج رجل برجل. وأولاء أشخاص عاجزون ومخنّثون يلبسون كما تلبس النساء ويقومون بعمل النساء. يحملون الأثقال ولا يستعملون السلاح. يوجد منهم الكثير بين الهنود. أجسادهم أقوى وأطول من غيرهم من الرجال. ولهم القدرة على حمل الأشياء الثقيلة.

الفصل السابع والعشرون
عن مغادرتنا وحسن استقبالنا من الهنود

ودّعنا الهنود وداعا دامعا ثم ذهبنا برفقة الآخرين فاستقبلونا في منازلهم بترحاب.

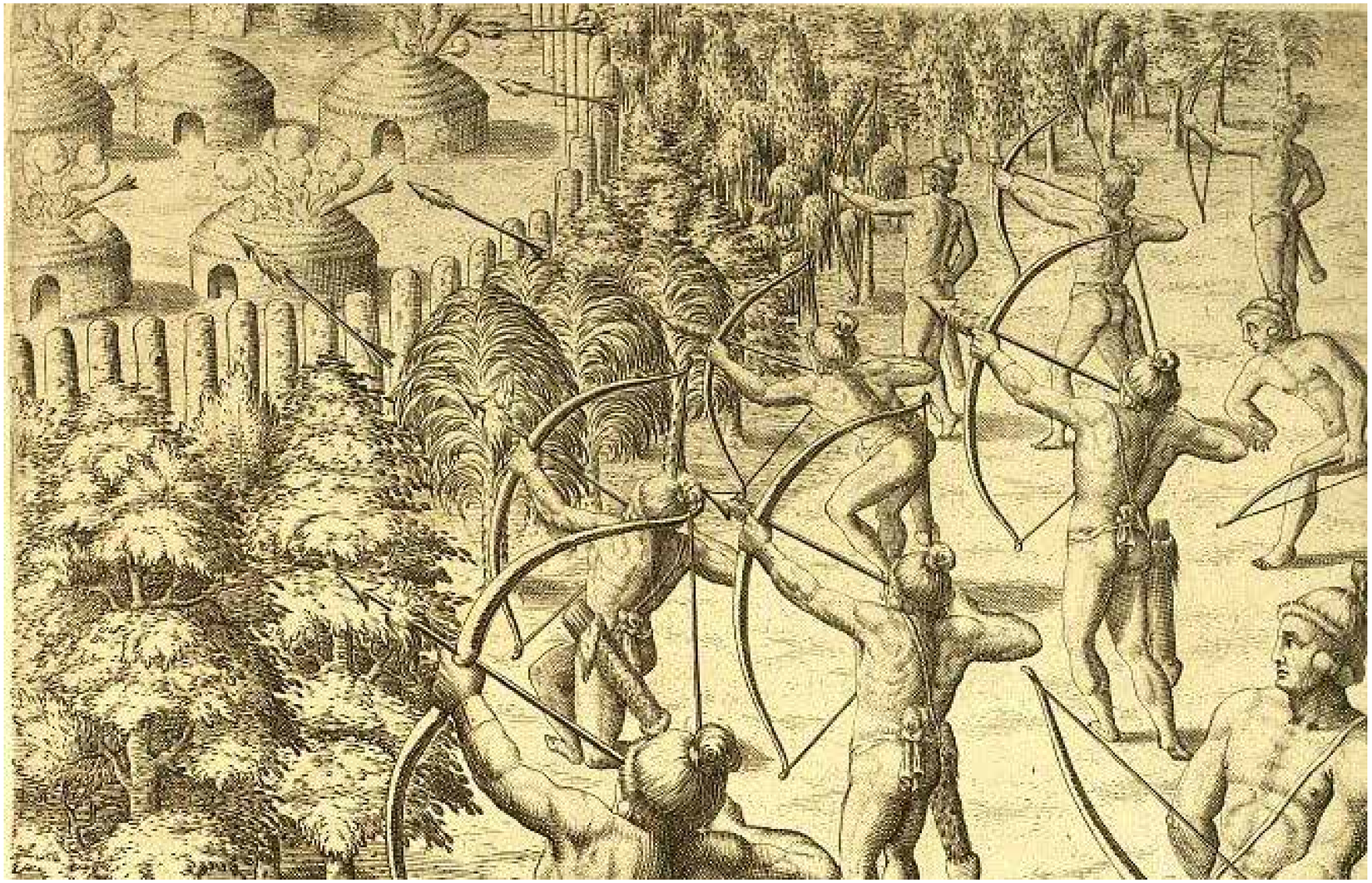

أتوا بأبنائهم للمسنا وقدّموا لنا طعاما من طحين المسكيت(5). وهي شجرة ثمرتها مرّة، تشبه حبّة الخروب، تُؤْكل ممزوجة بتراب فتصير حلوة عذبة المذاق.

لتحضيرها يضعون الثمرة في حفرة، ثم يطحنونها بقطعة خشب سُمْكها بحجم الساق وطولها قدم ونصف. فضلا عن التراب الذي يعلق بها داخل الأرض، يضيفون إليها حفنة تراب أخرى ويواصلون دقّها حتّى تصير جاهزة. ثم يصبّونها في وعاء خشبي في شكل سلّة، ويغمرونها بالماء. يقوم الطّاهي بتذوّقها. فإذا لم يرقه طعمها، مزجها بالتراب حتّى يستعذب مذاقها. بعد ذلك يتحلّقون حولها، فيغرف كلّ واحد منهم بيده ما وسعه منها. يرمون البذور والقشور على جلد حيوان، فيقوم المشرف على تحضيرها بإعادتها إلى الوعاء مع مزيد من الماء. ثم يكرعون العصير. يعيدون الكرّة ثلاث أو أربع مرّات متتالية حتّى ينتهي كل من شارك في المأدبة ببطن منتفخة من فرط التراب والماء.

أقام الهنود احتفالا كبيرا على شرفنا. ظلّوا يرقصون بابتهاج طيلة فترة مقامنا بينهم. أثناء الليل، يسهر ستّة من رجالهم على حراسة المساكن التي ينام فيها كلّ واحد منّا، حتّى لا يتجاسر أحد على الدخول علينا قبل طلوع الشمس.

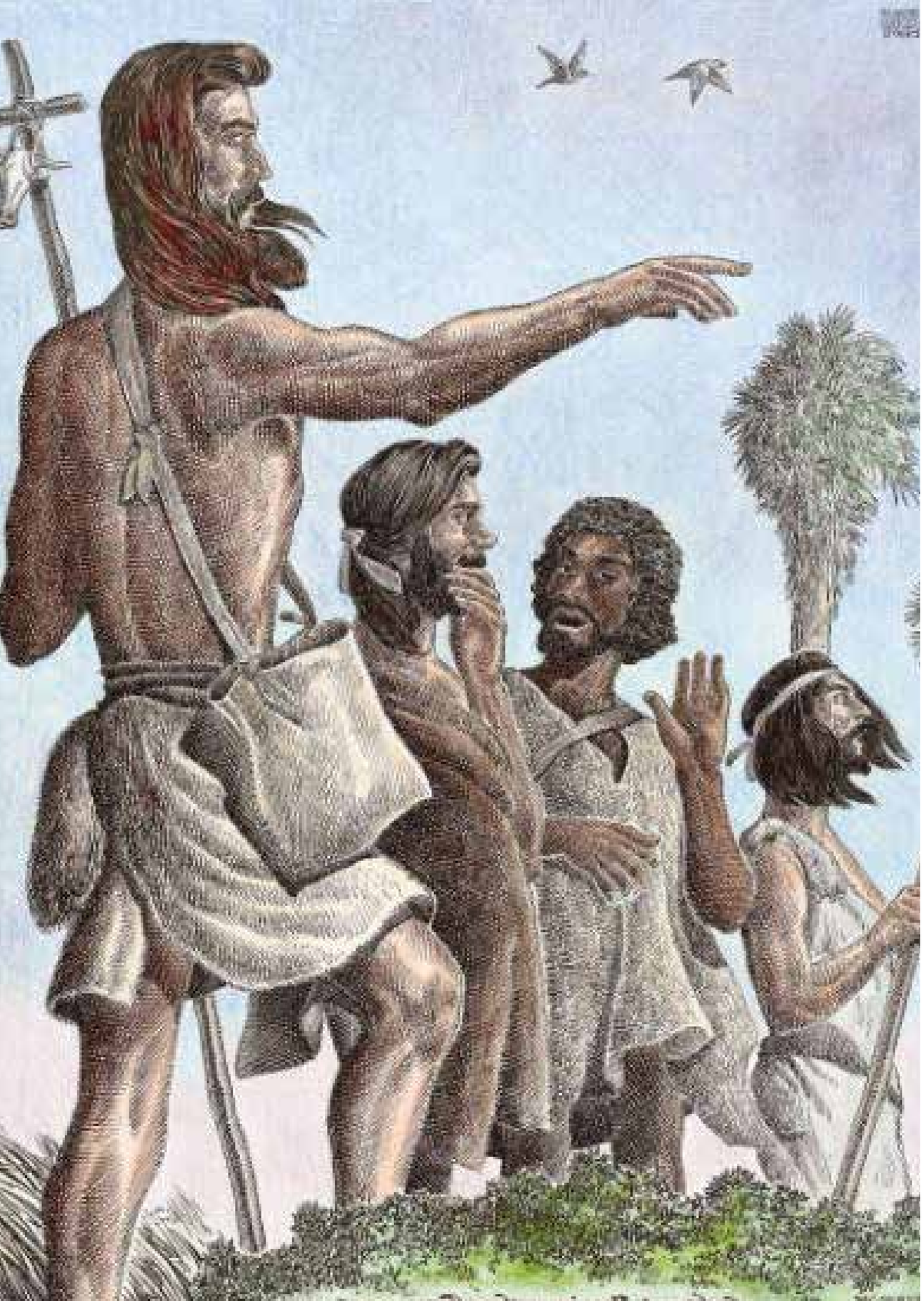

كنّا على وشك المغادرة فوصلت نساء من إحدى القرى البعيدة. ولمّا علمنا منهنّ بموقع قريتهنّ، قرّرنا الذهاب إليها. فألحّ علينا مضيفونا بالبقاء ليوم آخر، متذرّعين بكون وجهتنا بعيدة وطريقها وعرة المسالك. ولإقناعنا بالمكوث أشاروا إلى حال النساء المنهكات من وعثاء الطريق، وعاهدونا، إن أقمنا معهم ليلة إضافية، أن تقوم النساء بمرافقتنا في اليوم التالي. مع ذلك صمّمنا على الرحيل ثم لحقت بنا النساء الوافدات مصحوبات بأخريات من القرية التي تركناها. ولعدم وجود طريق سالك، ضللنا السبيل فقطعنا مسافة أربع فراسخ حتّى وصلنا إلى نبع ماء وجدنا عنده النساء اللواتي لحقن بنا. فأخبرننا بما تكبّدنه من عناء في سبيل العثور علينا. فواصلنا المسير مسترشدين بهنّ.

في المساء، عبرنا نهرا يصل منسوب مياهه إلى صدورنا. به تيّار قويّ. عرضه بحجم نهر اشبيلية. وعند الغروب وصلنا قرية تتألّف من مائة مسكن. خرج أهاليها لاستقبالنا وهم يضربون أفخاذهم ويطلقون صيحات مفزعة حاملين يقطينا مجوفّا به ثقوب مملوءة بحصيّات صغيرة. وهي أشياء احتفالية ذات قيمة عالية لديهم لا يظهرونها إلّا في مراسيم الرقص وطقوس العلاج. يحظر على الغرباء لمسها ويعتقدون أنّها نزلت من السماء وهي ذات مفعول سحري. لذلك فهي، بتقديرهم، لا تنتمي إلى الأرض. ولا يعرفون من مصدر لها سوى أنّها من هبات الأنهار إذْ تغمر البلاد.

ومن فرط حماسهم وتهافتهم على لمسنا، كادوا يخنقوننا. حملونا إلى مساكنهم دون أن تلمس أقدامنا الأرض. احتشد علينا جمع غفير منهم، ولم نجد بدّا من اللجوء إلى المساكن التي وضعوها رهن إشارتنا. ورغم رفضنا المشاركة في مراسيمهم، فقد قضوا الليلة كلّها في احتفال راقص.

في الصباح، استقدموا جميع أهالي القرية لكي نلمس أجسادهم ونباركهم كدأبنا مع القبائل التي مررنا بها من قبل. ثم قدّموا سهاما كثيرة لنساء القرية اللواتي جئن صحبة نسائهم.

غادرنا في اليوم التالي. لكن كلّ أهالي القرية أصرّوا على مرافقتنا. وعند كلّ قرية جديدة كنّا نلقى ترحابا كبيرا مثل الذي حظينا به من طرف القبائل السابقة. قدّموا لنا أعزّ ما يملكون، وناولونا لحم الغزلان من صيد يومهم.

فضلا عن ذلك شهدنا عادة جديدة بينهم. صار المرافقون منهم يأخذون أقواس وسهام ونعال وخرز الذين يأتون للعلاج. ثم يضعونها أمامنا ليحنّوننا على مداواتهم. وأمّا الذين خضعوا للعلاج فكانوا يغادرون فرحين بزوال الألم.

صرنا ننتقل من بلدة إلى أخرى. يستقبلنا الهنود بحفاوة، ويعرضون علينا المرضى الذين ما أن نرسم عليهم علامة الصليب حتّى ينهضوا أصحّاء معافين. فيما يظلّ الذين لم يتعافوا واثقين من قدرتنا على تسكين آلامهم. كانوا يبتهجون لمجرّد سماع ما يذكره المتعافون منهم، ويقيمون مراسيم الاحتفال والرقص فيحرموننا من النوم.

الفصل الثامن والعشرون
عادة أخرى جديدة

بعد مغادرتنا، جزنا على عدّة قرى اكتشفنا فيها عادة جديدة. كان مرافقونا الهنود يسيئون لنظرائهم الذين يستقبلوننا ويجرّدونهم من ممتلكاتهم وينهبون مساكنهم. امتعضنا من رؤية مضيفينا وهم يتعرّضون لتلك التصرّفات المشينة، وخشينا أن تنشب بينهم مواجهات أو تعمّ فيهم الفوضى. كنّا أعجز عن التدخّل لوقف الإساءة أو معاقبة المسيئين. فلم نجد بدّا من تحمّل الوضع حتّى تصير لنا عليهم سلطة أكبر. وعندما لاحظ الضحايا امتعاضنا ممّا ينزل بهم من عسف، أخذوا يهدّئون من روعنا مؤكّدين لنا بأنّهم سعداء بذلك لأنّ مساكنهم سخّرت لأمور ذات نفع، وأنّهم سيستعيدون كلّ ما فقدوه من هنود آخرين أغنياء.

كانت رحلتنا شاقّة بسبب الأعداد الكبيرة من الأتباع الذين كانوا يلتفّون حولنا ويتهافتون للمسنا ممّا جعل كلّ محاولة للفكاك منهم مستحيلة. هكذا قضينا لإرضائهم ثلاث ساعات في غاية الإرهاق والتعب. في اليوم التالي جلبوا أهالي القرية. وقد اندهشنا لكون غالبيتهم كانوا يعانون من مرض إعتام عدسة العين بينما كان الباقون عميانا تماما لنفس السبب. عدا ذلك، لهم أجسام قوية، ووجوه وسيمة، وبشرة فاتحة أكثر من غيرهم من الهنود الذين تعرّفنا عليهم حتّى ذلك الحين.

من هناك لاحت لنا لأوّل مرة سلسلة جبلية منحدرة من جهة بحر الشمال(6). ومن خلال ما رواه لنا الأهالي اعتقدنا بأنّها تبعد عن البحر بحوالي خمسة عشرة فرسخا. ذهبنا رفقة الهنود صوب الجبال. وأخذونا إلى بعض أهاليهم هناك. كانوا يصرّون على توجيهنا إلى حيث يوجد أقاربهم فقط، حتّى لا يستفيد أعداؤهم من نعمة مشاهدتنا، على حدّ زعمهم.

حالما بلغنا وجهتنا، شرع مرافقونا في نهب مساكن الأهالي الذين كانوا على علم بتلك العادة فبادروا إلى إخفاء أشيائهم الثمينة.

وبعد حفاوة الاسقبال، أخرجوا مقتنياتهم وسلّموها لنا مباشرة. وهي عبارة عن خرز ومُغرة وبعض أكياس نحاسية. وكالعادة، سلّمنا بدورنا تلك الهدايا إلى مرافقينا. ثم دخل الهنود في حمأة الرقص وطقوس الاحتفال. كما أرسلوا في طلب أهالي قرية صديقة للتبرّك بنا. فجاءوا عشاء محمّلين بهدايا من خرز وسهام وأشياء صغيرة قمنا بتوزيعها أيضا.

في اليوم التالي، بينما نحن على أهبة المغادرة، اقترح الأهالي اصطحابنا إلى أصدقاء لهم يقطنون في مواضع متفرّقة من الجبال. ذكروا أنّ هناك منازل كثيرة يودّ سكّانها رؤيتنا ومنحنا المزيد من الهدايا. لكنّنا فضّلنا استئناف المسير على اتخاذ تلك الوجهة التي لا تفضي إلى غايتنا. هكذا أخذنا طريق السهل المحاذية للجبال معتقدين بأنّها أقرب للساحل. هناك وجدنا شعبا سيّئ الطبع. وفضّلنا عبور تلك البلاد نحو الداخل حيث الهنود في وضع أحسن ومعاملتهم لنا أفضل. كنّا موقنين بأنّنا سنجد هناك بلدا مأهولا بالسكان وافر الغذاء. وأخيرا، عملنا بهذا الرأي لأن عبور تلك البلاد ستمكّننا من التعرّف على مواردها، حتى إذا قيّضت مشيئة الرب لأحدنا النجاة والرجوع إلى أرض المسيحيّين، سيقدّم تقريرا ضافيا عليها.

لمّا رأى الهنود إصرارنا على رفض الوجهة التي اقترحوا علينا، أخبرونا بأنّه لا يوجد سكّان أو تين شوكي، أو أيّ شيء آخر يمكن الاقتيات منه طوال الطريق التي نرغب في سلوكها. فالتمسوا منّا المكوث معهم ليلة إضافية فوافقنا. ثم أرسلوا دليلين اثنين للاستطلاع عمّا إذا كان هناك ساكنة في الوجهة التي قرّرنا اقتفاءها.

غادرنا في اليوم التالي مرفوقين بالعديد منهم. كان النساء يحملن الماء. ولاحظنا بأنّ سلطتنا بينهم صارت أكبر بحيث ما من أحد منهم كان يجرؤ على شرب الماء دون إذن منّا. وبعد مسير فرسخين لاقينا الرسولين الذين أوفدهما الهنود لاستكشاف المنطقة فأكدوا لنا خلوّها من السكّان. أشفق الهنود لحالنا، ونصحونا بسلوك طريق الجبل فرفضنا. وأمام إصرارنا استسلموا لقرارنا وودّعونا بحزن. ثم عادوا أدراجهم، فيما واصلنا نحن المسير.

بعد فترة قصيرة، صادفنا امرأتين تحملان أثقالا. توقّفتا لأجلنا ووضعتا حملهما وقدّمتا لنا، ممّا تحملانه، بعضا من طعام الذرة. أخبرتانا بأنّه في طريق النهر توجد مساكن مأهولة وحقول ذرة وتين شوكي. ثم استأنفتا طريقهما باتّجاه القرية التي تركناها بالأمس.

تمشّينا حتّى الغروب ووصلنا قرية تتكوّن من حوالي عشرين مسكنا. استقبلنا أهاليها بالدموع والحزن الشديد لأنّهم كانوا يعلمون أنّنا إذا دخلنا قرية تعرّضت للنهب والسلب من طرف أتباعنا من الهنود. ولكن لمّا رأونا لوحدنا زال عنهم الخوف وقدّموا لنا التين الشوكي طعاما.

بتنا الليلة هناك. وعند الفجر، قام الهنود الذين غادرناهم في اليوم السابق بإنزال مفاجئ. ولمّا كان مضيفونا الجدد مطمئنّين، فإنّهم لم يأخذوا حِذْرَهم ولم تكن أمامهم الفرصة لحجب ممتلكاتهم عن أنظار الوافدين. فكان أن شرعوا في البكاء فيما قام الغاصبون بتجريدهم من كلّ ما بحوزتهم. ولمواساتهم قالوا لهم بأنّنا أبناء الشمس ولنا القدرة على علاج المرضى ووضع حدّ لحياتهم حسب مشيئتنا، وغير ذلك من الأكاذيب التي اختلقوها من أجل إشباع جشعهم. كما طلبوا منهم معاملتنا بما يليق بنا من احترام، وحذّروهم من مغبّة إثارة غضبنا. وأمروهم بتسليمنا طواعية كلّ ما بحوزتهم وإرشادنا إلى قرى مأهولة. وذكروا لهم بأنّهم إذا دخلوا قرية سيقومون، كالعادة، بنفس عمل النهب وتجريد الآخرين من ممتلكاتهم.

الفصل التاسع والعشرون
كيف ينهب الهنود بعضهم البعض

لمّا أخبروهم بكلّ هذه المعلومات وعلّموهم كيف يتصرّفون، تركَنا الهنودُ صحبة مضيفينا. وَإِذْ وعى هؤلاء جيّدا ما قيل لهم، أخذوا يعاملوننا بنفس المهابة والاحترام التي عاملنا بها سابقوهم. اصطحبونا معهم ثلاثة أيّام إلى مناطق مأهولة بالسكّان. كانوا يعلنون مسبقا عن مَقْدَمنا مردّدين كل ما تلقّنوه من سابقيهم. بل كانوا يضيفون إليه الكثير من خيالهم، لأنّ أولئك الهنود رواة بارعون ومجبولون على الكذب، لاسيّما عندما يتعلّق الأمر بتحقيق مآربهم.

ما أن اقتربنا من منازلهم حتّى خرج الأهالي لاستقبالنا بترحاب وابتهاج. أهدانا اثنان من كهنتهم يقطينتان مجوفّتان وأشياء أخرى. ومنذ ذلك الحين صرنا نحمل معنا يقطينا جعلناه أحد رموز سلطتنا لما له من قيمة عالية لديهم. أمّا الذين جاءوا برفقتنا، فقد شرعوا في نهب منازل مضيفينا. ونظرا لقلّة عددهم، كانوا أعجز عن حمل كلّ ما نهبوه فتركوا وراءهم نصف مسروقاتهم.

يمّمنا داخل البلاد قاطعين حوالي خمسين فرسخا بمحاذاة سلسلة جبلية وجدنا عندها مجمّعا قبليا يتألّف من أربعين مسكن. تلقّينا هناك هدايا عديدة. فيما حصل أندريس دورانتيس على جلجل كبير من نحاس، ذي قيمة لديهم، منقوش عليه وجه آدمي. أخبرونا بأنّهم حصلوا عليه من إحدى القرى المجاورة من جهة الشمال، وأن هناك أعدادا كثيرة منه ذات قيمة عالية بالنسبة لهم. خلصنا من ذلك أنّه أيّا كان مصدر هذا الجلجل فإن صناعته تحتاج إلى مسبك لصهر المعادن.

غادرنا في اليوم التالي واجتزنا جبلا طوله سبع فراسخ، صخوره من خبَث(7) الحديد. عند المساء وصلنا إلى مجمّع سكني آخر مشيد على ضفّة نهر جميل. استقبلنا أهاليه في عرض الطريق حاملين أطفالهم على ظهورهم. وأهدانا كبراؤهم أكياسا من البيريت(8) ومن مسحوق الكحل الذي يصبغون به وجوههم، وخرزا وكساء مصنوعا من جلود البقر. كما سلّموا مرافقينا من الهنود كلّ ما يملكون.

يتغذّى أولئك الهنود بالتين الشوكي وجوز الصنوبر. يوجد في تلك البلاد نوع من الصنوبر القصير ذي أكواز شبيهة ببيض صغير. وبفضل غلافه الخارجي الرقيق، فإن جوزه أفضل من جوز قشتالة. عندما يكون الجوز أخضر، يقومون بسحقه وتناوله في شكل كريّات. وحين يكون جافّا، يطحنونه مع الغلاف الخارجي ويتناولونه مجروشا.

أما مضيفونا، فكانوا يلمسوننا ثم يركضون إلى منازلهم ثم يعودون إلينا محمّلين بالهدايا. ويظّلون يذرعون المسافة جيئة وذهابا. بهذه الطريقة، استطعنا الحصول على أشياء مفيدة لرحلتنا.

ذات مرّة، أتوني برجل مصاب منذ فترة بسهم في الجانب الأيمن من ظهره. وأخبروني بأنّ رأس السهم يوشك أن ينفذ إلى القلب. كان الجريح يشعر بآلام شديدة. اشتكى لي أنّه منذ إصابته وهو يعاني بشكل مستمرّ. تحسّست جسمه فأدركت أنّ رأس السهم قد اخترق الغضروف. فتحت بخنجري موضعا من جهة الصدر حتّى بلغت مكان الإصابة. فتبيّن لي

الهوامش:

[1] سيشير كابيزا دي فاكا من الآن فصاعدا إلى جميع أعضاء الحملة بالمسيحيين بما فيهم العبيد ومن ضمنهم استيفانيكو الأزموري. لأن قرارا ملكيا كان يقضي آنذاك بعدم مشاركة غير المسيحيين في البعثات المتوجهة إلى العالم الجديد. كانت الحملة تضم على الأقل برتغاليا ويونانيا ومغربيا وإفريقيا ثانيا. وكذلك بعض اليهود المتمسحين الذين غيروا أسماءهم. (انظر بول شنايدر: رحلة ضارية).

**دليل على أن مصطفى الأزموري لم يكن الزنجي الوحيد في الرحلة.

1. خليج الخيول: خليج أبالاشي حاليا.
2. 29 سبتمبر
3. نهر واسع: يرجّح أن يكون فم نهر الميسيسيبي.
4. القامة: وحدة قياس طول تستخدم في المجال البحري.

يتعلق الأمر بصلاة الربّية وسلام مريم. وهي صلوات كاثوليكية عريقة: Pater Noster and Ave Maria

* يرد اسم الأزموري لأول مرة في التقرير تحت مسمى «استيفانيكو الزنجي» Estebanico el Negro». يعتبر غودوين تقرير كابيزا دي فاكا «أول سجل إسباني رسمي يذكر فيه اسم استيفانيكو والمرة الأولى أيضا في تاريخ أمريكا يذكر فيها إفريقي بالاسم». (غودوين: ص222).

* يذكر كابيزا دي فاكا اسم الأزموري في عنوان هذا الفصل جنبا إلى جنب مع أسماء نبلاء إسبان دليلا عن جدارته بحريته التي استعادها بفضل الأدوار التي قدمها لرفقائه المسيحيين. يؤكد غودوين هذا بقوله «خلال شتاء 1528. 1529، لأول مرة في تاريخ الأرض الأمريكية الحديثة كسر عبد إفريقي قيده، وأصبح إنسانا في عيون سادته السابقين. خلال ذلك الشتاء ولد أول إفريقي . أمريكي» (غودوين: ص222).

* كون سيده دورانتيس يستحثه للمغادرة لأيام هو مؤشر على أن نوعية العلاقة بين السيد والعبد تغيرت ولم يعد استيفانيكو يذعن إذعان الخادم. بل شرع يتخذ قراراته الشخصية من أجل البقاء.

خطورة الموقف. أنفذت رأس الخنجر باتجاه السهم، وبصعوبة بالغة تمكّنت من انتزاعه. وفي حدود معرفتي الطبّية، رتقت الجرح بغرزتين بواسطة عظم غزال نجم عنه نَزْف كبير استعملت لوقفه وَبَرا من جلد الحيوان. وبعد نجاح العملية، التمس منّي الهنود تسليمهم رأس السهم الطويل ففعلت.

تقاطر أهالي القرية لرؤيته. ثم قام كبراؤهم بإرساله إلى قرى مجاورة وسط البلاد لإطلاع قبائل تلك المناطق عليه. وكدأبهم نظّموا احتفالا راقصا. في اليوم التالي فتقت الغرزتين فلم ينجم عنهما سوى جرح بحجم خطّ راحة اليد، فيما نهض المريض معافى مبشّرا أهله بزوال الألم.

منحتنا هذه العملية مكانة معتبرة في أوساط هنود تلك البلاد الذين لم يدّخروا جهدا في التعبير عن امتنانهم. اغتنمنا الفرصة وعرضنا عليهم الجلجل الذي جلبناه معنا. فقالوا بأنّ الأرض التي جاء منها ذلك الجلجل غنيّة بصفائح المعدن الذي صنع منه، وهو ذو قيمة عالية عندهم. وأشاروا إلينا بوجود مساكن مستقرّة هناك. اعتقدنا أنّنا كنّا إزاء بحر الجنوب الذي علمنا أنّه أغنى من بحر الشمال.

غادرنا تلك القرية وجزنا على شعوب عديدة تتكلّم لغات مختلفة تستعصي على الذاكرة. كانوا ينهبون بعضهم البعض، وكان الفائزون والخاسرون معا راضين عن الأمر. الأدهى من ذلك أن أعداد الهنود المرافقين لنا صارت في تزايد مستمرّ ممّا جعلهاخارجالسيطرة.

كان هنود تلك الأودية يصطفّون حاملين هراوات بطول ثلاثة أشبار. وما أن تنطّ إحدى الأرانب، المتوافرة هناك، حتى يلتفّون حولها ويرمونها بهراواتهم بدقّة مدهشة. بهذه الطريقة كانوا يجعلونها تتراكض بينهم جزعا. وتلك لعمري أبدع طريقة صيد يمكن تصوّرها، لأنّها غالبا ما تنتهي بوقوع الطريدة في قبضة قنّاصها. ولمّا نصبنا المخيّم مساءً، أكرم الهنود وفادتنا بمناولين كلّ واحد منّا ثمانية أو عشرة قطع من لحم الأرانب.

أمّا رماة السهام فكانوا يغْدون إلى الجبال لاصطياد الغزلان. وعند أوبتهم يمنحون كلّ واحد منّا خمسة أو ستّة أقساط من لحم الغزال، فضلًا عن شتّى صنوف الطير والسمّان وغيرها من الطرائد التي يظفرون بها. وفي النهاية، كانوا يضعون كلّ ما يصطادونه أمامنا لا يجرؤون على لمسه حتّى نباركه أوّلا ولو كان بهم جوع. فتلك عادة درجوا عليها منذ أن أخذوا يرافقوننا.

أما النساء فكنّ يأتين بأفرشة تقام بها مساكن خاصّة نأوي إليها أنا ورفقائي وأتباعهم من كبراء الهنود. وعندما تنصب المساكن، كنّا نأمرهم بإشوائنا من لحم الغزلان والأرانب وغيرها، فيقومون بذلك في أفران يصنعونها لتلك الغاية. نأخذ حصّتنا ونسلّم الباقي لكبراء الهنود من أجل توزيعه على أبناء قبيلتهم. كان كلّ واحد من الأهالي يأتينا حاملًا حصّته كي ننفخ عليها من أنفاسنا ونباركها، وإلّا فإنّه لا يجرؤ على تناولها.

غالبا ما كان يرافقنا حوالي ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف نفر من الهنود. ولك أن تتصوّر كم كان أمرا شاقّا ومرهقا أن ننفخ على طعامهم جميعا ونرسم علامة الصليب على كلّ ما يأكلون ويشربون. ناهيك عن إصرارهم على استئذاننا قبل الإقدام على أيّ تصرف يذكر. كانت النساء بدورهنّ يقدّمن لنا تينا شوكيا، وعناكب، وديدانا، وكلّ ما توافر لديهنّ، موثرين الموت جوعًا على تناول أيّ شيء لم تباركه يدنا.

جزنا برفقة أولئك الهنود نهرا كبيرا ينحدر من جهة الشمال. وبعد قطع مسافة ثلاثين فرسخ عبر السهول، اعترض سبيلنا هنود آخرون جاءوا للقائنا من مكان بعيد. كانوا يعاملوننا كالذين سبقوهم.

الفصل الثلاثون
كيف تغيرت عادة استقبالنا من طرف الهنود

منذ ذلك الحين حصل تغيّر ملحوظ في طريقة استقبالنا بحيث لم يعد مضيفونا يتعرّضون للنهب من طرف مرافقينا من الهنود. كنّا ما أن ندخل مساكنهم حتى يسلّموننا كلّ ما يملكون طوعا، بما في ذلك مساكنهم. وكنّا بدورنا نقوم بتسليم ذلك لكبرائهم ليتقاسموه فيما بينهم.

أصرّ الهنود الذين فقدوا ممتلكاتهم على مرافقتنا من أجل استعادة ما ضاع منهم. لذلك كانت أعدادهم تتزايد باستمرار. كانوا يحذّرون مضيفينا من مغبّة إخفاء أيّ شيء عنّا وإلّا فإنّنا سنسلّط عليهم الموت. أصابهم ذلك الوعيد بهلع شديد، فكانوا يرتجفون من الخوف طيلة الأيام الأولى من انضمامهم إلينا، ولا يجرؤون على الكلام أو النظر إلى السماء.

مضينا برفقتهم زهاء خمسين فرسخا عبر مفاوز وجبال وعرة ليس فيها أثر حياة. عانينا خلالها جوعا شديدا. ثم بلغنا نهرا كبيرا تصل مياهه إلى مستوى صدورنا. فبدأ يظهر على الهنود أثر الجوع والعنت جرّاء اجتياز تلك الجبال الجدباء.

دلّنا أولئك الهنود على سهل خلف سلسلة جبال. توافد علينا جموع من الناس من مكان بعيد. وكسابقيهم قدّموا لمرافقينا هدايا كثيرة عجزوا عن حمل نصفها. فطلبنا منهم استردادها تلافيا لضياعها. لكنّهم رفضوا بِحُجّة أنّه ليس من عادتهم استرجاع الأشياء التي يهبونها عن طيب خاطر، وأنّهم لا يعتبرونها أشياء مضاعة. أخبرناهم بأنّنا نقصد مغرب الشمس، فأشاروا بأنّ المسافة الموصّلة إلى أهالي تلك المنطقة بعيدة. طلبنا منهم إرسال من يخبرهم بمجيئنا، فتذرّعوا بشتّى المعاذير حتّى لا يقومون بذلك، لأنّ أولئك القوم يناصبونهم العداء ولا يريدوننا أن نذهب إليهم. وأمام إصرارنا، استسلموا وأرسلوا امرأتين، إحداهما من نفس قبيلتهم والثانية من سبايا قبيلة أخرى. فهم عادة ما يختارون النساء لمثل هذه المهمّات لأنّهنّ يستطعن التفاوض حتى في أوقات الحرب.

سرنا وراء المرأتين إلى مكان اتّفقنا أن ننتظرهما فيه. مرّت خمسة أيّام دون أن يظهر لهما أثر. عزا الهنود ذلك إلى كونهما لم تعثرا على أحد في تلك النواحي. التمسنا منهم التوجّه بنا شمالا، فردّوا بأنّ مسافة طويلة من تلك الجهة غير مأهولة بالسكان، وأنّ طريق الشمال يفتقر لموارد الطعام والماء. لكنّنا أصررنا في تلك الوجهة، فيما راحوا يتعلّلون بشتّى الذرائع حتّى استشطنا غضبا.

ذات ليلة انتبذتُ للنوم مكانا في العراء. لكن سرعان ما جاء بعض الهنود وقضوا الليلة إلى جانبي مستنفرين. أخبروني بأنّهم خائفون. أخذوا يهدّئون من روعي قائلين بأنّهم مستعدّون لاقتيادنا إلى مقصدنا حتّى ولو كان في ذلك حتفهم. صرنا نتظاهر أمامهم بالغضب كي لا يزاولهم الخوف. ومن غريب الصدف أن سقط العديد منهم مرضى في نفس اليوم، وفي الغد مات ثمانية من رجالهم. سرت في المناطق التي تناهى إليها النبأ رجفة من الخوف جعلت الهنود يظنّون بأنّ مجرّد النظر إلينا سيؤدّي بهم إلى الموت. التمسوا منّا ألّا نغضب ولا نتمنّى الموت لأحد منهم، لأنّه وقر في خَلَدهم بأنّ رجالهم هلكوا بمجرّد أن تمنّينا لهم الموت. كنّا نتابع ما يحدث بقلق. ولمّا تزايد عدد

اجتماع استيفانيكو ودورانتيس مرة اخرى

* استيفانيكو، (دورانتيس، قبيلة أناغادوس). حسب أوفيدو، فرّ دورانتيس أولا. ثم التحق به كاستيو ثم استيفانيكو. رأوا أعمدة دخان من مسافة فاعتقدوا بتواجد كابيزا دي فاكا هناك. فذهب دورانتيس واستيفانيكو للاستطلاع تاركين كاستيو وراءهم لطمأنة الهنود بأنهم سيعودون. (دافيد كارسون، ص 119).

* استيفانيكو الأزموري أحد «أبناء الشمس» المقدسين حسب إحدى أساطير الهنود.

1. خليج الخيول: جزيرة غالفستن حاليا Galveston island (ولاية طكساس).
2. يعني مستوطنة مسيحية اسبانية.
3. الغلوة» وحدة قياس مسافات قديمة. استعملها الإغريق. وهي عند العرب بمقدار «رمية سهم». يقال غلا بالسهم أي رفع يده يريد به أقصى الغاية. تعادل 300 إلى 400 ذراع. استعملها ابن جبير الاندلسي (1144. 1217 م) في رحلته الشهيرة: «وعلى مقربة من هذه الأهرام بمقدار غلوة صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعة على صفة آدميّ هائل المنر، وجهه إلى الأهرام وظهره إلى القبلة مهبط النيل، تعرف بأبي الأهوال». (رحلة بن جبير، محققة بإشراف لجنة تحقيق التراث، منشورات دار ومكتبة الهلال، ص 27).
4. جزيرة النحس: يتفق المختصون على أن وصفها يناسب جزيرة سان لويس، منطقة برازوريا حاليا.
5. خليج روح القدس: يرجح أن يكون هو معبر كافالو (طكساس) حاليا.
6. البقان: شجر الجوز الأمريكي.
7. غاليسيا: إحدى مقاطعات اسبانيا.
8. يستعمل كابيزا دي فاكا عبارة yerba edrera التي تقول عنها باندوليي بصددها في هامش ترجمتها «انني لم اعثر على أي مرجع يفيد في شرح هذه الكلمة فاستعملتها كما هي في أصلها الاسباني». ويرجح دافيد فراي أن تعني في هذا السياق عموما «أعشاب بحرية». وبها أخذنا.
9. السمندر: فصيلة من البرمائيات المذنبة أشبه بالسحلية.
10. نسبة إلى مرض لعازر المذكور في إنجيل لوقا. تترجم باندوليه مرض لعازر بالجذام.

الموتى، خشينا أن يهلك الجميع أو يهجروننا من فرط الجزع وأن يفعل الأقوام الذين سيلقوننا من بعدهم، حين يرون ما حدث لهم، مثل ما يفعلون. التمسنا العون الإلاهي فبدأ المرضى يتماثلون للشفاء.

ثم شاهدنا شيئا عجبا: لقد دخل الآباء والأخوة والزوجات في حزن شديد على أقاربهم المحتضرين، وإثْر موتهم، فقد الأحياء كلّ إحساس، وكفّوا عن البكاء، وانقطعوا عن الكلام، وصاروا متهيّبين من الاقتراب من جثامين الموتى حتّى أمرناهم بحملها ودفنها.

قضينا بينهم زهاء خمسة عشرة يوما، لم يكلّم بعضهم بعضا ولمْ يصدر عن أطفالهم ضحكا أو بكاء. صادف مرّة أن شرع أحدهم بالبكاء، فتمّت تنحيته إلى مكان بعيد، وباستعمال أسنان فئران حادّة، أحدثوا خدوشا على جسده من الكتفين حتّى الساقين. أغاظني مشهد تلك القسوة على طفل. سألت عن سببها، فقالوا أن ذلك عقابا لبكائه أمامي.

صبّ الهنود جام غضبهم على الهنود الذين أتوا للقائنا حتى يدفعونهم إلى التنازل لنا عمّا بحوزتهم، وذلك لعلمهم بأنّنا لن نستأثر بشيء، وأنّنا في النهاية سنترك لهم كلّ ما يهبوننا. لقد كانوا أكثر الأقوام خضوعا في تلك البلاد، وأفضلهم حالا، وأقوّمهم جسما.

تماثل المرضى للشفاء. وبعد مُضِيّ ثلاثة أيّام، عادت المرأتان الموفدتان وأخبرتانا بأنّ المنطقة قليلة السكان، وأن معظم هؤلاء خرجوا لصيد البقر*، لأن موسم صيده قد حلّ. فأمرنا المرضى بالبقاء وسمحنا للمتعافين بمرافقتنا. وبعد مسير يومين طلبنا من المرأتين أن تتقدّمانا بمسافة من أجل حشد الناس لاستقبالنا في عرض الطريق.

في الغد رافقنا الهنود الذين يستطيعون السفر. وبعد يومين توقّفنا، فيما تقدّمنا ألونصو ديل كاستيّو وإستيفانيكو الزنجي* مسترشدين بالمرأتين. فأخذتهم المرأة السبيّ إلى نهر بين الجبال حيث توجد قرية والدها. كانت تلك أوّل مرة نرى فيها مساكن تشبه بيوتا حقيقية. وصل كاستيّو واستيفانيكو* هناك. وبعد حديثهما مع أهالي المنطقة، عاد كاستيّو إلى حيث تركنا بعد ثلاثة أيام مصحوبا بخمسة أو ستة من الهنود. فأخبرنا عن منازل مشيدة عامرة تتغذّى ساكنتها بالفاصولياء واليقطين. كما وجدنا عندهم ذرة.

تلقينا تلك الأنباء بابتهاج شاكرين الربّ على لطفه. ثم أضاف كاستيّو بأن الزنجي* سيكون في استقبالنا في عرض طريق قريب مصحوبا بأهالي تلك المنازل. استأنفنا المسير. وبعد قطع فرسخ ونصف طالعنا الزنجي وأهالي المنطقة مرحّبين. قدّموا لنا فاصولياء ويقطينا مجوّفا لحمل الطعام والماء، كما سلّمونا رداء مصنوعا من جلود البقر وأشياء أخرى. ولمّا كان أولئك الأهالي أعداء لمن جاء معنا من الهنود، ولا يفقهون لغتهم، فإنّنا ودّعنا مرافقينا بعدما وهبناهم كلّ ما منحنا الهنود الجدد.

وبعد مسير ستّة فراسخ برفقة هؤلاء، وصلنا إلى منازلهم قبيل هبوط الليل، فاستقبلونا بترحاب. أقمنا بينهم يوما واحدا، وغادرنا في الغد مصطحبينهم معنا إلى منازل هنود آخرين يغتذون بمثل طعا مهم .

اكتشفنا هناك عادة جديدة بحيث لم يخرج أهالي تلك البلاد لاستقبالنا في عرض الطريق كما فعل غيرهم من الهنود. بل كانوا في انتظارنا وقد أعدّوا لنا بيوت ضيافة خاصة. كانوا جُلوساً، وجوههم إلى الحائط، رؤوسهم منكسة، شعورهم مسدلة على وجوههم، وقد كوّموا ممتلكاتهم وسط مساكنهم. أهدونا أردية جلدية وكلّ ما بحوزتهم.

كانوا من أحسن الأقوام الذين عرفناهم بنيةً وحيويةً ومهارةً. فضلا عن أنّهم كانوا الأقدر على فهمنا والرّد على أسئلتنا. أطلقنا عليهم اسم «أصحاب البقر» لأنّ معظم الأبقار كانت تقتل في ناحيتهم، ولاصطيادها كانوا يقطعون زهاء خمسين فرسخا على طريق النهر. يمشون شبه عراة، مثل الهنود الذين لاقيناهم أوّل مرة. أما نساؤهم فيغطّين بعض أجسادهن بخرق من جلود الغزلان، وكذلك يفعل بعض رجالهم خصوصا الشيوخ العاجزون عن المشاركة في الحرب.

كانت تلك بلاد مأهولة بالسكان. سألناهم لماذا لا يزرعون الذرة. فأجابوا بأنهم يخشون ضياع المحاصيل لانقطاع المطر عن أرضهم عامين متتاليين، وأنّه بسبب الجفاف يصير محصول الموسم نَهْبا لحيوان الخُلْد. لذلك قرّروا أن لا يزرعوا شيئا حتّى يكون المطر وفيرا. فطلبوا منّا أن نستسقي السماء لأجلهم، ففعلنا.

أردنا معرفة مصدر الذرة لديهم. فأعلمونا بأنّهم يحصلون عليها من مغرب الشمس حيث توجد بوفرة. سألناهم كيف الوصول إليها، فأشاروا علينا بالوجهة المطلوبة. ولمّا سألناهم عن أقرب السبل إليها، راحوا يصفون لنا الطريق بدقّة فهمنا منها أنّهم لا يريدون مصاحبتنا بأنفسهم. نصحونا باتّخاذ طريق النهر جهة الشمال محذّرينا بأنه على بعد مسافة سبعة عشر يوما لن نجد طعاما اللّهم إلا فاكهة يسمّونها تشاكان يهرسونها بحجر فتظل خشنة جافة غير صالحة للأكل. ولمّا ناولونا بعضا منها وجدناها فعلا كما وصفوها لنا، فعجزنا عن أكلها.

نبّهنا أولئك الهنود إلى أنه على طريق النهر سنمرّ بأقوام يناصبونهم العداء رغم أنهم يتكلّمون نفس لغتهم. ورغم أنّهم لا يتوفّرون على طعام، فإنّهم سيستقبلوننا بترحاب ويهدوننا أردية مصنوعة من القطن والجلد وأشياء أخرى. مع ذلك نصحونا بأنْ لا نسلك تلك الطريق.

نظرا لعدم استطاعتنا الحسم في ما يجب فعله وأيّ الطرق هي الأفضل، فقد لبثنا معهم يومين إضافيين قدّموا لنا خلالها طعاما من فاصولياء ويقطين. وهنا أودّ أن أقف عند طريقة طبخ الطعام لديهم، وهي طريقة طريفة، سيتبيّن من خلال وصفها مدى تنوّع خبرات وصنائع الشعوب.

لم يكن أولئك الهنود يعرفون وعاء الفخار. لإعداد طعامهم كانوا يملأون بالماء نصف يقطينة مجفّفة متوسّطة الحجم. ثم يضعون فوق النار حجارة سريعة الاحترار. وحين تحمى الحجارة يحملونها بملاقط خشبية ويلقون بها في اليقطينة المجفّفة حتّى يبلغ الماء درجة الغليان. ثم يضعون مكوّنات طعامهم في الماء المغلي. وفي كل مرّة يسحبون الحجارة المبتردة ويعوّضونها بحجارة حامية حفاظا على غليان الماء الذي يطبخون فيه طعامهم.

شاعر وناقد ومترجم ودبلوماسي من المغرب
مقيم حالياً في نيويورك

11. يرجح أغلب المختصين أنه يقصد حيوان البيسون. ولعل هذا أول ذكر له في المدونات الأوروبية.
12. الخروف المريني المعروف باسبانيا وأستراليا باسم merino، يرجح أنه يعود للعهد المريني، وتم نقله إلى اسبانيا أثناء الحكم العربي للأندلس في القرن 12 و13
13. أبناء الشمس: حسب الأسطورة كان الهنود ينتظرون مجيئ آلهة من الشرق. فرأوا في المسيحيين الاربعة علامات عن نبوءتهم. وقد كان لهذه الأسطورة مفعولا قويا استثمره الناجون لممارسة سلطة الترهيب على الهنود، ومن ثمة الاهتداء إلى غايتهم.
14. خلال رحلة كولومبوس الأولى اكتشف الغزاة الإسبان لدى شعب طاينوس نوعا من الكلاب التي لا تنبح. وقد وجدوا لاحقا كلابا مماثلة في جزر الكارايب ومكسيكو وجنوب الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تعرّضت هذه الكلاب للانقراض خلال قرن من الزمن بسبب استعمالها طعاما لهم (دينيس هيريك، ص 23. 24).
1. يختص كابيزا دي فاكا الفصول 24 إلى 30 لوصف عادات الهنود بعين إثنوغرافية مميزة لتقريره عن سابقيه.
2. وفاء لدوره كمقرّر للبعثة، لم يتوقّف كابيزا دي فاكا عن السؤال والتحرّي بفضول معرفي نادر.
3. كانت اسبانيا منخرطة في حروب متواصلة على الأرض الإيطالية من 1494 إلى 1559. شارك كابيزا دي فاكا في معركة بولونيا في فبراير 1514. كما خاض معركة رافينا في أبريل من نفس السنة.
4. عندما أدخلت الخيول إلى العالم الجديد في القرن السادس عشر، أثارت الرعب في نفوس الهنود الأمريكيين الذين لم يروا هذا الحيوان من قبل. لكن يعتقد أن الخيول تواجدت في أمريكا منذ مئات آلاف من السنين، لكن تعرضت للانقراض مما خلف فجوة من غياب هذا الحيوان على الأرض الأمريكية دام زهاء ثماني آلاف سنة. (انظر كتاب روح الفرس، 2005، ص134).
5. المسكيت: شجر شائك ينمو في المناطق الجافة بجنوب غرب أمريكا. تعرف عليه الاسبان في مكسيكو واقترضوا اسمه الهندي. ثمره حلو أو مر حسب النوع يصنع منه الطحين ويستعمل لأغراض علاجية طبية.
6. يعتقد معظم الباحثين أن بحر الشمال إشارة إلى خليج المكسيك. وأن بحر الجنوب إشارة إلى خليج كاليفورنيا. (هارولد أوغنبراوم).
7. خَبَث: ما يتبقى بعد تنقية خامة المعدن.
8. البيريت: معدن يدخل في تركيب بعض الصخور الرسوبية. وهو أصفر اللون وله بريق معدني أشبه بالذهب.

هند عدنان

أسلاك كهرباء مكشوفة للريح والمطر

دفتر ليليات

ياسمين كنعان

لا تناديني؛ لا تنتزعني من بين ذراعيّ الأحلام، نائمة في حلمنا الذي ليس لنا خائفة من صحو يُجفل الروح ويشتت الخيال.
20 تموز 2023

***

البنت العائدة من المدرسة صعوداً إلى البيت تختصر المسافات الطويلة بين زمن وزمن؛ تركل الوقت والأمل والألم والحزن والغضب وعلب الكولا الفارغة بحذائها الأبيض، تفتش عن ظلها لتدوسه، تشتري كيس عصير مثلّج كي تروي عطش المسافات ما بين عطش وعطش؛ المدرسة عطش الأسئلة والبيت عطش الأجوبة وما بينهما مسافات لا تُقطع إلا بركل الملل.
دائماً في منامي هناك بنت وطريق وشوارع ضيقة والكثير من الأسئلة والعطش.
19 تموز 2023

***

غبت؛
لم يعد يجدي التنويه، كان لا بدَّ من التلويح.
19 تموز 2023

***

صباح مفعم بالحزن أو باليأس لا فرق؛ كيف أنت الآن بعد عنادنا وغيابنا، كيف صرت وهل أكلت سفرجل الملل أو تجرعت كؤوسه مثل سكير عتيق، هل قتلت صغيرنا (الأمل) وغطيته بملاية السرير، هل جلست القرفصاء في زاوية المطبخ وكسرت كأس الماء وجرحت وجه الوقت ونزفت حزناً وبكيت حسرة على الذي لن يعود.
صباح مفعم باليأس أو بالحزن لا فرق؛ أمّا أنا فلن أعود.
تموز 2023 19

***

مثل عرق مريمية أقلّب مواجعي في الشمس.
19 تموز 2023

***

اليأس نجاة من أمل كاذب.
18 تموز 2023

***

الكتابة لعبة مخاطبة الآخر حتى وإن لم يكن هناك آخر.
18 تموز 2023

***

قاوم إن استطعت حضورها الضوء في ليل منافيك البعيدة، قاوم أناملها تجعد خصلات الوقت على وجه الغياب، قاوم رياح الحنين تأتيك من وراء النوافذ الموصدة ومن وراء الباب، قاوم جنون الحب يشعل الطرقات شوقاً، يدخل النفق الأخير ذهاباً إلى المجهول ولا

يفكر في إياب.

18 تموز 2023

***

لا أريد من الحب إلا التفاصيل.

17 تموز 2023

***

أدوزن أوتاري كي تنتظم التنهيدات.

18 تموز 2023

***

ما أجمل المنامات والأحلام يا صديقي، في الليل أذهب إلى المسرح الوطني أكون في حضرة الكتاب والأدباء والشعراء وأصحاب المسرح والفن والرقص والطرب والغناء، ولا أدري هل يوجد هذا المسرح الوطني حقيقة، لا أدري أني أجهل وجود الأشياء في هذه البلاد حتى على الخريطة لا أعرف أين تقع هذه الأسماء الكثيرة التي تسمونها معالم البلد ويتوه اصبع السبابة وأنا أفتش عن أشياء رأيتها في المنام. أتكون محض منام؟

17 تموز 2023

***

مثل منديل ساحر ليس له آخر يكون كلام العشاق وقد ينقطع بشكل عرضي مباغت أو بفعل فاعل وقد تضيع قبعة السحر أو يموت الساحر.

16 تموز 2023

***

أعرف امرأة تسرد على الليل حكايات وحكايات، لا لتقتل وحشة الوحدة أو تجر نجمة نحو الأرض من ذيلها، لا لتقنع الحبيب بالعدول عن المغيب، بل لكي تنام يائسة ومفرغة من كل أمل على جنبها الأيسر أو الأيمن لا يهم، بمحاذاة العتمة، باحتضانها أو مديرة لها ظهرها لا يهم، امرأة لا تنام لأن الحكايا المخبأة في كفها تؤرقها، تفتح الكف بسخاء حكاء وتحكي، لا تفتّش عن مستمع أو منتبه وحيد، لا تتبع صدى الكلمات لكنها تخاف من صدأ المفاتيح المنسية في الأبواب المغلقة، تزيت المفتاح بالكلمات ولا تحرك المفتاح لينفتح القفل ولا تهمها الأقفال، امرأة تريد أن تفترش الخواء وحقول العوسج بكلمات وحكايات لا لتكسر عنق الأشواك لأنها معتادة على الوخز، تريد أن تثرثر لأن الحاوي مات في الفصل السابق ويزعجها ضجيج الحشد، لا تريد أن تكون الحكاء الأول ولا الأخير لكن ضفاف النهر فاضت وليس ثمة زرع.. وفاض نبع الدمع وكانت تظنه قد جف.

16 تموز 2023

***

تضل القافلة أحياناً ويتوه الركب أو يعترضها قاطع طريق، تلك كانت حياتي.

15 تموز 2023

***

- هل تذوقت الكأس المرّ؟
- مراراً.
- ثم ماذا؟
- أصبح الطعم مستساغاً حين كسرته بدمعي.

13 تموز 2023

***

فقط عندما أغمض عيني وأدخل منامي أعيش الحياة وأتنفس عطر وردها وكلّما صحوت متّ.

أنا واحدة من موتى كثر، من جنازات مؤجلة، لا تحدثني عن الموت بمفهوم العلامات الحيوية كالتنفس والنبض؛ ثمة أجهزة متطورة يمكنها أن تبقيك حياً لمجرد ربطك بها بأسلاك كثيرة، لا تشرح لي نظريات الطب المعقدة وآخر ما توصلت إليه المختبرات من اختراعات واكتشافات مذهلة.. الحب، الأمل، اللهفة، الانتظار، الشغف هي العلامات الحيوية الأكيدة لوجود حياة، أنا الميتة التي كانت تسابق الأيام لكي تكبر، لا لتصير صبية بعمر الورد وتزف لحبيبها بثوب أبيض؛ ولالأجل بلوغ عمر الحكمة، أردت أن أسابق الأيام وأكبر دفعة واحدة كي أبلغ عمر الموت، وأرتاح لسكينة اليأس وانقطاع آخر خيط أمل، أردت أن ألقي كل الأحمال عن ظهري وأن أفرغ روحي من آخر نقطة شغف وأدخل الصحراء بقلب ميت مطمئن ليقين التراب.

فقط عندما أغمض عينيّ تعاودني الحياة وكلما انتبهت متّ.

13 تموز 2023

***

أتفيأ شجرة الكلمات؛ ليست استراحة مسافر كما تظن، ولا غفوة متعب؛ إنها إقامة المطرود، المنفي، المنبوذ من الحياة.

13 تموز 2023

***

ثم يفيض عليك الحب من حيث لا تدري ولا تنتظر، تغترف بيديك منه وتفيض على قلبك المتعب المنتظر الذابل مثل زهرة، تسقي روحك تعمدها، وتعمد مراراً إلى المعين تغترف بيد مرتجفة وأنت تخشى مواسم الجفاف والعطش، ترقص انتشاء، تصرخ ارتواء، تبتهل شاكراً. تصحو من نومك مبتلاً بحبات العرق تنادي بصوت ضائع ماء.. ماء وتعود إلى سيرة العطش.

12 تموز 2023

***

قد تبدو مشاعرنا أحياناً مثل أسلاك كهرباء مكشوفة للريح والمطر.

12 تموز 2023

***

الصمت قاطع حديث العشاق؛ الكلام قافلة من القلب إلى القلب والصمت قاطع طريق.

11 تموز 2023

***

كان عندي ما أهديه لك؛ كلمات.

صار عندي ما أهديه لك؛ كلمات وغياب.

11 تموز 2023

***

يحبونها؛ امرأة من نار ونبيذ وعسل، ولا يظفرون إلا بما تناله الريح من بلاط.

11 تموز 2023

***

لا تمتحن صبري ولا تمتهن صمتي؛ تنهار الجبال دفعة واحدة.

10 تموز 2023

***

لا يهم من أنت ومن تكون، لا يهم إن كنت حتى من فصيلة الكائنات ذات الدم الحار أو البارد، الأزرق أو الأحمر لو كنت بلا دماء اصلاً.

أصدقائي؛ قبيلتي الافتراضية جيشي السري يحقد عليك ويمقتك، لقد حرضتهم عليك، إنهم يكرهونك حين أكرهك ويحبونك حين أحبك، يلعنون غيابك حين ألعن غيابك، وحين أرميك بسهام الكلمات يسددون رميي ويشيرون إلى مواضع ضعفك، وحين يدخل السهم القلب يبكونك كما أبكيك وينثرون تحت منشوراتي الورد.

10 تموز 2023

***

يقول الشاعر المتدثر في كنبة وثيرة والذي يستحوذ على الضوء والنور والأوراق والشمس والطاولة والنافذة : يا له من صباح باذخ الجمال.

تقول الأنثى المركونة في زاوية الكون المنسية في النسيان والظل: يا

لهذا الكذب الفادح.
لا يسمع ما قالت، ولا تلتفت لما قال ويظلان على أطراف النقيض، لا يختصمان ولا يصطدمان ولا يصطلحان وتتناسل من النقيض والنقيض كلمات.

9 تموز 2023

***

مرضى بالأمل ويوجعنا الانتظار.

8 تموز 2023

***

لا سبت لنا ولا أحد، كل الأيام متشابهة يلوكها الملل.

8 تموز 2023

***

عزيزي يا صاحب الظل الطويل:
إن كان لا بد من الصمت فليكن صاخبا.

8 تموز 2023

***

في ذكرى غسان كنفاني
يمكننا أن نحب الشهداء دون قيود، أن نعلّق صورهم في صدر البيت أو في قلادة على صدورنا، يمكننا أن نقبلهم على الجبين في كل حين، أن نعانق صورهم حين نفتقر للبطولة، أن نتقوى بهم مثل مشروب سحري أو فيتامينات مقوية، أن نبكي على قبورهم حين نشتاق ولا نثير غيرة الحبيبات أو الزوجة، يمكننا أن نستند عليهم ونحن نعلم أنهم لن يخذلونا حتى لو ضمهم التراب، يمكننا أن نكتب لهم الرسائل السرية التي يمكن أن تصل أو لا تصل، يمكننا أن ندعي أننا عرفناهم عن قرب وأن نذكر أسماء مقاهي خيالية ارتدناها معاً وشوارع بعيدة ضمت خطانا معاً ويمكن لامرأة مصابة بخذلان الأحياء وقساوتهم وظلمهم أن تقول مثلاً: حبيبي "غسان" متناسية فرق السنوات بين استشهاده ومولدها، يمكننا أن نحب الشهداء علانية ونكون بمنتهى الصدق والحب والولاء، يمكننا أن نختلق حوارات معهم، أن نطرح عليهم ألف سؤال معلّق وننتظر إجابات إلى ما شاء الانتظار وقد لا نتلقى إجابة، يمكننا أن نحب الشهداء دون خوف أو وجل لأن لقب شهيد يمنحهم قدسية الآلهة والأنبياء؛ إنه اللقب الشرعي الوحيد المكتسب بالدم المراق، يمكننا أن نتشبث بما قالوا وأن نردده في كل مناسبة أو دون مناسبات لأن كلماتهم دخلت في دائرة المقدس وصارت نهجاً ودينا، يمكننا أن نحب الشهداء وأن نتقاسم هذا الحب مثل ضوء فالشمس تمنح نورها دون حساب.

8 تموز 2023

***

أنا البنت التي كانت تتصرف مثل الأولاد الأشقياء؛ كنت أسرق حبات اللوز الأخضر من أرض جارنا وجار جارنا أضع طرف ثوبي القصير المتسخ بين أسناني وأضع حبات اللوز في طية الثوب وأركض بركب وسيقان نحيلة ممتلئة بالخدوش والجروح، أفترش زيتونة عتيقة وألتهم حبات اللوز مع كمشة ملح ملفوفة بصرة صغيرة من دفتر مدرسي عليه كتابات أو أرقام بقلم الرصاص، وكنت أسرق اللوز الذي قسى قلبه أيضاً أكسر القشرة الصلبة بالحجر وألتهم القلب وأعود إلى أمي متسخة تماما وقد علق على جديلتي ما علق من التراب وأوراق الشجرة، وأتجهز للعقاب المنتظر.

7 تموز 2023

***

في الليل ينامون وأصحو وأصير نحاتة قماش؛ أشكل الوسائد والأغطية على هيئتك، أغمض عينيّ وأنا أخلق يدك ووجهك وتفاصيل تفاصيلك أُجعّد القماش وعندما أنتهي من نحتك أنفخ فيك من روحي وأضم تمثالك وأنام.

6 تموز 2023

***

أنت لا تدرك معنى التخلي ووجع التخلي؛ قلت لي "كوني خفيفة" ولم أفهم فلسفة الخفة، ربما فهمتها متأخرة جداً عندما فتشت عنك ولم أجدك لا في الواقع ولا بين الكلمات، ربما أنا امرأة مسكونة برعب التخلي؛ قالت خالتي التي كانت حاضرة لحظة

هند عدنان

لفظني رحم أمي إلى بؤس الحياة أني كنت أرفض الخروج وأني خرجت متشبثة بالحبل السري، بعد سنوات عندما قطعت الجسر إلى الضفة الأخرى كنت أتشبث بطرف ثوب أمي ولم أفلته ربما كنت أخشى الضياع. وعندما قلت لك أُحبك كنت أمد يدي لأتعلق بأطراف أصابع يدك التي مددتها نحوي وقلت لي في لحظة ولاء للحظة عابرة هي لك، تعلقت بها وبك وهذه حقيقة ترفضها وتحاربها، خشيتُ التيه وخفت الضياع، أغمضت عينيّ وفتحتهما على تيه جديد وضياع جديد، أدركت المعنى متأخرة؛ الخفة ضمن فلسفتك المقيتة تعني اللاحب وعدم التعلّق والتشبث وربما تعني ما هو أكثر قتل الأحلام وهي شرنقة، وأد مبكر لوعود لن تكون، أن أكون خفيفة على واقعك وقلبك، أنا أكون عابرة مثل ضمة ورد على سريرك، أن أذبل كما يفترض بورد المزهرية أن يذبل، أن أغيب مثل شمس أو قمر لأن الغياب حتمي، أنا أكون خفيفة كحلم عابر على سرير غريب وليس للغرباء أسرة، ليس للغرباء مقاعد ولا طاولات ولا مزهريات ولا فناجين قهوة، لا أحب فلسفتك وأكره مبدأ الخفة الذي يطيرني مثل ريشة في مهب الريح.

5 تموز 2023

***

لا أحب الكتب التي تُلتهم على عجل مثل وجبة سريعة، أحب الوجبات الدسمة الغنية بالأسماء والأماكن والموسيقى، التي تدفعني إلى التفتيش عن معنى كلمة وتحثني على سماع اللحن ومعرفة العازف، التي تأخذني إلى شاطئ أو كهف مهجور أو بناية متداعية أو محرقة، التي تفتح لي المشاهد على مشاهد متعددة، التي تضيعني في التفاصيل وتغرقني حتى الضياع الذي لا يعد بنجاة أبداً، التي أعود منها وفي كفي زهرة أو كمشة تراب وفي رأسي فكرة، التي تجعلني أكتشف ذاتي مجدداً، التي تجبرني على التنهد بفعل دهشة لا يمكن تفاديها، التي تؤرجحني على حبال الشهوة والحب والحزن والألم والضحك والبكاء، وتحثني بين كل سطر وسطر وفاصلة ونقطة على كتابة شيء ما حتى لو كان حماقة.

5 تموز 2023

***

أحبك كما أحب بلادي وأمقتك كما أمقتها؛ أنتما وجعي الأبدي الذي لا ينتهي. أحبكما وأمقتكما في آن؛ إنها لعنة الحب المقدس.

5 تموز 2023

***

سأكتفي بك غائباً كي أُريح قلبي من عناء الانتظار، أنت الغائب الأبدي في الغياب لا محطة توصلني إليك، لا وشم لأقدامك على الطرقات، لا ظل لمرورك على الجدران، هكذا أزرعك في خيالي فكرة غياب لا ينتهي حتى بالرجوع.

تخيل أن تعود بعد هذا الانتظار الموجوع تخيل أن تهز أركان وحدتي بعدما هدأت نفسي واستكانت، تخيل أن تقلق روحي المستسلمة للحزن، أن تباغتني بحضور صاخب، أن تقول بلهفة مشتاق رجعت، لا تعجبني الفكرة ولا أقوى على تحملها، العماء اعتياد أيضاً وانفتاح حواس أخرى وتفتح بصيرة والغياب كذلك.

هل أبدو لك متطرفة، كاذبة، خيالية، مجنونة، لا معقولة، غاضبة، ثائرة، ناقمة.. هل أبدو لك حزينة أكثر من المعتاد، منهزمة في الأعماق، مشلولة ومتكومة في زاوية مظلمة؟ ربما أنا كل هذا وأكثر، لكنني أعتاد انكساراتي بسرعة خيالية لا تتخيلها، لولا اعتيادي ما صمدت. أكتب إليك لا رغبة في الكتابة ولا في نيتي اطلاعك على أحوال قلبي وتقلبات حزني؛ إنما أعالج الأرق بالكلمات كأن أشد على يدي بيدي وأتناسى تماما دفء يدك؛ لا يمكن ليد غائب أن تكون نابضة دافئة، لا يمكن لها أن تكون حاضرة، حتى يدك لا تمثل إلا وهم حضور إنه الحضور الناقص الذي يشبه تماماً الغياب الناقص، هذه حالة (البين بين) مؤرقة ومتعبة ومنهكة للأعصاب.. وأنا تلفت أعصابي وضاق خلقي وفسد يومي وتلعثمت في الانتظار ساعاتي وارتبك نومي ويومي، سأختار أقل الخيارات ألماً ووجعاً؛ سأختار الغياب.

5 تموز 2023

***

ما الفرق لديكم إن كنت من نابلس أو من جنين؛ أبكي حين تبكي نابلس وأنزف حين تنزف جنين!

4 تموز 2023

***

ما الفائدة؛ روح ثائرة متمردة يقيدها الجسد.

هند عدنان

4 تموز 2023

***

وعد مؤجل؛
سأكتب عن الحب عندما تنتهي الحرب..

4 تموز 2023

***

اختلطت الأصوات والصور هذا الصباح؛ صوت العصافير بأصوات الطائرات والقنابل، بصرخات الاستجداء، بأنين الجرحى، بانكسار البيوت وارتطام الركام، بتكسر الأشياء على الأشياء وموتها الجماعي، تخيّل موت الأشياء كلها دفعة واحدة موت البنايات والبشر والأشجار وأحواض النعنع على الشرفات، اختلطت صورة الحياة بصور الموت المتعدد، لا شيء مفهوم ولا صورة واضحة في هذا الصباح الذي ولد بلا أنفاس ولا نبض ولا حياة.

حتى الكلمات ولدت ميتة؛ لو قلت لك إنهم يغتالون المخيم بناية بناية وحجراً حجراً، إنهم يسقطون الأسقف والأحلام على رؤوس أصحابها ويسوّونها بالأرض، إنهم يحفرون في خاصرة الوطن بلا توقف يستأصلون الحياة. ستقول لي ما الجديد، إنهم يقتلون ويغتالون؛ لأجل هذا الفعل الشنيع ولدوا ومن أجل هذا الخراب جاءوا، لا جديد.. ولا نقول العبارات المكررة مثل: أين العالم، أين البشر، هل تسمعون، هل تشاهدون موتنا على الشاشات. لا جدوى من النداء، لا صوت للضحية والعالم كله مصاب بالصمم. يا لهذا النشاز الصباحي الذي يؤذي القلب والأذن والعين.

4 تموز 2023

***

أستطيع أن أعطي الكثير من المبررات للذين كرهوني؛ جدتي لأبي لم تحبني لأنني كنت أرفض أن (أقش لها المصطبة) رغم غوايتها لي بحبات السكر الفضي وطابات الصوف الملونة.

أبي الذي هو ابنها لم يحبني أيضاً لأنني من بين أخوتي جميعهم استخدمت الكلمة المحرمة كثيراً "لا".

حبيبي الأول الذي أحببته ولم يحبني لم تعجبه طريقتي لأنني سارعت بالبوح والبوح بالحب فقط للرجال، أما الثاني فكان أنت والثالث والرابع وكلهم أنت وأنت لا تحبني لأنني حوّلتك إلى كائن ورقي والكتابة يحتكرها الرجال.

1 تموز 2023

كاتبة من فلسطين

شعر

الزنزانة الزرقاء

8 قصائد

يوسف وقاص

أَنَا الإِنْسَانُ

أَنَا الإِنْسَانُ، قَالَ -
زَرَعَ السُّنْبُلَة وَمَضَى فِي عتْمَةِ الغَسَقِ،
دَمْعَةٌ تُطِلُّ عَلَى الكَوْنِ
مِنْ شَقٍّ فِي السَّمَاءِ،
تَمْسحُ اَلْحُزْنِ عَنْ جَبِينِ الشَّفَقِ.

أَنَا الإِنْسَانُ، صَرَخَ -
جَلَسَ خَلْفَ عَرَبَتِهِ وَرَحَلَ.
الثَّلْجُ يُطْفِئُ ظَمَأَ الأَرْضِ،
شِفَاهٌ تَنْطِقُ
بِحُرُوفِ أَبْجَدِيَّتِنَا... أَبْجَدِيَّةُ الأَلَقِ.

هَا أَنْتُمْ تُعَانِقُونَ أَشْرِعَة تَعْبَثُ بِهَا الرِّيَاحُ،
وَتُلْقُونَ بِالْمِرْسَاةِ فِي بَحْرٍ مَنْسُوجٍ مِنْ الظُّلُمَاتِ.
كَلِمَتِي... مَوْجَةٌ،
لَمْ تُفَارِقْ تَغَارِيدُ عُصْفُور فِي ظِلِّ اَلْحَبَقِ.

أَنَا الإِنْسَانُ، تَمْتَمَ -
أَنْتُمْ يَا مَنْ تَسْكُنُونَ اَلْمُدُنُ الخَالِيَة،
افْتَحُوا الأَبْوَابَ،
مَزِّقُوا الأوهامَ، الزَّوْبَعَةُ تَغْفُو عَلَى مُقْلَةِ الأُفُقِ.

الدُّرُوبُ... زَنْبَقٌ وَبَارُودٌ،
قِلَاعٌ مَنْسِيَّةٌ،
آلَامٌ تَمُوتُ تَحْتَ حُطَامِ الشَّمْسِ.
تَنْهَارَ السُّدُودُ، مَنْ يُوقِفُ الطُّوفَانُ؟
هُنَا - قَالَ -
يَعِيشُ قَلْبِي عَلَى المُفْتَرَقِ.

2023-10-03

السّخْليّة

بِصَمْتٍ تَسَلَّقَتِ الكِتَابَ،
بِعُيُونٍ مُسْتَدِيرَةٍ تَأَمَّلْتِ الْأَحْرُفَ، الأَرْقَامَ، الفَوَاصِلَ وَالنِّقَاط.
ارْتَجَفَ ظِلُّ الزَّيْتُونَة،
مُتَأَهِّبَةً، أَدرْتِ رَأْسَكِ. الأَرْضُ،
أَنْتِ تَعْرِفِينَهَا أَفْضَلَ مِنِّي. لَم تَهرِبِين.
لَعَلَّكِ أَردتِ اَللَّعِبَ. الذَّيْلُ إِلَى اليَمِينِ، اَلذَّيْلُ إِلَى اَلْيَسَارِ،
وَالرَّأْسُ مُصَوَّبٌ نَحْوَ الأَعْلَى.

أَيَّتُهَا المَخْلُوقَةِ الصَّغِيرَةِ الكَبِيرَة، لَقَدْ سَكَنتِ
الأَرْض قبلِي. البَرَاكِينُ وَالفَيَضَانَاتُ وَالنَّيَازِكُ،
رَأَيْتِ. وَنَجَوْتِ.
مِنْ تِلْكَ الخَلْفِيَّةِ تُخَزِّنِينَ ذَاكِرَة.
الأَوْقَاتُ السِّرِّيَّةُ الَّتِي أُحَاوِلُ الْآنَ
فهمَهَا. يَا لَهَا مِنْ رِحْلَةٍ سَتَكُونُ، لَوْ تَثِقِينَ بِي.

وليد علاء الدين

غُبَارٌ مِن اَلتُّرَابِ الْأَحْمَرِ، اَلْعُشْبُ وَالْبُومَةُ الْأُمُّ.
الذِّهْنُ يَطِيرُ خَلْفَ الخُطَى، مِخْلَبًا هُنَا،
وَآخَرُ هُنَاكَ. آهٍ! لقد لَمَسْتِ حرفي "اللَّامِ" و"الألف" أيضًا. "لا"!
يَا لِلْخَسَارَةِ! كمْ هو قاسٍ قَرَارك.
نَظَرتِ إِلَيَّ حِينَهَا، وَدِيعَة وَمُنْصَاعَة:

أَنَا مَنْ اِخْتَارَ مَصِيرَهُ. أَهَذَا مَا تَعْنِيه؟
البِحَارِ تَصْرُخُ، الأَمْوَاجُ، نبضُ
قَلْبُكِ. يَجْعَلُونَ الصَّدَى مَسْمُوعًا،
مُعَوَّمًا مِنْ ذِكْرَيَاتٍ كَثِيرَةٍ،
أُغْمِضُ عَيْنِيّ، مِثْلُكِ، أَسْتَحْضِرُ فُتَاتًا مِنْ اَلطِّيبَةِ.

قَالَتْ الجَدَّةُ، جَاءَ وِعَاءَ اَلزُّهُورِ
لِطَلَبِ اَلْمَاءِ. لَمْ تَكُنْ خُرَافَةً
أُغْنِيَتُهَا. يَتَكَلَّمَ العَطَشُ، يَبْكِي اَلنَّدَى، دُمُوع
الصَّبَاحَ. المُزْهِرِيَّةُ تَمْشِي، تَبْحَثَ عَنْ المَاءِ،
القِطَطُ تَجْرِي فِي الفِناءِ، وَالطُّيُورُ تَشْتَكِي.
السَّمَاء تغرقُ فِي اَلضَّوْءِ اَلْأَزْرَقِ. اَلشَّمْسُ
وَالرِّيحُ أَيْضًا تُسَاعِدُهَا، تَدْفَعُهَا، غُيُومٌ... غُيُومٌ...
نَصْرُخُ تَحْت اللَّيْلَكْ. نِصْفُ حُلْمٍ زُهُورٌ دُونَ بَتَلَاتٍ.
آوِيهِ، يَا جَدَّتِي، أُتْرُكِيهَا تَنمو، إِنَّهُ اَلرَّبِيعُ.

تَعْرِفِينَ، أَنَا آتِ مِنْ هُنَاكَ. حَدَّقَتِ فِيَّ.
لَا، أَنْتِ تَعْرِفِينَ تِلْكَ اَلْأَرْض. زُرِعَتْ بِالْمَوْتِ
بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا. لَقَدْ اِنْتَهَى النُّزُوحُ الآنَ.
أَنْتِ وَأَنَا نَعْرِفُ ذَلِكَ. إِنَّهَا أَسْرَارُنَا اَلْعَظِيمَةُ،
أُلْقِيَتْ فِي اَلْبِئْرِ، وَلَنْ يَتَمَكَّنَ أَحَدٌ مِنْ صَيْدِهَا.
نظَرَتِ إِلَيَّ مِرَارًا وَتَكْرَارًا، مَذْهُولَة،
رُبَّمَا مُنْدَهِشَة؟ نَحْنُ نَأْتِي مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ. أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَنَا
عَلَى اَلْفَوْرِ، مُحْبَطِينَ مِنْ اَلْكَآبَةِ. عَلَى أَيِّ حَالٍ،
هَا أَنْتِ مَعي. تَعْرِفِين، لَقَدْ تَحَدَّثْتِ إِلَيَّ مَرَّة!
مَا أَجْمَلَ صَوْتَكِ. مُعْتَدِل، وَلَكِنَّهُ ضَئِيلٌ جِدًّا، حيثُ
يَبْدُو وَكَأَنَّهُ نَسِيمْ. دَمِث وَحَزين.

2023-10-03

القصيدة مترجمة عن الإيطالية

العنوان الأصلي للقصيدة: La lucertola

الزّنزانة الزّرقاء

أُرِيدُ المَطَر.. الشَّمْس،
رَبَّاهُ يَا لَلْمَلَلِ،
الجَسَدُ يَتَكَلَّمُ فِي الظَّلَامِ،
بِلَا حَرَاكٍ فِي الضَّوْءِ المُحْتَضِرِ.
رَجُلٌ آخَرُ فِي دَاخِلِي، بِخُطُوَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ،
يُحْصِي بَلَاطَ أَرْضِ الحُجْرَةِ
أُرِيدُ النُّجُومَ وَالسَّمَاءَ.
وَيَا حَبَّذَا اللَّيْلَ دَافِئاً،
جَلِيدِيَّةً عُيُونِ الفَجْرِ.
أَوَدُّ لَوْ أَنَّكِ اَلْوَرْدَةُ التي لَمَسْتُهَا فِي الحُلْمِ.
رَأَيْتُ الغُيُوم... وَجْهُكِ،
لكن ما مِنْ أَحَدٍ كَلَّمَنِي.

وَأَنَا الذي ينْتَظِرُ اللَّامُتَنَاهِي،
خُطْوَةً تِلْوَ أُخْرَى،
مُجَرَّدُ وَهْمٍ.
عَلَى الأَلوانِ الهَائِمَةِ،
تَنْتَهِي رِحْلَتِي، جُدْرَانٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ،
لَكِنَّ النَّهَارَ أَيْضًا،
لَيْسَ قَصِيرًا وَلَا طَوِيلاً،
عَالِقٍ فِي اَلزَّمَنِ.

الرِّيح... إِيقَاعٌ مُضْطَرِبٌ
لأَهَازِيجَ بَعِيدَةٍ،
تَنْتَابُنِي رَعْشَةٌ،
فَأَلْتَفِتُ،
يَا لِلْخَيْبَةِ،
أَنْتِ لَسْتِ هُنَا.

أَنَا أَعْرِفُكِ
فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ جَسَدِكِ،
لَكِنَّ اَلرُّوحَ؟

كَمْ مِنْ مَرَّةٍ
وَددتُ لَوْ أَلْمسكِ،
أَن أَجلِّكِ.
قَاسِيَةُ الذِّكْرَى التي شقتني
عَنْ ظِلِّكِ.

ثَمَّةَ اِبْتِسَامَةٌ دَائِمًا،
فِي أَمَاكِنِ العُزْلَةِ،
بَيْنَ سُطُورِ الرَّسَائِلِ،
عَلَى العُشْبِ الأَخْضَرِ:
أَنْكَرُ المُسْتَقْبَلَ،
أَتَمَنَّى أَنْ أَلْتِمَ الثَّلْج،
أَنْ أَحْضُنَ الأُفُق.
إِن لَمْ أَعُدْ،
إِن لَمْ أَتَذَكَّرْ عُنْوَانكِ،
انْتَظِرِينِي مَوْسِمًا آخَر.

فَأَنَا أَنْتَظِرُ بَرَاعِمَ الزُّهُورِ،
الشَّمْسُ اَلَّتِي تُدَفِّئُ القَلْبَ،
سُقُوطَ الأَوْرَاقِ،
المَطَرَ،
قَطْرَةً... قَطْرَةً... فِي الرُّوحِ،
يَا لِلْأَلَمِ.

2023-10-03

العنوان الأصلي للقصيدة Cella blu وهي مترجمة عن الإيطالية

رَأْفَة بِالْمَطَرِ

مَأْخُوذٌ مِنْ هَوْلِ بَرَاعَتِكِ، تَجَرَّأْتُ،
فِي بِرْكَةِ مَاءٍ، مُنْذُ سِنِينَ، أَغْفُو.
بِحارٌ يضِلُّ مِنْ يَطَأُ قِيعَانَهَا،
وَمُتْرَفٌ مِنْ يَجْثُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

خَشَعَ اَلْغَضَبُ أَمَامَ مَهْدِهَا، رَأْفَةٌ بِالْمَطَرِ اِبْتَهَلَ،
قَطْرَةٌ لَمْ تَلْتِمْ بَعْدُ اَلْفَمَ اَلشَّغُوفَ،

أملٌ أَيْنَعَ فِي خَفَايَا ذَاكِرَةٍ تَرقبُ اَلْجِيَادِ مِنْ عَلٍ،
جَبَابِرَةٌ، مِنْ قَوَامِ الرَّهْبَةِ يَنْحَدِرُونَ،
أَجِلَّاء، هَا هُمْ اَلْآنَ يَرْبضُونَ وَجَسَدُهَا يَرْتَفِعُ،
فَوْقَ كُلِّ رِيحٍ أَبَتْ أَنْ تؤود،
بِأَنَامِلِهَا اَلرَّقِيقَةِ، قَطَفَتْ سَحَابَةَ اَلْمَاءِ وَنَثَرَتْهَا فَوْقَ اَلْحُقُولِ،
حِكَايَةٌ لِطِفْلٍ سَيَأْتِي، حَامِلاً بِيَدٍ مِفْتَاحِ الجِدِّ،
وَبِالْيَدِ اَلْأُخْرَى، وِشَاح اَلْحَبِيبَةِ.

مِنْ حَقْلٍ مُجَاوِرٍ،
فِي أَقْصَى الزَّايِيَةِ المُطِلَّةِ على الحُدُودِ،
جَنَتْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ،
بَاقَةٌ مِنْ الخَبِيزَة وَأَزْهَارِ السَّحْلَبِ الجَلِيلِي.

هَا قَدْ أَتَيْنَا،
وَهَا نَحْنُ نَمْضِي مُطْمَئِنِّينَ،
ثَمَّةَ دائماً مِنْ يَحْرُسُ اَلْأَرْض.

لعبة الرحيل

تأمّلتُكِ ...
تأمّلتُكِ عشرات المرات قبل الرحيل،
بينما كنّا نرسم أحلامنا
بأقلام طريّة،
على الورق وعلى الجدران.

لا تخافي،
نحن نلهو فحسب:
الخيام بيوت الملائكة،
والسيول تأتي لتلعب مع الأطفال.
شقيّة هذه السيول، آه!
تجرف كل شيء في طريقها،
وتأخذه إلى شاطئ مجهول.
تأتي الطائرات الورقية،
لكنها بأعجوبة تبصق ناراً!
تهدم البيوت القديمة
وتحرق الأشجار.
هيا اختبئي لأبحث عنك،
فلنلعب الغُمَّيْضَة! ... الغُمَّيْضَة!

مِغْرَفة الحساء، كأس شاي الجَدّة،
قارورة ماء الورد وحقيبة مدرسية.
إنها أشياؤنا الخاصة
التي ستسافر معنا،
بعيداً عن أعين الحراس.

لا تقلقي،
ستسمعين أصواتاً بلغات مختلفة،
باليونانية والصربية والإيطالية والألمانية:
هوبلاااآ ... هيّا إلى الأعلى ... إلى الأعلى ...
هوبلاااآ ... حَلِّقي ... حَلِّقي ...
2023-10-03 بالأرجوحة سنقطع معاً مسالك الحدود.

ستكبرين بين هذه اللغات،
بأحرف مختلفة،
ستكتبين أسماءنا،
ولن تعرفي بعد الآن بأي لغة ستحلمين.

يحملون الزورق المطاطي عند الفجر،
بتؤدة يلقونه في الماء.
هيا اصعدوا! ... اصعدوا!
كالديك يصيح السمسار.

أشدّك إلى صدري ونَمْخُرُ عباب البحر.
هيّا اسبحوا ... اسبحوا.
نسمع أصواتهم من بعيد.

تحتضننا الأمواج،
تطفو أيدينا لثوانٍ فوق سطح الماء،
ليس ثمة متّسع للصراخ،

بعنف تسدّ المياه أفواهنا.

ميلانو 2022

القيامة يوم آخر

صهيل جياد وشمس على حافة المغيب.
اتبعوني ...
لننقل الضياء إلى مملكة الظلام.

داهمت العربات المدرّعة الحقول فجراً،
فاستيقظ الربيع.
صرخ جندي: أنتم ... تعالوا إلى هنا، وأخبرونا أين ينام الثلج؟
لم نحر جواباً.

وصاح جندي آخر:
هيا يا أوغاد، ، أخبرونا متى يحتفل القمر بكآبته؟
لم نحر جواباً أيضاً،
وضعونا على "الكرسي الألماني" لنشاهد صندوق الدنيا:
"اتفرّج يا سلام ...!".

اعترفنا، واحدنا تلو الآخر:
إنها تعيش بمفردها، هناك، في ذلك المنزل، وكلّنا نحبّها، أجَلْ.

ماذا كانت تقول؟

كانت تقول دائماً:
اتبعوني، لأن الفرح دائم مثل الأزل،
وقلبي لم يخفق بعد لأحد.
ثمّة أمل.

وكانت تكرّر باستمرار:
خمسة عقود يا أحبائي، امتداداً كنّا لفصول قاحلة،
لأغان ضجرة في ليالي الصمت الطويلة.
وماذا كانت تقول أيضاً؟
ثم فجأة لم تعد تعرف ماذا تقول،

انتظرتْ... هبّت، كتبت أسماء أحبّائها على الجدران،
مزّقت يومياتها وأودعتها مهبّ الريح.

وماذا بعد؟

اتبعوني ...
صرخت مرة بحزم، القيامة يوم آخر،
هيّا اطردوا الغربان، لتثمر أرضنا برقوق وحبق.

اتبعوني... ألحّت،
ها هي مملكتنا، كوخ من طين، ومرج يمتد حتى السرير.

نحن الحقيقة، ها أنا أناديكم،
هيّا إذن، دعوا الأحلام ترقد في سباتها الأبدي.

اتبعوني... اتبعوني، لنصل إلى الأفق قبل أن يموت البحر،
سنحلّق، ربّما، تحت سماء قاحلة، لكنها أرضنا،
أرصفة الكون أصغر من أن تتّسع لحزنها العارم.

2017

تلك الأرض

بيتي أقحوانة، وموتي ضياء،
في عروقي ينمو اللقاء.

وطني وشموس الغد، يتلألآن فوق الجزر المنفية،
حزمة شعاع للبائسين،
كسرة خبز وزعترْ،
زيتونة تحفر ظلّها على الطريق، نورج عتيق فوق البيدرْ.

أجعل من دفئي لحافاً،
لأذيب الصقيع الذي يكسو الوجوه المتعبة،
أنثر الغيوم فوق الحقول،
أرسم حبّات المطر على وجه السماء:
سيموت العطش قبل الإنسان،

وليد علاء الدين

سيموت الإنسان عطشاً،
تنهار السدود أمام الدمعة،
دمعة الغضب طوفان،
دمعة القهر بركان.

وطني العشب الأخضر، نسمة خريف وعنبر.
تلمع المناجل في ضوء النهار،
نهار مشرق، ضوؤه يغسل السهوب،
ولا حدود.
أحياناً أنسى بحاره وأنهاره،
أخجل من أشجاره وأحجاره.
جميل وطني الذي لم أعرف،
وإلاّ لماذا تبدو الطيور سعيدة، وهي تعود من هناك؟

ميلانو 2017/01/01

شامخ كالبركان

هذه قصة من هجر الريح والمركب،
وذهب ليعانق أرضاً لا تزال تعبق بالندى،
عيون تحدّق بصمت، مذهولة، تهيم في أشلاء الصدى.
يداً بيد، سنستمر، في الرحيل وفي البقاء،
لا ضرام الهول ولا الموت،
يمكنهما محو زرقة السماء، من عينيك.

تنطق بشفاه تنضح بطعم الغبار،
هناك تنبت زهرة، تنهض من بين الخراب،
موضع القلب حفرة هائلة،
أذكرى، أم حلم أتى عليه الدمار؟

هذا طريقنا، يمتد من هنا إلى الفضاء،
من الجسد الغارق في الأرض، إلى المجرّة،
إلى الذاهبين في الدجى، ليعودوا إلينا بومضة ضياء.

موتي شامخ كالبركان، يسع المنفى والسجون،
يسع الشمس، وأرض السفر،
عند حافة البؤس، بصمت يفترش السكون.

تعالوا إلينا،
نحن هنا باقون، مثل الأزل،
مثل الجراح الساكنة في صراخ الأمهات،
مثل القُبلْ،
ابتسامة، بهجة تغمر الجفون.

ميلانو 2016/06/11

كاتب ومترجم من سوريا يكتب بالإيطالية يقيم في ميلانو

تأريخ

المستعاد من سقوط طليطلة

محمود خضر

فيما اكتفى المسلمون بالحزن والألم، كانت كونستانز الفرنسية زوجةُ ألفونسو السادس ومعها كبيرُ الرهبان برناردو يعطيان أوامرهما بهدم محرابِ مسجدِ طليطلةَ الجامع، وبناءِ المذبحِ في مكانه، وفي مشهدٍ تراجيدي رُفعَ جرسُ الكنيسةِ أعلى مئذنةِ الجامعِ بحضورِ الملكةِ والقساوسةِ ووجهاءِ الإسبان النصارى، وعندما عادَ الملكُ ألفونسو من ليون كان تحويلُ مسجدِ طليطلةَ الجامع إلى كاتدرائيةٍ قد تمّ، فتظاهرَ بالغضبِ لمخالفةِ شروطِ التسليمِ التي وافقَ عليها عندَ دخولِه المدينة، ولكنَّهُ في أعماقِهِ، وبموافقةٍ مسبقةٍ، كان راضيًا عمَّا فعلتهُ زوجتُهُ والرَّاهبُ برناردو الذي سرعانَ ما رقاهُ ألفونسو ليشغلَ منصبَ رئيسِ أساقفةِ إسبانيا كلِّها، وجعلَ مقرَّهُ الدائمَ مدينةَ طليطلة، وسرعانَ ما تحولتْ المدينةُ كلُّها إلى النصرانيةِ وسطَ حالةِ الكمدِ والحزنِ التي انتابتْ المسلمين.

قبلَ 375 عامًا من هذا المشهدِ الفارق، كان طارقُ بن زياد الليثي بعدَ عبورِهِ وانتصارِهِ على جيوشِ القوطِ في أبريل عام 711 م يخترقُ على رأسِ جيشِهِ وسطَ شبهِ جزيرةِ أيبيريا صوبَ عاصمةِ القوطِ "طليطلة"، التي استولى عليها دونَ مقاومةٍ تذكر، بعدَ أن غادرها الزعماءُ والقادةُ وكبارُ رجالِ الكنيسة، مُحقِّقًا بذلكَ كسبًا عسكريًّا وسياسيًّا كبيرًا، وبادرَ إلى تنظيمِ شؤونِ البلادِ المفتوحةِ وتدبيرِ شؤونِ أهلها.

منذُ قيامِ الحكمِ الإسلامي في الأندلسِ ومدينةِ طليطلة وتوابعها تُعرف باسمِ "الثغر الأوسط" لوقوعها على المشارفِ الأندلسيَّةِ الشماليَّةِ المُلاصقةِ للممالكِ النصرانيةِ الإسبانية، فكانتْ خطَّ الدفاعِ الأمامي الأوَّلَ ضدَّ محاولاتِ نصارى الشمالِ استرداد الأندلس.

وكان الكثيرُ من الإسبان يعتقدونَ أنَّ غزوةَ المسلمينَ لبلادهم وَقْتية، ولن يلبثوا أن يعودوا إلى بلادِهم بعدَ أن يحصلوا على الغنائم والمغانم، ولكنَّهم وجدوا أنَّ المسلمين يرسخون لوجودهم ويعملون على اكتسابِ أراضٍ جديدةٍ في كلِّ اتجاه، فهبَّ أهلُ طليطلة بما لها من خصوصيةٍ رافضينَ وجودَ المسلمينَ كدولةٍ في مدينتهم أو على كاملِ الأراضي الإسبانية، وسرعانَ ما تحوَّلَ هذا الرَّفضُ إلى كراهيةٍ عميقةٍ للإسلامِ والمسلمين إذ أنَّ طليطلةَ قاعدةٌ مهمةٌ للدين المسيحي في إسبانيا.

وبرغمِ كراهيةِ أهلِ طليطلةَ للإسلامِ والمسلمين، كانتْ سلطاتُ قرطبةَ المسلمة تعاملهم بلطفٍ وتسامح، ولذلك فإنه ومنذُ سنواتِ دخولِ المسلمين الأولى أخذَ أهلُ طليطلةَ في التحولِ بالتدريجِ وببطءٍ من النصرانيةِ إلى الإسلام، وكان ذلكَ مصحوبًا بحركةِ تعريبٍ ونشرٍ للغةِ العربية، فكانَ على الذين اعتنقوا الإسلامَ أن يبادروا إلى تعلُّمِ اللغةِ العربيةِ لفهمِ أحكامِهِ وقواعده، وأيضًا لسهولةِ التعاملِ معَ الحُكامِ الجُدد. وبعدَ مرورِ حوالي خمسينَ سنةً على دخولِ الإسلامِ إلى طليطلةَ كان قد نشأ جيلٌ جديدٌ من أبنائها الأصليين في ظلِّ الإسلامِ واللغة العربية.

وفي أواخرِ القرنِ الثامن الميلادي، كان الإسبانُ الأصليّون الذين اعتنقوا الإسلام وصاروا يُعرفون باسم "المولّدون" يمثلونَ أكثريةً غالبةً في طليطلة وصارَ لهم شأنٌ في حياةِ المدينة. أمَّا الذين تمسَّكوا بالنصرانيةِ وتعلموا اللغةَ العربيةَ وتعاملوا بها فقد أُطلِقَ عليهم اسم "المستعربون".

انقضى عصرُ الولاةِ في الأندلس بما كان فيه من خلافات، وظلَّ أهلُ طليطلةَ مستمرّين في موقفهم الرَّافضِ والكارهِ لحكَّامِ قرطبةَ المسلمين، وبدأ عصرُ الإمارةِ على يدِ الأميرِ عبدالرحمن الأول الملقب بـ"عبدالرحمن الدَّاخل" القادمِ من المشرقِ هاربًا من سيوفِ العباسيين، والذي حرصَ منذُ البدايةِ على القضاءِ على قواعدِ الرفضِ والتمرُّدِ وفي مقدمتها طليطلة.

وتمكَّنَ عبدُالرحمن الدَّاخل من إخضاعِ حركاتِ التمرُّدِ والعصيانِ في طليطلةَ بقوةِ السلاح، واستكانتْ المدينةُ لسلطةِ قرطبةَ

لفترةٍ قليلةٍ إذ أن الدَّاخلَ تُوفي، وبوفاتهِ شقتْ المدينةُ عصا الطاعةِ وظلَّتْ على تمرُّدِها وعِدائها التقليدي لسلطةِ قرطبة، إلى أن كلَّفَ الأميرُ الحكمُ الأولُ أحدَ قوَّادِه الكبار في قرطبة "عمروس بن يوسف" - المُوَلّد من أصلٍ إسباني -بالقضاءِ على تمرُّدٍ خطيرٍ كان قد شبَّ في طليطلة.

رأى ابن عمروس أنَّهُ لن يمكنَه القضاءُ على هذا التمرُّدِ إلا بالحيلةِ والخِداع، فاستطاعَ بواسطةِ أعوانِهِ من المولَّدين داخلَ طليطلةَ اغتيالَ قائدِ التمرُّدِ "عبيدة بن حميد ثورة"، وتمكَّنَ من دخولِ المدينةِ دونَ قتال، واطمأن إليه أهلُها واستكانوا، واختار أن يقيمَ هو وجندُهُ في قصرٍ منيفٍ بناهُ على ربوةٍ مرتفعةٍ خارجَ المدينةِ عندَ المدخلِ الرئيس لها، وشرعَ في تنفيذِ خطةٍ مُحكمةٍ كلَّفَهُ بها الأميرُ حكمُ الأول تضمنُ له إخضاعَ طليطلةَ لسلطانه إلى الأبد، حيثُ دَعا وليَّ عهدِ قرطبةَ الأميرَ عبدَالرحمن بن الحكم إلى وليمةٍ ملكيةٍ فخمةٍ في قصرِهِ المُنيفِ، ووجَّهَ ابن عمروس الدعوةَ إلى قادةِ طليطلةَ وكبارِها من العلماءِ والأعيانِ وكلِّ من كانَ محلَّ شكٍّ في ولائه، واقتضتْ خطتُهُ أن يدخلَ المدعوونَ من البابِ الرئيس للقصرِ، ويخرجوا بعدَ الوليمةِ من بابٍ آخر، وأمرَ ابنُ عمروس أن تقرعَ الطبولَ أثناءَ الاحتفال. وكان موظفو القصرِ يستقبلونَ (المدعوين) ثم يرافقونهم عندَ الانصرافِ من البابِ الآخر، والذي كان ينتظرهم عنده مجموعةٌ من السيافين المهرة كُلِّفوا بضربِ كلِّ من يصل للخروجِ فُرادى أو جماعات والدفعِ بالقتلى إلى حفرةٍ عميقةٍ أعدَّها خصيصًا لهذا الغرضِ، لتُردَمَ عليهم بعدَ الانتهاءِ من المذبحة، ولم يفطنْ أحدٌ إلى ما يدورُ رغمَ صرخاتِ القتلى التي تلاشتْ وسطَ أصواتِ القرعِ العالي للطبولِ، وتمكَّنَ ابنُ عمروس بهذهِ الخطةِ الخبيثةِ في يومٍ واحدٍ من قتلِ أكثر من سبعمائة رجلٍ من قادةِ وأعيانِ وكبارِ القومِ في طليطلةَ سنة 181هـ (797 م)، وعُرفت هذه الخطةُ الداميةُ في تاريخ الأندلسِ باسمِ "حفرة عمروس".

هدأ التمرُّدُ في طليطلةَ عدةَ سنوات، ولكن أحداث "حفرة عمروس" ظلَّتْ تعمّقُ روحَ كراهيةِ أهلِ المدينةِ للسلطةِ المركزيةِ في قرطبة. وعندما تولَّى الأميرُ عبدالرحمن الثاني (الأوسط) الذي عُرف بصلابته وقسوةِ إداراته حكمَ قرطبةَ في سنة 206 هـ (822 م) اختارَ أهلَ المدينةِ الميلَ قليلاً إلى الهدوءِ النسبي، وإن كانوا قد تحولوا إلى إشاعةِ الفوضى والخرابِ في المناطقِ والحقولِ المجاورةِ، وسلبِ المباني والمنازلِ بعدَ قتلِ سُكانِها من العرب والبربر.

تمادتْ طليطلةُ في عدائها لسلطةِ قرطبةَ وأجمعَ المولَّدون والمستعربون والبربر في المدينةِ والنصارى في المنطقة كلِّها على اختيارِ زعيمِ التمرُّدِ الكاهنِ أولوخيو لمنصبِ رئيسِ أساقفةِ المدينةِ خلفًا للأسقف "وسترمير" الذي تُوفي. وكان -ومازال- من يتولَّى منصبَ رئيسِ أساقفةِ طليطلةَ في ذلكَ الوقتِ يرأسُ الكنيسةَ الكاثوليكيةَ في إسبانيا كلِّها، لم تعترفْ سلطاتُ قرطبةَ بتعيينِ أولوخيو في هذا المنصبِ ولم تباركه، إذ كانَ هذا حقًّا تقليديًّا لأميرِ قرطبةَ منذُ استيلاءِ المسلمينَ على طليطلة.

هنا كانَ المحافظونَ المسيحيونَ الإسبان قد وصلوا إلى مرحلةِ الرَّفضِ المُطلقِ للمسلمينَ ولدولتهم، موقنينَ أنَّ حركةَ المدِّ الإسلامي والتعريبِ سوفَ تقضي لا محالةَ على ما تبقَّى للنصرانيةِ والقوميةِ الإسبانيةِ في شبهِ الجزيرةِ الأيبيرية، فلجؤوا بزعامةِ الرَّاهبِ المستعربِ "أولوخيو"، إلى المقاومةِ السلبيةِ من خلالِ سبِّ الدينِ الإسلامي ورسولِ الإسلامِ والمقدساتِ الإسلاميةِ في الأسواقِ العامَّةِ وأمامَ المساجدِ أثناءَ صلواتِ الجماعة، فلجأتْ حكومةُ قرطبةَ إلى توقيعِ عقوبةِ الإعدامِ على كلِّ مستعربٍ يسبُّ الإسلامَ ونبيَّ الإسلامِ، وأُعدِمَ الكثيرُ منهم ولكنَّ هذهِ الظاهرةَ لم تتوقفْ بل إنَّ شبابًا كثيرين من المستعربين في قرطبةَ وخارجها كانوا يسبُّون الإسلامَ ونبيَّ الإسلامِ طلبًا للموت والشهادة، ولقيتْ هذهِ الحركةُ صدًى هائلًا في طليطلة، وتحوَّلَ "أولوخيو" في نظرهم إلى بطلٍ قومي لمجردِ أنَّهُ تصدَّى للسلطاتِ المركزيةِ في قرطبة، وشملتْ الحركةُ المولّدين والمستعربين بل والبربر المسلمين في طليطلة كراهيةً في أمراءِ قرطبةَ وتمرُّدًا عليهم.

نفدَ صبرُ الأميرِ محمد بن عبدالرحمن من كثرةِ ثوراتِ أهالي طليطلةَ وتمرُّدِهم ضدَّ السلطةِ المركزيةِ في قرطبةَ، فقادَ في سنة 244 هـ (صيف 858 م) حملةً عسكريةً هائلةً، وحاصرَ المدينةَ ومنعَ عنها المددَ خاصَّةً من نصارى الشمال، وكان يربطُ المدينةَ بالمنطقةِ المحيطةِ بها قنطرةٌ ضخمةٌ تعبرُ فوقَ نهرِ التاجه، فأصدرَ الأميرُ أوامره

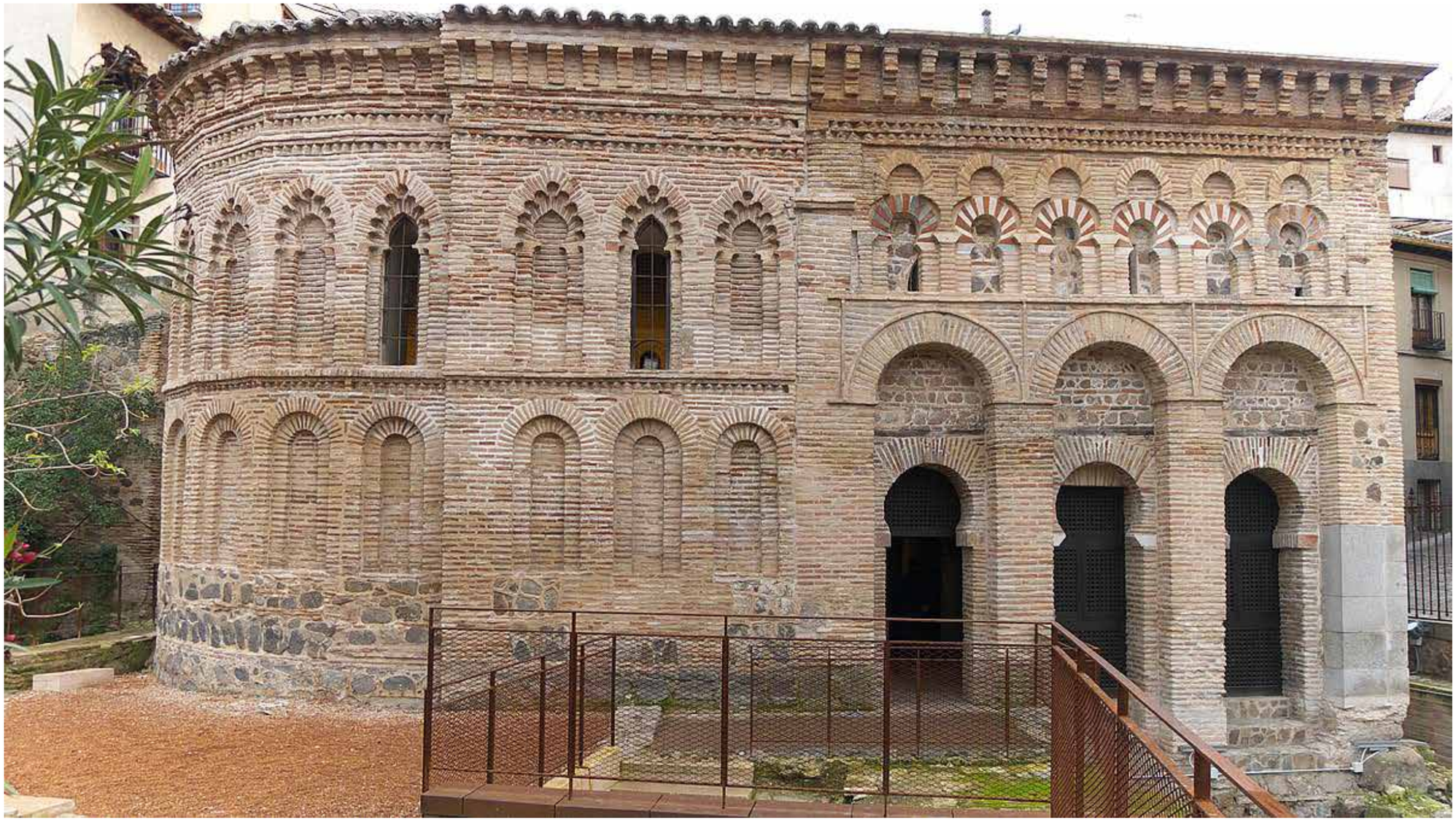

إلى مهندسي جيشِهِ بخلخلةِ القواعدِ التي تحملُ القنطرة.

أثبتَ الأميرُ محمد أنَّه قائدٌ عسكريٌّ خبيثٌ بإتلافِهِ قواعدِ القنطرةِ إذ أنَّ جموعَ أهالي طليطلةَ لمَّا اشتدَّ عليهم الحصارُ وعزَّتْ الأقوات، وبدأ البعضُ منهم يموتُ جوعًا أمرَ الأميرُ قوَّادَهُ برفعِ الحصارِ عن المنطقةِ التي بها القنطرةُ فوقَ نهرِ التاجه، ولمَّا شعرَ الأهالي الجائعونَ بأنَّ طريقَ القنطرةِ أصبحَ مفتوحًا اندفعتْ جموعُهم الهائلةُ نحوَها، ولكنَّ القنطرةَ لم تتحملْ أثقالَ الناسِ فانهارتْ وسقطتْ بهم في النهرِ جَوعى لا حولَ لهم ولا قوَّة، فماتَ منهم خلقٌ كثيرٌ إمَّا غَرقى في مياهِ النهرِ أو تحتَ أنقاضِ القنطرة، وحتى الذين نجوا ونجحوا في الهربِ نحوَ المدينةِ قُتلوا بسهامِ القنَّاصةِ الذين كانوا ينتظرونهم على الجانبِ الآخر للنهر. وحلَّتْ بطليطلةَ الكارثةُ إذ أنَّ جيوشَ الأميرِ اقتحمتْ المدينةَ ودمَّرتْ كلَّ مظاهرِ الحياةِ والعُمرانِ فيها وأحرقتْ كلَّ شيء، ثمَّ أمن الأميرُ لمن تبقَّى من أهلِها في نفسِه دونَ مالِهِ وعتادِه، وأخذَ صغارَ وجهائها رهائنَ وأقامَ فيها قاعدةً عسكريةً تضمنُ الولاءَ والطاعةَ لأميرِ قرطبة، وبعدَ هذهِ الكارثةِ ظلَّتْ طليطلةُ ساكنةً مدةَ عشرِ سنواتٍ كاملة، وكان الأميرُ يجدِّدُ لها الأمانَ في كلِّ سنة.

أصبحَ المولّدون يشكِّلونَ نسبةً كبيرةً من التركيبةِ السُّكانيةِ في الأندلسِ عامَّةً وطليطلةَ خاصةً، ورغمَ اعتناقهم الدين الإسلامي ظلوا يحتفظونَ في داخلهم بولائهم وحبِّهم للقوميةِ الإسبانية، وحافظوا على رفضهم لسياسةِ بني أُميَّة القائمةِ أساسًا على تفضيلِ ذوي الأصولِ العربيةِ من السكانِ، وتقديمهم على من عداهم، فلما وقعتْ ثورةٌ عارمةٌ ضدَّ الأمويين في جنوبِ الأندلس قبلَ وفاةِ الأميرِ محمد بقليل، وكانت هذه الثورةُ يقودُها أحدُ المولّدين ويُدعى "الجزيري" سنة 265 (879 م). ثم وقعتْ ثورةٌ عارمةٌ أُخرى بقيادةِ عمر بن حفصون شملتْ المولّدين والبربر، تجاوبَ أهلُ طليطلةَ على الفورِ مع هاتين الثورتين، وما إن تُوفي الأمير محمد بن عبدالرحمن وتولَّى الإمارةَ ابنُه "المنذر"، حتى خرجَ أهلُ طليطلةَ عن عهدِ الأمانِ ورفعوا رايةَ العصيانِ والتمرُّدِ مرةً أُخرى ضدَّ قرطبة، واندلعتْ الثوراتُ وحركاتُ الانفصالِ في معظمِ أقاليمِ الأندلس.

وفي سنة 274 هـ (888 م) كانتْ طليطلةُ قد خرجتْ عن سلطةِ قرطبة، لكنَّها وقعتْ تحتَ نفوذِ موسى بن ذي النون أحدِ كبارِ زُعماءِ البربرِ من قبيلةِ "هوارة"، وقد بدأ بن ذي النون في تعميرِ المدينةِ وتشييدِ القلاع والحصون. مرَّتْ عدَّةُ سنواتٍ إلى أن تولى عبدُالرحمن الثالث (الناصر) حكمَ الأندلس، فسارعَ لب بن طربيشة حاكمُ طليطلةَ وقتها إلى إعلانِ ولاءِ مدينته للأميرِ سعيًا للسلامِ والاستقرار، ولكنَّ أهلَّ المدينةِ ظلُّوا على روحِ العصيانِ والتمرُّدِ التي لم تكن خافيةً عن عبدِالرحمن الناصر، فخطَّطَ منذُ سنةِ 318 هـ (930 م) لإخضاعِها حربًا وتمكَّنَ من ذلكَ سنةَ 320 هـ (932 م) واستولى على كلِّ مواقعِها الحصينة، فتحوَّلتْ طليطلةُ من العصيانِ المُطلقِ للمركزيةِ في قرطبةَ إلى الطاعةِ المُطلقةِ لها، حتى أنها اندمجت تمامًا في الحياةِ

السياسيةِ والاجتماعيةِ في الأندلسِ في عصرِ عبدِالرحمن الناصر. كما ظلَّ الأمرُ كذلكَ في أيامِ المنصورِ بنِ أبي عامر الذي كان حكمُهُ الاستبداديُّ كفيلًا بسحقِ أيِّ حركةِ تمرُّدٍ أو عصيان.

مرَّتْ الأيامُ إلى أن تولَّى عبدُالرحمن بنُ المنصورِ بنُ أبي عامر الملقب بـ "شنجول" مقاليدَ الأمور، ثم حدثَ أن دخلتْ الأندلسُ كلُّها في عصرِ الخليفةِ هشامِ المؤيدِ في مرحلةٍ خطيرةٍ من الفوضى والاضطرابِ والفتنِ المُدمِّرةِ انتهتْ بسقوطِ الخلافةِ الأمويةِ في الأندلسِ، وقيامِ ما عُرفَ في تاريخِ الأندلسِ باسمِ "ممالك الطوائف". انتهزتْ طليطلةُ الفرصةَ وأعلنَ أهلُها الانفصالَ الكاملَ عن سلطةِ قرطبة، لتصبحَ واحدةً من أكبرِ ممالكِ الطوائف.

وكان إسماعيلُ بنُ عبدالرحمن بن عامر بن ذي النون هو أوَّلُ ملوكِ الطوائفِ الذي أعلنَ الاستقلالَ عن السلطةِ المركزيةِ في قرطبة. وطوالَ مُدةِ حكمِهِ التي لم تَطُلْ كثيرًا كانَ إسماعيلُ حريصًا على انتهاجِ سياسةِ العِداءِ الشديدِ لأيِّ محاولةٍ لتوحيدِ أقاليمِ الأندلسِ مرَّةً أُخرى وبصفةٍ خاصَّةٍ إذا كانتْ قاعدةُ هذهِ الوحدةِ ستكونُ خارجَ طليطلة.

وكان إسماعيلُ منذُ توليهِ حكمَ طليطلةَ حريصًا على اتباعِ سياسةِ الحيادِ الكاملِ في الصراعاتِ التي دارتْ بينَ العربِ والبربر، ولم يُشاركْ صراعات حكامِ أشبيلية العرب، وحكامِ البربر بزعامةِ آل حمود، وقد أدَّتْ سياسةُ الحيادِ هذه إلى أن يعيشَ بمملكتهِ طليطلة في عزلةٍ شديدةٍ بينَ ممالكِ الطوائف.

لم تَطُلْ سنواتُ حُكم إسماعيل بن ذي النون، إذ أنَّه تُوفي وهو في قمَّةِ عظمتهِ وقوتهِ تاركًا مملكةَ طليطلة قويةً مُزدهرةً سنة 435 هـ (1043 م)، وكان إسماعيلُ هو المؤسس الحقيقي لهذهِ المملكةِ وصانع مجدها وشهرتها. وتولى بعدَه المأمونُ يحيى بنُ إسماعيل بن ذي النون الذي ما إن فرغَ من سلسلةِ حروبهِ معَ جاريهِ ابنِ هودٍ ملكِ سرقسطة وابن الأفطسِ ملكِ بطليوس حتى انزوى داخلَ مملكتهِ مُتَّبعًا سياسةَ الحيادِ حيالَ ما يجري بينَ مسلمي الأندلسِ ونصارى الإسبان وحتى بينَ المسلمينَ بعضِهم البعض، كما التزمَ بسياسةٍ عسكريةٍ تهدفُ فقط إلى الدفاعِ عن حدودِ مملكتهِ ومصالحِها، ممَّا أدَّى إلى حدوثِ ازدهارٍ اقتصاديٍّ كبيرٍ ظهرتْ آثارُهُ بشدَّةٍ أوائلَ العقدِ السادسِ من القرنِ 11 م.

بعدَ فترةٍ قرَّرَ المأمونُ تفعيلَ "اتفاق الجماعة" واحتلالَ قرطبة، فتظاهرَ المُعتمدُ بنُ عباد حاكمُ إشبيليةَ أنهُ يحترمُ الاتفاقَ المعقودَ بينَ المأمونِ بنِ ذي النون وأبيهِ المعتضدِ بن عباد الذي يُعطي الحقَّ للمأمون في الاستيلاءِ على قرطبة، ولكنَّه كانَ في الواقعِ يصنعُ المستحيلَ لعدمِ تحقيقِ ذلكَ، وكانَ يطمعُ ويخطِّطُ في ضمِّ قرطبةَ لسلطته.

كانَ المأمونُ يرى أنَّهُ بطولِ حِصارِهِ لمدينةِ قُرطبةَ سوفَ يجعلُ أهلَها يستسلمونَ عندَما تنفدُ أسلحتُهم ومؤنهم، حيثُ أخبرهُ جواسيسُهُ أنَّ المدينةَ غيرَ مؤهلَّةٍ لتحمُّلِ الحصارِ الطويل. وعلى خلافِ ما توقَّعَ فقد صمدتْ المدينةُ وطالَ صمودُها ودافعَ عنها أهلُها ببسالةٍ منقطعةِ النظير، وأصبحَ المأمونُ يواجهُ موقفًا غايةً في الصعوبةِ خصوصًا أنَّ المعتمدَ بنَ عباد لم يقدِّمْ له المساعدةَ العسكريَّةَ التي تعهَّدَ بها والدُهُ المعتضد، بل على العكسِ من ذلكَ استغاثَ عبدُالملكِ بنِ جهور حاكمُ قرطبةَ بالمعتمدِ بنِ عباد للتدخُّلِ لإنقاذِها.

واضطر المأمونُ إلى الانسحابِ عائدًا إلى عاصمتِهِ طليطلةَ مقهورًا بعدَ وصولِ عددٍ كبيرٍ من فرسانِ ابنِ عباد لمساعدةِ قرطبةَ، وكانَ أكثرُ ما ساءَ المأمون هو خيانةُ بني عباد له وعدمُ تنفيذهم العهودَ التي قطعوها على أنفسهم بمساعدته.

وفي سنة 461هـ (1073م) شنَّ المأمونُ بنُ ذي النون هجمةً عسكريةً عنيفةً على قرطبةَ بمساعدةِ حليفهِ ألفونسو السادسِ ملكِ قشتالة لم تسفر عن نتيجةٍ سوى الحصولِ على الأسلابِ والغنائم، وبعدَ هذهِ الهزيمةِ الثانيةِ وجدَ المأمونُ بنُ ذي النون أنَّهُ لن يستطيعَ أن يستوليَ على قرطبةَ إلا بطريقِ التآمرِ والخديعةِ والدسيسةِ، فاتصلَ من فورهِ بعميلٍ وصديقٍ لهُ من رجالهِ اسمهُ الحكمُ بنُ عكاشة، وكانَ من رجالِ الوزيرِ الشهيرِ "ابن السقاء" وزيرِ آل جهور في قرطبة. طلبَ المأمونُ من ابنِ عكاشة أن يحيكَ مؤامرةً متقنةً تمكنهُ من تحقيقِ حلمهِ في امتلاكِ قرطبةَ وضمِّها إلى عرشِ طليطلةَ ليبدأ منها خطةَ إعادةِ توحيدِ الأندلسِ ويُعيدَ أمجادَ عصرِ الخلافةِ الزَّاهرة.

تمكَّن ابنُ عكاشة بدهائهِ النادرِ من بناءِ علاقاتٍ وثيقةٍ برجالاتِ ووجهاءِ قرطبةَ من الكارهين لحكمِ بني عباد، كما استخدم سلاحَ المالِ والهدايا النفيسةِ لشراءِ ولاءِ حاميةِ قرطبةَ وقواعدِها، وتمكَّنَ بمساعدةِ رجالهِ من التَّسلُّلِ إلى المدينةِ ليلًا ودخولِ القصرِ وقتلِ سراجِ الدولة - المظفر ابن المعتمد بن عباد من زوجته اعتمادٍ الرميكية - واحتزاز رأسهِ والطوافِ بها في شوارعِ قرطبةَ لبثِّ الرُّعبِ في قلوبِ الأهالي، ثمَّ أرسلَها إلى المأمونِ في طليطلة، وبعدَ أن تأكَّدَ ابنُ عكاشة من أن قرطبةَ أصبحتْ في قبضتهِ دخلَ المسجدَ الجامعَ واعتلى المنبرَ وخاطبَ الناسَ داعيًا لهم أن يُعلنوا الولاءَ للمأمونِ بن ذي النون، فتجاوبَ الناسُ لهذهِ الدعوةِ إمَّا خوفًا من المأمونِ وإمَّا كُرهًا في آل عباد.

وفي يناير 1075 م دخلَ المأمونُ ابنُ ذي النون قرطبةَ معَ حاشيتهِ ورجالهِ وشعرَ المأمونُ، وهو يخترقُ شوارعَ المدينةِ متوجهًا إلى القصرِ، أنَّ الطريقَ أصبحتْ سهلةً أمامَه لتحقيقِ أمنيتهِ القديمةِ في توحيدِ الأندلسِ كما كانتْ في عصرِ الخلافة.

لم تكنْ اللغةُ العربيةُ هي اللغةُ الأمُ بالنسبةِ إلى أهلِ المدينةِ فقد تعلموها على كِبرٍ بحكمِ استمرارِ اختلاطِهم واضطرارهم إلى تعلُّمها حيثُ أنها لغةُ الحكامِ لتسهيلِ أمورِ حياتهم، وعليه فقد كانتْ مكانةُ الشعرِ والأدبِ العربي في طليطلةَ محدودةً على الرغمِ من التقدمِ والازدهارِ فيها؛ إذ لم يكن تراثُ الحضارةِ العربية عميقَ الجذورِ في ضمائرهم، ومن ناحيةٍ أُخرى لم تكن روابطهم السياسيةُ بالعنصرِ العربي متجذرةً في عقولهم، وكثيرًا ما كانوا يعبِّرون عن عدمِ رضاهم أو قبولهم لسيادةِ العنصرِ العربي، ولهذهِ الأسباب لم تقدم طليطلةُ شاعرًا عظيمًا مثلَ ابنِ زيدون أو المعتمد بن عباد.

وبالرغمِ ممَّا تقدم، استطاعَ المأمونُ بهداياه الثمينة وأمواله الوفيرة أن يجتذبَ إلى بلاطه عددًا من الشعراءِ الذين كانوا في هذا العصرِ يتنقلونَ بين قصورِ ملوكِ الطوائفِ جريًا وراءَ العطايا والهبات.

وفي مجالِ العلومِ منحَ المأمونُ العلماءَ والباحثين في طليطلةَ الحريةَ في البحثِ والدراسةِ ودعمهَم برعايته المادية، فازدهرتْ إلى حدٍّ كبيرٍ دراساتُ الطبِّ وعلمِ النباتِ حتى أن طليطلةَ أصبحت الوجهةَ التي يطلبُها العلماءُ في سائرِ دولِ ملوكِ الطوائف.

وفي مجالٍ آخرَ من مجالاتِ الحضارةِ

العلميةِ في طليطلة كانَ المأمونُ بن ذي النون مهتمًّا إلى حدٍّ كبيرٍ بالعلومِ البحتةِ، وبعد فترةٍ من توليته نجحَ في أن يحولَ عاصمتَه إلى مركزٍ مهمٍ لدراساتِ وأبحاثِ الفلك والرياضيات.

يميلُ المؤرخون إلى أن المأمونَ كان قادرًا على تحقيقِ حلمه باستعادةِ الخلافةِ في الأندلس لولا وفاته بعدَ دخولِ قرطبةَ بستَّةِ أشهرٍ فقط إذ أنه تُوفي في يونيو 1075 م (467 هـ)، ويُقالُ إنهُ ماتَ مسمومًا.

ماتَ المأمونُ وتركَ فراغًا سياسيًّا هائلًا، ودخلتْ مملكةُ طليطلة مرحلةً خطيرةً من التفكُّكِ واكتنفتْ خلافتهُ حالةٌ من الغموضِ الشديدِ بل والاضطراب، فقد خلفهُ حفيدُه يحيى بن إسماعيل وتلقب بـ"القادر".

وقد أجمعَ المؤرخون على أنهُ بعدَ وفاةِ المأمون في قرطبة حُملَ جُثمانهُ في نفسِ يومِ وفاتهِ إلى طليطلةَ حيثُ استقبله عندَ مشارفها حفيدُهُ يحيى القادر بصفتهِ الملك الجديد لمملكةِ طليطلة، ثم أُجريتْ مراسمُ تتويجهِ ملكًا في اليوم التالي.

حين ارتقى يحيى القادر عرشَ طليطلة - وهو الذي نشأ بين نساءِ بلاطِ جدهِ وجواريه يدبرنَ له شؤونهُ ويشكِّلنَ شخصيتهُ وأفكاره - سُرعانَ ما سلَّمَ قيادةَ أمورهِ إلى رجالِ الطبقةِ الأرستقراطية في المملكة يلبّي طلباتهم ويحقق لهم طموحاتهم المتطرفة، فارتكبَ حماقاتٍ وأخطاءَ كبيرةً في الأيام الأولى لتوليه العرش، ومنها تدبير مؤامرةِ قتلِ الوزير المُحنك ابن الحديدي الذي كان بمثابةِ العمودِ الفقري الذي يرتكز عليه استقرارُ طليطلة وقوتها وتماسكها منذُ الحقبةِ المبكِّرة لحكم المأمون.

ومن ناحيةٍ أُخرى بدأ ملوكُ الشمالِ النصارى اقتطاعَ ما تصلُ إليهِ أيديهم من أراضي المملكةِ المتهاويةِ، فحاصرَ سانشو راميرز مدينةَ قونقة الصناعية المهمة، وكادَ يستولي عليها لولا أن أهلَ المدينة قدموا مبلغًا كبيرًا جدًّا من المالِ بجانب الهدايا النفيسة إلى سانشو لافتداء مدينتهم، فانصرف عنها، وفي نفسِ وقت حصار ملكِ أراجون لمدينة قونقة، كان المقتدرُ بن هود ملك سرقسطة - الذي يحمل قدرًا هائلًا من العداء والحقد لمملكةِ طليطلة وآل ذي النون - يتأهَّبُ لغزوِ أراضي طليطلةَ المتاخمةِ لمملكته، واستولى على مدينتي مليقة وشنتبرية، وهنا قرَّرَ القادرُ اللجوءَ إلى ما تبقَّى عنده من قوة جيشهِ للدفاعِ عن سمعته وحدود بلادهِ، ودفعَ بقواته للدفاع عن مدنهِ الثلاث قونقة التي يحاصرها سانشو، ومليقة وشنتبرية اللتين استولى عليهما ابن هود، ولأنَّ الملكين كانا يدركان أن طليطلة مازالت تحتفظُ بشيءٍ من قوتها التي كانت لها في عهد المأمون، قام سانشو بفكِّ الحصار عن قونقة في مقابل ما حصل عليه من أموالٍ وهدايا، أمَّا ابن هود فقد أمر جنوده بسلبِ ونهب كل شيء في المدينتين، وغادرهما وهو محمَّلٌ بالأسلابِ والغنائمِ والسبايا وتركهما خرابًا وعاد إلى سرقسطة.

وبالرغمِ من انسحابِ سانشو وابن هود بجيشهما فإنَّ القادرَ بن ذي النون لم يستعد هيبةَ المُلك، واقتنعَ رعاياهُ أنهُ ملكٌ ضعيفٌ غيرُ قادرٍ على حمايةِ حدودِ بلاده، وهذا جعله هو نفسه يتأكد بأنه لا يستطيعُ الاستمرارَ في حكمِ طليطلة في مواجهةِ مُعارضةٍ داخليةٍ عنيفةٍ وخصومةٍ خارجيةٍ مع جيرانهِ تزداد عنفًا يومًا بعدَ يوم، ووجدَ أنَّه لم يعد أمامَه مَفر من أن يتجهَ إلى ألفونسو السادس ملكِ قشتالة حليفِ جدهِ وصديقهِ يلتمسُ منهُ العونَ والحماية، وكان المأمونُ يؤدي الجزيةَ السنويةَ إلى ألفونسو في مقابل مساعدتهِ وحمايتهِ من أيِّ اعتداءٍ من جيرانه، وحذا القادرُ حذوَ جده، وفي المقابلِ اشتطَّ ألفونسو في مطالبهِ من المال حتى كادتْ خزائنُ القادر أن تنضب.

كانَ المجتمعُ الطُليطلي منذُ عهدِ المأمون يضمُّ جماعةً كبيرةً من المولّدين وهم المسلمون من أصولٍ إسبانيَّةٍ نصرانيةٍ ورغمَ اندماجهم في الأوساطِ الإسلاميةِ فإنهم يميلونَ إلى قوميتهم الإسبانيةِ، وكانَ لديهم دائمًا الاستعدادُ للتعاونِ معَ نصارى الشمالِ حتى منذُ عصري الإمارةِ والخلافة.

ومن ناحيةٍ أُخرى كانَ المجتمعُ الطُليطلي يشملُ جماعةً محافظةً متشدِّدةً في مواجهةِ المولّدين المتساهلين في التعاملِ مع نصارى الشمال، وهذه الجماعةُ كانتْ تضمُّ طبقةَ الفُقهاءِ ورجالِ الدينِ والعرب، وكانت هذه الجماعةُ ترفضُ سياسةَ القادرِ وترى أن ضعفَهُ واستعدادَهُ الدائمِ للتنازلِ للإسبانِ عن أجزاءٍ من أراضي طليطلة، ودفعَ الأموالِ والجزيةِ لهم سيؤديان حتمًا إلى دفعِ المسلمين في الأندلسِ إلى الهاوية. ودخلَ المتساهلونَ والمتشدّدونَ في صراعٍ سياسي واجتماعي عنيفٍ كشفَ عن هشاشةِ الوحدةِ الوطنيةِ في مملكةِ طُليطلةَ التي كان قد أرسى المأمونُ ابنُ ذي النون قواعدَها وأذابَ الخلافات العصبيةَ والمذهبيةَ والطائفيةَ بينها وأظهرَ وحدةَ الأمة.

فقد القادرُ سيطرتَهُ على طليطلةَ وقامتْ الثورةُ الشعبيةُ ضدَّهُ واستنجدَ بألفونسو السادس، ولكن لم تصل النجدةُ من ألفونسو، واصطدمَ القادرُ مع كبارِ رجالِ دولته، وثارتْ طليطلةُ كلُّها ووجدَ ملكُها الضعيفُ أنَّهُ أصبحَ في خطرٍ شديدٍ فاتَّخذَ

القرارَ الذي رأى المؤرخونَ أنَّه يتناسبُ مع تركيبتهِ الشخصيةِ وهو الهربُ مع عائلتهِ خارجَ طليطلة، وكانَ ذلكَ هو أسهلُ تصرفٍ يمكنُ أن يقومَ به غيرَ آبهٍ بمصيرِ رعاياه، والفوضى التي اجتاحتْ طليطلةَ لغيابِ السلطةِ وحدوثِ انفلاتٍ أمني خطيرٍ وانتشارِ أعمالِ النهبِ والسلبِ والقتلِ والاغتصاب، وفعلًا بادرَ بالهربِ من المدينة، التي كانتْ قد اضطرمتْ بالثورةِ عليه.

من ناحيةٍ أُخرى كانَ كبراءُ ووجهاءُ طليطلةَ من مُعارضي الملكِ يبحثونَ عن حاكمٍ قوي يتولَّى أمرهم من غيرِ أفرادِ عائلةِ بني ذي النون، فقرروا إرسالَ وفدٍ للتفاوضِ معَ المتوكلِ عمر بن الأفطس حاكمِ بطليوس ليتولى أمرَ المملكةِ ويملأَ الفراغَ الذي سبَّبهُ هروبُ القادرِ وتركهُ السفينةَ لتغرقَ بمن فيها، وافقَ المتوكلُ على مضضٍ لعلمهِ بالمشاكلِ التي تغرقُ فيها طليطلةُ وطمع جيرانها فيها وبصفةٍ خاصةٍ ألفونسو السادس ملك قشتالة، وما لبثَ أن انتقلَ إلى عاصمتهِ الجديدةِ ودخلَ قصرَ الملكِ في طليطلة في شهر يونيو سنة 473 هـ (1080 م) وقضى في طليطلةَ زهاءَ عشرة أشهرٍ من يونيو 1080 م إلى مطلع أبريل 1081 دونَ أن يفعلَ أيَّ شيءٍ لإنقاذها، وانشغلَ في متعهِ الحسّيةِ مع الخمرِ والغواني والسبايا.

استنجدَ القادرُ من منفاهُ في وبذة بألفونسو السادس، حتى سارَ معه إلى طليطلة، وكانَ ألفونسو وهو في طريقهِ إلى غزوِ المدينةِ قد دمّرَ كلَّ شيءٍ في طريقهِ، وخرّبَ الضواحي وأحرقها والقادرُ لا يجرؤ على مجردِ الكلام، وقبلَ أن يقتربَ ألفونسو السادس على رأسِ جيشهِ من أسوارِ طليطلة واقتحامها فرَّ المتوكلُ عائدًا إلى بطليوس مكتفيًا بما حملَ من أسلابٍ من قصرِ المأمون، حاصرَ ألفونسو المدينة تمهيدًا لاقتحامها وبرفقتهِ القادرُ بن ذي النون ولمناعةِ أسوارِ طليطلة وقوةِ أبراجها الدفاعية طالتْ مدةُ الحصارِ حولِ المدينةِ واشتدَّ بشكلٍ متزايدٍ وقاومَ أهلَها ببسالةٍ حتى نفدَ من عندهم الغذاءُ والسلاحُ ففتحوا أبوابَ المدينة.

دخلَ القادرُ بنُ ذي النون على أسنَّةِ رماحِ الجيشِ النصراني الغازي وعلى جثثِ رعاياه المسلمين وجلسَ مرةً أُخرى على عرشها المُهتزِّ الواهي في شهرِ مايو سنة 1081 م، ونكَّلَ جنودُ ألفونسو السادس بأهلِ المدينةِ بالقتلِ والسلبِ والنهب، وكانت كلُّ الأحداثِ تنذرُ باقترابِ وقوعِ الكارثةِ بعدَ أن كانَ ألفونسو قد انتهى من تدبيرِ خطتهِ الكبرى بالاستيلاءِ على مملكةِ طُليطلة وإعادتها إلى حوزةِ إسبانيا النصرانية.

كانَ غزو طُليطلة وطردُ المتوكلِ ابن الافطس وإعادةُ القادرِ بن ذي النون إلى عرشها قد تمَّ طبقًا لاتفاقيةِ "قونقة" التي أبرمها القادرُ معَ ألفونسو السادس، وكانتْ كلُّ بنودِها مهينةً للمسلمين إذ كانَ القادرُ يصبو إلى استعادةِ عرشهِ مهما كانتْ النتائج، فقد سيطرَ ألفونسو على طليطلة كلِّها، وأجلسَ القادرَ على عرشها الواهي ولكنَّهُ كانَ هو الحاكمُ الفعلي، والقادرُ لا يجرؤ على تدبيرِ أمرٍ من أمورِ المملكةِ إلا بعد استئذانِ ألفونسو الذي حصلَ بموجبِ اتفاقيةِ قونقة على ثلاثةِ حصونٍ عسكريةٍ مهمةٍ هي "سورية" و"قورية" و"قناليش" التي أصبحت فيما بعد شوكةً في ظهرِ المسلمين، كما حصلَ ألفونسو على أموالِ وثرواتِ بني ذي النون وجرَّد القادرَ من أملاكهِ، ثمَّ اتهمهُ بأنَّهُ أخفى الكثيرَ من ثرواتِ بني ذي النون عنه.

كان ألفونسو السادسُ يرى أن عودةَ القادرِ إلى عرشهِ إجراءٌ مؤقتٌ وأنَّ استردادَ طُليطلةَ أصبحَ أمرًا واقعًا في المستقبلِ القريب، ولذلكَ بعثَ إلى البابا في روما يطلبُ منهُ إعادةَ جعلِ طليطلة مقرَّ رئيسِ أساقفةِ إسبانيا كما كانتْ من قبل بعدَ أن كانتْ افتقدتها منذُ دخولِ المسلمين إلى الأندلس.

ولتحقيقِ هذا الهدفِ كانَ ألفونسو السادس يتحركُ لاستنفاد قدراتِ ملوكِ الطوائفِ المسلمين، والعملِ على إشعالِ الصراعاتِ المستمرةِ بينهم، كما عمدَ إلى الضغطِ الدائمِ على القادرِ بنِ ذي النون الذي كانَ يعلمُ أنَّ ألفونسو يسلِّطُ دائمًا على رأسهِ سيفَ الإبعادِ عن عرشهِ، فيعطيه المالَ والذهبَ حتى استنفد طاقاتِ وإمكاناتِ رعاياه، وبنهمٍ أخذَ الملكُ الإسباني يطلبُ المزيد، فإذا امتنعَ القادرُ بادرَ ألفونسو إلى شنِّ غارةٍ عسكريةٍ مدمرةٍ على أراضي طليطلة وأحوازها يخربها ويقتلعُ زروعها ويمحو كلَّ أثرٍ للعمران فيها، حتى عندما يحينُ وقتَ الاستيلاءِ عليها تكونُ قد خلتْ من سكانها المسلمين الذين كانوا بعدَ كلِّ غارةٍ يفرُّونَ بحثًا عن مأوى في أيِّ أرض أُخرى.

بقلقٍ وخوفٍ كانَ معظمُ ملوكِ الطوائفِ يرقبونَ ما يحدثُ في طليطلة، وسارعوا إلى التحالفِ معَ ألفونسو على أن يدفعوا له الجزيةَ السنويةَ بالقدرِ الذي يحدِّدهُ هو من الذَّهب، وقد شذَّ عنهم جميعًا المتوكلُ عُمر ملك بطليوس.

وبذلكَ أصبحَ ألفونسو على يقينٍ من أنَّ الأمورَ جميعَها قد أصبحتْ ممهدةً لتنفيذِ مشروعهِ الكبير، فلم يتوقفْ عن شنِّ غزواتهِ المدمرةِ على أراضي طليطلة حتى تخربتْ سهولُها وجفَّتْ ربوعُها النضرةُ وأفلستْ مراكزها الصناعيةُ، وكانَ الملكُ يمعنُ في غاراتهِ حتى يتمَّ تجريدُ المملكةِ العظيمةِ من مواردها، واستمرتْ هذهِ الغاراتُ منذُ دخولِ القادرِ طليطلةَ سنة 474 هـ (مايو 1081 م) ودامتْ أربع سنواتٍ كاملة، وكانَ يدبرها ألفونسو بمساعدةِ وتواطؤِ المستعربينَ والمولّدينَ من أهلِ طليطلةَ الموالينَ لهُ، وأطلقَ عليهم المؤرخونَ الإسبانُ اسمَ "المدجنون" أو الـMudéjar، وكانَ ألفونسو - كما روى المؤرخونَ العرب- يجتاحُ بقواتهِ أراضيَ طليطلة من كلِّ اتجاه، ويبيدُ المزارعَ والحقول، ويقطعُ الأشجارَ والحدائق، ويخرّبُ الديارَ ويسبي النساءَ والبناتَ، والقادرُ بن ذي النون وباقي ملوكِ الطوائفِ ينظرونَ ولا يجرؤونَ على عملِ أيِّ شيءٍ أو ردِّ عدوانه، وكانَ موقفُهم يثيرُ الألمَ والحسرة.

ومن ناحيةٍ أُخرى لم يستطعْ أهلُ طليطلةَ من المعارضين ذوي الأصولِ العربيةِ أن يتعايشوا معَ الوضعِ المُخزي المتردي الذي أوصلهم إليهِ القادرُ بسياستهِ الخرقاء المتخاذلةِ مع القشتاليين، والقهر الذي مارسه ضدَّ رعاياه وإنهاكهم بجمعِ الأموالِ منهم قسرًا حتى أفلسهم، مما أججَ من نزعةِ الثورةِ ضده بعدَ أن غمرهم اليأسُ من انصلاحِ حاله.. وفي تلكَ الأثناء حدثتْ أكثرُ من محاولةٍ فاشلةٍ لاغتيالهِ والتخلصِ منه، فلم يبقَ أمامَ الناسِ إلا إعلانُ العصيانِ والثورةِ عليه.

كانَ موقفُ ملوكِ الطوائفِ ممَّا يحدثُ في طليطلةَ يثيرُ الألمَ والحسرة، فقد وقّعَ المعتمدُ بن عباد أقواهم وأعظمهم اتفاقَ تحالفٍ معَ ألفونسو تعهَّدَ فيهِ المعتمدُ ألاّ يتعرَّضَ للملكِ ألفونسو السادس في ما يفعلهُ في طليطلةَ ويتركهُ وشأنهُ ينفِّذُ خططَهُ الراميةَ إلى احتلالها. وكانَ المعتمدُ في الوقتِ نفسهِ مُنهمكًا في محاربةِ حاكمِ غرناطةَ عبدالله بن بُلقين بن باديس، ومن ناحيتهِ كانَ المقتدرُ بنُ هودٍ حاكمُ سرقسطةَ القويةِ المتاخمةِ لطليطلةَ من الشمالِ والشرقِ يدافعُ عن حدودِ مملكتهِ ضدَّ هجماتِ ملكِ أرجون وأمراءِ برشلونةَ النصارى، أمَّا دولُ الطوائفِ في شرقِ الأندلسِ وجنوبها فقد كانتْ بعيدةً نسبيًّا ولا تستطيعُ تقديمَ العونِ إلى طليطلةَ بشكلٍ فعَّالٍ ومؤثر، الأمرُ الذي جعلَ الملكَ ألفونسو يمعنُ في غاراتهِ المدمِّرةِ على طليطلةَ حتى ظهرتْ بوادرُ سقوطِها الأخير.

ومن جانبه، وجدَ القادرُ أنَّ دسائسَ ومؤامراتِ معارضي حكمهِ ونظامهِ قد ازدادتْ واشتدت، وحاصرتهُ الضغوطُ من

أعدائهِ في الدَّاخلِ والخَارجِ، وأقرَّ بضعفهِ وعجزهِ وقلةِ حيلتهِ إزاءَ ما يحدثُ لمملكته، وأرادَ أن ينهيَ وضعهُ المُخزي، فبعثَ برسالةٍ إلى ألفونسو السادس يعرضُ عليهِ أن ينتقلَ من فورهِ ليقيمَ في بلنسيةَ ويحكمَها ويترك طليطلةَ ويتخلى عنها لملكِ قشتالة، فرحَّبَ ألفونسو بهذا العرضِ وشرعَ من فورهِ في تجميعِ الجنودِ والرجالِ وتزويدهِ بالسلاحِ والعتادِ، وجهزَ جيشهُ لشنِّ هجومٍ صاعقٍ مفاجئ على طليطلةَ فلا يُعطي لرجالها فرصةً للدفاعِ عنها.

كانتْ طليطلةُ إحدى قواعدِ المسلمين الكبرى في الأندلسِ وتعدُّ حجرَ الأساسِ بالنسبةِ إلى ممالكِ المسلمين، وانهيارُ هذا الحجرِ يعدُ بدايةَ انهيارِ البناءِ بأكملهِ الذي بدأ يلوحُ في الأفق.

وقد رَثاها ابنُ العسَّالِ عام 475م بقصيدةٍ مُزلزلةٍ وجَّهها إلى أهلهِ في الأندلسِ ليستفيقوا من سباتهم قائلًا:

يا أهلَ الأندلسِ شدوا رَواحلَكم
فما المُقام بها إلا من الغلط
الثوبُ ينسلُّ من أطرافهِ وأرى
ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوسط
من جاورَ الشرَ لا يأمنُ بوائقه
كيفَ الحياة معَ الحيّاتِ في سفط

وفي إحدى ليالي خريفِ سنة 477 هـ (1084 م) اقتربَ ألفونسو على رأسِ فرقةٍ من فرسانه، ونزلَ بالمنيةِ المسورةِ الواقعةِ على مُنحنى نهرِ التاجه، وهي استراحةٌ ملكيةٌ كانَ المأمونُ بنُ ذي النون قد أنشأها وبنى بداخلِها القصورَ الفخمةَ وأنشأ فيها البساتينَ والحدائق، وجعلَ منها ما يشبهُ الجنَّةَ يلجأ إليها للهوِ والراحة، وذكرها ابنُ بسامٍ بالتفصيلِ في كتابهِ "الذَّخيرة في محاسنِ أهل الجزيرة" وقال إنَّ المأمونَ كانَ يباهي بها جنَّةَ عدن. إلا أن ألفونسو جعلَ من حدائق قصرِ المأمونِ مقرًّا لخيالته.

وفي اليومِ الذي دخلَ فيه ألفونسو قصرَ المأمونِ في طليطلةَ كانَ "القادر" آخرُ ملوكِ بني ذي النون وآخرُ من حكمَ هذه المملكةَ من المسلمين، يجلسُ في مكانٍ ما بالمدينةِ يعالجُ إسطرلابًا فلكيًّا بجهلٍ وحماقةٍ يحاولُ أن يعرفَ من خطوطهِ الوقتَ المناسبَ لهُ لمغادرةِ طليطلةَ وأحسنَ الطرقِ التي يسلُكُها في رحلتهِ نحوَ الشرقِ إلى بلنسية، وبالفعلِ نجحَ في الوصولِ إلى بلنسيةَ وحكمِها بمساندةِ جنودِ ألفونسو السادس وهناكَ ثارَ أهلُها عليهِ وحزوا رأسَهُ وطيفَ برأسهِ في المدينةِ في 23 رمضان 485 هـ.

كان اقترابُ ألفونسو من طليطلةَ بهذا الشكلِ يعبِّرُ عن أنَّهُ قد اتخذَ قرارًا لا رجعةَ فيه بإنهاء مقاومةِ المدينةِ التي كانَ المتشددونَ فيها يصرُّونَ على مواصلةِ الصُّمودِ ويعملونَ على إطالةِ أمدِ المقاومةِ حتى يصلهم أيُّ مددٍ أو أن يرجعَ ألفونسو عنها عندما تنفدُ مؤونتهُ وعتادهُ أو أن يصيبَ جنودَهُ الملَلُ من طولِ الحصار.

كادتْ تتحقَّقَ أمنيةُ رجالِ طليطلةَ المدافعينَ عنها، وكادَ ألفونسو يرجعُ بجيشهِ عن محاصرةِ المدينةِ بسببِ شدَّةِ البردِ وهطولِ الأمطارِ في شتاء سنة 1085 م، فتقطَّعتْ الطرقُ بينَهُ وبينَ قشتالة، وانقطعتْ عن جيشهِ المؤنُ والأقواتُ، ولولا أنَّ ملوكَ الطوائفِ أمدوهُ بالغذاءِ لهلكَ هو وجيشه، فعادَ وشدَّدَ الحصارَ بينَما كانَ أهلُ طليطلةَ يعانونَ من الجوعِ وهطولِ الأمطارِ بغزارة.

ولما يئسَ المدافعونَ عن المدينةِ ولم يعد لديهم أيُّ بارقةِ أملٍ في حصولهم على أيِّ مدد، قرَّروا تشكيلَ وفدٍ من قادتهم وزعمائهم إلى ألفونسو لمحاولةِ التفاوضِ معه، وكانَ ألفونسو يقيمُ في قصرِ المأمون، فقابلهم وحاشيتهُ بفتورٍ وعدمِ اهتمامٍ ورفضوا إدخالَهم إلى الملكِ لمقابلته، واستقبلهم بدلًا منهُ أمينُ سرِّهِ المستعربُ وأدخلهم إليه فأهانهم ورفضَ مفاوضتهم وصرَفهم مَطرودين.

ظلَّ حصارُ القشتاليين حولَ طليطلةَ حوالي تسعةَ أشهرٍ وبلغتْ الشدةُ والجوعُ بالمحصورين أقصاهما، وارتفعَ صوتُ العامَّةِ الجائعين، ولم يجدْ زعماءُ المدينةِ وشيوخُها أمامَهم سوى عرضِ الاستسلامِ بعدَ صمودٍ بُطولي طالَ أمده. وكانَ عرضُ الاستسلامِ بعدَ مقابلةِ الزُّعماءِ لألفونسو السادس بثلاثةِ أيام. وتمَّ فتحُ أبوابِ المدينةِ له ولجنودهِ يوم الأربعاء 6 مايو سنة 1085 م الموافق 7 صفر سنة 478 هـ، وهكذا سقطتْ حاضرةٌ إسلاميةٌ كُبرى في الأندلس، وخرجتْ من حَوزةِ المسلمينَ إلى الأبدِ وارتدتْ إلى النصرانيةِ بعدَ أن حكمها المسلمونَ ثلاثمائة وسبعينَ عامًا وتحوَّلت إلى عاصمةٍ لملكةِ قشتالة النصرانية.

وبعدَ أن اطمأنَ ألفونسو السادس إلى استسلامِ طليطلةَ استولى على جميعِ الأراضي التابعةِ لها، وهي منطقةٌ شاسعةٌ جدًّا كانَ عليها حوالي ثمانينَ مدينةً عدا القرى والضياع. وكانَ المعتمدُ بنُ عباد، قد استولى من طليطلةَ على الأراضي الواقعةِ إلى الجنوبِ من نهر التاجة.

أجمعَ المؤرخونَ على أنَّهُ بمجرَّدِ استسلامِ طليطلةَ لألفونسو ودخولها في حَوزةِ النصارى في إسبانيا وحلولِ نكبةٍ عُظمى ليسَ للأندلسِ الإسلاميةِ فقط ولكن أيضًا للعالمِ الإسلامي كله، تسابقَ ملوكُ الطوائفِ بذُلٍّ ومهانةٍ لا حدودَ لهما في إرسالِ البعثاتِ والسفاراتِ مُحملةً بالأموالِ والهدايا الملكيةِ النفيسةِ إلى الملكِ

ألفونسو الذي انتقلَ ليقيمَ في قصرِ المأمونِ في طليطلةَ يقدمون له التهاني متعهدينَ بدفعِ الجزيةِ السنويةِ له خوفًا منهُ على عروشهم، رغمَ أنهم كانوا يعلمونَ بأنَّ ألفونسو عدوٌ لدودٌ للمسلمين، وأنهُ يخطِّطُ للقضاءِ عليهم الواحد بعدَ الآخر. وقد صاغَ المستعربُ سسند وزيرُ ألفونسو شروطَ تسليمِ المدينةِ، ولكي يُطمئنَ ألفونسو مسلمي طليطلةَ عيَّنَ المستعربَ سسند حاكمًا على المدينةِ لعلاقاتهِ الوثيقةِ بالمسلمين منذَ سنواتٍ طويلة، وكان معروفًا عنهُ أنهُ يحترمُ شريعتَهم وآدابَهم وعلومَهم وتقاليدَهم، وكانَ ينادي بالتسامحِ والمرونةِ في التعاملِ معَ المسلمين، وقيلَ إنَّهُ هو الذي دفعَ ألفونسو إلى احترامِ شروطِ الاستسلام.

نجحَ سسند كحاكمٍ للمدينةِ أن يُدخلَ الطمأنينةَ على من تبقَّى من أهلِ طليطلةَ فأمّنهم على دينهم ومقدَّساتهم، واستمالَ كثيرًا من العامةِ حتى اعتنقوا النصرانية.

أثبتتْ الأحداثُ التاليةُ أنَّ ألفونسو لم يكن صادقًا في تسامحه، إذ أنهُ في الشهرِ التالي لدخولهِ طليطلةَ غادرها إلى ليون وقد دبَّرَ أمرًا معَ زوجتهِ كونستانز الفرنسية وكبيرِ الرُّهبان برناردو، فبمجرَّدِ مُغادرته قرَّرتْ زوجتُهُ وكبيرُ الرُّهبان تحويلَ المسجدِ الجامعِ إلى كاتدرائيةٍ بالمخالفةِ لشروطِ التسليم. وكانَ الرُّهبانُ المتشددونَ في بلاطِ ألفونسو يكرهونَ وجودَ مسجدٍ في المدينةِ بهذهِ الضخامةِ والفخامةِ بينَما لا توجدُ كنيسةٌ واحدةٌ تليقُ بعرشِ إمبراطورِ إسبانيا، وتجمعُ رهبانَ البلاطِ فيما راحتْ زوجةُ ألفونسو ومعَها كبيرُ الرَّهابنةِ يُصدرانِ الأوامرَ لهدمِ محرابِ المسجدِ ورفعِ الجرسِ على مئذنته، وكانَ آخرُ من تَلا القرآنَ وأمَّ الصلاةَ بالمسلمينَ في مسجدِ طليطلةَ الجامعِ العالمُ الفقيهُ محمدُ بنُ عيسى بن فرج التميمي من أهلِ طليطلةَ ومقيمُ الشعائر بالمسجد، وكانَ إمامًا ذا دينٍ وفضلٍ عالماً بأصولِ القراءاتِ والتلاوة، ضابطًا لها عارفًا لمعانيها، وكانتْ هذه الصلاةُ الأخيرة في شهر ربيع الآخر سنة 478 هـ (يوليو 1085 م) حين انتهى إلى الأبدِ عهدُ الاسلامِ في جامعِ طليطلة، وسرعانَ ما تحوَّلتْ المدينةُ إلى النصرانيةِ وسطَ حالةٍ منَ الكمدِ والحزنِ التي انتابتْ مسلمي الأندلس.

محمود يوسف خضر
كاتب فلسطيني يُقيم في أبوظبي

ثلاث قصائد

محمد ناصر المولهي

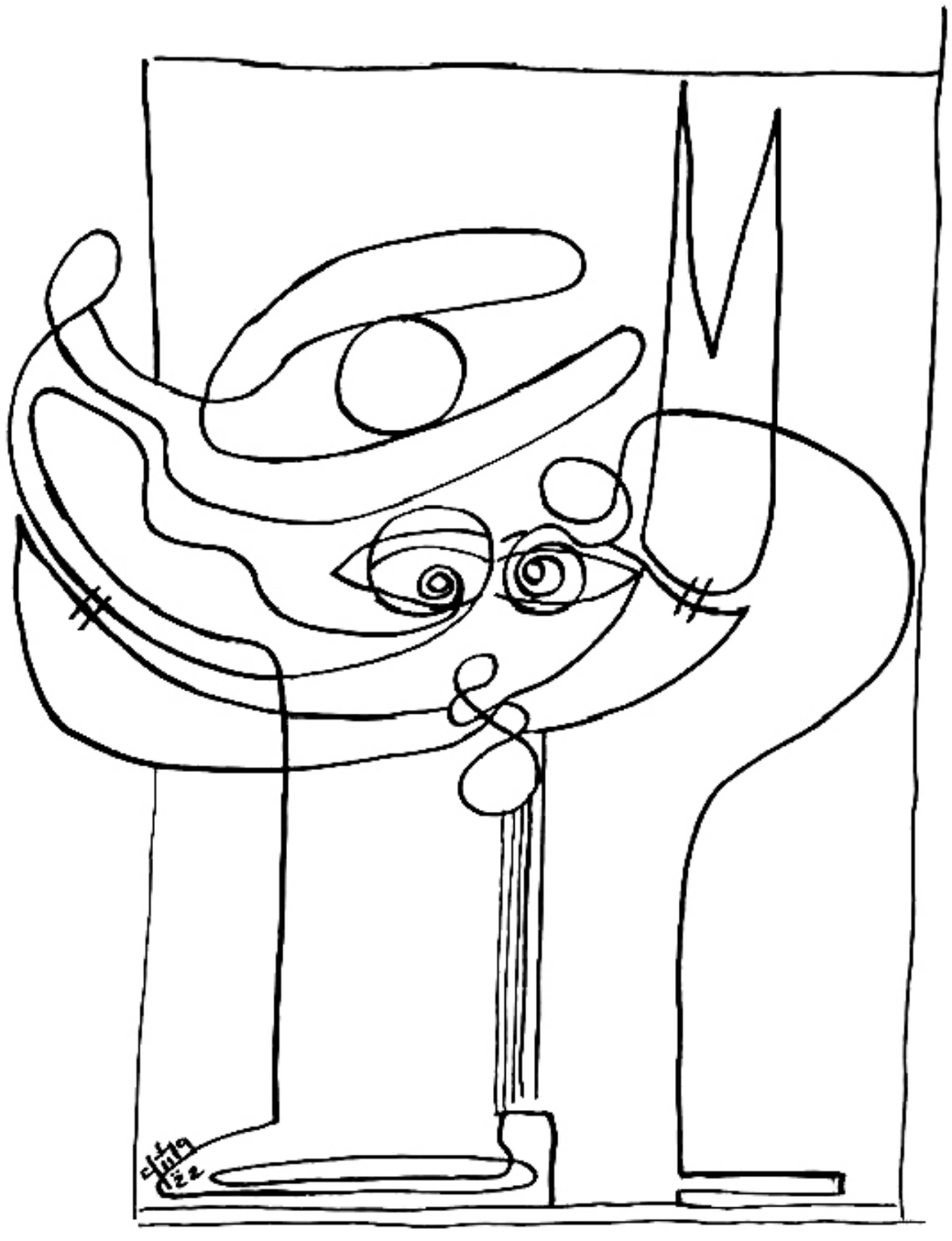

منام العاشق

بعيني حبيبتي
رأيت القمر ينبت من حجر عاشبٍ
والماءُ كل عين تراه.

بعيني كلبٍ ساهرٍ
رأيت الإنسان
وبعيني ضفدع عالق في بئر
رأيت السماء.

أينعي أيتها الشبابيك التي نقف خلفها
كوني ريش النوارس في أموجنا التي لا تصل أصواتها إلى شاطئ.
كوني الزوارق التي لا تحمل جثث الأسماك
كوني الضجر
ونظراتنا التي تشبه القهوة على الموقد.

كنت أرى نفسي مصادفةً كل ليلةٍ
أتحسس الدم جافا على آلامها التي صارت تمشي بمفردها
أنكر أنني أعرفها
أنكر أنني هي
أنكر وأنا أجرّها بمشقة إلى غرفتي
لننام.

نظرة يوغرطا

"أُنظر إلى الحياة بشكل آخر"
أقول لنفسي:
أترك شيئا من الليونة
في نظرتك التي تسحبها كالعلكة من عينيك
انظر إلى الحياة/حياتك
نظرة أبي نواس لامرأة تستحم
اترك القليل من الريبة
الكثير من الصمت
وانظر إليها
نظرة يوغرطا إلى أذنيه المثقوبتين بالذهب
في شوارع روما الواسعة
انظر إليها نظرة صبيّةٍ قرطاجيين إلى آخر بيت يحترق
نظرة قصب إلى واديه
وواد إلى سيل حطام
لا تخف
إنها لحظتك
وإن كنت تسقط من علو قديم
ستبقى
واقفا إلى الأبد.

الحفيد

أمّا أنت، يا حفيد أجداد بلا مكانة
فسوف يأخذك كل ما تراه إلى ما لا تسميه.

ستحتاج إلى صوت جديد
في كل محاولة
لتنادي على أحد
محاولا إنقاذه من إخوته
ومن نفسه والأشياء.

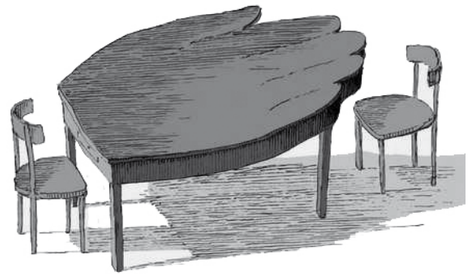

ما يلاحظ في الساحة الفرنسية أن ثمة مللا مطّردًا من استحالة التفكير في العنف الاجتماعي خارج أحكام التنديد والإدانة التي اعتادت عليها وسائل الإعلام والماسكين بالسلطة. فالمحللون والسياسيون لا يتحدثون عن العنف إلا لإدانته ورفضه، دون أن يبحثوا في أسباب اندلاعه، فهم يتحدثون في الغالب عن ضواحي باريس والمدن الكبرى الأخرى على أنّها بؤر لشتى أنواع الانحراف، والخروج عن القانون، بل إن بعضهم لا يتردد في وصفها بـ "مناطق فقدتها الجمهورية" ■

ما وراء انتفاضة شباب الضّواحي

أبوبكر العيادي

السخرية والمواجهة الرمزية للسلطة

منير عتبية في "24 ساعة مسخرة"

ناهد راحيل

يعد العنوان الأساس الذي ينبني عليه النص؛ لأنه يختزل النص برمته ويقدم للمتلقي عنصر إثارة لاقتحامه، فيكون بمثابة اقتراح عقد اتصال بين الكاتب والقارئ، ويبني القارئ من خلاله توقعه للنص ولمضمونه اعتمادًا على صياغته اللغوية والدلالية.

وقد يكون العنوان مختارًا من عنوان أحد القصص الداخلية للمجموعة؛ حيث يدل على المغزى البعيد الذي يهدف الكاتب إلى لفت النظر ناحيته، كما أن اختياره نفسه مرة أخرى يدل على أنه يحمل دلالة أخرى عامة تتصل بمضامين المجموعة كلها، وقد يأتي بوصفه علامة بارزة على موضوع المحكي القصصي المسيطر على جميع قصص المجموعة وهنا يعرف باسم العنوان التجميعي.

وكذلك قد يحيل العنوان على مضمون النص، ويسمى في هذه الحالة عنوانا تيماتيا أو موضوعاتيا، وقد يحيل على شكل النص أو جنسه الأدبي وهنا يسمى عنوانا إخباريا أو خطابيا. ويندرج عنوان المجموعة القصصية "24ساعة مسخرة" للكاتب المصري منير عتبية تحت العنوان التجميعي التيماتي؛ حيث يقدم عددًا من المحكيات القصصية المنتقاة بعناية تشكل بناء محكما يعكس رؤية الكاتب وموقفه تجاه قضايا المجتمع الاجتماعية والسياسية.

فعلى المستوى التركيبي، يتكون الجهاز العنواني من ثلاثة دوال "24 ساعة مسخرة"، أما على المستوى الدلالي فتتضح قصدية الكاتب في صدم المتلقي بمواجهته المباشرة بدال "مسخرة" الذي هو في المعاجم "كل ما يجلب السخرية". وهنا نجد حضورًا لما يمكن تسميته بالقيمة المهيمنة، وهو أن تهمين وظيفة من وظائف العنوان على الوظائف الأخرى دون أن تلغيها، وهي في هذه الحالة الوظيفة الإغرائية؛ حيث من ناحية يحدد له غرابة مسار تلقي النص ويقدم له عنصر إثارة لاقتحامه. وقد تواصلت محكيات المجموعة القصصية مع مدلول العنوان؛ حيث جاءت جميعها في بنى مفارقة تتخذ من السخرية أداة أساسية للتعبير، بداية من الجهاز العنواني مرورا بتشكيل الشخصيات، وانتهاء بالبناء المفارق للحدث نفسه. وذلك من خلال المفارقات القائمة على جهل الضحية مقابل معرفة المتلقي، والتناقض

ريم يسوف

أحيانا بين الحدث المتوقع والحدث الداخلي المقترح، ووجود بنيتين داخل النص بنية الحدث الظاهرية وأخرى عميقة.

فالقول المستخدم بالمحكيات القصصية في المجموعة جاء متضمنا معنىً خفيًا نقيض المعنى الظاهر الذي يشتمل عليه هذا القول، وأحيانا تضمن تأكيدا لهذا المعنى وشدد على أهميته. وذلك لرفض ظواهر معينة في المجتمع، أو قيم معينة قد تكون اجتماعية أو أخلاقية أو روحية أصبح لها فهمها المغلوط.

نلمس ذلك في قصص المجموعة التي اهتمت بإلقاء الضوء على قضايا المجتمع المعاصر وخطاباته الفاعلة والمحركة لأحداثه، ورصد أنماط شخوصه وانتماءاتها الاجتماعية والسياسية وتحليل المشاعر التي تعتمل داخلها من يأس واغتراب وحتى رغبتها في التعايش مع تلك المشاعر رغم إدراكها لسيطرة بعض الفئات على الأخرى.

الشخصيات باعتبارها نماذج فاعلة

كما هو معروف، يختلف بناء الشخصية في الرواية عنه في القصة القصيرة، لأن

الفضاء الروائي يسمح للشخصية أن تكشف نفسها بوضوح ويستطيع الراوي أن يتابع تطورها ويكشف عن مواطن قوتها وضعفها خلافا لبنية القصة القصيرة القائمة على محدودية في الزمان والمكان وتكثيف تشكيل الشخصيات وبيان أبعادها.

هنا تتم مقاربة الشخصية - في المجموعة - وفق النموذج العاملي؛ أي عبر تصنيف مجموعة من الأدوار التي نصادفها في الحكاية؛ والعامل يمكن أن يكون ممثلا بأكثر من ممثل، وليس بالضرورة أن يكون شخصا، فيمكن أن تكون العوامل ذوات بشرية أو غير بشرية لكنها فاعلة ومؤهلة للمشاركة. وفي هذه الحالة تتخذ الشخصية وفق هذا المستوى العاملي مفهوما شموليا مجردا، ويهتم الكاتب بالأدوار أكثر من اهتمامه بالذوات المنجزة لها.

وتشكل الشخصية في القصة بديلا منبها للشخصية الواقعية، تعكسها وتتجاوزها، وتعبر عنها ليس باعتبارها شخصية فقط، إنما كفئة أو وظيفة، حيث أنها تساعد على قراءة الواقع وفهم العالم من خلال الخاص. ومع ذلك يمكن الوقوف على بناء الشخصيات في المجموعة من خلال مدخلين: الأول طرق تقديم الشخصيات، والثاني تصنيف الشخصيات.

وتقديم الشخصية هي الكيفية التي يتم بها خلق الشخصيات وبناء وجودها في المحكي القصصي، ومنها طريقة الإخبار(المباشرة) وهي الطريقة التي يخبر من خلالها الراوي أو بعض الشخصيات عن صفات الشخصية وطباعها، مثل الوصف الجسدي للشخصية والوصف النفسي، كما وجدنا في شخصية الشيخ صبحي في قصة "الملقن"، ووصف لشخصية السندباد والقزم في قصة "مريد السندباد".

والطريقة الثانية هي طريقة الإظهار أو الكشف (غير مباشرة)، وفيها يمنح الكاتب الفرصة للشخصية للتعبير عن نفسها ولكشف أبعادها النفسية والاجتماعية بعيدا عن أيّ مؤثرات، وهي الطريقة الغالبة في المجموعة القصصية؛ حيث يبتعد الكاتب عن عمله ويترك المجال للشخصية لتكشف عن نفسها إما عن طريق الحوار - داخلي أو خارجي - أو عن طريق فعل الشخصية وسلوكها في بعض المواقف.

أما المدخل الثاني فيتحدد في تصنيف الشخصيات، وفي هذا الطرح واستجابة لمحددات بنية القصة القصيرة، لا يتم اللجوء إلى تصنيف الشخصية من حيث المساحة رئيسة أو ثانوية، ولا من حيث البناء نامية أو متطورة أو ثابتة، بل يكون من المناسب أكثر الحديث عن الدور أو الوظيفة أو نمط الشخصية. ويمكن التعامل مع العناوين الداخلية للمجموعة القصصية باعتبارها المؤشر البدئي والدال الأول على طبيعة الشخصيات ونمطها وتكوينها ودورها الاجتماعي، مثل عناوين قصص: "الملقن" - "المرشح" - "الندواتي" - "المتحرش".

ومن هذا المنطلق نجد أن أغلب الشخصيات/العوامل قد جاءت في دور الضحية مقابل سلطة مهيمنة أو خطاب مسيطر؛ فالمرأة ضحية الرجل الذي هو بدوره ضحية لخطاب مجتمعي، والجاهل ضحية للمثقف الذي هو بدوره ضحية لخطاب مؤسسي، والمرؤوس ضحية للرئيس (أيا كان دوره) الذي هو بدوره ضحية لخطاب سياسي، الرجل العادي ضحية للمتدين الذي هو بدوره ضحية لخطاب ديني مؤدلج، إجمالا نجد أن الهامش ضحية للمركز طالما كان هذا المركز يمتلك سلطة المعرفة. وهنا يكون الخطاب عاملا من العوامل الفاعلة والمشاركة بالنص في مجمله، وهو ما يستدعي الانتقال من النمذجة البنيوية إلى المقاربة الثقافية.

المقاربة الثقافية للمحكيات القصصية

اهتمت المجموعة ببيان مدى تواطؤ المعرفة مع السلطة/القوة. وهنا نستدعي أفكار ميشيل فوكو وتحليلاته التي تكمن في البعد المعرفي لعلاقات السلطة وتوازنات القوى داخل مكونات الخطاب؛ وسعيه إلى تفكيك خطاب السلطة عن طريق المعرفة والجنسانية والسجن والجنون.

حيث بيّن فوكو أن السلطة تحاول امتلاك المعرفة لكي تستطيع التسلط والهيمنة؛ فنموذجا السلطة والمعرفة لديه يوضحان أن كلاّ منهما ينتج الآخر ويؤثر فيه بشكل واضح، فالمعرفة تنتج السلطة، وفي الوقت نفسه تحتاج السلطة إلى خطاب معرفي يضمن بقاءها ويعزز دورها في توزيع القوى والوظائف والأدوار الاجتماعية، وتحديد شروط حركتها وإنتاجها، ووضع خطاباتها الثقافية وانتماءاتها.

ويتضح ذلك في المجموعة القصصية عبر توظيف عدد من الخطابات التي تحرك الأحداث والشخصيات معا، مثل الخطاب السياسي والخطاب الديني والخطاب الذكوري وكذلك الخطاب الرقمي، ولم تقف تلك الخطابات عند التصورات اللغوية أو اللسانية، بل كانت من آليات الهيمنة الأساسية التي توزعها السلطة على النسيج الاجتماعي، ومن هنا يكون الخطاب عملية إخضاع للمجتمعات عبر إجراءات المراقبة والانتقاء والتنظيم وإعادة التنظيم وتوزيع الأدوار.

فجوهر السلطة لدى فوكو هو أنها

ريم يسوف

مجموعة من علاقات القوى، تدخل في حالة صراع وتوتر، ويكون هدفها "تنظيم مجال العلاقات الاجتماعية في المجتمع، وتحديد الأطر التي يتحرك داخلها الأفراد، ومن هنا تكون أجهزة الدولة ليست إلا أداة لإدارة هذا الصراع".

مثلما وجدنا في المدرسة في قصة "سبعة دروس في الحب"، والمسجد أو الكنيسة في قصة "المسلماني دخل المسجد"، وكذلك دوائر الترشح السياسية في قصة "المرشح"؛ فلا يوجد شكل واحد للسلطة، بل سلطات جزئية أطلق عليها فوكو "البنيات الصغرى للسلطة" تتحدد وظيفتها في مراقبة الأفراد في فضاءات أصغر وتشكيل وعيهم وفق منظومة محددة من القيم.

إذ تكمن أهمية الطرح الفوكوي الذي نستند إليه في بيان الكيفية التي تمكن إرادة السيطرة في تحقيق هيمنتها مرتكزة على خطاب معرفي يوهم بالحقيقة. ويكون الخطاب في المجموعة القصصية من ضمن أدوات السلطة للامتلاك والتحكم ووسيلة لإخضاع المجتمعات عبر إجراءات "المراقبة والانتقاء وتوزيع الأدوار" وفق المصطلحات الفوكوية.

الملهاة الإنسانية

جاء النص الأخير في المجموعة القصصية في صورة بياض؛ فقد وظف الكاتب الفراغ الكتابي واكتفى، بعد عنونة نصه الفارغ بـ"مساحة حرة"، بتحرير نص إرشادي للقارئ جاء في صورة تركيب فعلي وصيغة الأمر الطلبي "اكتب ملهاتك"، تبعه فراغ نقطي تركه للقارئ كي يكمل الملهاة الإنسانية التي عرضها الكاتب في المجموعة القصصية بملهاته الخاصة.

وقد انسحب هذا النص على نصوص المجموعة القصصية بأكملها، وبرّر مدلول السخرية النابع من دوال الجهاز العنواني، فمن المعروف أن الملهاة هي الوجه المقابل للمأساة، فإذا كانت المأساة لدى أرسطو هي محاكاة الفعل، أو رد فعل لموقف جاد حدث بشكل درامي بحت؛ إذ أنها تتمحور داخل نطاق المسرح التراجيدي، الذي يحمل موضوعًا معينًا من شأنه أن يبعث الحزن والتأثير لدى المتلقي، فإن الملهاة هي محاكاة لفعل جاد لكن بطريقة ساخرة، حيث تسعى إلى تناول المشكلات وطرحها من خلال تقديم مجموعة من الأفعال التي تهدف إلى عرض النقائص الإنسانية، بقصد تصوير البشر في مواطن ضعفهم ونقصهم.

ويمكن القول إن المجموعة القصصية قد جمعت بين النوعين معا، فجاءت المحكيات القصصية في صورة ملهاة مأساوية، هدفت إلى إثارة الضحك من قصور بعض الشخصيات وجهلها بالوقوع ضحايا في أخطاء معينة، لمحاولة تشكيل وعي يساعد على عدم وقوع الآخرين فيه.

باحثة واكاديمية من مصر

وجوه العنصرية المختبئة

العنصري في غربته" لهيثم حسين"

ناصر السيد النور

صدر للروائي والناقد السوري المقيم ببريطانيا هيثم حسين، كتاب "العنصري في غربته" عن دار رامينا بالعاصمة البريطانية لندن (2023 م). والكتاب سيرة موجزة قدمت عبر كتابة مفتوحة رؤية وتجربة لظاهرة "العنصرية" كعلّة اجتماعية ازداد طغيانها عبر قارات العالم بما بات يهدد بغرق الحضارة الإنسانية أو نكوصها عن مسارها كما في وصف الكاتب أمين معلوف بـ"غرق الحضارات" وقبلها "هويات متقاتلة". وتنبثق هذه الرؤية للعنصرية عن إحساس واعٍ واحتكاك بتمثلاتها ليس حصراً على ممارسات يومية عابرة، فقد تتبع هذه الظاهرة بدءًا بمحورها "الإنسان" في جوانبه المظلمة بوعي وبغير وعي منه؛ إلى خطاباتها المجاهرة بالكراهية والعداء السافر للآخر الغريب.

وللكاتب هيثم حسين تجربة روائية ونقدية أنجزتها كتابات تراوحت بين الرواية (آرام سليل المكابرة، رهائن الخطيئة، إبرة الرعب، عشبة ضارة في الفردوس، قد لا يبقى أحد) ترجم بعضها إلى الإنجليزية؛ وفي النقد (لماذا يجب أن تكون روائياً، الشخصية الروائية.. مسبار الكشف والانطلاق) وغيرها من الكتابات الثقافية في الصحافة الثقافية والفعاليات الثقافية على مختلف المنابر. أتاحت هذه التجربة الممتدة في الكتابة والتأليف كاتب (السيرة) من التحقُّق من أدواته البحثية ورؤيته المسنودة بالتجربة في الكتابة من التعبير عن ظواهر وعوالم في محيطه الزماني والمكاني؛ وبطبيعة الحال من كتابة السيرة رغم الفارق الزمني النسبي الذي عادة ما يقترن بعمر الكاتب والكتابة عن أحداثٍ ووقائع لا تنتمي واقعياً إلى الحاضر.

تضعنا سيرة "العنصري في غربته" مباشرة أمام الصور والمشاهدات التي تتجلى فيها ظاهرة العنصرية بكل ممارساتها المتداعية في عالم اليوم وتمدداتها القّارة في الذاكرة التاريخية والاجتماعية في الوعي البشري، لا زال العالم يواجه وحشيتها التي تفتك بمنجزه العقلاني والحداثي.

باستخدامه لتقنية سردية متمكنة من أدواتها، يستعرض الكاتب مواقف العنصرية من زوايا متباينة كما يتباين التنوع في الأعراق واللغات والبلدان. وهذا الفرق الذي تحدثه الحكاية المنبثقة عن واقعٍ مباشر لما تفرزه العنصرية بالاستناد إلى معلومات وبيانات مسبقة. وللعنصرية- كما هو معروف- تاريخ دامٍ، وحروب ومآسي شعوب وجغرافيا ومعلومات موثقة في الذاكرة والجسد الإنسانيين، ولكن في سيرة "العنصري في غربته" تتجسد العنصرية بكل ما حملت وتحمل من صور حيّة ومواجهة حادة وكيف يتمثلها الشخص العنصري، بل وكيف يمارسها ضد الآخر أيًا يكن هذا الآخر وفقاً لنسق أو تصور الاختلاف الإثني واللغوي والجغرافي. وبعيداً عن تعريفاتها من

بهرام حاجو

منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، وإلى حدٍ ما مداخلها المعجمية (Racism)، يضع هيثم حسين العنصرية كما تبدت كظاهرة كلية الوجود تتمدَّد باتساع في المفاهيم والمقولات وتتشكل في طرق التعبير، إلا أنها تبقى عنصرية مهما تلونت: "لا تقتصر العنصرية على شخص أو فئة أو دولة، إذ يمكن العثور عليها في الشرق والغرب، لدى الأقليات أو الأكثريات، فهي علة عابرة للحدود والقارات، ولا يمكن الاستشفاء منها إلا بالوعي والعقل والمسؤولية، والانفتاح على الآخر بعيداً عن الأحكام المسبقة التي توصف بأنها فخ العقل ومقتل المنطق نفسه". وقد سبق هذا التعريف أو التوصيف لظاهرة تتعدى التحولات البيولوجية اعتراف صريح جريء بقوله "كل منا يخفي جوانب عنصرية، أو يتكتم على شخصيات عنصرية متصارعة في أعماقه". وهذه التطبيقيات الشائهة للعنصرية تجد تفسيراتها الواقعية عند الكاتب بدءاً بمجتمعه الأقلوي (الأكراد)

ومن ثمَّ يتابع سرد حكايات موجات العنصرية وطبقاتها المتشكلة في الفضاء العام التي لم يخلُ منها مكان أو حيثما وجد الإنسان بهويته المنغلقة. وتبرز هذه السيرة صيغة العنصرية كهوية للأفراد والمجتمعات. فالبحث عن الهوية بصيغتها وقيمتها الفردية بحث عن الذات وتحقيقاً للذات داخل الانتماء الثقافي والنسقي. وحيث إن المميزات الثقافية، والمكونات العرقية، والدينية هي نوع من التصنيفات الاجتماعية لا تخلو من عنصرية مبطنة في بعضها، فإن هذا يعني في الوقت نفسه أن الهوية الثقافية هي نوع من الهوية الاجتماعية وينطبق عليها ما ينطبق على سائر الهويات الاجتماعية الأخرى. إذ تنطلق العنصرية من التصنيف الثقافي للجماعة، ويمكن أن تكون متبدلة في جانب منها وثابتة في جانب آخر، كما تكون أيضًا متكونة من عدد من المكونات التاريخية أو الدينية أو الاجتماعية. وتكون في المحصلة النهائية كما يطلق عليها عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي كلود ليفي شتراوس بـ"النشوئية المغلوطة"(Faux évolutionnisme) في تفسيراتها الثقافية.

العنوان والنص

والعنوان "العنصري في غربته" يثير صدمة جريئة بوصفه مقدمة إيضاحية ودليلا ماديا خارجيا يحيط بالنصِّ وفي الوقت نفسه هو جزء أصيل منه بتعريف جيرار جنيت. وهو أيضاً ملازم للنص بالمفهوم النقدي للعنوان وكل ما تثيره النظريات النقدية حول أهميته، وعلاقته بالنص، ودلالاته الرمزية، والسياقية ومحايثته للخطابات المجاورة. ثمة استخدام مثير ملغز يوحي به العنوان للحد الذي يثير التساؤل من هو العنصري؟ يجيب الكاتب بنفسه عن الاختيار (العنصري) ومكان غربته في فصل لافت (من أنت أيها الكاتب؟) وانعكس العنوان داخل النصّ بحيث أصبح محتوى دلالات العنوان هو النص مقروءاً ومُفسراً معه مواقفه ومشاهداته وصراعه مع العنصرية. بوجه من القول، فإن الاختيار القصدي عزَّز من فرضية القراءة الواعية في المعالجة الموضوعية لثيمة السرد المركزية. فالعنوان أو عتبة النصّ كمصطلح مستتبّ يحُلِّل الدلالات والمواقف التي أراد الكاتب اختزالها في العنوان كاستهلال يؤشر إلى فحوى النص. وبالتالي عنوان السيرة تتضح دلالته في صور بصرية مستدعاة من حادثة تاريخية أو واقعة حياتية أصبحت قابلة للاستدعاء. وعليه تتخلق علاقة بين العنوان وما تشير إليه إضاءاته ودلالته والنص الذي يحتوي العنوان داخل أعماقه الغائرة.

لقد راهن العالم على انفتاح الحدود وتقارب الشعوب بما أنجزته تكنولوجيا المعلومات من سهولة التواصل غير المسبوق في التاريخ البشري، ولكن بقيت البؤر المظلمة في مكانها، بل وازدادت وحشية. وكيف انتهينا إلى شعبوية محمومة بعد أن بشرنا بنهاية التأريخ وسيادة العقل والديمقراطية؟ وعلى مدى ما بثته الأفكار العنصرية طوال قرون لم ينج منها كبار الكتاب والفلاسفة، بالطبع أيديولوجيات ونظريات متوهمة حاولت تنميط العرق والثقافة فنتج عنها في التاريخ القريب وحش النازية والفاشية وما تداعى عنها من شعبوية يعايشها عالم اليوم. يتناول الكاتب شخصيات في التاريخ السياسي للعالم الغربي قديماً وحديثاً (ونستون تشرشل، دونالد ترامب، بوريس جونسون.. الخ) مستعرضاً دورها في المد الإمبريالي وكيف أن الشعور الوطني المتضارب بين أن تكون شخصيات بطولية تستحق المجد أو شخصيات مجرمة تتطلب محاكمتها. وتفضي هذه التساؤلات حول مواقف الشخصيات في التاريخ السياسي الغربي أو الحديث إلى أين تقودنا صورة العنصرية المرعبة التي ربما ابتلعت العالم؟

اللغة سلاح عنصري

اللغة هوية، أو بتعريف مقتضب تعبير عن هوية ثقافية، ولكنها تستخدم وتوظف في النطاق العنصري بكل حمولاتها الثقافية ورموزها بما توفره من إحالات تكيفها المجموعات اللغوية أو العنصرية تجاه لغة ما أي جماعة ما تتحدثها. يطرح هيثم حسين في فصلين قضية اللغة (أمجاد لغوية) و(بحر اللغة) في معرض تحليله لتمظهرات العنصرية وخطاباتها بإحدى وسائل التخاطب والإدراك البشري وهي اللغة. وهنا يتدخل الكاتب من موقفين، موقف شخصي متمثلاً في هويته اللغوية والثقافية التكوينية (الكردية) ضمن هوية لغوية أكبر (العربية) المجتمع السوري العربي وكيف قاسى تجربة التحول اللساني من اللغة الأم إلى اللغة الرسمية، ومن ثمَّ أصبحت (العربية) لغة التعليم والتواصل والكتابة الإبداعية وفي كلا الحالين ثمة وضعية اجتماعية غير متجانسة لغوياً (Linguistically Heterogeneous) باصطلاح علم اللغويات. وأما موقفه الثاني في تحليل ظاهرة استخدام أخطر "أسلحة العنصرية" وهي اللغة وحمولاتها الدلالية وكيفية جعلها مقياساً عنصرياً بالغ الحساسية حين تختلف قواعدها التركيبة والصوتية عند الآخر. وتكونت لديه ثلاث هويات لغوية كما يستطرد كردية، وعربية وأخيراً إنجليزية وفي ما بدا أن تركيزه الشديد على اللغة بدوريها السلبي والإيجابي لا يخفى وظيفته (كاتب) كما يؤكد إتقان اللغة كعامل حاسم في بنية المعرفة. ولكن لا ينسي ماذا تعني له الهوية بالقول "تشكل الهوية بالنسبة إليّ سؤالاً دائماً متجدداً أسعى لمقاربته وتقديم تصوري عنه، يعيش كثيرون أزمة هوية في واقعهم، لا يمكنهم إجراء مصالحة بين الألوان التي تكوّن هويتهم وتشكلها بصيغتها الإنسانية.. أعتقد أن الاختلاف يبلور صيغة أنسب للهوية، الهوية بالنسبة إليّ هي الإنسان... أشعر أنني خليط من هويات متكاملة". هذا الإدراك لدور اللغة ومستويات تأثيراتها في تكوين وعي الجماعات وكأداة تعرف بها دفع بالكاتب أن يقوم بترجمة مجموعات من المسرحيات إلى لغته الأم الكردية، في محاولة إثبات طاقة اللغات الإنسانية في استيعاب وإنتاج الفنون والثقافة مهما اختلف موقعها من حيث الهيمنة والإقصاء.

السيرة والنص

والكتابة في "العنصرية" من حيث ما تحمله ممارساتها المتجلية التي تكاد تطغى على تفكير الإنسان والمجتمعات والكيانات المتعددة، تقودنا هذه السيرة المفارقة للعنصري إلى إعادة اكتشافها في بؤر لم تعد محلّ تفكير. ويرصد بدقة المراقب وتحليل الكاتب مظاهرها في اللجوء، والملاعب، ومخافر الشرطة، واللغة، والإعلام. ويسائل في عناد ما تصوره الإنسان من شعارات استودعها وثائق ظناً منه بحصانتها المنيعة وربما شرعيتها وعدالتها؛ إنه سؤال الحضارة المشروع وعالم العولمة، ولماذا فشلت منظومات الأفكار الكبرى في الديمقراطية والحرية وغيرها من قيم سياسية وفكرية في كبح جماع وحش العنصرية. وأسئلة الكاتب في سيرته القصيرة لم تنبع من تأمل تجريدي، بل من تجربة شخصية واحتكاك يومي شارك فيه. وتاريخ الرواية العربية في تصويرها لما عرف في السابق بالمواجهة بين الغرب والشرق كما صورها الطيب صالح (موسم الهجرة إلى الشمال) وسهيل إدريس (الحي اللاتيني) ويحيى حقي (قنديل أم هاشم) وتوفيق الحكيم (عصفور من الشرق) فهذه الكلاسيكيات السردية التي عدَّت في ما بعد مداخل أولى لحالات المواجهة الحضارية بين شرق متصور، وغرب متفوق. إلا أنه لم تعد نظرة الروائي العربي اليوم تحلّل أوجه الاختلاف أو تتلبسها حالة استلاب يكون مصدره الانبهار، فكثيراً من الأصوات السردية التي ساءلت العنصرية في مواطنها الغربية مثلما كتبت الروائية الفرنسية - التونسية الأصل فتحية دبش في روايتها "ميلانين" حيث قدمت الرواية فئات وشعوباً مصورة حيواتها في المدن الكوسموبوليتية وساقت من خلال فلسفة سردية غاصت في التجربة الإنسانية الأشمل في الفقد والحب والعنصرية، والصراع في إثبات الذّات والطموح الذي لا يغض الطرف عن وقائع التأريخ ونقائصه بقدر ما يسعى إلى كشفها ومعالجتها بإثارة الأسئلة القلقة. لقد واجهت الرواية عالمين بين منفى يفرض شروطه القاسية ووطن أصل له قيود تشتد قسوتها ولو شدنا إليه نداؤه العميق. وقبل ذلك رواية الروائي الأريتيري أبوبكر حامد كهال المقيم في الغرب "تيتانيكات أفريقية" في تناولها لظاهرة الهجرة غير الشرعية في الفضاءات المستجدة في السرد، فقد مثلت هذه الرواية ظاهرة الهجرة من دول جنوب الصحراء إلى أوربا عبر البحر المتوسط وصورت سردياً مخاطر الهجرة ومأزق الإنساني لشخصية المهاجر. وأثارت هذه الرواية من الأسئلة أكثر ما أعطت من إجابات أمام سؤال الهوية وتقاطعاته مع الهجرة. وتنضم هذه الروايات إلى تيار جديد يؤسس لما أطلقنا عليه حينها موجة سردية جديدة برزت في الخطاب السردي العربي.

وما بين روايات الهجرة والغربة والمنفى تقدم سيرة هيثم حسين سردية تدخل في نطاق "سردية المنفى" تفاعلت مع ذاكرة غزيرة الإشعاع مستعينة بمرويات ومشاهدات متضادة في صورها، ولكنها منسجمة مع روح النص. وقد أفضت هذه العملية السردية المركبة من خطابات متعددة جسدت فنيات السيرة والرواية ورؤية الكاتب بما تعنيه من رؤية كونية (Weltanschauung) وأنتجت نصاً يتنازعه أكثر من فضاء في القراءة والتحليل والتمعن في مصائر الأفراد وجماعات. ومن ثَّم تضيف سيرة "العنصري في غربته" في سياق التمثُّل الثقافي والوجود الإنساني تجربة أخرى في محنة العنصرية، واللجوء والهجرة، تجعل منها نصاً يستدعي التوقف عنده لا كسردية تقارب تجربة المنفي سردياً على ما راجَ من كتابات معتادة. ولكن تبقى جرأة الطرح بالقياس إلى التجربة الشخصية والتفاعل مع الهوية والذات في آفاقها المترحلة. وكروائي كان بإمكانه - كما يذكر- أن يختفي من وراء شخصيات قادر على خلقها متحكما سردياً بمصائرها في فضاء ذات الأحداث التي صدع بكشفها؛ ولكنه عمد إلى مواجهة الظاهرة مباشرة. فجاءت كتابة (السيرة) حكاية في

القص، ورواية للسيرة، محاكمة لواقع مفككاً لبنية القيود الواقعية أو المتخيلة في ذات الكاتب.

نقد الارتجاعي

الكتاب في سيرته بقدر ما يدين العنصرية في تجلياتها العرقية والثقافية والسياسية، يكشف عن مأساة الكاتب العربي وكيف أن المنافي أصبحت بديلاً عن الأوطان للفارين من جحيم الملاحقات والعذابات. ولماذا فشلت النخب في إقامة أوطان لها من حرية الإنسان وكرامته ما يدعو إلى البقاء فيها والانتماء إليها لا نزعها وبلا رجعة. إنها هجرة الأرواح (Transmigration) وإعادة تشكل الهويات في فضاءات تنزاح بالثقافة واللغة والعرق. والهجرة المختارة - هجرة الكاتب- لم تدفعه كما يبدو للتنازل عن وطن وذاكرة عصية على التطويع. فإذا كانت هذه الهويات - غير الأوروبية - صاغتها تاريخياً مستحثات أركيولوجية، وتخضع الآن لسياسات الدمج الثقافية في بيئاتها الجديدة؛ أو كما يطلق عليها الأوطان البديلة التي يفقد معها المرء الشعور بالوطن واللغة والمكان، تتحول إلى نوستالجيا مؤلمة.

يرسم هيثم حسين سيرته "العنصري في غربته" على نسق سردي يتخذ من تقنية السرد وأدواته بنية شكّلت نصاً يمزج بين رؤية الكاتب السردية والرصد الصحافي والتحليل، نقل الصورة الحية والتفاعل معها والتساؤل الذي ينهض عليها وتعدد تجليات الظاهرة في المجتمع والسياسة واللجوء. تتأسس على العناصر وعلى بنية سردية قابلة لاستيعاب وتمثل وطرح مشاهد سردية بليغة في دلالاتها السردية واللغوية. وبالإضافة إلى ذلك هذا الاحتواء السردي المحكم في تطور الحكاية وكيفية ترابطها داخل شبكة من العناصر غير المتضادة مضافاً إليها المكان والزمان فتصبح رواية مكتملة الأركان على الرغم من طريقة عرضها كمادة بحثية مفارقة للحكاية السردية التي يمسك بتلابيبها الخيال. فالسيرة الذاتية أو سيرة حياة الفرد كمذكرة تعمقها رواية السيرة الذاتية(Fictional Biography) كما كتب المفكر إدوارد سعيد عن الروائي الإنجليزي جوزف كونراد.

مواجهة الذّات وأسئلة النهايات

ولأن سيرة "العنصري في غربته" تستند على السرد الذاتي بمفهومه النقدي (Self-narrative) لا تدع هيثم حسين يركب صوراً متداعية تمليها ضرورة السرد أو شحنة العاطفة والذاكرة وتفاعلها في قلقها الوجودي من الموت واللجوء والعنصرية. ففي مقطع مشحون بذكريات وأسئلة مقلقة بصيغتها الأنطولوجية ومؤلمة بفاجعتها يأخذنا في مقطع (حصار الموت) إذ نعثر على شخصية إنسانية تستند إلى مفارقة الشخصية في النص الروائي دون أن تستبطن شخصية الروائي، فيظل انعكاس الأنا في محور الخطاب السيريِّ متجذرا في بؤرة الأحداث وشروطها السردية وما تنقله من إشارات استدلالية مدركة بوعيها الذاتي معبرة عن شخصية تواجه الموت كمصير محتمل الوقوع. وتعبر عنه الذّات (الأنا) عن هويتها في الحدث الماضوي محكومة بأطر سردية خصيبة بضمير المتكلم لتضيف بعداً جماعياً أو مجالاً اجتماعياً تحول إلى شخصية حية داخل السيرة.

تشكل هذه الوقائع شواهد إنسانية حدثت للكاتب في مرحلة ما من حياته، وترحّلت من الذاكرة عبر سرد ديناميكي لها بالحركة الفاعلة مستعيدة وقائع السيرة في أخص جوانبها مواجهاً لحظات مفارقة لها وقعها النفسي بين المرض، والموت، والوطن، والأم، والأسرة الصغيرة، والمنفى. تتداخل الذكرى محملة بفواجع الماضي كما الحاضر وتنفتح أسئلة لا إجابة لها أمام لحظة يسردها الكاتب بما يفتح أفقا بعد أفق لوجود انساني مؤقت لا يستجيب أسئلتنا الوجودية العابثة. وهذه المقاربة في السؤال تكاد تهيمن على حكايات (السيرة) لتشكل جدلاً أكثر من تصويرها للوقائع، ولعل الحسّ النقدي لدى الكاتب هو ما يقف وراء هذه المقاربة الفلسفية في السؤال.

مزجت سيرة هيثم حسين "العنصري في غربته" بين السيرة والتحليل والرؤية السردية في أقصى تشكيل كتابي تهمين عليه الرؤية السردية مما فتح أفقاً ازدادت معه حدة الأسئلة وإمكانيات السرد مستفيداً من تجربته في الكتابة كروائي وناقد تحركه التساؤلات العميقة لرصد الظواهر وحوار الذات بطاقة سردية. فجمع بين المتعة والتفكير العميق والتأمل في مصائر بشرية لا يملك أحد احتمالاتها التأريخية القادمة. فجاءت سيرته ليست ترجمة ذاتية تحيا على جانب محدَّد أو ما يعرف في السير بال"Memoir" محضة تسجّل حياة فردية تحفل بالحياة على وقعها المثالي، وإنجازاتها التي يكون مبعثها تضخم الذّات أكثر منها التمعن في الحياة، أو كما يقول الناقد إحسان عباس حول كاتب فن السيرة وكيف أنه قريب من قلوبنا، لأنه يكتب لأجل أن يوجد رابطة ما بيننا وبينه، وأن يحدثنا عن نفسه وتجارب حياته، حديثاً يلقى منا أذناً واعية، لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجهله. على الرغم من أن عالم هيثم حسين نعرفه في حدود ما يروق لنا دون أن يصطدم معظمنا بحوادثه المفجعة على نحو يثير الرعب والاشمئزاز. ومن يلحظ محاولة الكاتب تجسير المسافة بين التاريخ الشخصي وما يمثله من خلفية تاريخية واجتماعية تنطوي على التعبير الجمعي لمجموعة ينتمي إليها تتقاسم معه محنة مشتركة.

لم تكن سيرة "العنصري في غربته" استعادة محضة لأحداث مرَّ بها الكاتب، حيث لا ادعاء لمواقف شخصية تحكم على الأحداث حكماً قطعياً، وبقوة السردي تمكن من إعادة تموضع السرد في كتابة السيرة على نحو يحيلها إلى سردية رحيبة الفضاء لا تخلو من جدل النقاش ونقد السؤال. فعبر ثمانية عشر فصلاً يشكل كل منها موضوعاً يدور حول تجربة الكاتب في (سيرته) يقود هيثم حسين بأسلوب سردي رائع ولغة جيدة في سبكها تتقوم بشعرية تتفاعل مفرداتها وفق اختلاف الموضوعات التي تناولها في سيرته. والكتاب ليس مشحوناً بأجواء عنصرية طاغية كموضوع وحوادث، فجاءت سيرته رحلة في الفكر والكتابة واللغة والأماكن والناس كاشفاً عن مواطن الضعف الإنساني، وهيمنة القوميات ومعاناة الأقليات. إنه التداعي الذاتي وهشاشة الفعل البشري في وجود يصعب تفسير الكثير من ظواهره أو فهمها على نحوٍ لا يسلب المرء حريته وإرادته.

كاتب من السودان

بهرام حاجو

السخرية السوداء في عوالم "جمهورية الظلام"

"في التلقي الجمالي" لمحمد الشيكر

شادية أتاسي

ليس سهلاً أن تكتب عن عالم فواز حداد الروائي، عالم ممسوس بإشكاليات إنسانية عن الحياة والمتغيرات والبشر. قد يربكنا أسلوبه الحكائي الساخر، سهل وممتنع، صارم ومتلون. في روايته الجديدة التي اختار لها عنوانا لافتاً "جمهورية الظلام" كأننا نراه يقف في مكان قصي، هادئا حياديا وصادما. يروي كراوٍ عليم سردية الحدث السوري، وهي سردية صعبة ومتشعبة موضوعها الأول، مسيرة الإنسان السوري المطحون بدواليب القهر والظلم - تناولها بروايات المرحلة الأخيرة من عالمه الروائي على مدى السنوات العشر الماضية - تتعالى في روايته هذه، بنبض مختلف، يضعنا أمام إشكاليات نفسية معقدة، أفرزتها بلا شك المحنة السورية.

يستعير فواز حداد أحياناً دور الحكواتي، مشحوناً بسخرية يتقنها، ويعرف كيف يستخدمها. فهو يدرك جيدا أنه لا بد من إضفاء بعض الطراوة المخادعة، تخفف من إيقاع قسوة عالمه الهادر بالألم - أشبه بتعبير عامي؛ يرش على الموت سكرا - وهي تقنية محبّرة، فأنت لا تدري إن كان عليك أن تبكي، أو تضحك، أو حتى تقهقه أحياناً. ما يذكرنا بحكاية الفارابي الشهيرة، حين دخل على مجلس الخليفة، فأبكى الجميع، ثم أضحكهم، ثم أرسلهم إلى النوم. بينما في رواية حداد، لا تستطع أن تنام، فالألم الذي تختزنه الرواية يتحدى العمق الإنساني لديك، يورطك، لا يدعك تهدأ ولا تسترخي.

أقتبس هذا الحوار بين العميد والمحقق الشاب، دلالة النهج الساخر الذي يسير عليه خط الرواية:

"الضمير هو صوت الله في الإنسان "

من قاله؟ حاول أن يتذكر لكنه طار من ذهنه، ربما كان...

"حسبما أتذكر، قاله رجل روسي اسمه تولستوي".

قال العميد بامتعاض:

"آه، خبير روسي".

"لا، كاتب روايات".

"ليس خبيراً ؟".

"إنه خبير بالنفس البشرية".

"نحن لا نأخذ بالاعتبار البضائع المستوردة".

"إياك وأن تعيد ما قلته، هذا شيء شبيه بما يهددنا به الإرهابيون الإسلاميون، تعلم لديهم تفسيراتهم، ينسبون كل شيء إلى الله".

أليس جميلاً أن يخرج من عمق المأساة فن راق، اسمه الكوميديا السوداء؟

لن ألخص الرواية، ولن أفكك تقنياتها. أنا روائية وقارئة، أكتب انطباعي، رؤيتي، ما أثارته في نفسي من مشاعر مختلطة. إن فعلت، فأنا أمتهن عذابات ورؤى وشجون وأحلام ليالي الروائي الطويلة. هذا النوع من الروايات لا يُلخص، وإنما يُقرأ، يُعاش، يُشعر به. وإلا كيف يمكن تلخيص هذا

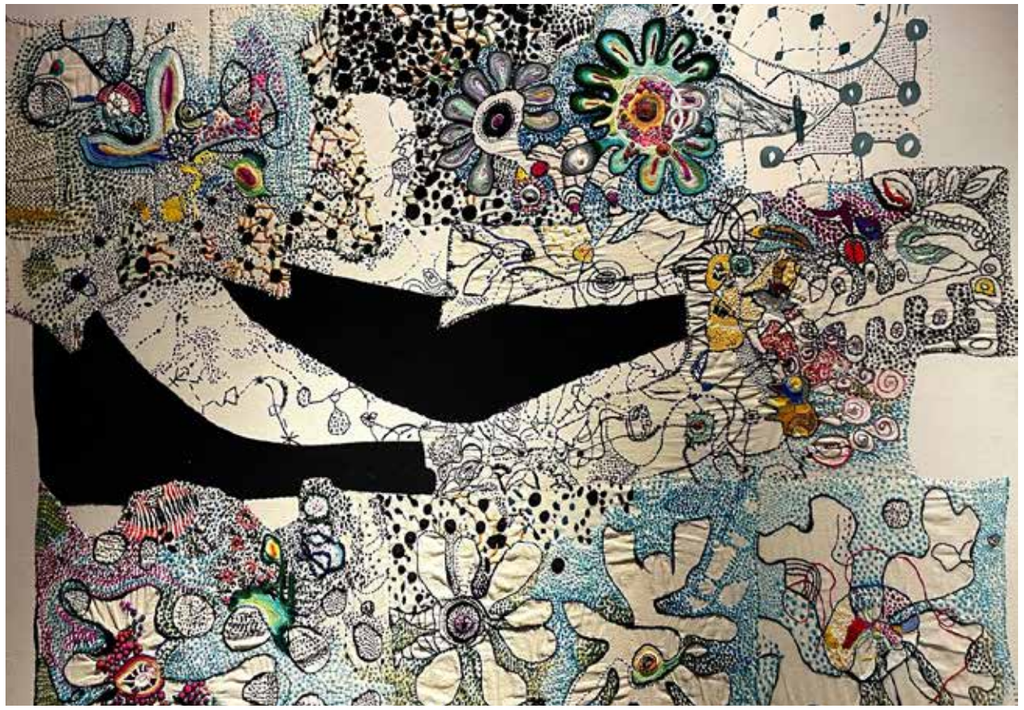

علياء الجريدي

العري الإنساني الفاضح، إلى اجتزاء يفتقد إلى حرارة السرد، والتفاصيل والدهشة والدموع! كيف أفعل ذلك، وأنا أتجول في عالم مقروح، تسحق فيه إنسانية الإنسان في الأقبية المعتمة، وخلف صليل الأبواب الحديدية الموصدة، وحيث تنظر العيون على اتساع حدقاتها، إلى الخلاص بالموت، على أنه الحلم المشتهى. أما كيف يصبح الموت هو الحلم المشتهى؟ عليك أن تطرح قبل ذلك السؤال المرعب:

إلى أيّ حد يمكن أن يكون الإنسان وحشاً؟

عندما يطرح فواز حداد أسئلة مباشرة، إنما يستفز الأسئلة في داخلك، ويترك لك حرية الإجابة، ولا يدعك تتريث لتتأكد إن كان ما يرويه حقيقياً أم محض خيال. أنت حر، في مساحتك الحرة المطلقة كقارئ، لا شأن له فيما إذا ارتفع مستوى الأدرينالين في دمك، أو تسارعت نبضات قلبك رعبا أو ألما أو غضباً. فهو على يقين من أنك وأنت تتوغل في هذا الإيقاع السردي الساخر ستشعر أنك غدوت جزءاً من الرواية، وسيصبح إيقاعها جزءاً منك، فهذه الحكاية، أو تلك، ربما تكون حكايتك، أو حكاية شخص تعرفه أو سمعت به.

ماذا عن الضمير؟ ماذا يعني، أو ماذا يكون؟ تلك المسألة، سيتمحور منها سؤال إشكالي يتطلب منك قدراً من الشجاعة النفسية للتجرؤ على الإيغال في عالم يعج بأنين المحتضرين، وصراخ المركولين، وخراء المسهولين.

الضمير هنا، ليس كما نعرفه، ليس كما أكده جيمس هنري في كتابه فجر الضمير "اللحظة التي سمع بها الصياد أول مرة همسا داخله يؤنبه:. أما في روايتنا

"إذا كان الضمير قد ورد في كتب الفلسفة والروايات ، كأمر مفروغ منه، لكنه خطير في عالم ينبذه، وأقولها لك لم أكن معدوم الضمير ولا ينقصني في عالم يخلو منه، لقد استعدته ممّا يشبه العدم، إنه بالتحديد ضمير مرن. يأخذ بالحسبان ظروف الزمان والمكان. إنه يريحني لكنه لا يطمئنني".

إنه ضمير مرن!.. هكذا يصفه المحقق سامر، أقل المحققين بطشاً، وأقلهم سوءاً. لقد وجد نفسه في مستنقع عالم غامض، بالصدفة، أو نتيجة خيبات الأيديولوجيات المثالية التي رافقت شبابه المبكر، أو بسبب ماضيه الفقير البائس. ليس مهماً، المهم أنه في هذا الأتون، ضابط تحقيق في فرع أمني كبير. يواجه اختباراً خطيراً. يفاوض معتقلاً على حياته مقابل عمالته. قال له «أقبل بما أعرضه عليك واختم اعترافك

علياء العريدي

بالندم» ومع أن جواب المعتقل كان حاسماً «لا تحاول معي». أراد إنقاذه، فأرسله للقبو لاقتلاع أظافره، عسى يلين موقفه. افترض ضميره المرن، أن يكون هذا العقاب هو الأقل فظاعة، الذي قد يؤجل مصيره المحتوم. لكن المعتقل المنهك من سادية التعذيب، سخر من فرضيات المحقق، وانتحر (رآه في الزنزانة رقم 15، مكوماً على الأرض، قميصه ممّزق، محطماً، بلا أظفار، الدماء تخثرت على أصابعه، أثار الهراوات على جسده). لا جدوى من اجترار حياة انتهت، لا داعي لإطالتها.

إلى أي حد يمكنه المضي في هذا العالم، أو النكوص عنه؟ بقي هذا السؤال يحاصره، يؤرق ضميره المرن. وما بين هذه المسافة الواسعة الفاصلة بين النأي والجذب، ستعبر مياه كثيرة تحت الجسر، وتجري أحداث الرواية.

أعتقدُ أن التحدي الأصعب الذي واجه الروائي، هو التوغل في رسم البعد النفسي لشخصيات جمهوريته المظلمة. جمهورية تعني أن هناك بشرا، أن هناك حياة كاملة تُعاش، بكل ما فيها من خيبات وأفراح وشهوات وحب، وأحلام وسلطة ومصائر. إلى أي حد تمادى في الولوج إلى عمق هذه الشخصيات؟ وإلى أيّ حد استطاع أن يقترب من التباساتها وتناقضاتها؟ أن يلمس ألمها ووحدتها، وحشيتها واستبدادها، حنانها ووداعتها، ضعفها وشهواتها. هل استطاع أن يمس ذاك الخيط الرفيع الذي يفصل بين الخير والشر؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال الوجودي المحير. لكن كاميرا فواز حداد المشاكسة لا تنفك تدور وتدور، تلتقط مشاهد مرعبة ومسارات مؤلمة، ومصائر تنتهي بالجنون أو الموت. ربما تعطي أجوبة، أجوبة عرجاء. مثلها مثل الضمير المرن، فما بين مشاهد الجوع والاحتضار والأنين، وحقن الموت في مشفى الظلام، والمعتقل المسهول الذي تغوط في ثيابه، فضُرب حتى الموت. هناك ثمة عشب، وهناك ثمة غيم ونشيج مطر. فالمقدم الحزين القادم من بيئة السلطة ذاتها، المغرم بالعمليات الاستشهادية، الذي يحمل رؤى ساذجة لواقع شديد القسوة، والذي أصبح فجأة رئيساً للفرع 650 الجديد، المختلف في تخصصه، وفي طبيعة زواره من الأدباء والمثقفين. هاله أن يرى معتقليه يوشكون أن يموتوا جوعاً، فهو يملك ضميراً، ضميراً أعرج أو مرناً لا فرق، ما كان منه إلا أن سطا على ما تبقى من بغال وكلاب وقطط وحمير تركها أصحابها هربا إلى أمكنة آمنة، وأقام لهم حفلة شواء فاخرة. حيث استدعت رائحة الكباب المشوي والخبز المسقسق بالدهن مع زبادي السلطة المتبلة بالرمان إلى ذاكرة المعتقلين المذهولين من هذا الرخاء المفاجئ الذي هبط عليهم، ذكريات، سيارين يوم الجمعة، في بساتين الغوطة، وعلى ضفة بردى، رائحة الأراكيل، البطيخ في النهر البارد، التراشق بماء النهر، ما أعاد إلى ذاكراتهم أنهم كانوا في يوم ما بشراً .

واقع أم تخيل ..

لم يكتب فواز حداد هذه الرواية، ليؤرخ أو يوثق هذا العالم المظلم، هو ليس مؤرخاً، هو ببساطة روائي ساخر ممسوس بفضح الدولة الشمولية الرثة. فأن تكون روائيا، عليك أن تملك خيالا يفيض حيوية وخلقاً وابتكاراً. الخيال الذي يُبنى على معطيات الواقع، هو المعادل للإبداع. مع أن هذا لا يلغي أن يكون الواقع أحياناً أكثر خيالا من الخيال نفسه.

منذ البداية، وما بين المسافة من تآزر المكان والزمان الذي تجري فيه أحداث الرواية، مع الكثير الكثير من الدلائل والإشارات والإيماءات، كانت الشخصية الهامشية آحيانا والمركزية أحيانا أخرى، لكن الغامضة التي اكتفى التعريف بها بحرفي "ف خ" اسما لها، تسير في الظل، تظهر فجأة من حيث لا ندري، ثم تختفي من حيث لا ندري أيضاً، «لم تكن خيالا شريراً كان فاعل خير لا وجود له، وإن كان يظهر في الوقت المناسب، بموعد ودون موعد» شخصية تعرف الكثير، عليمة وحكيمة، تحلل وتستنبط مصائر، تشير وتدل.

كان فواز حداد، يلعب لعبته الذكية، ويورطنا بين الواقع والمتخيل حتى فاجأنا بحضوره الواقعي في الرواية. فكان هو "ف ح" ذاته. لكن هل فاجأنا حقا؟

يجيب السائل بسؤال مماثل:

"هل تظن أن الروايات على تضاد مع الواقع، لو كانت هكذا، لما كانت الحياة".

ما يوقعنا في الحيرة: ماذا إذا كان هذا كله من افتراض فواز حداد الغائب عن المكان، بينما هو الحاضر الوحيد؟

هل سخر منا فواز حداد، أم كان يسخر من نفسه، أم من الواقع المرير؟ هل كان كل هذا الرعب والألم متخيلاً؟

أعترف أنا القارئة، أنني قد تنفست ا لصعد ا ء .

لكن فواز حداد لا ينفك يناور، لا ينفك يدور بنا في دوامة التناقض المضني بين الواقع والخيال، لا يريد أن يهبنا لحظة من نعمة الراحة، يورطنا بالشك، ويختم روايته بهذه الجملة المحيرّة:

"إذا اعتقدت أنك تتوهمها، فهل كان كل هذا الدمار والموت متخيلا".

كاتبة من سوريا

مارتن سكورسيزي
سينما البطل المأزوم

خالد عبدالعزيز

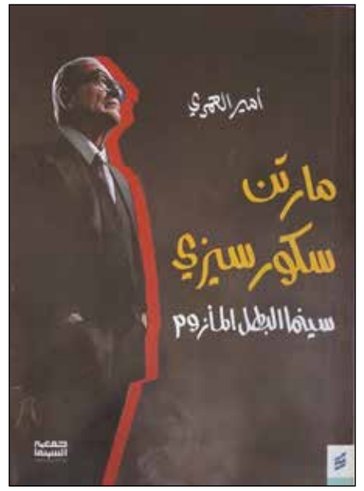

لا شك أن تجربة الولوج إلى عالم مخرجي السينما، ومُتابعة نتاجهم السينمائي المُمتد، تُمثل إغراء كبيراً، لا من أجل الدراسة الأكاديمية، لكن بدافع من شغف التنقيب عن الجديد غير المطروق في عوالمهم الإبداعية. والناقد السينمائي أمير العمري مولع بإعادة الاكتشاف، وقراءة ما تيسر من أعمال فناني السينما، سواء عبر مقالات ودراسات متنوعة المحتوى، أو من خلال كُتب مُسهبة التفاصيل.

في كتابه "مارتن سكورسيزي سينما البطل المأزوم" يصحبنا العمري إلى عالم فنان السينما المخرج الأميركي مارتن سكورسيزي حيث يطرح عبر صفحات الكتاب البالغة نحو 360 صفحة، والصادر عن دار رشم للنشر والتوزيع بالمملكة العربية السعودية بالمشاركة مع جمعية السينما، ومهرجان أفلام السعودية، قراءة مُتأنية في أفلام هذا المخرج المرموق، من زاوية شديدة الخصوصية، ألا وهي أزمة البطل المُحاصر في حياته، وفق خياراته الذاتية، التي دوماً ما تجعله يقع في إطار خانق، لا تَملك حياله الشخصية، أيّ رغبة في التبدل والتَغيّر، وإن وُجدت أصبحت مستحيلة التحقق، نظراً لتوافرها بعد نقطة اللاعودة.

وبالتالي لا يعمد الكتاب إلى البحث في رقعة أفلام سكورسيزي كاملة، لكنه يختار بعضا منها، مما يقع تحت طائلة هذه الزاوية الدرامية، ويبلغ عددها العشرين وهي التي وقعت في دائرة البحث والتحليل، وعبر هذه الأفلام، يُمكن متابعة مدى التطور الذي لازم المخرج خلال مسيرته، سواء على مستوى الطرح الفكري، أو ما يقابله على مستوى التعبير الفني، فالبداية كما يسرد الكتاب هي الاحترام والتقدير للسينما الأوروبية، ثم تحولت تدريجياً هذه النظرة المشوبة بالتقدير، إلى التأثر بهذه المدارس والأساليب الحداثية المُختلفة فكراً وتنفيذاً عن السينما الأميركية، التي تعمد إلى غلبة عناصر الإبهار، ومن هنا تمكن سكورسيزي من إضفاء مذاقه الشخصي، وهو المزج بين السمات الأسلوبية الأوروبية وتطويعها وفق رؤيته هو الذاتية، والعناصر الشكلية التي تُميز السينما التي ينتمي إليها، ويلعب في إطارها الإنتاجي.

قبل أن يقتحم الكتاب عالم سكورسيزي السينمائي، يعود بنا إلى الماضي، حيث النشأة والبيئة المُحيطة، وكيف أثرت هذه العوامل وأصبغت روافد إبداعه وفكره بملمح خاص به، وبصمة لا تخص سواه، فمن بين جدران أسرة

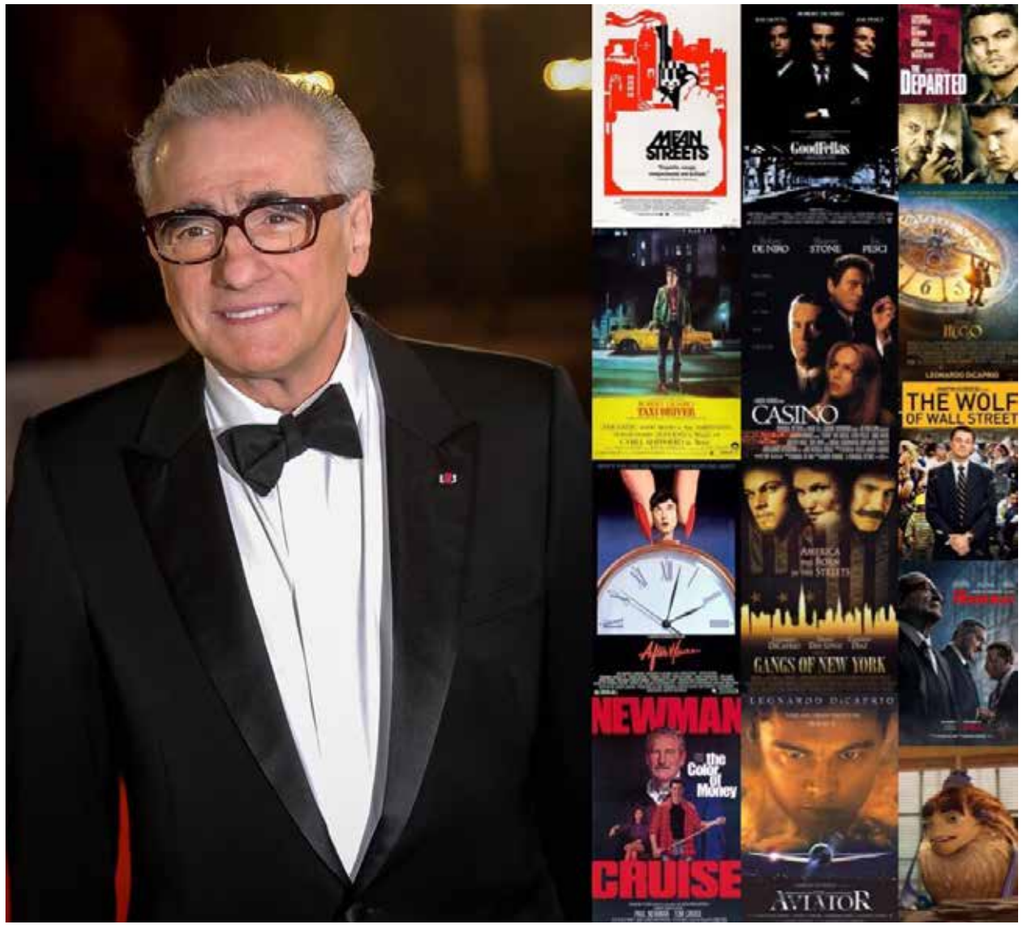

ناصر حسين

إيطالية الأصل، وبين أحضان حي إيطاليا الصغيرة في نيويورك، جاءت طفولته، التي اقتنصت عيونها العصابات الإيطالية الصغيرة التي تضخمت وتوغلت واتسع نشاطها الإجرامي في شوارع الحي، ومن ثم انعكس مدى تأثير النشأة على ما تلى ذلك من أفلام، مثل "الشوارع القذرة" (Mean Streets) إنتاج عام 1973 و"الأولاد الطيبون" (Good fellas) إنتاج عام 1990، وغيرها من الأفلام، التي تظهر من خلالها تبعات سيطرة الجريمة المُنظمة عبر المافيا الإيطالية، المُنتشرة والراسخة في شوارع نيويورك، والتي لا تخلو مدينة مثلها كذلك من الأبرشيات، التي تنثر أجراسها قبسات من الإيمان.

يقول سكورسيزي في أحد اللقاءات الصحفية "كل ما أردت أن أكونه في حياتي، هو أن أصبح راهباً، ولا شيء آخر"، وهنا يكشف الكتاب عن رغبة صاحب "الإغواء الأخير للمسيح" بأن يُصبح كاهناً، فالتربية والنشأة لهما تأثير لا يُضاهى في هذه الناحية، وانعكست على أفلامه، حيث تبدو الشخصيات مُحمّلة بحس ديني، وإن كان مُستترا، لكنه يُسلم نفسه لإغراء الظهور الضمني، ومن ثم يتبدى تلقائياً عبر بناء الشخصيات ذاتها، التي دوماً ما يبدو حسها ذو الواعز الديني أو الكَنسي، حاضراً بطريقة أو بأخرى، وعند هذه النُقطة يُزاح الستار عن سر المقولة الشهيرة عن سكورسيزي بأنه بدلاً من أن يُصبح رجل دين، وجد ضالته في السينما.

اعتمد الكتاب في تقديمه للأفلام المعنية بأزمة البطل المأزوم، منهجا خاصا، يُمكن حصره في ثلاثة محاور، الأول، مُتابعة المراحل الأولية للفيلم، وكيف تَشكل في عقل صانعه، والخطوات الإنتاجية

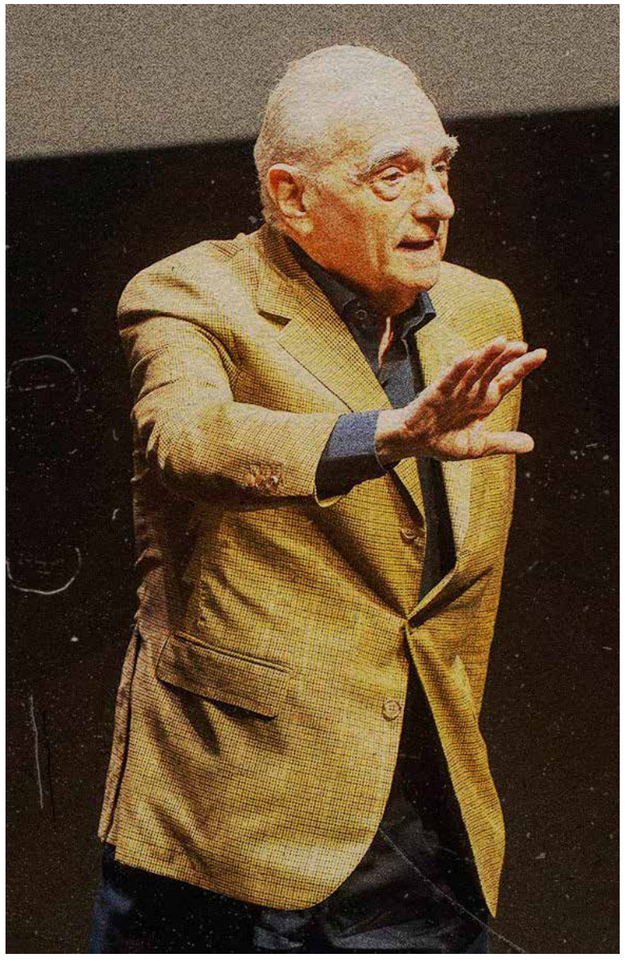

المًصاحبة للمشروع قبل خروجه للصالات، مثلما يقول الكاتب في المُقدمة "المخرج يأتي إلى الفيلم من فكرة أولية ليست في الحقيقة شيئاً ملموساً بعد، بل مجرد فكرة نظرية".

ثم ينتقل بعد ذلك للمحور الثاني، وهو الأهم، أي تحليل الفيلم فكرياً على مستوى المضمون وما يرغب في قوله والتعبير عنه، ثم الإجابة عن السؤال الأساسي، وهو هل نجح في إيصال ما يرغب من هموم وأفكار؟ وما يوازي هذا الجانب من ناحية فنية وبصرية، ميزت أسلوب سكورسيزي، مثل حركة الكاميرا والتكوين، وغيرها من النواحي الإخراجية، التي تُميز مخرجا عن غيره من منتجي السينما.

أما المحور الثالث، فيتعمق فيما بعد عرض الفيلم، وبيان ردود الأفعال النقدية، التي صاحبت عروضه الجماهيرية، وفي هذه النقطة، نرى كيف تم استقبال هذه الأفلام، في موطنها على وجه التحديد، بما يكشف عن تباين في الآراء بشأنها، وقد تراوحت بين التقدير الواسع والاحترام الكبير لموهبة سكورسيزي من ناحية، والمبالغة في رفض هذه الأفلام، وتبني آراء بعيدة عن السائد من ناحية أخرى، ويبدو أن الأكاديمية الأميركية، تنحاز لهذا الاتجاه، إلا أن أرقام الإيرادات لها قول آخر، حيث حققت أغلب الأفلام نجاحاً لا بأس به في العروض المحلية والدولية.

وبنظرة بانورامية يُمكن ملاحظة مدى حجم الجهد المبذول، فاللجوء إلى هذا الكم الواسع من المصادر والمراجع المرفقة أسماؤها في متن الصفحات، بالإضافة إلى القراءة المتأنية والتحليل الدرامي للأفلام قيد الدراسة، يجعل من الكتاب مرجعاً رصيناً لأفلام سكورسيزي.

وبالتالي يضع الكتاب القارئ أمام تجربة هذا المخرج الأميركي المعجون بالموهبة، والعشق اللامحدود للسينما، الذي سبق له في السنوات الأخيرة، أن أنتقد طغيان أفلام النوعيات الأخرى الموجهة للترفيه، كالأفلام المُنتجة عن شخصيات "مارفل" أو "دي سي" وغيرها من أفلام شخصيات الكوميكس، ليُعبر عن انحياز كامل وصريح للسينما الأصيلة، تلك التي لا تُخاطب غريزة مّا، أو تلعب على الإثارة اللحظية، لكنها تنطلق إلى الأعمق من أجل البحث والتأمل في المصير الإنساني، وفي تأثير دورة الزمن على الإنسان، ذلك الكائن المهموم والحائر بين الانطلاق وراء شظايا نفسه الموسومة بالإغراءات، أو الوقوع في أسر أوهام الذنب، وسراب العبور من الخطيئة إلى بر الإيمان.

كاتب من السعودية

المتخيل السردي

رواية إسماعيل فهد إسماعيل "على عهدة حنظلة"

نهلة راحيل

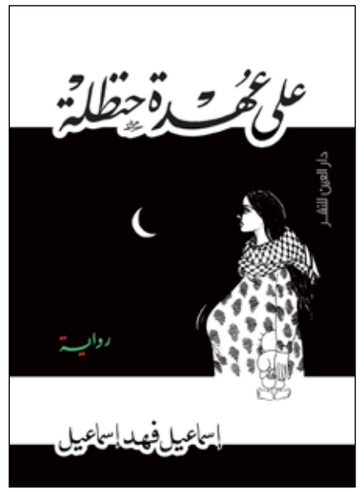

تشكل ذاكرة اللجوء، وما تستدعيه من مفاهيم مثل: هاجس الهوية وحق العودة وتاريخ النكبة، عماد السرد في أدبيات القضية الفلسطينية، سواء تلك المكتوبة بأيدي أصحاب القضية نفسها أو تلك المكتوبة بأقلام عربية داعمة لها؛ حيث تمثل القضية الفلسطينية المصيرية ومأساة الفلسطينيين المستمرة رافدا تاريخيا ينهل منه المؤلفون العرب عموما صورا تعبيرية تجسد رؤيتهم للحق الفلسطيني.

مع اختلاف المساحات النصية المتاحة لفعل التخييل، تتنوع مقاربات الكتّاب للقضية عموما ما بين الحث على المقاومة وضرورة الكفاح المسلح وإدانة أوضاع فلسطينيّي الداخل وتمثيل معاناة اللاجئين في دول الشتات، وبين الالتزام بتوريث الحكاية للأجيال الجديدة وتوثيق أحداث التنكيل التي جرت عام 1948 وبعدها وإحياء الرموز الفلسطينية، الأدبية والتاريخية والتي تشكل بذاتها سلاحا في وجه المعتدي وشاهدا على صلابة الهوية.

وقد تنوعت أساليب الأدباء وطرائق سردهم لتأريخ القضية وتحولاتها، فمنهم من عالجها في قصص قصيرة ومنهم من استحضرها في نص روائي طويل أو آخر قصير، ومنهم من وثقّها في سير ذاتية أو غيرية، وغيرها من أجناس أدبية اشتغل عليها روائيون فلسطينيون بارزون مثل: غسان كنفاني وإميل حبيبي وسحر خليفة وغيرهم، وآخرون مناصرون للقضية من خارج فلسطين مثل: رضوى عاشور وإسماعيل فهد إسماعيل وغيرهما، لإثارة تساؤلاتهم الشائكة حول موضوع فلسطين ووضعها أمام الضمير العربي والمسؤولية الدولية. فنسجوا بأقلامهم مدونات أدبية استثنائية تمزج الواقعي بالمتخيل، وتضفر التاريخي بالسردي، وتجمع الثقافي بالإنساني، لإنتاج ملحمة فلسطينية تطرح تفاصيل النكبة وما ترتب عليها من تهجير قسري وانتهاك صهيوني وشتات فلسطيني، وتعزز الرواية المقاومة التي تفسح المجال لأصوات الضحايا الفلسطينيين وتؤكد حق تمكنيهم من الوطن وتحقيق العودة إليه، لتصبح تلك النصوص إحدى سبل الرد بالكتابة وإعادة حقيقة التاريخ الذي زيفه الاحتلال الصهيوني.

تندرج رواية "على عهدة حنظلة" (2017) للكاتب الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل (1940- 2017) ضمن النوع الأدبي المعروف بـ"السيرة الغيرية" بوصفها قالبا من قوالب التجريب الروائي الذي يجمع بين المرجعية التاريخية والمتخيل السردي

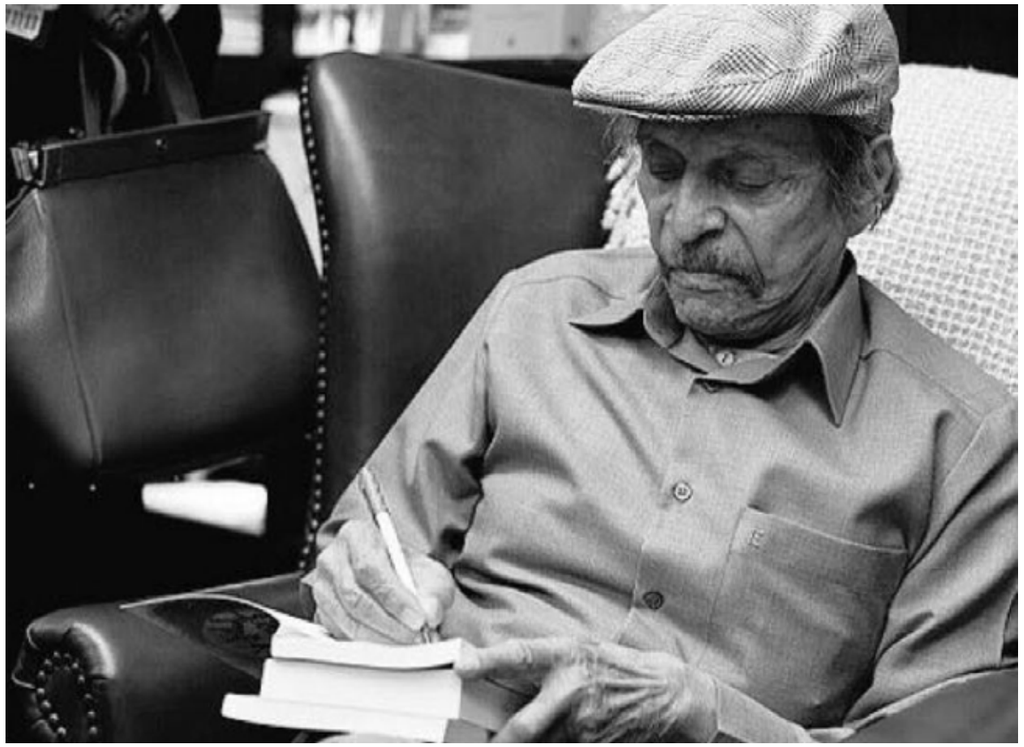

ويقوم على انتقائية الحقائق وإعادة تشكيلها تشكيلا فنيا، وفيها يؤرخ الكاتب لسيرة حياة رسام الكاريكاتير الفلسطيني المعروف ناجي العلي الذي اغتيل في لندن عام 1987، ويستحضر شخصيته الكاريكاتيرية الشهيرة "حنظلة"، ذلك الكائن الافتراضي الذي يحاور مبتكره فيسترجع معه تفاصيل الماضي بداية من قرية الشجرة ومخيم عين الحلوة وحتى وصوله إلى الكويت ثم لندن، ويحكي له عن زائريه الحاضرين بالمشفى اللندني الذي يرقد داخله، في محاولة لحثّه على الإفاقة من غيبوبته واسترداد الوعي.

هذه الحوارات، التي تقوم عليها بنية الرواية، تكشف للقارئ محطات من تاريخ حياة ناجي العلي وقصة اغتياله، مثلما تضيء له - في الوقت ذاته - جوانب عديدة من القضية الفلسطينية ومشكلات الترحيل والشتات واللجوء والمقاومة وغيرها من قضايا ارتبطت بواقع فلسطينيّي الداخل والخارج منذ نكبة 1948؛ حيث استطاع الكاتب، عبر استحضار شخصيات مرجعية عديدة تربطها علاقات صداقة مع الفنان ناجي العلي، أبرزها: إميل حبيبي وغسان كنفاني وغانم النجار وأحمد الربعي ومحمد جاسم الصقر، أن يمزج بين الهم الفلسطيني - العربي العام والأزمة الخاصة للشخصية المتُحدث عنها، دامجا بين المجالين: التوثيقي والجمالي، ليشكل الكاتب بذلك، كما وصفته الكاتبة العمانية منى بنت حبراس، ظاهرة روائية خاصة، ليس بسبب إنتاجه الروائي الغزير فحسب، ولكن لإخلاصه الفريد للقضية الفلسطينية في عددٍ كبير من رواياته، منوعًا حضورها ما بين موضوعٍ رئيس تارة وموضوعٍ ثانوي تارة أخرى.

ولا ينفصل هذا الحضور عن خلفيته الأيديولوجية التي يصدر عنها، بالإضافة إلى أسباب احتكاكه المباشر بتحولات القضية الفلسطينية في أكثر من قطر عربي أقام فيه، كما لازم طوال مراحل حياته عددًا من الشخصيات الفلسطينية، لاسيما أولئك الذين أقاموا في الكويت زمنًا، أو ممن التقاهم في الشتات؛ الأمر الذي جعله متبنيًا للقضية الفلسطينية، لا على المستوى الشخصي والإنساني فحسب، ولكن على المستوى الفني كذلك. يُضاف إلى ما سبق، أن الكويت مثلّت منذ المرحلة

القومية حتى ما قبل الغزو العراقي (1990) وجهة جاذبة للفلسطينيين، شكلوا فيها ثالث أكبر جالية في الشتات الفلسطيني، كما شكّل وجودهم هناك عنصرا ثريا في المشهد الكويتي، خصوصًا مع إقامة شخصيات فلسطينية ثقافية ومناضلة بارزة شاركت في تشكيل نسيجها الثقافي والفكري والعكس، أبرزها: ناجي العلي وغسان كنفاني .

ترتكز بنية الرواية، إلى جانب الأحداث الواقعية التي تم سردها وقت الغيبوبة لتحيل إلى قصة حياة ناجي العلي منذ تهجيره من قريته الشجرة إلى مخيم عين الحلوة بجنوب لبنان وحتى انتقاله إلى الكويت وواقعة اغتياله في لندن، على استدعاء عددٍ من الشخصيات الأدبية الفلسطينية، سواء باسمها أو بنصها، بوصفها من أهم رموز التراث الفلسطيني بما تحمله من دلالات متعددة وطاقات إيحائية، فكان إحياء تلك الرموز الثرية بمثابة أداة تقنيّة يوظفها الكاتب في روايته كي يحافظ على تاريخ الأمة الفلسطينية حاضرا، ويحمي مقومات هويتها دون الحاجة إلى ترديد شعارات أو تكرار إدانات. فيستقي تجربة الشاعر الفلسطيني محمود درويش، بوصفه أحد أهم رموز الساحة الأدبية الفلسطينية، عبر استدعاء أجزاء من مقاله عن ناجي العلي - وعنوانه: "ناجي العلي خبزنا اليومي" - المنشور في مجلة "أدب ونقد" عدد فبراير 1984، وذلك بداية من عتبة التصدير بالرواية، مرورا بفواصل تفرق بين فصولها الثمانية وصولا إلى النهاية.

ورغم أن تلك المقولات المكتوبة بقلم درويش كانت بمثابة فواصل للرواية، فإنها في الحقيقة تعد روابط مهمة تصل موضوع النص بهدف كاتبه؛ ألا وهو الإبقاء على الهوية الفلسطينية حاضرة دون بكائيات أو مرثيات بل عبر نجاحات أبنائها من شعراء وروائيين ورسامين ومفكرين، جابهوا بأقلامهم أسلحة العدو ومثلوا خطرا يهدد وجوده.

"أن تكتب 400 كلمة عن ناجي العلي معناه أن تكونه... تكون هذا السر الذي يفضح نفسه يومياً ويبقى سراً... وحده يستطيع أن يقطر، فيدمّر ويفجّر... لا يشبه أحدا، لكنه يشبه قلوب الملايين، لأنه بسيط ومعجزة كرغيف خبز لا أستطيع أن ألتقطه كما يلتقطني... ما أفعله الآن هو النظر إلى ملامح وجهي في حبره الأسود الرخيص، إنه مفجع وسهل كنهار جميل يشهد مذبحة (محمود درويش)" (الرواية ص 8).

أما حضور إميل حبيبي إلى المتن الحكائي فلم يكن فقط باستدعاء نصوصه الشهيرة مثل: "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" أو "سرايا بنت الغول"، بل امتدّ إلى حضوره بنفسه وحديثه إلى ناجي العلي وحكاياته عن صداقتهما الوطيدة ولقاءاتهما المتعددة معا في ركن منزو في مقهى فندق فيتوشا بصوفيا في بلغاريا، حيث يُبلّغ حبيبي ناجي العلي رأي فلسطينيي الداخل فيه وانبهارهم برسوماته وقوة تأثيرها سواء على المحتل الإسرائيلي أو على منظمة التحرير الفلسطينية التي كان ينتقد ممارسات بعض قادتها.

"ناسنا في الداخل يعدونك قديساً مجنوناً. لم تجادله في توصيفه، أنصتّ له. كثيراً ما تساءلت وأنا أتابع رسوماتك.. من أين يأتي هذا المجرم المتهور أحيانا بأفكاره المذهلة. لم تستوضحه لماذا مجرم أو متهور. استطرد. أتخيلك وأنت تواجه ورقك الأبيض تنظر في البعيد لدقائق معدودة، فإن خذلتك مخيلتك، دسست يدك في جيبك وطلعت بفكرة غريبة لا تخطر ببال أحد" (الرواية ص 50).

ونجد غسان كنفاني حاضرا عبر استعارة حادثة اغتياله ببيروت داخل سيارة مفخخة مع ابنة أخته في عام 1972، ومقارنتها بحادثة اغتيال ناجي العلي بلندن على يد مجهول رميا بالرصاص في عام 1987؛ حيث الشكوك حول منفذ الاغتيال في المرتين: "مسألة تنفيذ الجريمة في وضح شارع لندني... تتداول احتمالاتك معك، لا تستبعد أن تكون الموساد وراء العملية، تتريث قليلا عند الفكرة، يحضرك فهم شاعرك توفيق زياد. الإسرائيليون لا يهدفون لخلق أبطال ملحميين من بين الفلسطينيين. قالها في سياق حديث عن اغتيال غسان كنفاني" (الرواية ص 70).

وكان المسرحي السوري سعد الله ونوس من الشخصيات الأدبية المستدعاة بالرواية، والتي احتلت مساحة نصية كبيرة بها، فعلى الرغم من كونه سوريا فإن جهده تجاه القضية الفلسطينية جعله واحدا من الرموز الفلسطينية الشهيرة، فاهتمّ الكاتب بإلقاء الضوء على علاقته الوطيدة بناجي العلي وإعجابه بأيقونته الكاريكاتيرية "حنظلة" ودورها المهم في إيقاظ الضمير العربي كله، مما جعله يكتب نصا مسرحيا يولي بطولته لشخصية "حنظلة"، فكتب مسرحيته "رحلة حنظلة - من الغفلة إلى اليقظة" عام 1978 وتم عرضها على خشبة المسرح ببيروت ثم الكويت، ثم توالت العروض على يد مخرجين متعددين بمصر والأردن واليمن، ومؤخرا بالعراق والإمارات والمغرب، حيث تم إعداد

المسرحية في رؤى فنية مختلفة وتنويعات من الإسقاط المسرحي، كل بحسب رؤيته لشخصية حنظلة وفهمه لرسالة ونوس. "لابد أن سعدالله ونوس يجبر ممثله الذي يمنحه اسمي على مواجهة جمهور المتفرجين. قلت له. ذلك أمر حتمي. أضفت. ليس بمقدور ممثل رئيسي أن يؤدي دوره كاملا موليا ظهره للجمهور. على أن لا يكون انتهاكا لخصوصية الرمز" (الرواية ص 143).

وهكذا، أدرك الكاتب إسماعيل فهد إسماعيل أهمية إحياء الروافد الفكرية والأدبية التي أثْرت المشهد الفلسطيني في كافة مستوياته، لتصوير ما حلّ بفلسطين وأهلها من ويلات ونكبات، ولشحن الفلسطينيين بطاقات حيوية تجعلهم يفتخرون برموزهم الحية رغم مساعي تغييبها من قبل الكيان الصهيوني؛ فكان استدعاء تلك الرموز الفلسطينية نصيا أداة طيّعة وظفها الكاتب في روايته كمصدر للمقاومة وحماية الهوية وإعادة نبض الحياة إلى الأمة الفلسطينية في منفاها، هذا إلى جانب القيمة التوثيقية التي يكتسبها النص بحضور تلك الشخصيات. فجوهر القضية الفلسطينية لم يعد سياسيا أو عسكريا فقط، بل يمكن القول إن العنصر الثقافي هو ما يؤدي الدور الأهم في تعزيز سردية النكبة وتوثيق مراحلها على مدار الأجيال، فالمستقبل - لا الماضي وحده - هو الرِهان الأهم في الحفاظ على هوية الشعب الفلسطيني وتعزيز انتمائه.

ناقدة وأكاديمية من مصر

حروف غامضة

لوحات عربية في اسبارطة التركية احتفاء بأعمال الفنان خالد الساعي

أحمد القرة

افتتح في غاليري فادي آرت سبيس العالمية للفنون ، في مدينة أفيون قرة حصار التركية. ،المعرض الفردي للفنان الحروفي السوري خالد الساعي ، والمعرض بعنوان (حروف غامضة) وهو تكريم وإهداء واستلهام من الخطاط المبدع أحمد القرة حصاري ،
وكان والي الإقليم وعدد كبير من الضيوف الأكاديميين و المقتنين والمهتمين. والزوار. وقد غصت الصالة بالحضور النوعي لهذا الحدث الفريدالإيكولوجي"؟

المعرض يضم عدد من الأعمال القماشية والورقية من القطع الكبير والمتوسط والصغير يتجاوز عددها ال٢٣ لوحة ، بتقنيات الأكرليك والحبر و الكولاج وتقنيات أخرى ، يمثل المعرض فرصة نادرة تتمثل بلقاء فنان حروفي معاصر مع خطاط تاريخي مبدع ، وكيف للفن المعاصر أن يستلهم الأعمال التقليدية ويعود ليوظفها بلبوس جديد لكنه يمتد بجذوره وقيمته إلى الأصالة والفرادة ، وهذا بمثابة جسر مابين أصالة الماضي وتجدد الحاضر ، وكيف لفنان معاصر أن يفترض لقاءً تفاعلياً مع فنان مترسخ في ذاكرة هذه المدينة. بل هو رمزها

المعرض يمثل من ناحية أخرى حوار فني بين الأنا والآخر. بين التركي و العربي. وهو بمثابة إعادة الجسور بين المجتمعين والحضارتين. بل يركز على التلاقيات والمشتركات

وجاءت أعمال المعرض على سوية عالية وتفصيلية في اعادة استلهام احمد القرة حصاري ، وسيجد المهتم كيف ان الساعي درس كل تفصيلة خطية وجمالية عند الخطاط وجعل لها اقتراحات معاصرة لكنها آتية من صميم وجوهر الحرف والصيغ الجمالية وسيكون أثر اللون الأزرق المستخدم في خطوط مسجد سليمان القانوني حاضراً وكذلك الأعمال الخطية في الأفاريز بذات المسجد

وستكون بسملة الحصاري الشهيرة حاضرة الأثر بأعمال الساعي وحتى أن بعض الأعمال جرى تناوب بناء الخط بين خطوط الفنانين. كما لو أنهما انجزا اللوحة معاً

ن فكرة أن يتصدى فنان وحروفي معاصر لتجربة تاريخية راسخة ك احمد القرة حصاري. بما يمثله في تاريخ الخط وتاريخ الأمة التركية. هي تجربة غاية في الشجاعة و الجرأة

وماذا يمكن لهكذا تجربة أن تقدم وأن تضيف ،

حيث ان هناك بعض آثار الخطاط الحصاري لاتزال بمثابة أحاجي و أيقونات في هذا المضمار. و حتى ان لغة المعاصرة في هذا الفن لم تتجاوز (ششصالبسملة) الفريدة التي انجز.

وهناك جانب لايعرفه إلا القليل من المتخصصين وهو أن القرة حصاري. كان يتناول بعض النصوص العرضية (وذلك لخاصيتها البصرية. وليس لمحتواها الأدبي). وذلك لغرض استعراض قيم جديدة تشرف على التجريد

وهناك الكثير مما يقال عنه

لكن الفنان خالد الساعي توغل عميقاً في ثنايا تجربة الخطاط أحمد وخلص إلى نتائج مبهرة تتمثل في تفعيل الأنساق التجريدية للبنى الخطية فتبدو الكلمة طويلة جداً ويمكن تقرّي حروفها من طرفيها. لكن القارىء سيصل إلى ماهو خارج اللغة المتاحة. وهنا يتأتى غرض الساعي بأن

المتعة والمعنى من شكل الكلمة. ويجب التركيز على الصيغ الجمالية وتداعياتها وفي بعض الأعمال. قام الساعي بتفكيك كتابات الخطاط أحمد مع تلازمها مع أزرق (altamarin (والتركواز. وكوّن منها بناءات تشكيلية جديدة. بل وزج بعضها مع أغصان الاشجار و الآكان والجبال. كأنه يؤكد على أن المصدر للغة هو مفردات الطبيعة. وعلى الحرف أن يتماهى مع أمه

قالت منسقة المعرض. السيدة (. Beste Gürsu) بيستة كورسو إن أعمال الخطاط القرة حصاري جزء من تراث هذه الأمة وهويتها وكما تمثل أعماله مرحلة مهمة ومضيئة من تاريخ البلاد وقد رسخت القيم الكلاسيكية لهذا الفن ، وهنا يأتي دور الفنان خالد الساعي كفنان له سمعة عالمية على قراءة هذا المنجز العريق. وإعادة استلهامه بلغة العصر).

وقال السيد فادي حلي. مؤسس الغاليري والإقامة الفنية :(أرادت فادي ارت سبيس لخالد الساعي، ان يكون نجم باكورة نشاطاتها الثقافية المعنية بنشر الفن العربي المعاصر خارج حدودنا الجغرافية). وتُعَد هذه الغاليري الصالة الرائدة والأولى في كل إقليم اسبارطة والمتخصصة بالفنون التشكيلية كما أن للمؤسسة إقامة فنية ذات مواصفات عالية في مدينة بارلا وهذه الاقامة استضافت عدد من الفنانين والبرامج. كما ان المؤسسة نظمت ملتقى خاص بالنقد الفني التشكيلي

يستمر المعرض حتى ٢٧ من شهر كانون الثاني ٢٠٢٤

ما وراء انتفاضة شباب الضّواحي

أبوبكر العيادي

سروان يران

منذ مطلع الألفية، ما انفكّت التحرّكات الشعبية تتوالى في فرنسا، منذرة كلّ مرة باندلاع حرب أهلية، بعبارة أكثر من معلق ومحلل. فالطبقات الضعيفة، إذ سحقتها رأسمالية في طور الاحتضار، لم يعد لها سوى النزول إلى الشارع وإثارة الشغب وتحطيم كل ما له علاقة قريبة أو بعيدة بالشركات العالمية ومؤسسات السلطة المتواطئة معها. فهل أن تلك الانتفاضات المتتالية تمهيد لإقرار سياسة مشتركة لدفاع مشروع عن الوجود؟ ولكن كيف السبيل إلى الدفاع عن قيم ومثل عليا دون الاتهام مسبقا بالعنف الاجتماعي وحتى بـ"الإرهاب الفكري" بعبارة وزير الدّاخلية، الذي سبق أن وصف تحرّكات المدافعين عن البيئة بـ"الإرهاب الإيكولوجي"؟

الأنسنة تحيل على عمل الثقافة والحضارة الذي جعل من الفرد كائنا اجتماعيّا وعضوا في مجموعة سياسية ما. والانتفاضة تنشأ حين يتعطل عمل الأنسنة أو يتراجع، تحت تأثير الأزمات الاجتماعية المتلاحقة، ويغدو الفرد مجرد هومو إيكونوميكوس (homo economicus) في النظريات الليبرالية، محصورا في دائرة حاجاته الحيوية، التي لم تعد هي نفسها مضمونة للجميع.

والتاريخ يذكرنا بأن الأفراد مهدّدون على الدوام بتراجع إنسانيتهم الفردية والجمعية. وعندما يحدث ذلك، كما هي الحال اليوم في فرنسا، تحت تأثير الأزمات الاقتصادية والإيكولوجية والنفسية التي تهدد استمرار وجود الجنس البشري في هذا الكوكب، لا يبقى للأفراد من ملاذ سوى الصراع والنضال، بمختلف الوسائل، ليس لأجل قيم كالحرية والمساواة وما إلى ذلك، ولا لأجل الحقوق، وإنما لأجل البقاء. أي أن الجنس البشري، لم يعد أمامه سوى اللجوء إلى العنف للدفاع عن نفسه ضد خطر الفناء.

لقد قامت المنظومة الرأسمالية منذ القرن الخامس عشر على خصخصة كل شيء، حتى البشر، والاستحواذ على خيرات الطبيعة بلا هوادة، وعلى الثروات التي يخلقها العمل البشري، ولا تزال تسطو على كل شيء حتى الأنشطة النفسية الأساسية. وقد دلت أعمال المفكرين الذين اهتموا بالتاريخ مثل ماركس وهيغل أنّ المسار التاريخي إذا أدرك نهايته، لن ينتج سوى العناصر السلبية التي يحتوي عليها. لقد كانت الرأسمالية عامل تقدّم في البلدان الغربية أساسا، ولكنها لم تعد تنتج، حتى في هذه البلدان، سوى تناقضات لا حلّ لها (تفاوت متزايد، أزمة بيئية قاتلة، تشويه كلّ شيء، اتسام كل العلاقات الإنسانية بالعنف...). في ظرف تلك سماته، تحدث الانتفاضة، ولكنها لا تنتأ من خارج المنظومة بل من صميمها نفسه، فالعنف بكل أشكاله المسلط على الأفراد والطبقات الضعيفة خاصة يولّد عنفًا مضادًّا، راديكاليّا، لدى المحرومين والمظلومين.

يمكن أن تساهم أعمال الشغب في خلق ظروف اجتماعية وسياسية لظهور حركات تمرّد وحتى حركات ثورية تهاجم الدولة نفسها، ولكن دون أن تحمل في طياتها ثورة. فالشغب هو في حدّ ذاته منتهى، بلوغٌ لدرجة قصوى، يجد معناه في طبيعته القائمة على الهوشة والهياج والتدمير. وكأنه لحظة إعادة توليد جسد جماعيّ محطّم، أو مهدّد في بقائه من طرف عنف الأوليغارشيا، فهو يحمل ما أسماه فالتر بنيامين "العنف المؤسس" الذي يمهّد لظهور قانون جديد، ونظام اجتماعي في خدمة الجميع، وليس مقصورا على أقليّة بلوتوقراطيّة تحتكر كلّ شيء، ولا تنوي التفريط في امتيازاتها مهما كانت الأسباب. يقول فالتر بنيامين "الطبيعة التدميرية تحطّم ما هو موجود، ليس حبّا في الأنقاض وإنما حبّا في الطريق التي تعبرها".

ما يلاحظ في الساحة الفرنسية أن ثمة مللا مطّردًا من استحالة التفكير في العنف الاجتماعي خارج أحكام التنديد والإدانة التي اعتادت عليها وسائل الإعلام والماسكين بالسلطة. فالمحللون والسياسيون لا يتحدثون عن العنف إلا لإدانته ورفضه، دون أن يبحثوا في أسباب اندلاعه، فهم يتحدثون في الغالب عن ضواحي باريس والمدن الكبرى الأخرى على أنّها بؤر لشتى أنواع الانحراف، والخروج عن القانون، بل إن بعضهم لا يتردد في وصفها بـ "مناطق فقدتها

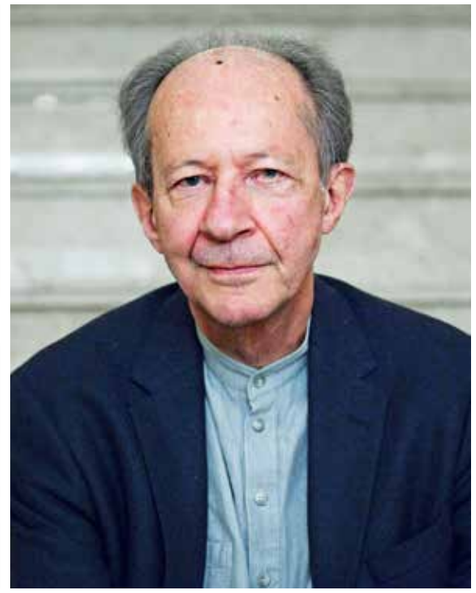

جورجو أغامبين – المهاجرون يعيشون حياة عارية.

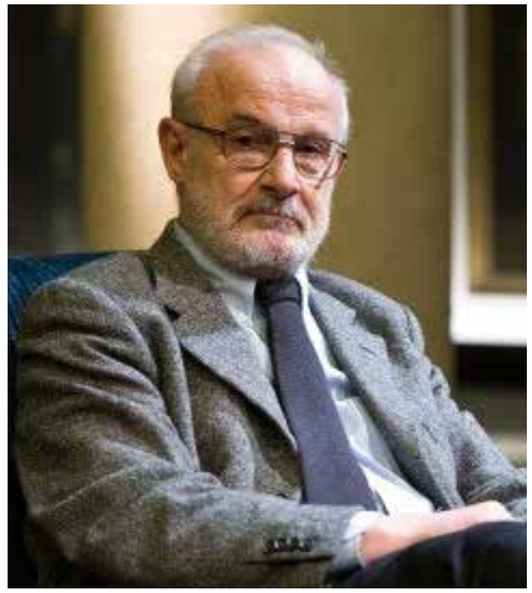

رفائيلّي سيموني – أوروبا تريد أن يكون المهاجرون عبيدًا

وارين بوفيت – هي حرب بين الأغنياء والفقراء، وستؤول الغلبة إلينا

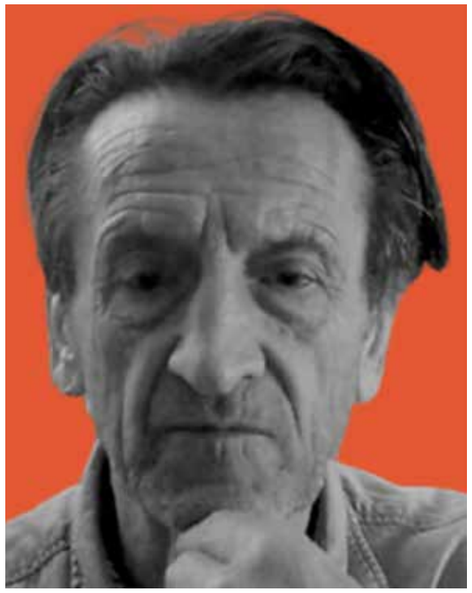

جاك دوشان – الشغب محاولة لإيقاف زمن السّلطة

هنري والون - الفرد كائن أنشأته المجموعة، ثم تنشأ الفردانية لاحقا

الجمهورية"، ولم يجرؤوا على القول إنها "مناطق أهملتها الجمهورية"، فسكانها، وأغلبهم من المهاجرين وأبنائهم، يعانون الأمرّين في شتى مجالات الحياة، بدءا بالعمل والتعليم، ولا تواجههم السلطات إلا بالقمع البوليسي، والمراقبة اليومية المشفوعة بالإهانات والشتائم العنصرية، فالنظام المديني بوليسي بالأساس، والمهيمنون وضعوا في خدمتهم وسائل مراقبة وقمع لا تني تتزايد. ويقولون أولئك المحللون والسياسيون أيضًا إنّ شباب الضواحي يكرهون فرنسا، والحال أن أفراد الجاليات العربية والأفريقية يحسّون أن فرنسا هي التي تكرههم، فلا توفر لهم ما توفر لغيرهم من الفرنسيين أسباب الحياة الكريمة من مرافق وشغل وتربية وعدالة، بل إن من يتداولون على المنابر، وأغلبهم من أصول أجنبية، أمثل حسام جان ميسحا القبطي المصري، ونادين مورانو الإيطالية، وإريك زيمور اليهودي الأمازيغي، لا يتوانون عن شتمهم جهارا وتحميلهم كل أزمات فرنسا. والحال أن فرنسا وكذلك الدول الغربية "لا تريد أن تجعل من المهاجرين عمّالا، بل عبيدا ومنحرفين أو معزولين" بعبارة المفكر الإيطالي رفائيلّي سيموني.

ومن الطبيعي أن يولّد كل ذلك كراهية تتفجّر عند أول مناسبة، كما حدث إثر مقتل المراهق العربي مؤخرا بدم بارد. تلك الجريمة التي كادت تعامل بنفس ما عوملت به جرائم البوليس العنصري سابقا، من طمس للحقائق وتبرئة لأعوان الأمن القتلة، لولا الفيديو الذي صورت فيه عابرةٌ الحادثَ كما وقع، وكذّبت أقوال الشرطي القاتل وزميله المحرّض وحتّى ادّعاء النائب العام.

لتفسير ما حدث بعد تلك الجريمة من أعمال شغب وحرق ونهب، ينفي دوشان أن يكون ذلك انسلاخًا عن المجتمع، ويعتبر أنّه عودة إلى الجسد المشترك، لأن الفرد كما يقول عالم النفس الفرنسي هنري والّون كائن أنشأته المجموعة، ثم تنشأ الذّات الفردية فيما بعد. وأثناء الهزات الاجتماعية تتم العودة إلى الجسد الأصلي بشكل يقطع مع تلك الفردانية، بل وينتصر على الفردانية الليبرالية الراديكالية. ويضيف دوشان "أحاول أن أنظر نظرة مختلفة إلى ما يتبدّى ظاهرة جنون اجتماعي، وتفجّر عنف، وهجمة قتالية غير مفهومة. لقد لاحظ الجميع أن المشاغبين حطّموا مراكز اجتماعية جُعلت لأجلهم وأحرقوا سيارات على ملك أناس في مثل وضعهم الاجتماعي، ولكن بالاستناد إلى تحليل ميشيل فوكو وعن فكرة الحرب الأهلية كما شرحها إريك هازان، أحاول أن أجد في كل ما جرى شيئا عقلانيّا، ولذلك أدرجتُ هذه الظاهرة في المدى الطويل للتاريخ، مثل حرب أهلية طويلة بين المهيمِنين والمهيمَن عليهم منذ قرون. ولئن بدا أن عبارة «حرب» مبالغ فيها، فحسبه أن يتذكر جواب الملياردير الأميركي وارين بوفيت حينما سئل ما إذا كان لصراع الطبقات من معنى اليوم، حيث قال دون تردد بالتأكيد ثمّة حرب بين الأغنياء والفقراء، وهذه الحرب، نحن، الأغنياء، الذين سينتصرون فيها".

ويضيف جاك ديشان أنّ نهب المحلات التجارية هو بمثابة نهاية مسار طويل للتسليع، ذلك أن شباب الضواحي يعيشون حياة قاعديّة، ليس فيها سوى التماهي مع الكائن المستهلِك، ولذلك لا يحققون وجودهم إلا من خلال استعراض ماركات السوق العالمية من نايك وأديداس وريبوك وبوما ولاكوست... فهم في حالة فقر اجتماعي أو ما يسميه الفيلسوف الإيطالي جورجو أغامبين "الحياة العارية"، أي الحياة في معناها الطبيعي البحت، ولكن حتى تلك العناصر التي قد توحي لهم بنجاح مزعوم ليست في متناولهم لأسباب اقتصادية معلومة، ومن ثَمّ نفهم اندفاعهم إلى نهب تلك الماركات. لأنّ ذلك النهب هو لحظة استعادة لكينونتهم السّلبية، على غرار نهب القصور ومخازن الطّحين في القرن الثّامن عشر، أي الاستيلاء على الأشياء التي لها علاقة بالحياة التي يحيونها، والمجتمع الذي يعيشون فيه.

ولم يكن أمام الدولة، المالكة لشرعية استعمال العنف، إلا أن تلجأ مرة أخرى إلى البوليس والدرك والجيش في بعض الأحيان لإخماد "الفتنة"، ولكن بدل استخلاص العبرة، جنحت لاستغلال غياب توازن القوى في علاقة المهيمِن بالمهيمَن عليه لتفرض حلولا قمعية تغلّفها بخطب وعظية أخلاقية أو بما يسمّيه نيتشه بالّ"مورالين"، ذلك الخليط السامّ من الأخلاق الأولية، الثّنائية، حيث يكتفى بالحكم عمّا هو حسن أو سيّئ مُدانٌ أخلاقيّا. ومن الطبيعي أن تنتهي هذه الانتفاضة مثلما انتهت مظاهرات المناهضين لترفيع سنّ التقاعد، ولكن الغضب باقٍ، وسوف يظل يوفّر مزيدا من "الوقود" للانتفاضات القادمة.

في "مديح الشّغب" يقول جاك ديشان "الشغب ليس قوة تسارع، بل محاولة لإيقاف زمن السّلطة".

كاتب من تونس مقيم في باريس

المعلم الجديد
كتابة اصطناعية توليدية

هيثم الزبيدي

الكتابة مهمة ليست باليسيرة. هذه حقيقة يعرفها كل كاتب. فالكتابة تجميع لمواهب وحرف واهتمامات مختلفة. الكاتب بالإنجليزية يجد أمامه تراثا كبيرا وكمّا هائلا من المقالات والتحليلات والكتب. لا أبالغ حين أقول إن متابعة صحيفة بريطانية رصينة بشكل يومي يمكن أن تضع الكتاب على طريق الكتابة ما إن تتوفر لديهم الموهبة والاهتمام. الحرفة التي تتجسد يوميا أمامهم بالصياغات وترتيب الأفكار وتقديمها هي مدرسة يمكن الاقتداء بها. لعل هذا ما يجعل بلدا عريقا صحفيا مثل بريطانيا لا يهتم بإقامة معهد محترف للصحافة أسوة بدول أخرى. تعلّم من الآخرين وليس من المعلّمين.

الكتابة بالعربية أصعب. اسأل محرري الصحف والمجلات لتعرف معاناتهم مع ما يصلهم من كتابات. ضع جانبا مستوى الأفكار التي تتم مناقشتها في ما يكتب. ثمة مشكلات في أساسيات الكتابة. فالكاتب في العالم العربي لا يجد الكثير من الصحف أو المجلات الرصينة التي يستطيع الاقتداء بها أو أن يتعلم منها. وتزيد المشكلة تعقيدا إذا كان الكاتب لا يتقن اللغة الإنجليزية. صحيح أن الصحيفة المنشورة بلغة غربية تعالج القضايا بمنطق مختلف عن طريقة معالجتنا لقضايانا وكيفية النظر إليها، إلا أن الحرفة الصحفية تفرض نفسها على القارئ وتجعله يقتدي بها بمرور الوقت.

هذه الحرفة متعثرة في عالم الكتابة بالعربية. كمّ الإنشاء والمعلومات الزائدة كبير. الكاتب، في محاولته التقديم لفكرته، يغرق بأفكار أخرى يستعيرها أو يكتبها. من الوارد أن تصلك مقالة تجد فيها الاستعادة التاريخية أطول كنص من الفكرة الأساسية. أو مقالة تغرق في التزويق الكلامي لدرجة منفّرة تجعلك لا تستطيع استكمالها لتصل إلى ما يريده الكاتب. موضوع التكرار في عرض فكرة معينة بفقرات مختلفة الكلمات لكنها متشابهة المعنى، واحد من مشكلات الكتابة، وبالتالي التحرير. يقف المحرر حائرا أمام مثل هذه الفقرات، لأنها نظريا صحيحة أو حتى مكتوبة بشكل محترف، لكنها تعيد تقديم ما تم التطرق إليه في مطلع النص.

ماذا عن طول الجمل وقصرها في كل فقرة من فقرات النص؟ هذه معضلة بحد ذاتها، لأن من الوارد أن تجد نفسك أمام مقالة لم يقرر كاتبها كم كلمة هو الحد الأقصى لكل جملة، أو متى يضع الفاصلة ويستطرد، أو يضع النقطة ويبدأ بعبارة أو جملة جديدة. من دون مبالغة، من الوارد أن تصلك مقالة هي عبارة عن فقرة واحدة: مئات الكلمات تتعاقب وراء بعضها البعض، وعليك أنت - المحرر أو القارئ - أن تعيد ترتيب الفكرة بمقاطع وفقرات وجمل لتصل إلى المعنى.

مهمة التحرير بالعربية لصحيفة أو مجلة مهمة صعبة. حتى لو وافق الكاتب على أنه يسمح بالمس "بنصه المقدس"، فإن الأمر قد يصل إلى الحاجة لإعادة كتابة الفقرات وربما المقالة ككل، كي تستطيع إيصال المعنى. البعض يسأل: لماذا تأخر نشر مقالتي؟ حسنا. الرد بسيط: أعدنا كتابتها.

مثل كثير من المشكلات التي بقيت تراوح مكانها إلى حين بروز حل تقني يعالجها، فإن الكتابة بالعربية لربما وجدت حلا "سحريا" لمعضلتها. هذا الحل اسمه الذكاء الاصطناعي.

جرّب أن تنشئ حسابا على واحد من برامج الذكاء الاصطناعي التوليدي. لاحظ أن هذا الذكاء الاصطناعي باللغة العربية ليس بالذكاء الخارق الذي يتحدث عنه العالم باللغة الإنجليزية. السبب يرتبط بفارق حجم التدريب بين اللغتين. نفس البرنامج يتدرب على مئات الملايين من النصوص بالإنجليزية، فتتقدم "ملكته" التوليدية للنصوص بالمقارنة مع حجم أقل من النصوص المتاحة بالعربية. لكنه يبقى مفيدا وفاعلا ومتطورا يوما بعد يوم.

لنفترض أولا أن كاتبنا ليس لص نصوص. هذا افتراض ضروري كما يعرف من يفتحون البريد الإلكتروني لمراسلات المؤسسات الصحفية والثقافية. حجم السرقات كبير. بعض المقالات تصلك بأسماء غير أسماء كتابها الحقيقيين خلال دقائق من نشرها.

كاتبنا صاحب فكرته الخاصة، لكنه يتعثر بكتابتها وتقديمها. في السابق يكتب ويمرّر لصديق أو زميل ليدقق، أو أن يرسل مباشرة إلى الصحيفة أو المجلة ويترك الدموع لمحرري المؤسسات الصحفية والثقافية. الآن من الممكن أن يفعل الكثير قبل إرسال النص المتعثر.

خذ مثلا أن يقطّع النص إلى مجموعات من الفقرات، ثم يخاطب برنامج الذكاء الاصطناعي بالقول: هل بالإمكان تحسين صياغة هذه الفقرة أو الفقرات؟ لا أبالغ حين أصف النتيجة بأنها ستكون مبهرة للكتاب المتعثرين. ففيما عدا تضبيط التنقيط والنحو، فإن الصياغات تتغير بشكل ملموس نحو الأفضل. هنا لا أستطيع الحكم حول تنميط الصياغات على شاكلة واحدة، لأنني لم أجرِ الكثير من التجارب على نصوص، لكن النتيجة دائما أفضل.

بعد اكتمال تجميع الفقرات المحررة من الذكاء الاصطناعي، يمكن تقديمها مجمعة من جديد كنص كامل، وقد يجد البرنامج أن بوسعه إلغاء التكرار، في الأفكار أو في تنميط الجمل والصياغات. مرة أخرى لا أستطيع الجزم.

كتب فرانس كافكا في يومياته "إن كل الأشياء تقاوم عملية كتابتها". هذا توصيف بليغ لصعوبة الكتابة. ربما من المفيد قبول الذكاء الاصطناعي كمساعد في مرحلة متقدمة وجديدة من الكتابة، مجرد أداة تضاف إلى أدواتنا وتقلل من تلك المقاومة التي تظهرها الأشياء عندما تتحول إلى كلمات ■

كاتب من العراق مقيم في لندن